

الفكر السياسي عند الماوردي

تأليف
الدكتور صلاح الدين بسيوني زكي

كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٩٨٣

دار الثقافة للنشر والتوزيع

٢ شارع سيف الدين المهراف

تليفون ٩٠٤٦٩٦

الفكر السياسي عند الماوردي

تأليف
الدكتور صلاح الدين بسيوني

كلية الآداب — جامعة القاهرة

١٩٨٣

دار الثقافة للنشر والتوزيع

القاهرة - ت : ٩٠٤٦٩٦

٢ ش سيف الدين المهراني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« واجب على كل ذي مقالة أن يبتدىء بالحمد قبل استفتاحها ،
كما بدىء بالنعمة قبل استحقاقها »

(هكذا صدر سهل بن هارون أهد كتبه ، وكان معاصرا للجاحظ)

مقدمة

في نقاش علمي لاحظ أستاذنا الدكتور يحيى هويدي أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة قلة البحوث العلمية في فرع الفلسفة السياسية الإسلامية بلكية آداب القاهرة • ولما كنت أشعر بميل شديد نحو دراسة الفكر السياسي بوجه عام وأحس بأنه يجتذبني أكثر من غيره من فروع الدراسات الفلسفية ، فقد اتجهت في دراستي بادية ذي بدء الى التفتيش عن الفكر السياسي الاسلامي • وعثرت على ضالتي حين اهتديت الى دراسة الفكر السياسي عند أحمد المؤسسين البارزين في هذا الحقل ، وأعني به أبو الحسن الماوردي •

والماوردي كمفكر اسلامي يمتاز بعقلية موسوعية ممتازة ، تمزج الفكر بالعمل ، وتجمع الى جانب شمول المعرفة ، طرافة الأفكار وجديتها • وهو الى جانب مكانته المشهود له بها في الفقه والحديث والتفسير والأدب ، فانه مفكر سياسي واجتماعي من طراز رفيع ، وقد شهد له الكثير بالأصالة الفكرية في هذه الميادين مجتمعة •

ولا أدل على هذا من أن عددا غير قليل من مؤلفات الماوردي وخاصة السياسة منها ، قد ترجم منذ مدة ، الى عديد من لغات العالم كالألمانية والانجليزية ، وبعضها ترجم الى اللاتينية • وتشغل النظريات السياسية الإسلامية ، كما عالجها الماوردي في كتابه « الأحكام السلطانية » الكثير من صفحات الحوليات والمجلات العلمية الكبرى ، وذلك في شكل أبحاث علمية بقلم كبار المستشرقين ، الذين عكفوا على دراسة مؤلفات الماوردي السياسية الأخرى دراسة متأنية جيدة •

ولم يسبق لأحد في العربية أن توسع في بحث الجوانب الفكرية المتعددة عند الماوردي ، وخاصة الجانب السياسي منها ، لكل هذا فكرت في تخصيص موضوع هذا البحث لدراسة الجانب السياسي عند مفكرنا الماوردي • وسيكون أجل اعتمادنا في دراسة فكر الماوردي السياسي على عدة مؤلفات له أبرزها مؤلفه المبتكر والفريد حقاً « الأحكام السلطانية » الى جانب مؤلفاته الأخرى القيمة مثل « قوانين الوزارة وسياسة الملك » ، و « نصيحة الملوك » •

ولعل من أوضح صعوبات هذا البحث ، قلة بل ندرة المصادر والمراجع التي تتحدث عن الماوردي كمفكر سياسي •
وقد قسمت هذا البحث الى ستة فصول وخاتمة •

أما الفصل الأول ، فقد جعلنا موضوعه : « الماوردي ، حياته وروح عصره ، مؤلفاته ، ثم أهميته في الفكر السياسي •

والفصل الثاني ، جعلنا موضوعه : « الحاكم ، ضرورة وجوده ، والأساس في اختياره » •

والفصل الثالث ، جعلنا موضوعه : « بين الحاكم والمحكوم » •

وفي الفصل الرابع ، تحدثنا عن : « الوزارة ، أنواعها وشروط كل منها » •

وفي الفصل الخامس ، تحدثنا عن : « الامارة ، أقسامها ، وأنواعها » •

وفي الفصل السادس ، تحدثنا عن بعض الاتجاهات والأفكار الاشتراكية •

أما الخاتمة ، فهي تشتمل على عرض موجز لأهم الأفكار التي

تضمنتها الدراسة ، مع ذكر أهم النتائج التى تكشفنا من خلال
هذه الدراسة المتواضعة •

وواجب على هنا أن أسجل لأستاذى الجليل الدكتور يحيى هويدى
بالغ التقدير والعرفان ، فبفضل سيادته ومجهوداته الانسانية المشكورة ،
تمكنت من الحصول على نسخة من مخطوطة الماوردى النادرة
« نصيحة الملوك » • وقد اضطلعت بأمانة المخطوطات بجامعة الدول
العربية ، مشكورة ، بمهمة تكليف مكتبها الثقافى بباريس بتصوير هذه
المخطوطة على شريط « ميكروفيلم » من النسخة الوحيدة الموجودة
بالمكتبة الأهلية بها ، ثم تولت الادارة العامة لمكتبات جامعة القاهرة
بعد ذلك ، مأمورية تحويل هذه النسخة « الميكروفيلم » الى لوحات
« فوتوستاب » فى مجلد قشيب يحمل رقم (٢٦٤٢٥ مخطوطات) • وأكرر
شكرى العظيم ، أيضا ، الأستاذى الدكتور يحيى هويدى ، على تشجيعه
اياى على السير قدما فى موضوع هذا البحث ، فقد كان لتوجيهات
سيادته القيمة ، وارشاداته العلمية أبلغ الأثر فى خروج هذا البحث
بهذه الصورة •

والله نسأل التوفيق •

يناير ١٩٧٠ م

الفصل الأول

الموردى

- ١ — حياة الماردى وروح عصره •
- ٢ — مؤلفاته •
- ٣ — أهمية الماردى فى الفكر السياسى •

حياة الماوردي وروح عصره :

هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الشهير بالماوردي ، مفكر إسلامي ناضج الفكر ، من وجوه فقهاء الشافعيين ، امام في الفقه والأصول والتفسير ، وبصير بالعربية ، وكان من رجال السياسة البارزين في الدولة العباسية وخاصة في مرحلتها المتأخرة ، هذا الى جانب المامه التام بأصول علم الاجتماع وقواعده • ويصف «السبكي» في طبقات الشافعية الكبرى بأنه : « كان اماما جليلا رفيع الشأن ، له اليد الباسطة في المذهب (الشافعي) ، والتفنن التام في سائر العلوم » (١) وقد ولد الماوردي حوالي سنة ٣٦٤ هجرية (٩٧٤ م) ، واتفقت المراجع على أنه توفي في شهر ربيع الأول سنة خمسين وأربعمائة (٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م) عن ست وثمانين سنة ، ودفن في مقبرة باب حرب ببغداد ، وبين الماوردي وبين القاضي أبي الطيب في الوفاة أحد عشر يوما ، وحضر جنازته من حضر جنازة القاضي أبي الطيب من العلماء والرؤساء •

نشأ الماوردي في البصرة ، حيث تعلم وسمع الحديث فيها عن جماعة من العلماء الذين روى عنهم مثل الحسن بن علي بن محمد — صاحب المحدث اللغوي أبي خليفة الفضل بن الحباب الجمحي — ومحمد ابن عدي المقرئ ، ومحمد بن المعلى الأزدي ، وجعفر بن محمد بن الفضل البغدادي ، وأبي القاسم عبد الواحد ابن محمد الصيمري القاضي • وأخذ الفقه فيها عن أبي القاسم عبد الواحد بن محمد الصيمري القاضي •

وعلى الرغم من أن كل هؤلاء الشيوخ من المحدثين والفقهاء ، الا أن كتب الماوردي تدل على أنه كان متعمقا في دراسته الأدب والشعر والنحو والفلسفة وعلوم السياسة والاجتماع •

(١) طبقات الشافعية : السبكي ٣/٣٠٣

ثم رحل الماوردي بعد ذلك الى بغداد ، حيث التقى بالشيخ
أبي حامد أحمد بن أبي طاهر الاسفرايني ، المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ،
فأخذ عنه الفقه ، ويقال (١) : « ان أبا الحسن الماوردي لما خرج من
بغداد راجعا الى البصرة كان ينشد أبيات العباس بن الأحنف وهي :

أقمنا كارهينا لها فلما ألفناها خرجنا مكرهينا
وما حب البلاد بنا ولكن أمر العيش فرقة من هوبنا
خرجت أقر ما كانت لعيني وخلقت الفؤاد بهنا رهينا

وانما قال ذلك لأنه من أهل البصرة وما كان يؤثر مفارقتها ، فدخل
بغداد كارها ، ثم طابت له بعد ذلك ، ونسى البصرة وأهلها ، فشق
عليه فراقها » •

وتدلنا سيرة الماوردي على أنه تولى القضاء في بلدان كثيرة ،
وكان رئيس القضاة في كورة « أستوا » من ناحية نيسابور ، ولتبهر
الماوردي في الفقه لقبوه : « أقضى القضاة » سنة ٤٢٩ هـ . ولكن
بعض الفقهاء اعترضوا على هذا اللقب ، ولم يأبه الماوردي لاعتراضهم •
ويقول ياقوت (٢) في صدر ترجمته له : « الماوردي البصري » . يكنى
أبا الحسن ، ويلقب أقضى القضاة ، لقب به في سنة تسع وعشرين
وأربعمائة ، وجرى من الفقهاء كأبي الطيب الطبري والصيمري انكار
لهذه التسمية ، وقالوا : لا يجوز أن يسمى به أحد ، هذا بعد أن كتبوا
خطوطهم بجواز تلقيب « جلال الدولة بن بهاء الدولة ابن عضد الدولة »
بملك الملوك ، فلم يلتفت اليهم ، واستمر له هذا اللقب الى أن مات •
ثم تلقب به القضاة الى أيامنا هذه » • ثم قال : « وشرط الملقب

(١) وفيات الاعيان : ابن خلكان ٤١٥/٢ شذرات الذهب في اخبار
من ذهب : ابو الفلاح عبد الحى بن العباد الحنبلى ٢٨٦/٣ - ٢٨٧

(٢) معجم الأدباء : ياقوت ٥٢/١٥

بهذا اللقب : أن يكون دون منزلة من تلقب بقاضي القضاة ، على سبيل الاصطلاح ، والا فالأولى أن يكون « أقضى القضاة » أعلى منزلة » (١) •

ومما هو جدير بالذكر أن الماوردي امتاز في أحكامه القضائية بالبرونة والاجتهاد • من ذلك ما يرويه ياقوت من أن أقضى القضاة ، الماوردي رحمة الله ، سلك طريقة في ذوى الأرحام ، « يورث » القريب والبعيد بالسوية ، وهو مذهب بعض المتقدمين ، فجاءه يوما الشينيزي ، فصيعد إليه المسجد ، وصلى ركعتين والتفت إليه وقال له : أيها الشيخ اتبع ولا تبندع ، فقال (الماوردي) بل أجتهد ولا أقلد » (٢) •

ثم سكن الماوردي ، بعد عودته الى بغداد واثّر توليته القضاء في بلدان كثيرة ، درب الزعفراني ، وأخذ يباشر التدريس فتتلمذ عليه كثيرون « وروى عنه أبو بكر الخطيب ، وجماعة آخروهم أبو العز بن كادش على قول السبكي » (٣) •

وقد تألق نجم الماوردي في فترة إقامته ببغداد ، حتى أختير سفيرا بين رجالات الدولة في بغداد ، وبنى بويه من سنة ٣٨١ — ٤٢٢ هـ ، وذلك لما علم عنه من فضل علم ، وحسن رأى وجلالة قدر • يقول ياقوت ، ان ملوك بنى بويه كانوا « يرسلونه في التوسطات بينهم وبين من يتاوئهم ، ويرتضون بوساطته ، ويقفون بتقريراته » (٤) •

وهناك حادثتان تؤكد ان مدى اتصال الماوردي بالحياة السياسية في عصره وعدم انزاله عنها ، وتؤكدان ، بالتالى ، جانباً هاماً في فكر وشخصية الماوردي وهو أنه لم يكتب مؤلفاته السياسية إلا عن

(١) معجم الأدباء : ياقوت ٥٢/١٥ — ٥٣

(٢) المصدر السابق ٥٥/١٥

(٣) طبقات الشافعية : السبكي ٣٠٣/٣

(٤) معجم الأدباء : ياقوت ٥٣/١٥

تجربة ودراية وبصر بأمور الحياة وفهم لطبائع البشر • أما الحادثة الأولى ، فيذكر أبو الفداء في تاريخه^(٢) ، أنه عندما مات القادر بالله في سنة ٤٢٢ هـ جلس في الخلافة ابنه القائم بأمر الله ، أرسل القائم أبا الحسن الماوردي الى الملك أبي كاليجار فأخذ البيعة عليه للقائم وخطب له في بلاده • والحادثة الثانية يذكرها ، أيضا ، أبو الفداء في حوادث سنة ٤٣٣ هجرية^(٣) فيقول انه وقعت وحشة بين القائم وجلال الدولة على أمر من أمور التقاليد — ذلك أنه لما افتتحت الجوالى في الحرم ببغداد أخذها جلال الدولة وكانت العادة أن تحمل الى الخلفاء لا يعارضهم فيها الملوك — فأرسل القائم الى جلال الدولة في ذلك مع أبي الحسن الماوردي ، فلم يلتفت جلال الدولة اليه ، وبالتالي لم تنفع وساطة الماوردي •

ويذكر ابن الجوزي^(٤) حادثة الجوالى ضمن حوادث سنة ٤٣٤ هـ فيقول : « ان الجوالى افتتحت في أول الحرم فأنفذ الملك أبو طاهر من منع أصحاب الخليفة عنها وأخذ ما استخرجوه منها وأقام فيها من يتولى جبايتها وثق على الخليفة ذلك وترددت فيه المراسلات ولم تنفع فأظهر العزم على مفارقة البلد وتقدم باصلاح الطيار والزبازب وروسل وجوه الأطراف والقضاة والفقهاء والشهود بالتأهب للخروج في الصحبة وتحدث بأن الخليفة قد عمل على غلق الجوامع ومنع الصلاة يوم الجمعة هذا الشهر • قال أبو الحسن على بن محمد الماوردي خرج التوقيع من الخليفة وكنت أنا الرسول فنفذ لعل بن محمد ابن حبيب ليس يختل على ذي عقل غلط ما أباه جلال الدولة من عدوله عن عهوده والوفاء بعقوده وأن الايمان المؤكدة اشتملت على ما لا فسيحة في نقضه ولا سبيل الى

(٢) ح ٢ ص ١٥٨

(٣) تاريخ أبي الفداء ١٦٦/٢

(٤) المنتظم : ابن الجوزي ١١٣/٨ — ١١٤ ، وراجع كذلك أحداث سنة ٤٣٥ في المنتظم ١١٦/٨

حله وفيما جرى من الاعتراض على الجوالى فى جبايتها بعد تسليمها الى الوكلاء نقض لما عقده والتعويل على عهده فانطلقت الألسن بما ييسان عن مثله فان ذكر أن ضرورة دعت الى ذاك فالأ راسلنا على الوجه الأجل ولو أنه لما أراد جعل الوكلاء القائمين يحملونه اليه لكان ذلك أولى فأما العدول عن هذه الطريقة فظاهر الغرض فيه قصد المومنين ولولا ما عليه الوكلاء من الاضافة نرى ترك القول فى مال هذه الجوالى مع نزارة قدره لكن للضرورة حكما تمنع من الاختيار وان روى الوكلاء يدفعون أيامهم والا فلهم عند الضرورات متسع فى الأرض ونحن نقاضيه الى الله تعالى وهو الحكم بيننا • فكان الجواب من الملك الاعتراف بوجوب الطاعة ثم قال ونحن نائبون عن الخدمة نيابة لا تنتظم الا باطلاق أرزاق العساكر وقد التجأ جماعة ممن خدمنا الى الحريم واستعصم به حتى ان أحدهم أخذ من تلاعنا فى دفعة واحدة تسعمائة بدره ونحن نمنع من احضارها ونحن محذرون عند الحاجة » •

ويوضح مكانه الماوردى ، أيضا ، عند أمراء بنى بويه واستشارتهم له فى صعب الأمور واحترامهم لوجهة نظره فيها ما يرويه ابن الجوزى فى منتظمه^(١) ضمن أحداث سنة ٤٢٧ هجرية حيث يقول : « ان الجند عندما شغبوا على جلال الدولة وقالوا ان البلاد لا يحتملنا واباك فاخرج من بيننا فانه أولى لك فقال كيف يمكننى الخروج على هذه الصورة أمهلونى ثلاثة أيام حتى آخذ حرمنى وولدى وأمضى وقالوا لا نفعل ورموه بأجرة فى صدره فثلقاها بيده وأخرى فى كتفه فاستجاش الملك الحواشى والعوام وكان المرتضى والزينبى والماوردى عند الملك فاستشارهم فى المعبوز الى الكرخ كما فعل فى المرة الأولى فقالوا ليس الأمر كما كان وأحداث الموضع قد ذهبوا وخول الغلمان خيمهم الى ما حول الدار احاطة بها وبات الناس على أضعب خطة فخرج الملك نصف الليل الى رفاق غامض فنزل الى دجلة فقعد فى سميرية فيها بعض حواشيه

خُبرقوها تقديراً أنه فيها ومضى الملك مستترا إلى دار المرتضى وبعث حرمه إلى دار الخليفة ونهب الجند دار المملكة وأبوابها وساجها ورتبوا فيها حفلة فكانت الحفلة تجربها نهاراً وتنقل ما اجتمع من ذلك ليلاً وراسل الجند الخليفة في قطع خطبة جلال الدولة فقيل لهم ستنظر ثم خرج الملك إلى أوانا ثم إلى كرخ سامرا ثم خرجوا إليه واعتذروا وصلحت الحال » •

وتدلنا هذه الحادثة على روح العصر الذي عاش فيه الماوردي ، وهو عصر كثرت فيه إساءة معاملة البويهيين للخلفاء ، كما تميز باضطراب الأحوال الداخلية في بلاد العراق وتفشى الشغب والعصيان بين الجند ، وكان لازدياد نفوذ الأتراك أثره البالغ في تدهور الأحوال في العراق •

وعندما اشتد الصراع بين جلال الدولة وأبى كاليجار على مسدن الأهواز وواسط والبصرة ، نشبت حروب طاحنة مدمرة بين قوات كل منهما ، فقدت فيها أنفس وأموال كثيرة وعم الخراب أغلب هذه المناطق ، عند ذلك رأى الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٢٨ هـ أن يضع حداً لتلك الحروب الهائلة بينهما (أى بين جلال الدولة وأبى كاليجار) ، وأبدى رغبته في ذلك للطرفين المتصارعين كما يروى ذلك ابن الأثير في كامله ، فترددت الرسل بين جلال الدولة وأبى كاليجار ، وكان أقضى القضية أبو الحسن الماوردي على رأس الوفد المفاوض الذي بعث به الخليفة إلى أبى كاليجار ، وقد تكالت هذه الوساطات بالنجاح ، وتم عقد الصلح بين جلال الدولة وأبى كاليجار في عام ٤٢٩ هجرية •

وكان للماوردي مكان الصدارة في أغلب المراسم والاحتفالات الرسمية ، وعلى سبيل المثال تصدره لاحتفال عقد قران الخليفة بأمر الله على خديجة بنت أخي السلطان طغرل بك سنة ٤٤٨ هـ (١) وعلى الرغم من مكانة الماوردي الممتازة عند الأمراء والملوك

في عصره فقد اشتهر بالحلم والوقار والأدب والتعفف عن سؤال الغير
« فلم ير أصحابه ذراعه يوما من الدهر من شدة تحرزه وأدبه »^(١) ،
كما اشتهر الماوردي أيضا بالتدين والورع والبعد عن الهزل •

والبويهيون الذين ظهر الماوردي في أيام حكمهم ، وخدم في
قصورهم ، وألف كتبه في عهدهم ، وكثيرا ما كانوا يوسطونه في حل
منازعاتهم ، ينتسبون الى بويه الذي تذكر بعض المراجع أنه ينتهي في
نسبه الى آل ساسان ملوك الفرس القدماء^(٢) ومن هنا حاول بعض
القائمين برياسة هذه الحركة ازالة الخلافة واحياء الدولة الساسانية
هدفا واضحا وغاية صريحة له^(٣) •

وبنو بويه من بلاد الديلم أو من بلاد جيلان التي تقع في الجنوب
الغربي من بحر قزوين ، وقد فتحت هذه البلاد في عهد الخليفة الثاني
عمر بن الخطاب ، وخضع أهلها للحكم الاسلامي مع استمرار اعتناقهم
للديانة الوثنية والزرادشتية • وظل الديلمة على وثنيتهم الى أن دخل
بلادهم الحسن بن علي الزيدى الملقب بالأطروش وأقام بينهم مدة
ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام ، ويدفع عنهم عدوهم ، حتى
أسلم على يديه خلق كثير • واختلف المؤرخون في أصل شعب بني بويه ،
فيذهب البعض الى أنهم ينتسبون الى « كسرى فارس بهرام
جوربن يزدر »^(٤) ، وبهذا يؤكد هذا البعض للديلم الأصل الفارسي ،
كما تقدم ، ويرجعهم البعض الآخر الى أصل عربي على اعتبار أنهم من

(١) البداية والنهاية : ابن كثير القرشي ٨٠/١٢

(٢) تاريخ الدولة العباسية : دكتور جمال الدين الشنغال — دار الكتب
الجامعية بالاسكندرية ١٩٦٨ ص ٨٤

(٣) تاريخ الحضارة الاسلامية : ف . بارتوند ترجمة حمزة الطاهر .
دار المعارف بمصر ١٩٦٦ ص ١٠٥

(٤) راجع ، المتنزع من كتاب « التاجي » للصابي ورقة ١٩

(م ٢ — الماوردي)

ولد ضبة الذين كانت مساكنهم بالناحية الشمالية من بلاد نجد بجوار بنى تميم وبعد ذلك قاموا بالهجرة الى هذه الجهات على أثر نزاع بينهم وبين القبائل الأخرى المجاورة لهم • أما الفريق الثالث فيعتبر الديلم جنسا مستقلا ، موطنهم الأصلي هي تلك المناطق التي سكنوها عند بحر قزوين ، وعرف عنهم الشجاعة والكرم والخشونة والجلد وقلة المبالاة كما يقول الاصطخري^(١) • وقد نبغ من أبناء بوية ثلاثة هم على وحسن وأحمد ، وامتنهوا جميعا الجندسة وخدموا الدول المجاورة واستطاعوا أن ينشروا سلطانهم على رقعة كبيرة من الدولة الإسلامية^(٢) •

ومن المعلوم أن الدولة البويهية لم تكن دولة تديرها يد واحدة ، بمعنى أنها لم تكن دولة مركزية تابعة لحاكم واحد ، فقد اقتسم أعضاء الأسرة فيما بينهم البلاد التي استولوا عليها ، وكان التفوق السياسي ينتقل من شخص الى شخص ، ولم تكن للدولة عاصمة معينة ، فالمدينة التي يقيم فيها الأمير الأقوى هي العاصمة^(٣) • وقد تحقق للبويهيين أمل الوصول الى بغداد والاستيلاء عليها بعد عدة معارك وانتصارات عسكرية متوالية خاصة بعد أن بسأت الحالة في عهد الخليفة المستكفي ، وكان دخولهم بغداد في « جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ » ، وبعد ذلك بقليل عمل البويهيون على خلع المستكفي الذي جاء من بعده خلفاء أصبحوا ألعوبة في أيديهم ، ولم يكن للخلفاء من الأمر شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة • وفي المدة التي ظهر فيها بنوبويه (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) أسندت الخلافة الى خمسة من خلفاء بنى العباس ، هم المستكفي ، والمطيع ، والطائع ، والقادر والقائم •

وقد استبد البويهيون بالحكم كله في أيديهم أثر دخولهم بغداد

(١) مسالك الأمم ٢٠٣

(٢) تاريخ الدولة العباسية : دكتور جمال الدين الشيال ص ٨٤

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية : بارتولد ص ١٠٥

مما ترتب عليه ضعف مركز الخلافة حتى غدا الخليفة العباس ألعوبة في أيديهم ، يضاف الى ذلك المعاملة السيئة المهينة التي درج وسار عليها البويهيون في معاملتهم للخلفاء ، فقد تعرض الخليفة الطائع لسوء معاملة البويهين ، اذ صادر الأمير بهاء الدولة أمواله عندما احتاج الى المال وقد أشار ابن الأثير الى ذلك في حديثه عن حوادث سنة ٣٨١ هـ بقوله^(١) : —

« في سنة ٣٨١ قبض على الطائع لله قبض عليه بهاء الدولة ، وهو الطائع لله أبو بكر عبد الكريم بن الفضل المطيع لله ابن جعفر المقتدر بالله بن المعتضد بالله بن أبي أحمد الموفق ابن المتوكل ، وكان سبب ذلك أن الأمير بهاء الدولة قتل عنده الأموال فكثرت شغب الجند فقبض على وزيره سابور فلم يغن ذلك شيئا وكان أبو الحسن بن المعلم قد غلب على بهاء الدولة وحكم في مملكته فحسن له القبض على الطائع وأطمعه في ماله وهون عليه ذلك وسهله فأقدم عليه بهاء الدولة ، وأرسل الى الطائع وسأله الاذن في الحضور في خدمته ليجدد العهد به فأذن له في ذلك وجلس له كما جرت العادة فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير ، فلما دخل قبل الأرض وأجلس على كرسي فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريرته والخليفة يقول : انا لله وانا اليه راجعون وهو يستغيث ولا يلتفت اليه ، وأخذ ما في دار الخليفة من الذخائر فمشوا به في الحال ، ونهب الناس بعضهم بعضا ، وكان من جملتهم الشريف الرضي ، فبادر بالخروج فسلم وقال أبياتا من جملتها :

من بعد ما كان رب الملك مبتسما الى أدنوه في النجوى ويدنيني
أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون

(١) الكامل في التاريخ : ابن الأثير ١٤٧/٧ — ١٤٨ ، وانظر : حوادث سنة ٣٨١ في المنتظم : لابن الجوزي ١٥٦/٧ — ١٥٧ ، وتاريخ أبي الفداء ١٢٧/٢ — ١٢٨ ، وايضا : تاريخ الحضارة الاسلامية للدكتور محمد جمال الدين سرور ص ٥٦

ومنظر كان بالسراء يضحكنى يا قرب ما عاد بالضراء بيكيني

هيهات أغتر بالسلطان ثانية قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما حمل الطائع الى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع ، وكانت
مدة خلافته سبع عشرة سنة وثمانية شهور وستة أيام ، وحمل الى
القادر لما ولى الخلافة فبقى عنده الى أن توفي • وصلى عليه القادر
بالله وكبر عليه خمسا •

ويدلنا الكتاب الذى بعث به الخليفة المطيع الى عز الدولة بختيار ،
وقد ألح عز الدولة على الخليفة فى طلب المال للجهاد معتقدا أن ذلك
من واجبات الامام ، نقول يدلنا هذا الكتاب على مدى ضعف مكانه
الخليفة العباسى واستبداد البويهيين بالسلطة « الغزو يلزمنى اذا كانت
الدنيا فى يدى ، والى تدبير الأموال والرجال • وأما الآن وليس لى منها
الا القوات المقاصر عن كفايى وهى فى أيديكم وأيدى أصحاب الأطراف ،
فما يلزمنى غزو ولا حج ولا شىء مما تنتظر الأئمة فيه ، وانما لكم منى
هذا الاسم الذى تخطبون به على منابرکم تسكنون به رعاياكم
فان أحببتهم أن أعترل اعترلت عن هذا المقدار أيضا وتركتكم
والأمر كله » (١) •

وبالاضافة الى سوء معاملة البويهيين للخلفاء واستئثارهم بالسلطة
دونهم ، شاركوهم فى مظاهر سيادتهم الدينية والسياسية فأصبحت
أسماءهم تذكر مع اسم الخليفة فى الخطبة منذ عهد عضد الدولة ،
مع أن ذلك كان من الأمور التى انفرد بها الخليفة دون غيره وحيث لم

(١) تجارب الامم : مسكوية ٣٠٧/٢ ، عقد الجمان : العيني —
القسم الثانى ٢٥٤/١٩ ، وانظر : أحداث سنة ٣٦١ فى الكامل فى التاريخ
لابن الاثير ٤٥/٧

تجبر بذلك عادة الأمراء الذين تقدموه (١) • ويقول القلقشندي (٢) :
« ان أول من نقش اسمه من الملوك على الدنانير والدرهم مع الخلفاء
أن البويهيين كانوا شيعة غلاة في تشيعهم ، يعتقدون أن العباسيين
ببغداد » •

ومن الأسباب الهامة التي يرجع اليها ضعف مركز الخليفة العباسي
أن البويهيين كانوا شيعة غلاة في تشيعهم ، يعتقدون أن العباسيين
قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها فلم يكن عندهم باعث ديني
يحثهم على طاعته • وقد فكر البويهيون بالفعل في إقامة خلافة شيعية
بدلاً من الخلافة العباسية السنية لولا تحذير خواصهم ومستشاريهم
لهم من سخط الناس ومخالفتهم ، ولأن عامة الناس في الأقطار الإسلامية
قد اعتادوا الدعوة العباسية ودانوا للعباسيين وأطاعوهم طاعة الله ورسوله
ورأوهم أولو الأمر ، كما لعبت الاعتبارات السياسية ، هي الأخرى ،
دوراً هاماً في تخلي البويهيين عن فكرتهم وإقلاعهم عن القضاء على
الخلافة العباسية والاعتراف بالخلافة الفاطمية الشيعية ، لأنهم رغبوا
أن تظل في أيديهم القوة والسلطان وأن يستبدوا بالخلافة العباسية
جميعاً (٣) •

وقد قدر للدعوة الفاطمية الانتشار في بلاد العراق ، وساعد على
هذا الانتشار سياسة أمراء بني بويه المنحازة إلى الشيعة مما أتاح
الفرصة لدعاة الدعوة الفاطمية لمواصلة جهودهم في نشر دعوتهم بحجة

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق : د . جمال الدين سرور .
دار الفكر العربي . القاهرة ١٩٦٥ ص ٥٦ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج ٣ وراجع كذلك تجارب الأمم
لمسكويه ٣٣٤/٢

(٣) تاريخ الدولة العباسية : د . جمال الدين الشيال ص ٨٥ ، وتاريخ
الحضارة الإسلامية في الشرق : د . محمد جمال الدين سرور ص ٥٤ — ٥٥

الدفاع عن حق آل البيت في الخلافة ، كما كان لازدياد نفوذ قواد الأتراك وتدخلهم في تولية أمراء بنى بويه وعزلهم واستقلال الأمراء بولاياتهم وتنافسهم فيما بينهم وتلاعب أمراء بنى بويه بالخلفاء أثره البالغ في النجاح الهائل الذى لقيته الدعوة الفاطمية في النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، وقد حفز ذلك الفاطميين الى العمل على تقويض دعائم الخلافة العباسية وانتزاع زعامة الاسلام منها(١) .

ورغبة في القضاء على الدعوة الفاطمية بالعراق تحالف الخليفة العباسى القادر بالله مع أمراء بنى بويه ، ولجأ الى سلاح التشهير بسبهم في العالم الاسلام حتى يكون في ذلك قضاء على كل أثر لهم ، وقد عقد الخليفة القادر بالله في ربيع الثانى سنة ٤٠٢ هـ مجلسا حضره الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة وأصدورا محضرا يتضمن الطعن في نسب الفاطميين خلفاء مصر وأنهم ليسوا من آل البيت ، كما تضمن المحضر تشهيرا بعقائدهم ، ووزعت نسخ من هذا المحضر في بغداد والبصرة .

يقول ابن الجوزى(٢) : « انه في سنة ٤٠٢ هـ كتب في ديوان الخلافة محاضر في معنى الذين بمصر والقدح في أنسابهم ومذاهبهم وكانت نسخة ما قرئ منها ببغداد وأخذت فيه خطوط الأشراف والقضاة والفقهاء الصالحين والمعدلين والثقات والأماثل بما عندهم من العلم والمعرفة بنسب الديصانية وهم منسوبون الى ديصان ابن سعيد الحزمى أحزاب الكافرين ونطف الشياطين شهادة متقرب الى الله جلّت عظمتة وممتعض للدين والاسلام ومعتقد اظهار ما أوجب الله تعالى على العلماء أن يبينوه

(١) النفوذ الفاطمى في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة : د . جمال الدين سرور . دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٥٧ ص ٧٥ وما بعدها .

(٢) المنتظم ٢٥٥/٧ — ٢٥٦ ، والبداية والنهاية : ابن كثير القرشى ٣٤٥/١١ — ٣٤٦

للناس ولا يكتُمونه» شهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور ابن نزار المتلقب بالحاكم حكم الله عليه بالبووار والخزى والذكال والاستيصال ابن معد بن اسماعيل ابن عبد الرحمن ابن سعيد لا أسعده الله فإنه لما صار الى الغرب، تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدى ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليه وعليهم لعنة الله ولعنة الملائكة ادعياء خوارج لا نسب لهم في ولد على بن أبى طالب ولا يتعلقون منه بسبب وأنه منزّه عن باطلهم وأن الذى أدعوه من الانتساب اليه باطل وزور وأنهم لا يعلمون أن أحداً من أهل بيوتات الطالبين توقف عن اطلاق القول في هؤلاء الخوارج أنهم ادعياء وقد كان هذا الإنكار لباطلهم ودعواهم شائعاً بالحرمين وفي أول أمرهم بالغرب منتشراً انتشاراً يمنع من أن يتدلس على أحد كذبهم أو يذهب وهم إلى تصديقهم وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق فجار ملحدون زنادقة معطلون وللإسلام جاحدون ولذهب الثنوية والجوسية معتقدون اذ عطلوا الحدود وأباحوا الفروج وأحلوا الخمر وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ولعنوا السلف وادعوا الربوبية • وكتب في ربيع الآخر من سنة اثنتين وأربعمئة « وقد كتب خطه في المحضر خلق كثير من العلويين المرتضى والرضى وابن الأزرق الموسوى وأبو طاهر بن أبى الطيب ومحمد بن محمد بن عمر وابن أبى يعلى ومن القضاة أبو محمد بن الأكفانى وأبو القاسم الخرزى وأبو العباس السورى ومن الفقهاء أبو حامد الاسفراينى وأبو محمد الكشغلى وأبو الحسين القدورى وأبو عبد الله الصيمرى وأبو عبد الله البيضاوى وأبو على ابن حكمان ومن الشهداء أبو القاسم التنوخى • وقرئ بالبصرة وكتب فيه خلق كثير » •

وحرصاً من الخليفة القادر بالله العباسى على وقف تيار الدعوة الفاطمية في العراق والقضاء على نفوذها عمد إلى عزل جميع أئمة الشيعة في المساجد ، وعين مكانهم أئمة من أهل السنة ، ونشط في مناهضة مذاهب الفرق الدينية الأخرى وعلى وجه التحديد المذهب الشيعى •

يقول ابن الجوزي^(١) . « انه في سنة ٤٢٠ جمع الأشراف والقضاة والشهود والفقهاء في دار الخلافة وقرئ عليهم كتاب طويل عمله الخليفة القادر بالله يتضمن الوعظ وتفضيل مذهب السنة والظعن على المعتزلة وإيراد الأخبار الكثيرة في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة » .

وقد عجل بزوال نفوذ البويهيين من العراق كثرة الحروب بين أمراء الدولة البويهية^(٢) ، أضف الى ذلك الصراع المستمر ، والنزاع الدائم بينهم على الحكم . وفي سنة ٤٤٧ (١٠٥٥ م) دخل طغرل بك السلجوقي بغداد ففقدى على ملك البويهيين وعلى آخر ملوكهم (أبو نصر خسرو فيروز الملك الرحيم) الذي كان اليه حكم العراق وأودعه السجن حيث قضى به أخريات أيامه^(٣) .

وتتميز العصر الذي عاش فيه الماوردي بكثرة الفوضى والاضطراب ، وكانت أغلب البلاد التي وجد وعمل فيها الماوردي مسرحا للفتن والشائعات والمؤامرات من الداخل والخارج ، فقد شهد هذا العصر وقوع فتن دائمة ومتجددة بين الشيعة وأهل السنة ، وبين أهل السنة والروافض ، كما وقع في عصر الماوردي فتن بين الحنابلة والأشاعرة ، وفتن أخرى بين النصاري والمهاشميين ، وفي أوائل حياة الماوردي كانت فتنة القرامطة ومذبحتهم الكبرى في الكوفة ، وفي أواخر أيامه كان اشتداد نفوذ الباطنية وشيوع دعوة الحسن بن الصباح ، وشهد العصر الذي عاش فيه الماوردي ، أيضا ، وقوع فتن بين الديلم والأتراك ، وبين الأتراك والمهاشميين ، كما كثرت الحروب بين أمراء الدولة البويهية أنفسهم .

(١) المنتظم : ٨ / ٤١

(٢) من المعلوم أن الدولة البويهية قسمت بعد عضد الدولة بين أولاده وأولاد أولاده وأدت كثرة الحروب بين أفراد هذه الأسرة الى إضعافها وزوال ملك البويهيين .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٣٥٧/٤ ، تاريخ الدولة العباسية : د . جمال الدين الشيال ص ٨٧ .

ومصادقا لقولنا هذا ، نورد هنا بعضا من هذه الحوادث ،
ومن الحوادث الدالة على فوضى واضطراب الأحوال الداخلية في عصر
المالوردى أنه « جرت في سنة ٣٨١ فتنة بين أهل الكرخ وباب البصرة
واستظهر أهل باب البصرة وخرقوا أعلام السلطان فقتل يومئذ جماعة
اتهموا بفعل ذلك وصلبوا على القنطرة فقامت الهيبة وارتدعوا » (١) .

« وفي سنة ٣٩٢ زاد أمر العيارين والفساد ببغداد وكان فيهم
من هو عباسى وعلوى فواصلوا العملات وأخذوا الأموال وقتلوا وأشرف
الناس معهم على خطة صعبة فبعث بهاء الدولة عميد الجيوش أبا على
ابن أستاذ هرمز الى العراق ليدبر أمورها فدخلها يوم الثلاثاء سابع عشر
ذى الحجة فزينت له بغداد خوفا منه فكان يقرب بين العباسى والعلوى
ويغرقهما نهارا وغرق جماعة من حواشى الأتراك ومنع السنة والشيعة
من اظهار مذهب ونفى بعد ذلك ابن المعلم فقيه الشيعة عن البلد
فقامت هيئته » (٢) .

« وفي سنة ٤١٧ كثر تسلط الأتراك ببغداد فأكثروا مصادرات
الناس وأخذوا الأموال حتى أنهم قسطوا على الكرخ خاصة مائة ألف
دينار ، وعظم الخطب وزاد الشر وأحرقت المنازل والدروب والأسواق
ودخل في الطمع العامة والعيارون ، فكانوا يدخلون على الرجل فيطالبونه
بذخائره كما يفعل السلطان بمن يصادره ، فعمل الناس الأبواب على
الدروب فلم تغن شيئا ، ووقعت الحرب بين الجند والعامة فظفر
الجند ونهبوا الكرخ وغيره فأخذ منه مال جليل وهلك أهل الستر والخير .
فلما رأى القواد وعقلاء الجند أن الملك أبا كاليجار لا يصل اليهم وأن
البلاد قد خربت وطمع فيها المجاورون من العرب والأكراد راسلوا
جلال الدولة في الحضور الى بغداد فحضر على ما نذكره سنة
ثمان عشر وأربعمائة » (٣) .

(١) المنتظم : ابن الجوزى ٢٢٠/٧ .

(٢) المنتظم : ١٦٣/٧ — ١٦٤ .

(٣) الكامل فى التاريخ : ابن الاثير ٣٢٥/٧ .

« وفي سنة ٤٢٥ انتشر أمر العياريين واتصلت الفتن بأهل الكرخ مع أهل باب البصرة والقلائين وأهل باب الطاق مع أهل سوق يحيى وأهل نهر طابق مع أهل الأرجاء وباب الدير ثم انضاف الى ذلك قتال جرى بين الطائفتين من الأتراك وكثر قتل النفوس ولم يقدر أحد على خيانة أو يؤخذ بقود... ونهب العرب النواحي وساقوا المواشي وقطعوا الطريق وبلغوا الى أطراف بغداد حتى وصلوا الى جامع المدينة وسلبوا النساء ثيابهن في المقابر » (١) •

وتوضح الحوادث التالية الفتن المذهبية دائمة التجدد بين السنة والشيعة :

« ففي سنة ٣٨٩ أرادت الشيعة أن يصنعوا ما كانوا يصنعونه من الزينة يوم غدیرخم ، وهو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة فيما يزعمونه ، فقاتلهم جهلة آخرون من المنتسبين الى السنة فادعوا أن في مثل هذا اليوم حصر النبي صلا الله عليه وسلم وأبو بكر في الغار فامتنعوا من ذلك ، وهذا أيضا جهل من هؤلاء ، فان هذا انما كان في أوائل ربيع الأول من أول سنى الهجرة ، فانهما أقاما فيه ثلاثا ، وحين خرجا منه قصدا المدينة فدخلها بعد ثمانية أيام أو نحوها ، وكان دخولهما المدينة في اليوم الثانى عشر من ربيع الأول ، وهذا أمر معلوم مقرر محرر • ولما كانت الشيعة يصنعون يوم عاشوراء مأتما يظهر فيه الحزن على الحسين بن على ، قابلتهم طائفة أخرى من جهلة أهل السنة فادعوا أن في اليوم الثانى عشر من المحرم قتل مصعب بن الزبير ، فعملوا له مأتما كما تعمل الشيعة للحسين وزاروا قبره كما زاروا قبر الحسين ، وهذا من باب مقابلة البدعة ببدعة مثلها ، ولا يرفع البدعة الا السنة الصحيحة » (٢) •

(١) المنتظم : ابن الجوزى ٧٨/٨ •

(٢) البداية والنهاية في التاريخ : ابن كثير القرشى ٣٢٥/١١ — ٣٢٦ •

وتكررت هذه الفتن بين الشيعة والسنة خاصة في عام ٣٩٨ وعام ٤٠٧ و ٤٠٨ هجرية^(١) وعام ٤٢٢^(٢) ، ثم تجددت هذه الفتن أيضا عام ٤٤٣ هجرية وحدثت من جراء ذلك حوادث دامية واضطرابات وقلقل كثيرة ، ففي هذا العام وقعت في بغداد فتنة طائفية عظيمة بين السنة والشيعة قتل فيها مدرس الحنفية أبو سعد السرخسي ، وأحرقت دور الفقهاء وضريح الامام موسى بن جعفر الصادق ، وقبر السيدة زبيدة ، وقبور الخلفاء العباسيين وقبور أمراء بني بوية ، وخربت محال بغداد ، وقتل من الفريقين خلق كثير^(٣) ، وعادت هذه الفتن ثانية بين السنة والشيعة وخرق السياسة عام ٤٤٥ كما روى ابن الجوزي في منتظمه^(٤) .

• ووقعت في عصر الماوردي فتنة أخرى بين الروافض وأهل السنة ، ففي عام ٣٨٢ جرت بين الفريقين فتنة اقتتلوا من أجلها ، فقتل منهم خلق كثير واستظهر أهل باب البصرة وحرقوا أعلام السلطان ، فقتل جماعة اتهموا بفعل ذلك وجعلوا على القناطر ليرتدع أمثالهم^(٥) ، وتجددت الفتنة ثانية بين السنة والروافض سنة ٤٢٢ هجرية^(٦) .

ووقعت فتنة عظيمة بين الحنابلة والأشاعرة حتى تأخر الأشاعرة عن الجمعيات خوفا من الحنابلة^(١) . واشتد نفوذ الباطنية في أيام حياة الماوردي ، وكانت مدينة الري مخصوصة بالتجائهم اليها وعلانهم

(١) المنتظم : الجزء السابع .

(٢) الكامل في التاريخ : ابن الاثير ٧ / ٣٥٥ — ٣٥٦ .

(٣) انظر : المنتظم (حوادث سنة ٤٤٣ ج ٨ ص ١٤٩ وما بعدها) .

(٤) ج ٨ ص ١٥٧ .

(٥) انظر : الكامل في التاريخ : ابن الاثير (هامش ٧ / ١٥٧ ، والبداية والنهاية في التاريخ : ابن كثير القرشي ١١ / ٣١١ .

(٦) المنتظم : ٨ / ٥٥ .

(٧) المصدر السابق ٨ / ١٦٣ .

بالدعاء الى كفرهم فيما يختلطون بالمعتزلة المبتدعة والغالية من الروافض
المخالفة لكتاب الله والسنة يتجاهرون بثتم الصحابة ويرون اعتقاد
الكفر ومذهب الاباحية(١) *

ولم تقتصر هذه الفتن على الطوائف الاسلامية فقط ، بل امتدت
الى طائفة النصارى حيث وقعت فتنة بينهم وبين بعض الهاشميين ، ففى
عام ٤٠٣ هجرية « توفيت زوجة بعض رؤساء النصارى ، فخرجت
النوائح والصلبان معها جهارا ، فانكر ذلك بعض الهاشميين فضربه بعض
غلمان ذلك الرئيس النصرانى بدبوس فى رأسه فشجه ، فثار المسلمون
بهم فانهزموا حتى لجأوا الى كنيسة لهم هناك فدخلت العامة اليها
فنهبوا ما فيها ، وما قرب منها من دور النصارى ، وتتبعوا النصارى فى
البلد ، فقصدوا الناصح وابن أبى اسرائيل فقاتلهم غلمانهم ، وانتشرت
الفتن ببغداد ، ورفع المسلمون المصاحف فى الأسواق ، وعظمت الجمع
فى بعض الأيام ، واستعانوا بالخليفة ، فأمر باحضار ابن أبى اسرائيل
فامتنع ، فعزم الخليفة على الخروج من بغداد ، وقويت الفتنة جدا
ونهب دور كثير من النصارى ، ثم احضر ابن أبى اسرائيل «(٢) *

والى جانب هذه الفتن المذهبية التى امتلأ بها عصر الماوردي ،
وقعت فى بغداد والبصرة فتن أخرى ومصادمات بين الأتراك والديلم *
قتل من جرائها عدد كبير ، كما وقعت منازعات أخرى بين الأتراك
والهاشميين ، ومن هذه المنازعات منازعة جرت بين أحد الأتراك النازلين
بباب البصرة وبعض الهاشميين ، سنة ٤٢١ « فقد اجتمع الهاشميون
الى جامع المدينة ورفعوا المصاحف واستغفروا الناس فاجتمع لهم الفقهاء
والعدد الكثير من الكرخ وغيرها وضجوا بالاستغفار من الأتراك وسبهم
فركب جماعة من الأتراك فلما رأوهم قد رفعوا أوراق القرآن على القصب

(١) انظر : (حوادث سنة ٤٢٠) فى المنتظم ٣٨/٨ .

(٢) البداية والنهاية فى التاريخ : ابن كثير القرشى ٣٤٨/١١ .

رفعوا بازائهم قناة عليها صليب وترامى الفريقان بالنشاب والآجر وقتل قوم ثم اصلحت الحال»^(١)

وهدفنا من ذكر هذه الحوادث أن ندلل على روح العصر في الأيام التي عاشها الماوردي ، ولعل الشيء الغريب حقا أن تكون هذه الأيام ، على الرغم مما تميزت به من فوضى واضطرابات وأحداث خطيرة هي طابع العصر البويهى ، من أخصب عصور الدولة الإسلامية في ميادين العلم ومجالات التفكير المتعددة .

والماوردي عالم له مواقف الخلقية ، يقرن العلم بالعمل ، ويتضح هذا من موقفه الشجاع حين رفض الافتاء بجواز منح جلال الدولة البويهى لقب « ملك الملوك »^(١) ، على الرغم مما كان بينهما من أواصر

(١) المننظم : ابن الجوزى ٥٠٠/٨ .

(١) يعد عضد الدولة البويهى (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) = أول حاكم في الاسلام حمل لقب « شاهنشاه » أى ملك الملوك ، وهى فى الأصل كلمة فارسية صيغت على غرار اللقب القديم للملكية . ولم يبق فى آل بويه من يماثل عضد الدولة جراحة واقدا ، وحسبه أنه لم يكن أعظم البويهيين محاسب ، بل كان أيضا أعظم حاكم فى زمانه . وكان عاقلا فاضلا ، حزين السياسة ، شديد الهبة بعيد الهمة ، ثاقب الراى محبا للفضائل ، واهبا باذلا فى مواضع العطاء ، مائعا فى مواضع الحزم ، ناظرا فى عواقب الأمور ، وقد استطاع بهذه الفضائل أن يطوى تحت سلطانه كل الدويلات الصغيرة التى ظهرت فى عهد الحكام البويهيين فى فارس والعراق ، فألف من المجموع امبراطورية كادت تصل فى الاتساع الى امبراطورية هارون الرشيد . وقد بنى عضد الدولة على مدينة الرسول صلوات الله وسلامه عليه سورا إلا أنه مع ذلك كان فخورا يميل الى اللعب واللهو ، وكان شاعرا أدبيا ، ومن شعره :

ليس شرب الكأس الا فى المطر	وغناء من جوار فى السحر
غانيات سائبات للنهى	ناغمات فى تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها	سساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها	ملك الأملاك غلاب القدر

المودة • ذلك أن جلال الدولة بن بويه سأل الخليفة سنة ٤٢٩ هـ ، أن يزيد في ألقابه لقب « شاهنشاه » أى ملك الملوك الأعظم ، وكان أن أجابه الخليفة الى طلبه ، وخطب له بذلك ، الأمر الذى أثار اعتراض بعض الفقهاء بحجة أنه لا يجوز أن يقال لأحد — غير الله وعز وجل — ملك الملوك • ولم يلبث أن تأثر العامة بموقف الفقهاء ، فرموا الفقهاء بالآجر ، مما جعل جلال الدولة ابن بويه يلجأ الى كبار الفقهاء لاستصدار فتوى منهم بجواز اللقب • وبذلك تهدأ ثورة العامة • وقد حرص بعض كبار الفقهاء على استرضاء ذوى السلطان ، فكتب الصيمرى الحنفى أن هذه الألقاب مثل « شاهنشاه » و « ملك الملوك » يعتبر فيها القصد والنية ، وأفتى أبو الطيب الطبرى بأن اطلاق ملك الملوك جائز ومعناه ملوك الأرض ، وقال انه اذا جاز أن يقال « قاضى القضاة » فانه من الجائز أن يقال « ملك الملوك » ، ووافقه على رأيه التميمى من فقهاء الحنابلة • وأفتى الماوردى بأنه لا يجوز ، وشدد فى ذلك ، وقطع ما كان بينه وبين جلال الدولة من علائق المودة والصداقة • ولما طلب جلال الدولة الماوردى ، قصده على وجل شديد ، ولكن ابن بويه خاطبه بقوله :

« أنا أتحقق أنك لو حابيت أحدا لحابيتنى لما بينى وبينك ، وما حملك الا الدين ، فزاد بذلك محلك عندى » (١) •

(صاحب بن عباد للدكتور بدوى طبانة ص ٢٨ — ٢٩) •

وقد مدح كثير من الشعراء عضد الدولة هذا ، وعلى رأس هؤلاء الشعراء المتنبى ، وأهدى اليه كثير من الكتاب كتبهم مثل النحوى المشهور أبى على الفارسي الذى ألف كتاب « الايضاح » ورفعته اليه •

(تاريخ العرب ٦١١/٢) ، وراجع : المنتظم : ابن الجوزى

١١٣/٧ — ١١٤

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٣٠٥/٣ ، ويروى ابن الجوزى فى « منتظمة » هذه الحادثة ضمن حوادث سنة ٤٢٩ هجرية فيقول : « انه استقر أن يزداد فى القاب جلال الدولة شاهان شاه الأعظم ملك الملوك فأمر الخليفة بذلك فخطب له به فنفر العامة ورموا الخطباء بالآجر ووقعت

ويقول السبكي : « وما ذكره القاضي أبو الطيب هو قياس الفقه ،
 الا أن كلام الماوردي يدل له حديث ابن عيينه عن أبي الزناد عن الأعرج
 عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اخنع اسم عند الله
 تعالى يوم القيامة رجل يسمى ملك الأملاك • رواه الامم أحمد • وقال
 سألت أبا عمر الشيباني عن أخنع فقال ، أوضع ، والحديث في صحيح
 البخاري • وفي حديث عوف عن خلاص عن أبي هريرة أن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال : اثبت غضب الله على من قتل نفسه ، واشتد
 غضب الله على رجل تسمى بملك الملوك ، لا ملك الا الله تعالى » • ويتابع
 السبكي كلامه قائلا : « بأن دولة بني بويه لم تمكث بعد هذا اللقب
 الا قليلا ثم زالت كأن لم تكن ، ولم يعيش جلال الدولة بعد هذا اللقب

فتنة وكتب الى الفقهاء في ذلك فكتب ابو عبد الله الصيهرى الحنفى أن هذه
 الأسماء يعتبر فيها النقص والنية وعند قال الله تعالى (ان الله قد بعث طالوت
 ملكا) وقال تعالى (وكان وراءهم ملك) وإذا كان في الأرض طول جاز أن
 يكون بعضهم فوق بعض لتفاضلهم في القوة والامكان وجائز أن يكون بعضهم
 أعظم من بعض وليس في ما يوجب التكبر ولا المماثلة بين الخالق والمخلوقين ،
 وكتب أبو الطيب الطبري أن إطلاق ملك الملوك جائز ويكون معناه ملك ملوك
 الأرض فإذا جاز أن يقال كافى الكفاة وقاضى التضاة جاز ملك الملوك فإذا
 كان في اللفظ ما يدل على أن المراد به ملك الأرض زالت الشبهة وفيه قولهم
 النهم أصلح الملك فينصرف الكلام الى المخلوقين ، وكتب التميمي نحو ذلك •
 وقد حكى عن اقضى القضاة أبى الحسن الماوردي أنه كتب قريبا من ذلك ،
 وذكر محمد بن عبيد الملك الهمداني أن الماوردي منع من جواز ذلك وكان
 مختصا بخدمة جلال الدولة فلما امتنع عن الكتابة انقطع عن خدمته واستدعاه
 جلال الدولة بكرة يوم العيد ، فمضى على وجل شديد يتوقع المكروه ، فلما
 دخل على الملك قال له أنا أتحقق أنك لو حابيت أحدا لحابيتنى لمسا بينى
 وبينك مع كونك أكثر الفقهاء مالا وأوفاهم جاها وحالا وما حملك على مخالفتى
 الا الدين وقد قربك ذلك منى ، وزاد محلك في قلبى ، وقدمتك على نظائرك
 عندى ، قال المصنف الذى ذكره الأكثرون في جواز أن يقال ملك الملوك هو
 القياس اذا قصد به ملوك الدنيا ، الا أنى لا أرى الا ما رآه الماوردي لأنه
 قد صح في الحديث ما يدل على المنع ولكن الفقهاء المتأخرين عن النقل بمعزل »
 (المنتظم ٩٧/٨ — ٩٨) .

الا أشهرا بسيرة ، ثم ولى الملك العزيز منهم ، وبه انقرضت دولتهم» (١) •

وعلى الرغم من أن الماوردي كان حافظا للمذهب الشافعي ، وله اليد الباسطة فيه ، كما أنه يعتبر عالما من أعلام الحكمة والتشريع ، فإن هناك حكاية يحكيها الماوردي عن نفسه في كتابه أدب الدنيا والدين وقد ذكرها السبكي أيضا في طبقاته (٢) ، قال الماوردي ومما أنذرك به من حالي أني صنف في البيوع كتابا جمعت ما استطعت من كتب الناس واجهدت فيه نفسي وكررت فيه خاطري حتى اذا تهدب واستكمل وكدت أعجب به وتصورت أني أشد الناس اطلاعا بعلمه ، حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان فسألاني عن بيع عقده في البداية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لشيء منها جوابا ، فأطرقت مفكرا وبحالي وحالهما معتبرا ، فقالا أما عندك فيما سألناك جواب وأنت زعيم هذه الجماعة فقلت لا ، فقالا ، ايها لك وانصرفا • ثم أتيا من قد يتقدمه في العلم كثير من أصحابي فسألاه فتجابهما مسرعا بما أقنعهما ، فانصرفا عنه راضيين بجوابه ، حامدين لعلمه ، الى أن قال ، فكان ذلك زاجر نصيحة ، ونذير عظيمة تذلل لهما قياد النفس وانخفض لهما جناح العجب » •

ويذكر ياقوت (١) أنه قرأ في كتاب سر السرور لمحمود النيسابوري هذين البيتين منسوبين الى الماوردي :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسادهم دون القبور قبور
وان امرأ لم يحيى بالعلم صدره فليس له حتى النشور نشور

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٣/٣٠٥ — ٣٠٦ ، والمنظوم : ابن الجوزي ٩٨/٨ ، والبداية والنهاية في التاريخ : ابن كثير القرشي ١٢/٤٣ — ٤٤

(٢) ج ٣ ص ٣٠٤

(١) معجم الأدباء : ياقوت ١٥/٥٣

(٢)

مؤلفات الماوردي :

وقد اشتهر الماوردي بكثرة التأليف ، وغزارة الانتاج ، فقال عنه
ياقوت الرمي في ارشاد الأريب : « له تصانيف حسان في كل فن »^(١) .
أما السبكي فيقول عنه انه كان له : « التفنن التام في سائر العلوم »^(٢) .
ويذكر الخطيب البغدادي^(٣) عن الماوردي أن : « له تصانيف عدة في
أصول الفقه وفروعه وفي غير ذلك » . ويقول « الأودني » صاحب كتاب
« طبقات المفسرين » عن الماوردي بأن : « له المصنفات الكثيرة في كل
فن في الفقه والتفسير والأصول والأدب »^(٤) .

ولم يبق لنا من مؤلفات الماوردي الا القليل ، وبحيث لا نعرف من
هذه المؤلفات الا اثني عشر مؤلفا . ويمكن تصنيف مؤلفات الماوردي
في ثلاث مجموعات دينية ، وإخوانية أدبية ، وسياسية اجتماعية ، وهذا
هو ما يذهب اليه الأستاذ الجليل مصطفى السقا^(٥) ، حيث يقسم تأليف
الماوردي وكتبه الى ثلاث مجموعات تشمل الكتب الدينية ، والكتب
اللعوية الأدبية ، ثم الكتب السياسية والاجتماعية .

(١) المصدر السابق ص ٥٤

(٢) طبقات الشافعية ٣/٣٠٣

(٣) تاريخ بغداد مجلد ١٢/١٠٢

(٤) طبقات المفسرين : الأودني — مخطوط — ورقة ٣٢ وجه وظهر .

(٥) راجع مقدمة الأستاذ مسطفي السقا لكتاب الماوردي : أدب الدنيا
والدين . طبعة الثالثة ١٩٥٥ م ص ٥ و ٧ و ٩ و ١٠ و ١١ مطبعة مصطفى
النبأى الحلبي مصر .

(م ٣ — الماوردي)

أما المجموعة الأولى من كتب الماوردي الدينية فأهمها :

١ — كتاب تفسير القرآن ، ويعرف بكتاب النكت والعيون * وهذا الكتاب مخطوط لم يطبع بعد ، ويوجد منه نسخ خطية أشهرها نسخة مكتبة قليج على بالآستانة ، ونسخة مكتبة كوبريلي ، ونسخة مكتبة جامع القرويين بفاس ، ونسخة رامبور بالهند * .

٢ — كتاب الحاوي الكبير ، وهو مطول في فقه الشافعية يدخل في ٢٣ مجلدا * وقد ذكر ابن خلكان في كتاب « وفيات الأعيان » (١) عن كتاب الحاوي هذا : « لم يطلعه أحد الا شهد له بالتبحر والمعرفة التامة بالمذهب » ويقول « الاسنوي » عن كتاب الحاوي هذا بأنه : « لم يصنف مثله » (٢) * وهذا الكتاب مخطوط ، وتوجد منه نسخ في مكتبات المتحف البريطاني والسليمانية باستامبول ودار الكتب المصرية ، وتزيد صفحات هذا الكتاب على ٧٠٠٠ صفحة كبيرة * .

٣ — كتاب الاقناع ، وهو مختصر لكتاب الحاوي الكبير * ويذكر ياقوت الرومي (٣) قول الماوردي : « بسطت الفقه في أربعة آلاف ورقة ، واختصرته في أربعين ، يريد بالمبسوط كتاب الحاوي وبالمختصر كتاب الاقناع » * وتوجد حكاية معينة تروى في شأن تأليف هذا الكتاب ، تتلخص في أن الخليفة القادر بالله العباسي تقدم الى أربعة من أئمة المسلمين في أيامه في المذاهب الأربعة أن يصنف له كل واحد منهم مختصرا على مذهبه * فصنف له الماوردي الاقناع ، وصنف له أبو الحسن القدوري مختصره المعروف على مذهب أبي حنيفة ، وصنف له القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن محمد بن نصر المالكي مختصرا آخر ، وصنف له آخر على مذهب أحمد ، وعرضت الكتب الأربعة على الخليفة ، وبعد اطلاعه

(١) ج ٢ ص ٤٤٤

(٢) طبقات انشاعية : تقي الدين بن شهبه — مخطوط — وجه ورقة ٢٣

(٣) معجم الأدباء : ياقوت ٥٣/١٥

عليها خرج الخادم الى أقصى القضاة الماوردى وقال له : « يقول لك أمير المؤمنين : حفظ الله عليك دينك ، كما حفظت علينا ديننا » (١) •

٤ — كتاب أدب القاضى ، وهو مخطوط ، وتوجد منه نسخة بالسليمانية باستامبول •

٥ — كتاب أعلام النبوة : أى دلائلها ، وهو أيضا مخطوط ، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية ، كما أنه طبع ، بعد ذلك ، بالقاهرة المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر ١٩٣٥ م •

أما تأليف الماوردى اللغوية والأدبية فمنها :

١ — كتاب فى النحو ، ولا يعرف شىء عن هذا الكتاب ، ويعتبر فى حكم المفقود ، وقال عنه ياقوت الرومى بعد أن رآه بنفسه : « رأيت فى حجم الايضاح ، أو أكثر » (٢) • والايضاح كتاب متوسط فى النحو لأبى على الفارسى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ •

٢ — كتاب الأمثال والحكم ، ويشتمل على ثلاثمائة حكمة ، وثلاثمائة حديث ، وثلاثمائة بيت من الشعر ، وهو مخطوط ، وموجود فى ليدن •

٣ — كتاب « البغية العليا » ، فى أدب الدين والدنيا ، ويبحث هذا الكتاب القيم فى الأخلاق الدينية الفاضلة والآداب الاجتماعية ، ويشتمل على فصول فى فضل العقل وذم الهوى والحث على العلم وأخلاق العلماء والآداب الدينية والدنيوية ، ويدخل تحتها ما يصلح به حال الانسان من المؤاخاة وأدب النفس وما يتعلق به كحسن الخلق والحياء والحلم والصدق وأضدادها وآداب المواضعة ، وفيه أبحاث فى الكلام والصمت والصبر والمجزع والمشورة وكتمان السر والمزاح والضحك • ويغلب على

(١) انظر : معجم الأدباء : لياقوت ٥٤/١٥ — ٥٥

(٢) المصدر السابق ص ٥٤

تناول الماوردى لكل هذه الموضوعات الطابع الدينى ، ولم يحاول الماوردى ، مثلا ، التعرض لأصول الأخلاق من الناحية النظرية الفلسفية . ونظرا لأهمية هذا الكتاب فقط طبع مرات عديدة فى مصر ، وأشهر هذه المطبعات الطبعة القيمة الدقيقة التى حققها وعلق عليها الأستاذ الجليل مصطفى السقا (القاهرة • مطبعة مصطفى البابى الحلبي ١٩٥٥م) •

ونختتم قائمة الماوردى بذكر كتبه فى السياسة والادارة والاجتماع ، وهذه الكتب أربعة ، حوت آراء الماوردى فى نظم الحكم والادارة وأنواع الحكومات وموضوعات أخرى على جانب كبير من الأهمية • والكتب الأربعة هى :

١ — كتاب قوانين الوزارة وسياسة الملك ، وقد طبع بالقاهرة سنة ١٩٢٩ م بعنوان : « أدب الوزير » ، وقد قمنا بتحقيق مخطوطة الماوردى التى تحمل هذا الاسم •

٢ — كتاب نصيحة الملوك ، وهو مخطوط ، توجد منه نسخة بالمكتبة الأهلية ببغداد ، ونسخة أخرى على لوحات « فوتوستاب » بمكتبة جامعة القاهرة ، بعد أن قامت الجامعة العربية وأمانة المخطوطات بها . بمجهود كبير ، ونجحت فى الحصول على شريط « ميكروفيلم » للنسخة الأصلية المخطوطة الموجودة ببغداد •

٣ — كتاب تسهيل النظر وتعجيل الظفر ، وتوجد منه نسخة مخطوطة فى غوطه ، ويبحث هذا الكتاب فى السياسة وأنواع الحكومات •

٤ — كتاب الأحكام السلطانية ، ويؤكد هذا الكتاب ، بما لا يدع مجالا للشك ، ثقل وزن الماوردى فى الفكر السياسى الإسلامى • وقد حرص المعاصرون للماوردى من العلماء والفقهاء على ذكر « بعض الفوائد عنه » ، والاستشهاد بكثير من آرائه ونظرياته وذلك لما احتواه من قيمة عملية وجدة وطرافة ، ويقول «ابن شهبة» عن كتاب الأحكام

السلطانية ، « انه تصنيف عجيب » (١) • وقد استرعى هذا الكتاب نظر الباحثين في الشرق والغرب ، حتى أن كبريات الدوريات والمجلات العلمية ما زالت تحوى حتى الآن أبحاثا لكبار المستشرقين عن بعض النظريات السياسية في الاسلام حسب ما تناولها الماوردى بالدراسة في كتابه « الأحكام السلطانية » ونخص بالذكر في ذلك مقالة الأستاذ المستشرق « جب » عضو « مجمع اللغة العربية » المصرى ، والذى نشرها بالانجليزية في مجلة « Islamic culture » الهندية في يولية سنة ١٩٣٧ ، عن نظرية أبى الحسن الماوردى في الخلافة الاسلامية ، وعلى سبيل المثال ، لا الحصر ، أيضا مقال بروكلمان عن الماوردى في دائرة المعارف الاسلامية • وقد حرص الماوردى في مؤلفه هذا على دراسة جميع جوانب الحكم في الدولة ، وتقرير القواعد والأصول ، وتحديد حقوق المواطنين وواجباتهم قبل الحاكم والدولة • ويغاب على جميع أفكار الماوردى المرونة والسهولة وتحكيم العقل ، مع مراعاة القرآن الكريم وأصول الحديث الشريف •

وقد قسم الماوردى هذا الكتاب عشرين بابا : الباب الأول ، في عقد الامامة ، والثانى ، في تقليد الوزارة ، والثالث ، في تقليد الامارة على البلاد ، والرابع ، في تقليد الامارة على الجهاد ، والخامس ، في الولاية على الحروب والمصالح ، والسادس ، في ولاية القضاء ، والسابع ، في ولاية المظالم ، والثامن ، في ولاية النقبابة على ذوى الأنساب ، والتاسع ، في الولاية على امامة الصلوات ، والعاشر ، في الولاية على الحج ، والحادى عشر ، في ولاية الصدقات ، والثانى عشر ، في قسم الفىء والغنيمة ، والثالث عشر ، في وضع الجزية والخراج ، والرابع عشر ، فيما تختلف أحكامه من البلاد ، والخامس عشر ، في احياء الموات واستخراج المياه ، والسادس عشر ، في الحمى والارفاق ، والسابع عشر ، في أحكام الاقطاع ، والثامن عشر ، في وضع الديوان وذكر أحكامه ، والتاسع عشر ، في أحكام الجرائم ، والباب العشرون ، في أحكام الحسبة •

(١) انظر : طبقات الشافعية : تقى الدين بن سبهة — مخطوط —

وقد طبع كتاب الأحكام السلطانية في مصر عدة طبعات ، وطبع من قبل في أوربة ، وتتوافر منه النسخ المخطوطة في بلاد الشرق والغرب ومصر . وهذا المؤلف القيم من ابتكار الماوردي ، وهو أشبه بدستور عام للدولة .

وهناك تشابه كبير بين كتاب الماوردي « الأحكام السلطانية » وكتاب آخر يحمل نفس العنوان « الأحكام السلطانية » لمؤلفه القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء الحنبلي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ . وقد طبع الكتاب الأخير لأبي يعلى الفراء بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩٣٨ م في مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بالقاهرة ، وصححه وعلق عليه الأستاذ الشيخ حامد الفقى ، من علماء الأزهر الشريف ، ورئيس جماعة أنصار السنة المحمدية . وقد تعجب الأستاذ المحقق من اتحاد الكتابين في الاسم ، وقال : « ويزداد الانسان عجا حين يجد عبارة المؤلفين واحدة ، لولا أن أبا يعلى يذكر فروع مذهب الامام أحمد ورواياته » .

والذى انتهينا اليه في هذا الموضوع ، أن مما يرجح بل يؤكد سبق الماوردي الى موضوع التأليف لهذا الكتاب ، أن له كتباً أخرى في السياسة وهى : « نصيحة الملوك » و « تسهيل النظر ، وتعجيل الظفر » ، و « قوانين الوزارة وسياسة الملك » . وهذه المؤلفات ترجمت الى اللغات الأجنبية مثل الألمانية والفرنسية ، وبعضها ترجم الى اللاتينية ، وكلها تشهد بالمكانة الرفيعة ، والمنزلة الراقية التى وصل اليها الماوردي في مجال التأليف السياسى والاجتماعى .

وتحكى بعض الراويات عن الماوردي أنه أخفى مؤلفاته في حياته ، ولم يذع شبيثاً منها على الناس ، على ما حكاه ابن خلكان والسبكي . ويقول ابن خلكان في وفيات الأعيان (١) :

(١) وفيات الأعيان : ابن خلكان ٢/٤٤٤ ، وطبقات الشافعية : السبكي ٣/٣٠٣ ، وسير أعلام النبلاء : شمس الدين أبى عبد الله عثمان الذهبي — وهو مخطوط — ج ٢/١١ ورقة ١٦٢ — ١٦٣

« قيل : انه لم يظهر من تصانيفه في حياته شيئاً ، وانما جمعها كلها في موضع ، فلما دنت وفاته ، قال لشخص يثق به ، الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي ، وانما لم أظهرها لأنني لم أجد نية خالصة لله تعالى لم يشبها كدر ، فان عاينت الموت ووقعت في النزع فاجعل يدك في يدي ، فان قبضت عليها وعصرتها فاعلم انه لم يقبل منه شيء منها ، فاعمد الى الكتب وألقها في دجلة ليلا ، وان بسطت يدي ولم أقبض على يدك ، فاعلم انها قبلت وأني قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية الخالصة ، قال ذلك الشخص : فلما قارب الموت وضعت يدي في يده فأظهرت كتبه بعده وعليها خطه » .

ومما يؤيد الشك في هذه الرواية ، لأنها مسنده الى شخص مجهول ، أن بعض المعاصرين للماوردي حكموا عليه وعلى كتبه في حياته ، ومنهم الخليفة العباسي القادر بالله ، ويقول الخطيب : « كتبت عنه ، وكان ثقة » (١) . واذا صحت هذه الرواية المزعومة فلعلها تكون قاصرة على كتاب الماوردي « الحاوي » ، وهذا هو ما يذهب اليه السبكي عندما يقول : « والا فقد رأيت من مصنفاته عدة كثيرة وعليها خطه ، ومنها ما أكملت قراءته عليه في حياته » (٢) .

وبدحض كلمات هذه الرواية أيضا (أي رواية اخفاء الماوردي لمؤلفاته) ما يذكره الماوردي بنفسه في مقدمة كتابه « الأحكام السلطانية » من أنه قد ألفه امتثالا لأمر من لزم طاعته فيقول :

« ولما كانت الأحكام السلطانية بولاة الأمور أحق وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير أفردت لها كتابا امتثلت فيه أمر من لزم طاعته ليعلم مذاهب الفقهاء فيما له منها فيستوفيه وما عليه منها فيؤفقيه توخيا للمعدل في تنفيذه

(١) تاريخ بغداد ١٢/١٠٢

(٢) طبقات الشافعية ٣/٣٠٤

وقضائه وتحريها للنصفة في أخذه وعطائه ...» (١) ويذكر الصفدي في (الوافى بالوفيات) أن تصانيف الماوردي كانت معروفة ومشهورة ، بل تدل على أنه كان ينافس غيره من علماء العصر في التأليف والتصنيف .

وعلى الرغم من الاضطرابات والقلافل والأحداث الخطيرة والفتن المذهبية التي سادت عصر الماوردي ، وهي كلها ترسم صورة قاتمة لروح العصر الذي عاش فيه الماوردي . فاننا نجد في مقابل ذلك صورة مشرقة زاهرة بالعلم والفن والأدب نتيجة عناية أمراء بني بويه بالعلم والأدب والفن وتشجيعهم للعلماء والكتاب والمفكرين . ولعل من أبرز ما يميز العصر العباسي وخاصة في مرحلته المتأخرة (٢) هو هذا التنافس بين العلماء والأدباء والكتاب . وفي هذا العصر ، أيضا ، فضجت علوم العرب وتآلق المفكرون والمشتغلون في العلم والأدب من الشعراء والأدباء والمؤرخين والجغرافيين واللغويين والفلاسفة والحكماء ، كما نبغ أيضا في هذا العصر العديد من المحدثين والفقهاء والأئمة ، وتجلى هذا

(١) خطبة كتاب الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢

(٢) يقسم المؤرخون التاريخ العباسي الى أربعة عصور :

١ — العصر العباسي الاول (١٣٢ — ٢٣٢) ، وهو العصر الذهبي ويسمى العصر الفارسي الاول لغلبة العنصر الفارسي فيه .

٢ — العصر العباسي الثاني (٢٣٢ — ٣٣٤) ، ويسمى العصر التركي ففيه ساد العنصر التركي .

٣ — العصر الثالث (٣٣٤ — ٤٤٧) ، وهو العصر البويهي ، ويسمى بالعصر الفارسي الثاني ، ففيه كانت السيادة للبويهيين وهم فرس .

٤ — العصر العباسي الرابع (٤٤٧ — ٦٥٦) ، وهو العصر التركي الثاني ، أو عصر السلاجقة .
(تاريخ الدولة العباسية : د . جمال الدين الشيال . دار الكتب الجامعية بالاسكندرية ١٩٦٨ ص ٣٨) .

التألق والنبوغ في مدائن كثيرة من المملكة الإسلامية^(١) من أقصى تركستان في الشرق الى أقصى الأندلس في الغرب ، ويدخل في ذلك ما وراء النهر وأفغانستان وطبرستان وخوارزم وفارس وما بين النهرين والمغرب والأندلس ومصر والشام وغيرها ، « حتى كان للفكر العربي صرح ثابت الدعائم قوى الأركان ، ينشر نوره شرقا وغربا ، ويشترك في بناء الحضارة الانسانية مشاركة فعالة مذكورة ، بل لا نتجاوز الحق اذا قلنا ان هذا الفكر الذي ابتكره العرب أو الذي حملوه كان انسراج الوهاج الذي بعث النور في سائر الأرجاء »^(٢) .

ويكفي أن نذكر هنا بعضا من أسماء الأعلام النبوغ ممن وجدوا في عصر الماوردي لكي ندرك مدى النهضة العلمية التي امتاز بها هذا العصر والتي يرجع الكثير منها — كما علمنا — الى تشجيع الحكام للعلماء والفقهاء العاملين ، وقد كان للماوردي نصيب كبير من هذا التشجيع . تألق في هذا العصر من الفلاسفة والحكماء أمثال : ابن سينا ومن أبرز مصنفاته كتاب الشفاء في الحكمة والنجاة والاشارات ، والخيام والمعري . ومن المحدثين والأئمة أمثال القاضي أبو الطيب الطبري ، والقاضي أبو بكر الباقلاني صاحب أعجاز القرآن ، وأبو الحسين أحمد بن محمد القُدوري البغدادي الحنفي صاحب المختصر المعروف به ، والبيهقي والقشيري ، والحافظ أبي نعيم صاحب كتاب حلية الأولياء ، والحاكم النيسابوري امام أهل الحديث في عصره ، والصيمري والاسفرايني ، وأبو طالب محمد بن غيلان صاحب الأجزاء المعروفة بالغيلانيات .

ومن النحويين واللغويين أمثال : القاضي أبو سعيد بن عبد الله السيرافي النحوي ، وهو من أوسع علماء بغداد ثقافة في علوم القرآن والنحو واللغة والفقه والشعر والعروض ، ومن أبرز تلاميذه أبو حيان

(١) انظر : تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٢ ص ٢٥٩ وما بعدها .

(٢) انصاحب بن عباد : د . بدوي طبانة ص ٦ — ٧

التوحيدى (١) ، والسيرافى هو مصنف شرح كتاب سبويه ، وأبو على الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسى صاحب الايضاح والتذكير ، وعثمان بن جنى النحوى الموصلى مصنف اللمع وقد توفى عام ٣٩٢ هـ ، وأبو نصر اسماعيل بن أحمد الجوهري صاحب الصحاح وكانت وفاته سنة ٤٢٢ هـ . ومن الشعراء المجيدين أمثال الشريف الرضى ، وأبى القاسم بن طباطبا ، وأبى الحسن الأنبارى صاحب المراثية المشهورة التى مطلعها : « (علو فى الحياة وفى الممات . لعمرك تلك احدى المعجزات) وأبى الحسن محمد بن عبد الله السلامى ، ومهيار الديلمى . ومن الأدباء والكتاب أمثال : ابن العميد الكاتب الذى يصفه مسكويه بقوله : « كان ابن عميد أكتب أهل عصره وأكثرهم توسعا فى النحو والعروض واهتداء الى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظا للدواوين من شعراء الجاهلية والاسلام » ، والثعالبى صاحب التصانيف المشهورة وخاصة تحفة الوزراء ، والصاحب بن عباد وهو وزير مؤيد الدولة ، وهو أول من سُمى بالصاحب من الوزراء وتوفى سنة ٤٢٢ هـ ، وقد تعمق فى دراسة العلوم الشرعية واللسانية والأدبية ، فكان عالما بالتوحيد والأصول وألف فيهما ، والحاتمى صاحب الرسالة الحاتمية التى بين فيها سرقات المتنبي ، والخطيب بن نباته الفارقى صاحب ديوان الخطب ، وقد توفى عام ٤٢٢ هجرية .

وفى وسط هذا المجد من التألق والنبوغ والازدهار فى العلوم والفنون والآداب يتعذر بل يستحيل على الماوردى أن يفكر فى حجب مؤلفاته عن معاصريه خاصة وقد عرفنا أن دولة بنى بويه فى بغداد كانت تحب العلم والادب وتشجع العلماء والكتاب وتعمل على تقريبيهم الى مجالسها ، بل وصل بهم الامر أنهم كانوا يحبذون اختيار وزراءهم وعمالهم من العلماء والمفكرين والادباء دون سواهم .

(١) انظر : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق : د . جمال الدين

سرور ص ٢٠٦ وما بعدها .

ويتحدث الدكتور سعيد عاشور عن روح هذا العصر فيقول : ان
الماوردي عاصر الحضارة الاسلامية في أوجها ، ورأى بغداد عندما كانت
عاصمة الفكر والفن والسياسة والمال في العالم أجمع — مشرقة ومغربة —
انه العصر الذي اتبع طريقة التدوين العلمي المنظم للعلوم والدراسات
الاسلامية ، ومنها الآراء السياسية ، بعد أن كانت في العصر الاموي
يغلب عليها طريق الرواية الشفوية ، دون أن يدون فيها الا القليل (١) .

وشمة مسألة هامة وهي اتهام الماوردي بالاعتزال ، وقد أتى ذلك
نتيجة لاعتماد الماوردي على سلطان العقل في بحثه لمسائل الدين ، وقد
نجح في التوفيق بين العقل والشرع في كل ما تناوله من بحث للامور
الدينية وخلافها . وقد اجتهد الماوردي في تحكيم عقله في كل ما صدر
عنه من آراء وأحكام ، ومن هنا كان اتهام البعض اياه بالاعتزال وهي
تهمة هو بريء منها ، والمعروف أن الاعتزال من التهم التي يوجهها
المحدثون عادة لكل عالم متحرر يحكم العقل فيما أمامه من قضايا .

ومن المعروف عن المعتزلة أنهم يقدمون العقل على السمع ،
ويقولون بسلطان عقل الانسان وارايدته ، وتحررها من سلطان القدر .
وأغلب مباحث المعتزلة لم تكن بمنعزلة عن الشئون الانسانية ، فحقيقة
هي مباحث دينية ولكنها متصلة بأصول العقائد والدين والفقه والاحاديث .
وينزع المعتزلة عن العباد الافعال التي لا تصدر عنهم عن وعي وشعور .
ولا يقف المعتزلة عند حدود الاوامر والنواهي ، وانما يجتهدون في تقرير
الاخلاق ، ويزنون الفضائل بمقياس الزمان والبيئة . وقد أدى
تمجيدهم للعقل الى تفسيرهم القرآن بالمعقول أكثر من اعتمادهم على
المنقول وبنو تفسيرهم — كما يقول الاستاذ أحمد أمين — على أسسهم
من التنزيه المطلق وحرية الارادة والعدل . وقد كثرت الاعتراضات على
آراء المعتزلة ، لتنزيههم الله وقولهم بالعقل الخالص ، ونقلهم الدين الى

(١) تراث الانسانية ، المجلد ٥ — ١ مقالة عن كتاب (الاحكام السلطانية)

للماوردي للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١٨

مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية • ولأن الماوردي اجتهد محكما عقله في كل ما تناوله من قضايا ، من هنا كان اتهامه بالاعتزال •

ويقول ياقوت الرومي عن الماوردي : « انه كان شافعيًا في الفروع ومعتزليًا في الأصول على ما بلغني » (١) • ويحكى السبكي في طبقات الشافعية الكبرى قصة هذا الاتهام فيقول مانصه : « قال ابن الصلاح : هذا الماوردي عفا الله عنه يتهم بالاعتزال • وقد كنت لا أتحقق ذلك عليه وأتأول له ، واعتذر في كونه يورد في تفسيره في الآيات التي يختلف فيها أهل التفسير ، تفسيرًا أهل السنة وتفسير المعتزلة ، غير متعرض لبيان ما هو الحق فيها • وأقول : لعل قصده إيراد كل ما قيل من حق وباطل ، ولهذا يورد من أقوال المشبهة بأشياء ، مثل هذا الإيراد ، حتى وجدته يختار في بعض المواضع قول المعتزلة ، وما بنوه على أصولهم الفاسدة وتفسيره عظيم الضرر لكونه مشحونًا بتأويلات أهل الباطل ، تلبيسًا وتدسيسًا • على وجه لا يفطن له غير أهل العلم والتحقيق ، مع أنه تأليف رجل لا يتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة ، بل يجتهد في كتمان موافقتهم فيما هو لهم فيه موافق » (٢) •

وهذا الذي يذكره ابن الصلاح هو نوع من اجتهاد الماوردي • وترجيحه بين الآراء العلمية ترجيحًا عقليًا • والاجتهاد لم يوصد بابه قط ، بل يقول الحنابلة : انه لا يصح أن يخلو عصر من وجود مجتهد ، ولأن طريق معرفة الأحكام الشرعية إنما هو الاجتهاد • « وروى مسلم في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من امرئ يلي أمر المسلمين ثم لم يجتهد لهم وينصح إلا لم يدخل الجنة معهم » • وينبئ القرآن الكريم إلى أهمية العقل في حياة الإنسان والمجتمع البشري بأكمله فيقول تعالى : « ألم نجعل له عينين ، ولسانًا وشفهتين ، وهديناہ النجدين » • • • والنجدان هنا هما طريقا الخير والشر ، والعقل هو الذي يكشفهما

(١) معجم الأدباء : ياقوت ٥٣/١٥

(٢) طبقات الشافعية : السبكي ٣/٣٠٤ — ٣٠٥

لنسا • ومعنى هذا أن الاسلام يعترف للفرد بحق التفكير المستقل .
وهو المبدأ الذى يعرف فى كتب الفقه والاصول باسم « الاجتهاد » •
وقد انفرد الاسلام بتقرير مبدأ الاجتهاد وسبق به حركة الاصلاح
الدينى التى ظهرت فى عصر النهضة ، أى بعد مناداة الاسلام واقرار
لمبدأ الاجتهاد بألف عام • ولم يكن رجال الدين المسيحى يسمحون قبل
بزوغ حركة الاصلاح الدينى ، وظهور « لوثر » وأتباعه ، بحق الفرد فى
فهم النصوص الماثورة وتكوين حكم لنفسه •

وترمى سياسة التشريع الاسلامى الى اسعاد المسلمين ، بتنظيم
حياتهم وتدعيم حرياتهم ، وهى تضع الاطار العام وتعطى للمسلمين
بعد ذلك الحق فى الاجتهاد ، والتفكير وتدبير أمورهم فى حدود الاطار
العام للتشريع الاسلامى • وقد أقر الرسول صلى الله عليه وسلم اجتهاد
من اجتهد. فى حضرته من صحابته • وقال للمجتهد : « ان أصبت فلك
أجران ، وان أخطأت فلك أجر » وقد أقر النبى صلى الله عليه وسلم
معازدا على اجتهاد رأيه فيما لم يجد فيه نصا عن الله ورسوله فقال
شعبه حدثنى أبو عون عن الحرث بن عمر عن أناس من أصحاب معاذ
عن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه الى اليمن قال
كيف تصنع أن عرض لك قضاء قال أقضى بما فى كتاب الله قال فان
لم يكن فى كتاب الله قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال
فان لم يكن فى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال اجتهد رأيى
لا آلو قال فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صدرى ثم قال
الحمد لله الذى وفق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لى رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم » (١) • وقد اجتهد الصحابة فى زمن النبى صلى الله
عليه وسلم فى كثير من الاحكام ، وكانوا يقيسون بعض الاحكام على
بعض ويعتبرون النظر بنظيره •

(١) اعلام الموقعين عن رب العالمين لشمس الدين أبى عبد الله المعروف
بأبن القيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ ٧١/١ وأيضا ص ٧٠

ويقول الاستاذ عبد الوهاب خلاف في كتابه «السياسة الشرعية»^(١) وقد ظهرت هذه الروح (روح الاجتهاد) فيما سلكه الراشدون بعد وفاة الرسول في تدبير الشؤون العامة للدولة فكانوا يهتدون في نظمهم وسائر تصرفاتهم بما شرع الله في كتابه ، وعلى لسان رسوله • وأن حدث لهم ما ليس له حكم في كتاب الله ولا سنة رسوله اجتهدوا رأيهم واتبعوا ما أدى اليه اجتهادهم مما رأوا فيه مصلحة الأمة ولا يخالف روح الدين • وكثيرا ما كان اجتهاد أحدهم يخالف اجتهاد صاحبه بل قد يخالف ما يفهم من ظاهر النص • وما اتهم مجتهد منهم أنه على غير الحق أو تنكب طريقه ، مادامت الغاية : المصلحة وعدل الله • والوسيلة : اجتهاد الرأي وانعام النظر •

فالخلفاء الراشدون ومن أتى من بعدهم كانوا يعتمدون في معالجتهم الامور الدينية وغير الدينية على الاجتهاد ما دام الاجتهاد في غير موضع النص وفي حدود أصول الدين الكلية ونصوصه الصحيحة ويقول ابن القيم ان من قال لا سياسة الا بما نطق به الشرع فقد غلط وغلط الصحابة • « ولما بعث عمر شريحا على قضاء الكوفة قال له انظر ما يتبين لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا وما لم يتبين لك في كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما لم يتبين لك فيه السنة فاجتهد فيه رأيك »^(٢) •

وقد سار فقيهنا الماوردي على منوال الشريعة الخراء مقتديا بالصحابة والخلفاء والائمة الصالحين فيما كانوا يقومون به بأنفسهم من استنباط الاحكام الشرعية لمعالجة القضايا التي تعرض عليهم • فليس بدعا ، اذن ، أن يجتهد الماوردي رأيه فيما ليس له حكم في كتاب الله

(١) السياسة الشرعية ص ٨

... (٢) اعلام الموقعين عن رب العالمين لشمس الدين أبى عبد الله المعروف ، بابن القيم الجوزية ٧١/١ •

أو بسنة رسوله ، وليس بمستغرب بعد ذلك أن يتهمه البعض بتهمة الاعتزال *

ومن الواضح لنا بعد ذلك أن هذا الاتهام للماوردي مرجعه الاجتهاد * وموازنة الماوردي بين الآراء وترجيحه بعضها على بعض ، دون نظر إلى القائل بهذا الرأي أو ذاك ، ومن هنا كان التشابه بين بعض آراء الماوردي وبعض آراء المعتزلة * ويتولى السبكي بنفسه الدفاع عن الماوردي ضد اتهام ابن الصلاح إياه بالاعتزال فيقول :

« ثم هو ليس معتزليا مطلقا ، فإنه لا يوافقهم في جميع أصولهم ، مثل خلق القرآن ، كما دل عليه تفسيره في قوله عز وجل : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث... » وغير ذلك ويوافقهم في القدر ، وهي البلية التي غلبت على البصريين ، وعيىوا بها قديما » (١) *

ويقول الخطيب احمد بن علي بن ثابت البغدادي ، صاحب التاريخ الكبير ، ومن أكبر تلاميذ الماوردي ، وأقرب إليه من ابن الصلاح ، يقول للبغدادي مدافعا أيضا عن الماوردي من تهمة الاعتزال : « كتبت عنه وكان ثقة » * وهذه شهادة من عالم جليل ، ومطلع بصير بتاريخ الرجال وأحوالهم ، وهي أجدر بالتقدير والاحترام من قول ابن الصلاح *

(٣)

أهمية الماوردي في الفكر السياسي :

يجتاز الماوردي في ميدان الفكر السياسي مكانة مرموقة ومنزلة مشهورة * وهو لم يترك جانبا من إدارة شئون الدولة ، ورعاية شئون الجماعة الانسانية إلا عالجه واستقصى حقيقته * ولعل هذا يتفق

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٣/٣٠٥ *

مع قول « هارولد لاسكى » : « ان السياسة لا يمكن فصلها عن الادارة ، وان جوهر القوانين ليكن دائما في تنفيذها »^(١) ، وهذا أيضا مما لا يختلف عليه رأى منذ « أفلاطون » حتى « برتراند رسل » • وتستقى أصول الاحكام السياسية من كتابات فقهاء المسلمين ، ومن هؤلاء الفقهاء نذكر الامام الشافعى رضى الله عنه ، والفقيه الماوردى ، حيث نجد فيما كتبه كثيرا من الآراء السياسية • وليس هذا بغريب ، اذ المعروف أن فقهاء المسلمين هم أنفسهم الذين صاغوا الاسس العلمية للدولة صياغة سليمة ، مستنيرين في ذلك ومسترشدين بأحكام كتاب الله وسنة رسوله ، وليس هذا أيضا بمستكثر على الفكر الاسلامى ، الذى يجمع بين الدين والدنيا ، ولا يعرف التفرقة ما بين الدين والسياسة ، وهذا ما يؤكده الاستاذ « شاخى » ، فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية بقوله : « ليس الاسلام مجرد دين ، بل انه نظام فكرى متكامل يشمل الدين والدولة جميعا » •

ومما هو معروف أن الفكر السياسى يعنى نظام الحكم ، ومعالجة المسائل السياسية من حيث النظرية ، مع ما يقترن بهذا النظام وهذه المعالجة من مفاهيم الحرية والمساواة والعدالة الانسانية ويشكل الفكر السياسى ، الدعائم العقلية للثورات الكبرى فى التاريخ البشرى ، وهذا الفكر السياسى ، قديم قدم المجتمع والفكر البشرى •

وعندما يتناول الماوردى ببحثه موضوعات الخلافة ، والعلاقة المتبادلة بين الحاكم والرعية ، ومنصب الوزارة فى الاسلام وأنواعها من وزارة تفويض وتنفيذ ، وتقليد الامارة على البلاد ، وأقسامها وأنواعها مثل الامارة على الجهاد ، والولاية على حروب المصالح ، وولاية القضاء ، وولاية المظالم ، وولاية الحسبة ، فهو ، اذن ، يؤكد هذا المبدأ السليم ،

(١) أصول السياسة : هارولد لاسكى ٨٦/٣ •

كما يؤكد أيضا مدى ما يتمتع به من فكر عميق وادراك سليم ، حيث انه لم يترك جانبا من جوانب الحكم في الدولة الا تناوله بالبحث والدراسة ، مع تقريره القواعد والاصول في معالجته لجميع شئون الحكم في الدولة •

ويعرف علم السياسة بأنه العلم الذي يبحث علاقات كل من الافراد والجماعات ببعضهم البعض ، وعلاقاتهم بالحكومة أو الدولة ، كما يبحث هذا العلم أيضا الاسس التي تقوم عليها الدولة ، ودستورها العام ، وتنظيم الحكومة وادارتها ، ويهدف علم السياسة من وراء كل ذلك الى تنظيم المجتمع بما يكفل له التقدم والاستقرار •

ويرى « ريمون آرون » Raymon Aron الباحث الفرنسي في العلوم السياسية ، أن علم السياسة هو دراسة كل ما يتصل بحكومة الجماعات القائمة بين الحاكمين والمحكومين • (١) ويعرف الفقيه الفرنسي Littre السياسة بكل ايجاز عندما يقول انها علم ادارة الدولة • (٢) وهذا أيضا هو تعريف معجم المجمع العلمى الفرنسى للسياسة حيث يذهب الى أن السياسة هى معرفة كل ماله علاقة بفن حكم الدولة •

وفى العربية : جاء فى لسان العرب « (الجزء السابع) : وساس الامر سياسة قام به ، ورجل ساس من قوم ساسه وسواس •• وسوسه القوم : جعلوه يسوسهم ••• والسياسة — لغة — هى القيام على الشئ بما يصلحه • والسياسة فعل المسائس وهو يسوس الدواب اذا قام عليها • والوالى يسوس رعيته ••• وفى الحديث (كان بنو اسرائيل يسوسهم أنبياءهم) أى تتولى أمورهم كما يفعل الامراء والولاة بالرعية » •

(١) المدخل فى علم السياسة : للدكتورين بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى طبعة ١٩٥٩ ص ٦ •

(٢) راجع : مبادئ علم السياسة للدكتور لؤى بحرى ١٩٦٦ ص ٣٦ (م ٤ — الماوردى)

وجاء في قاموس المحيط : « سست الرعية سياسة أمرتها ونهيتها
وفلان مجرب قد ساس وسييس عليه يعنى أدب وأدب » (١) .

ويعرف كتاب المنجد السياسة بقوله ، انها تدبير مشاكال القوم
وتولى أمرهم والقيام به (٢) وهذا أيضا ما نجد شبيها به عند ابن خلدون
حيث يعنى بالسياسة « المصالح العامة » .

ويقول الدكتور أحمد سويلم العمرى فى كتابه « بحوث فى السياسة »
الذى نشر عام ١٩٥٣م ، ان علم السياسة هو دراسة تدبير شئون
الجماعة ، وتنظيم علاقاتها . فالسياسة هى مجموعة الظواهر والحركات
التي تتناول صلات الافراد بالجماعات ، وصلة الجماعات ببعضها ، وفى
قمتها الدول . وهى تبدأ بالفرد ، فالاسرة ، فالقبيلة ، فالعشيرة ، فالدولة ،
فالمنظمات الدولية ، فأسرة الدول .

ويتفق أيضا مع هذا المذهب الدكتور محمد توفيق رمزى فى كتابه :
« علم السياسة أو مقدمة فى أصول الحكم » اذ يعرف علم السياسة
أو علم الدولة بقوله : « العلم الاجتماعى الذى يتحدث فى الصلة
العامة بين الناس وبعضهم فى ظل الهيئه الكبرى التى ينتظمون تحتها ،
والتي تسمى الدولة » .

ونخلص من كل ذلك الى أن السياسة هى ادارة شئون البلاد ادارة
عملية ويسمىها البعض بفن الحكم أو علم الحكم العملى ، وقد تقدم أن
الموردى لم يترك شيئا من ادارة شئون البلاد ألا تناوله بفكره العميق
ونظره السديد ، وهو ما يرسخ وجوده فى ميدان الفكر السياسى .

واذا قارنا كتابات الموردى السياسية ببعض كتابات علماء
المسلمين الاخر فى هذا الميدان ، لا تضح لنا عظم المنزلة التى يحتلها

(٢) قاموس المحيط ، ل محمد الفيروزابادى ، القاهرة ١٩١٣ ، ٣٢٢/٢ .

(١) المنجد ، لويس مغلف ، المطبعة الجديدة ، بيروت ص ٣٦٢ .

الماوردي في مجال التأليف السياسي ، فقد نظر بعض علماء المسلمين ، منذ القرن الثالث الهجري ، الى موضوع علم السياسة كأنه آدب خاص ، بل وردت أغلب كتاباتهم في هذا الموضوع ضمن مؤلفات شاملة لموضوعات متعددة من أدب وتاريخ ودين وسياسة وغيرها .

فاذا طالعنا ما كتبه ابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩م) في كتاب « عيون الاخبار » لوجدنا أنه يخصص قسما معيننا عنوانه : « كتاب السلطان » يتحدث فيه عن الخلال التي يجب أن يتحلى بها السلطان ، وفي رسوم صحبته ومعاملته ومشاورته وما يجب عليه نحو العمال والحكام ، ويغلب على أقوال ابن قتيبة طابع النصيح والموعظة ، وأغلبها مما ينسب لحكماء الفرس والهنود .

ويتحدث الفيلسوف المسلم أبو نصر الفارابي ، المتوفى سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠م) في كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » عن خصال رئيس المدينة الفاضلة ، وما لا يناسب المدينة الفاضلة ، والفرق بين أهل المدن الفاضلة والمدن الضالة ، وقد تناول بالحديث أيضا حاجة الانسان الى الاجتماع والتعاون ونشأة القرى والمدن ، وهذا الكتاب بعيد عن الحياة الحقيقية (١) .

فاذا انتقلنا الى فترة زمنية أبعد من ذلك لوجدنا كتاب «سراج الملوك» لواءحه « أبو بكر الطرطوشي ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ يتحدث فيه عن الخصال الواجب توافرها في السلطان ، والصفات التي تؤدي الى ضياع الملك ، ثم عن خلال السلطان منفردة ، وعيوبه منفردة ، ويتحدث أيضا ، عما يجب أن يتصف به السلطان نحو الجند والرعية . ويستطرد الطرطوشي في الحديث عن موضوعات أخرى متفرقة ، ويغلب على كل هذه الأقوال الطابع الديني المتميز بالوعظ والارشاد والحكم والأقوال المأثورة .

(١) هذا هو رأي بارتولد في كتاب الفارابي عن المدينة الفاضلة ، راجع كتاب : تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ترجمة حمزة طاهر .

• وهناك كتابات أخرى أوضح ما يميزها طابع الادب والموعظة والقصص القديمة المتداولة بين أغلب كتاب هذه الحقبة الزمنية • فمثلا اذا تصفحنا الكتاب الموسوم « بالتبر المسبوك في حكايات وحكم ونصائح الملوك » لمؤلفه أبى حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ لوجدناه عبارة عن نصائح متعددة في الخلال التي يجب أن يتحلى بها السلطان ، وقد ألف الغزالي هذا الكتاب باللغة الفارسية للسلطان محمد بن مالك شاه •

ويتضح لنا أيضا غلبة طابع الادب والموعظة والحكم الماثورة اذا طالعنا مقدمة كتاب الفخرى لابن طباطبا المشهور بابن الطقطقى الذى عاش في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجرى بعد ذهاب الدولة العباسية وقد توفى في عام ٧٠٩ هجرية • يقول ابن طباطبا في الفصل الاول من كتابه «الفخرى في الآداب السلطانية والدول الاسلامية»: «أما الكلام على أصل الملك وحقيقته وانقسامه الى ریاسات دينية ودنيوية، من خلافة وسلطنة ، وامارة وولاية ، وما كان من ذلك على وجه الشرع وما لم يكن ، ومذاهب أصحاب الآراء في الامامة ، فليس هذا الكتاب موضوعا للبحث عنه ، وانما هو موضوع للسياسات والآداب التي ينتفع بها في الحوادث الواقعة ، والوقائع الحادثة ، وفي سياسة الرعية وتحسين المملكة ، وفي اصلاح الاخلاق والسيره» (١) • كما يتحدث ابن طباطبا في مؤلفه هذا ، أيضا ، عن الخصال التي يجب أن تتوفر في الملك الفاضل (٢) وحقوق الملك على الرعية ، وخطر الانغماس في الشهوات على الملك والدولة الخ •

أما مفكرنا الماوردى فقد تميز عن كل هؤلاء بأن أفرد للحديث عن نظم الحكم مؤلفات وكتب محددة مثل كتاب « الاحكام السلطانية » ،

(١) الفخرى في الآداب السلطانية • الفصل الاول : في الامور السلطانية والسياسات الملكية ص ١٤ •

(٢) المصدر السابق ص ١٤ وما بعدها •

الذى يعد من أندر الكتب وأشهرها وأكثرها قيمة في هذا الموضوع • ويؤكد صدق هذا قول الدكتور طه حسين في رسالته العلمية عن ابن خلدون^(١) بأنه نقل قسما كبيرا من معلوماته التى تتناول مبحث الخلافة ومهامها والملك ورسومه عن الماوردى ، ويقول الدكتور طه حسين ، أيضا ، ان كتاب « الاحكام السلطانية للماوردى يعد من المصادر الهامة التى اعتمد عليها ابن خلدون ، كما أن معلومات ابن خلدون في هذا المبحث كان ينقصها الطرافة • ومن الكتب الاخرى التى خصصها الماوردى للحديث عن نظم الحكم كتاب « تسهيل النظر ، وتعجيل الظفر » وهو يبحث في السياسة وأنواع الحكومات ، وكتاب « قوانين الوزارة وسياسة الملك » ، وكتاب « نصيحة الملوك » ، وليس بمستكثر على الماوردى بعد ذلك أن يعد من أوائل مفكرى الاسلام في ميدان التأليف في علم السياسة وأصول الحكم • ويغلب على أفكار الماوردى الطابع الانسانى ، وليس ذلك بدعا ، فالماوردى مفكر اسلامى يستقى أفكاره وآراءه من وحى تعاليم القرآن الكريم وشريعة الاسلام السمحة الرحبة •

(١) انظر : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية : للدكتور طه حسين
ترجمة محمد عبد الله عنان ص ١٢٧ •

الفصل الثاني

الحاكم

ضرورة وجوده ، والاساس في اختياره

- ١ — ضرورة وجود حاكم قوى
- ٢ — نظرية ابن خلدون في الملك والخلافة والعصبية
- ٣ — تعاريف الامامة
- ٤ — اختلاف الآراء حول نصب الخليفة
- ٥ — أهمية القاعدة الشعبية في اختيار الحاكم
- ٦ — رأى الشيعة
- ٧ — أهل الحل والعقد
- ٨ — ولاية العهد أو الاستخلاف
- ٩ — الشروط الواجب توافرها في الائمة
- ١٠ — مقارنة بين مكيافلى والماوردي من حيث الشروط الواجب توافرها في الحاكم
- ١١ — رأى الماوردي في حالة توافر شروط الامامة في اثنين •
- ١٢ — امامة المفضول
- ١٣ — هل يجوز تولية أكثر من امام
- ١٤ — أهمية الخلافة في الاسلام

ضرورة وجود احكم قوى :

تجمع فلسفة الاسلام بعمومها وشمولها ما بين شئون الناحيتين المادية والروحية • ومن ذلك أن الاسلام لم يحاول الفصل بين الدين والدولة ، وكان نظام الخلافة يتضمن رئاسة الخليفة لامور الدين والدنيا ، ولم يكن الخليفة يستمد سلطته من الله ، وانما يستمدها من الامة اذ هي التي تختاره لهذا المنصب ، وتتشد من أذره وتمنحه القوة •

والنظام السياسى يفترض حتما وجود سلطة تتولى ادارة شئون الدولة ورعاية مصالح الناس ، ومن ثم نشأت التفرقة بين الحكام والمحكومين ، ومن المعلوم أنه توجد في كل جماعة انسانية طائفتان من الاشخاص : الاولى هي صاحبة الارادة الاقوى التى تحكم وتآمر وتوجه ، والطائفة الثانية هي الحكومة الملزمة بالطاعة •

وأكبر منصب فى الدولة العربية الاسلامية هو منصب الخليفة أو الامام ، أو كما يسمى فى العصر الحديث الرئيس الاعلى للدولة • وهذه الرئاسة العليا مكانتها من الحكومة الاسلامية مكان الرئاسة العليا من أية حكومة دستورية ، لأن الخليفة يستمد سلطانه من الامة المثلة فى أولى الحل والعقد ، ويعتمد فى بقاء هذا السلطان على ثقتهم به ونظيره فى مصالحهم • وهذا الخليفة أو الامام ، ما هو الا رجل اختارته الامة ليكون ممثلا لها ، ويتولى الاشراف على أمورها وتدبير شئونها ، ومن ثم يجب عليها تقديم النصيحة له فيما ينبغى النصيحة فيه ، وواجب عليها التوجيه والتقويم ، ومن حق الامة أيضا عزله ان وجد ما يوجب العزل ، كما هو الامر بالنسبة للموكل مع وكيله النائب عنه • وذلك أيضا يؤكد للاسلام فلسفته الديمقراطية ، حيث أنه لا يعرف ولا يقر للخليفة بمركز خاص فى الامة يحميه من النصح والتوجيه ويعفيه من بعض ما يجب عليه تجاه الامة من واجبات ومسئوليات •

يقول الماوردى ، مؤكداً ، على ضرورة وجود السلطة الحاكمة :
 « ان الله جلت قدرته ندب للامة زعيما خلف به النبوة وحاط به الملة
 وفوض اليه السياسة ليصدر التدبير عن دين مشروع وتجتمع الكلمة
 على رأى متبوع فكانت الامامة أصلاً عليه استقرت قواعد الملة ، وانتظمت
 به مصالح الامة ، حتى استثبتت بها الامور العامة ، وصدرت عنها
 الولايات الخاصة . ولولا الولاة لكان الناس فوضى مهملين ، وهمجاً
 مضاعين . وقد قال الافوه الاودى ، وهو شاعر جاهلى :
 لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم . ولا سراة اذا جهالهم سادوا (١)

ومعنى هذا أن المجتمع السياسى لا يتصور بغير سلطة حاكمة تنظمه
 وتضع القواعد له ، وكما يقول الكاتب الانجليزى تشيسترتون « لو أن
 جماعة كانت كلها قادة أبطالاً مثل هاينبال ونبليون ، فمن الاوفق ألا
 يحكموا جميعاً فى وقت واحد » . فالنظام السياسى ، يفترض حتماً
 وجود سلطة تتولى ادارة الدولة وتوفير العدالة للجميع ، « ولا بد
 للمسلمين من حاكم ، أتذهب حقوق الناس ؟ » (٢) .

ويقول الماوردى ، أيضاً ، فى كتابه أدب الدنيا والدين : « اعلم
 أن ما به تصلح الدنيا ، حتى تصير أحوالها منتظمة ، وأمورها ملتزمة ،
 سنة أشياء ، وهى قواعدها وان تفرعت ، وهى دين — متبع
 ، وسلطان قاهر ، وعدل شامل ، وأمن عام ، وخصب دائم ، وأمل
 فسيح » . والسلطان القاهر ، تتألف برهيته الاهواء المختلفة ، وتجمع
 بهيبته القلوب المتفرقة ، وتنكف بسطوته الايدى المتغالبة ، وتنقمع من
 خوفه النفوس المتعادية ، لأنه فى طباع الناس من حب المغالبة والمنافسة

(١) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٢-٣ ، وراجع أيضاً : سراج
 الملوك للطرطوشى ص ٤٤ ، وسلوك المالك فى تدبير الممالك لابن أبى الربيع ،
 مخطوط ، ص ١٠٤ .

(٢) الاحكام السلطانية لأبى يعلى الفراء الحنبلى المتوفى سنة ٥٨٠ هـ
 تصحيح محمد حامد الفتى ص ٨ .

على ما آثروه ، والقهر لمن عانده ، ما لا ينكفون عنه الا بمانع قوى ،
ورادع ملى * * *

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « السلطان ظل
الله فى الارض ، يأوى اليه كل مظلوم » ، وقد روى عنه صلى الله عليه
وسلم أنه قال : « ان الله ليزع بالسلطان ، أكثر مما يزع بالقرآن » ،
وروى عنه أيضا أنه قال : « ان لله حراسا فى السماء ، وحراسا فى الارض
فحراسه فى السماء الملائكة ، وحراسه فى الارض الذين يقبضون أرزاقهم ،
ويذبون عن الناس » * * * فهذه آثار السلطان فى أحوال الدنيا ، وما ينتظم
به أمورها * ثم لما فى السلطان من حراسة الدين والذب عنه ، ودفع
الاهواء منه ، وحراسة التبديل فيه ، وزجر من شذ عنه بارتداد ، أو بغى
فيه بعناد ، أو سعى فيه بفساد ، وهذه أمور ان لم تنحسم عن الدين
بسلطان قوى ، ورعاية وافية ، أسرع فيه تبديل ذوى الاهواء ، وتحريف
ذوى الآراء * * * كما أن السلطان ان لم يكن على دين تجتمع به القلوب ،
حتى يرى أهله الطاعة فيه فرضا ، والتناصر عليه حتما ، لم يكن للسلطان
لبث ، ولا لايامه صفو ، وكان سلطان قهر ، ومفسد دهر ، ومن هذين
الوجهين وجب اقامة امام يكون سلطان الوقت ، زعيم الامة ، ليكون
الدين محروسا بسلطانه ، والسلطان جاريا على سنن الدين وأحكامه » (٣) .

ويقول ابن حجر الهيتمى : « اعلم أيضا أن الصحابة رضوان الله
عليهم أجمعوا على أن نصب الامام بعد انقراض زمن النبوة واجب ،
بل جعلوه أهم الواجبات حيث اشتغلوا به عن دفن رسول الله صلى
الله عليه وسلم * واختلافهم فى التعيين لا يقدر فى الاجماع المذكور * *
ولتلك الاهمية لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام أبو بكر خطيبا ،
فقال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد
الله فان الله حى لا يموت ، ولا بد لهذا الامر ممن يقوم به ، فانظروا

(٣) . أدب الدنيا والدين : الماوردى تحقيق الدكتور مصطفى السقا

وهاتوا آراءكم فقالوا صدقت ننظر فيه ... ثم ذلك الواجب عندنا معشر أهل السنة والجماعة وعند أكثر المعتزلة بالسمع أى من جهة التواتر والاجماع المذكور • وقال كثير بالعقل ووجه ذلك الوجوب أنه صلى الله عليه وسلم أمر باقامة الحدود وسد الثغور وتجهيز الجيوش للجهاد وحفظ بيضة الاسلام (أى مجتمع الاسلام) ، وما لا يتم الواجب المطلق الا به وكان مقدورا فهو واجب ولأن فى نفسه جلب منافع لا تحصى ودفع مضار لا تستقصى ، وكل ما كان كذلك كان واجبا » (٤)

ويرى القديس « توما الاكوينى » ان المصلحة العامة للمجتمع تقتضى حتما وجود حاكم توكل اليه مهمة تنظيم تبادل الخدمات • وحاجة المجتمع الى هذا الحاكم كحاجة الجسد الى الروح • الجسد لا يحيا بغير روح ، والمجتمع لا تستقيم أموره بغير حاكم • ويعتقد « القديس توما » أن الحكم لا يزيد على كونه مركزا تحتمه طبيعة المجتمع ، غير انه مركز من طبقة عليا ، فالحاكم ، كغيره من أفراد الرعية ، يقوم بأعمال ترمى الى اقرار المصلحة العامة • ويؤمن بأن هذا الحاكم يستمد سلطته من الله ، وغاية هذه السلطة تنظيم حياة المجتمع ، وتحقيق السعادة لأفراده • وسلطة الحاكم واجب مقدس يدين به الحاكم لرعيته ، ولكى ينهض بهذا الواجب عليه أن يلتزم حدود سلطته ، والا ألحق الضرر بالمجتمع (٥) •

واذن ، فالقديس توما يعتقد أن الحكومة تقوم قبل كل شىء لغرض أخلاقى ، وليس لها أن تقوم بأى عمل ينافى هذا الغرض • وعلى الحاكم أن يوجه الافراد الى كل عمل يؤدي الى اسعادهم ، كما يجب عليه اقرار الحياة الفاضلة •

(٤) الصواعق المحرقة : ابن حجر الهيتمى ص ٧—٨ •

(٥) انظر : المدخل فى علم السياسة للدكتورين بطرس غالى ومحمود خيرى طبعة اولى ١٩٥٦ ص ١٤٠ — ١٤١ •

ويؤكد « هيوم » ذلك بقوله : « وقدر صغير من التفكير والملاحظة يكفي لتعليمنا أنه لا يمكن المحافظة على المجتمع دون سلطة حاكم ما ، وأن هذه السلطة لا بد أن تنهار ، وتصير موضع احتكار اذا لم تحظ بطاعة مطلقة ... والناس لا يستطيعون العيش مطلقا في مجتمع ، على الاقل في مجتمع متمدن ، دون قوانين وقضاة وحكام يحولون دون اعتداء القوى على الضعيف ، اعتداء العنف على العدالة والحق » (٦) .

وكل مجتمع سياسى يراد تجنبه أسباب الفوضى ، لا بد وأن يكون فيه سلطة عليا تصدر الاوامر لسائر الافراد ، دون أن تتلقى الاوامر من أحد . وتلك هي سلطة السياسة وتمارسها الحكومة القائمة التى أسند اليها تسيير دفة الامور باسم الدولة . أما مبررات هذه السلطة فقد ذهبت فيها الآراء مذاهب شتى (٧) .

ويقول « هارولد لاسكى » أيضا : « وثمة ضروبا من تناسق السلوك يجب مراعاتها ، فإن وجوه نشاط جماعة من الجماعات المتمدينة تبلغ من التعقيد والتعدد مبلغا لا يمكن معه تركها تحت رحمة التوجيه الاعمى للفرغات ، وحتى لو أمكن الاعتماد على أن يتصرف آحاد الناس على أساس يتفق ومدى فطنتهم ، فما تزال ثمة حاجة لمقياس مما تعارف عليه الناس ، وقبله المجتمع فى شكله المنظم ، ليميز به بين الحق والباطل » (٨) .

ويذهب أيضا هذا المذهب ، أمام الحرمين الجوينى فيقول : « ولو ترك الناس فوضى لا يجمعهم على الحق جامع ولا يزعهم وازع ، ولا يردعهم

(٦) العقد الاصلى لهيوم ضمن كتاب (العقد الاجتماعى) للوك . هيوم روسو ص ٦٧ .

(٧) أصول السياسة : هارولد لاسكى ترجمة محمود فنحى عمر وابراهيم لطفى عمر مراجعة د . بطرس غالى . دار المعارف بالقاهرة ٧/١ .

(٨) المصدر السابق ١ / ٤٧ .

عن اتباع خطوات الشيطان رادع مع تفنن الآراء ، وتفرق الاهواء ، لتبتتر النظام وهلك الانام ، وتوثب الطغام والعوام ، وتخربت الآراء المتناقضة ، وتفرقت الارادات المتعارضة ، وملك الارذلون سراة الناس وفضت الجامع ، واتسع الخرق على الراقع ، ونشبت الخصومات ، واستحوذ على أهل الدين ذوو الغرامات ، وتبددت الجماعات » (٩) •

ويؤيد هذا ، « عبد الرحمن بن نصر » حيث يقول : « انه لما كانت الرعية صنوفا مختلفة ، وشعوبا مختلطة متباينة الاغراض والمقاصد ، متفرقة الاوصاف والطبائع ، افتقرت ضرورة الى ملك عادل ، يقوم بأودها ، ويقيم عمدها ، ويمنع ضررها ، ويأخذ حقها ، ويذهب عنها ما أشقها » (١٠) •

نظرية ابن خلدون في الملك والخلافة والعصبية :

يفهد ابن خلدون للحديث عن الخلافة أو الحكومة الاسلامية كظاهرة طبيعية للمجتمع بتأكيده ، أولا ، استحالة معيشة أفراد المجتمع منفردين فيقول في مقدمته : (١١) الاجتماع الانساني ضروري • ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم : « الانسان مدنى بالطبع » ، أى لا بد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم وهو معنى العمران • وبيانه أن الله سبحانه خلق الانسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها الا بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته ، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله • إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من

(٩) غياث الامم فى التياث الظلم : أبو المعالى الجوينى — مخطوط — ص ١٠ ، وراجع : انار الاول فى ترتيب الدول للحسن بن عبد الله العباسى ، وهو مطبوع ، ص ١١ •

(١٠) المنهج المسلوك فى سياسة الملوك : عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر مخطوط — ص ٥ •

(١١) المقدمة تحقيق : د • على عبد الواحد وافى ج ١ ص ٢٠ وما بعدها

ذلك الغذاء ، غير موفية له بمادة حياته منه • ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا ، فلا يحصل الا بكثير من الطحن والعجن والطبخ ، وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخورى • هب أنه يأكله حبا من غير علاج ، فهو أيضا يحتاج في تحصيله حبا الى اعمال أخرى أكثر من هذه ، من الزراعة والحصاد والدراس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل • ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الاولى بكثير ويستحيل أن توفى بذلك كله أو ببعض قدرة الواحد • فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف • وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا في الدفاع عن نفسه الى الاستعانة بأبناء جنسه • • • • الخ • ويقول أيضا : • • « فاذن هذا الاجتماع ضرورى للنوع الانسانى ، والا لم يكمل وجودهم وما أراد الله من اعتماد العالم بهم واستخلافهم • • • » (١٢) •

وبعد أن يسجل ابن خلدون هذه الحقيقة ، ونعنى بها طبيعية الاجتماع وضروريته للانسان ، يذهب الى أنه لا بد مع هذا الاجتماع من وجود الموازع للبشر ، وهو القوة الغالبة التى تمتنع التغالب بين آحاد الناس : « ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم ، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض ، لا فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم • وليست آلة السلاح التى جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية فى دفع العدوان عنهم لأنها موجودة لجميعهم • فلا بد من شىء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض • ولا يكون من غيرهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهوماتهم فيكون ذلك الموازع واحدا مئهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليئند

القاهرة ، وهذا هو معنى الملك • وقد تبين لك بهذا أنه خاصة للانسان
طبيعية ولا بد لهم منها +++» (١٣) •

ويتضح لنا من كلام ابن خلدون أن الحكومة نتيجة طبيعية لحادث
الاجتماع ، وأن أول مظهر لقيام هذه الهيئة هو تجمع السلطة في يد
رئيس واحد ، وقيام الحكومة ضرورى لثبات المجتمع ودوام استقراره ،
وعلى ذلك فانه يستحيل وجود المجتمع من غير حاكم يعمل على توفير
العدل لأفراده ويقضى ، بذلك ، على كل لون من ألوان الفوضى تنشب
بينهم • فمن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعضهم على بعض ،
فمن امتدت عينه الى متاع أخيه امتدت يده الى أخذه ، الى أن يصده
وازع كما قال :

« والظلم من شيم النفوس فان تجد

ذا عفة فلعله لا يظلم »

ويقول ابن خلدون أيضا : « الملك منصب طبيعى للانسان لأن
البشر لا يمكن حياتهم ، ووجودهم الا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل
قوتهم وضرورياتهم • واذا اجتمعوا دعت الضرورة الى المعاملة واقتضاء
الحاجات ، ومد كل واحد منهم يده الى حاجته يأخذها من صاحبه ، لما
فى الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ، ويمانعه
الاخير عنها بمقتضى الغضب والانفة ومقتضى القوة البشرية فى ذلك ،
فيقع التنازع المفضى الى المقاتلة ، وهى تؤدى الى الهرج ، وسفك
الدماء وازهاب النفوس ، المفضى ذلك الى انقطاع النوع وهو مما خصه
البارى سبحانه بالمحافظة ، واستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع
بعضهم عن بعض ، واحتاجوا من أجل ذلك الى الوازع وهو الحاكم

عليهم... (١٤) فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك الى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم ، مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية * (١٥) فالحياة الاجتماعية ، اذن ، يستحيل أن تستمر الا بوجود الحاكم الوازع الذى يمنع التعدى ويرفع التنازع وهذا هو الذى يولد الحكم والملك بوجه عام ، والدولة بوجه خاص ، والحكم ، بهذا المعنى ، منصب طبيعى ، ووظيفة ضرورية فى حياتنا * .

وقد درس ابن خلدون ظاهرة الخلافة الاسلامية لما لها من أهمية بالغة فى حياة المجتمع الاسلامى * ويجدر بنا هنا (١٦) ان نعرض رأى ابن خلدون لظاهرة الخلافة من الناحية السياسية فحسب فقد نشأت هذه الظاهرة بعد موت الرسول مباشرة اذ اضطرتهم طبيعة الاجتماع والمحافظة على الدين الجديد أن يختاروا رئيسا أعلى يتولى أمورهم : اذ أن هذا المنصب هو نيابة عن صاحب الشريعة ومهمته حفظ الدين وسياسة الدنيا وهو يختلف فى طبيعته عن وظيفة الملك أو الحاكم السياسى * ووظيفته أعم وأشمل لأنه ينظر فى تنظيم شئون الناس الدنيوية والاخرية ، وتحقيق سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وستتضح لنا هذه التفرقة عندما نتحدث عن أنواع الحكم عند ابن خلدون * والخلافة عند ابن خلدون تعتبر من أرقى الوظائف السياسية وأكثرها مشروعية * لأن وظيفة « الملك » لا تخلو من مساوئ قد تضر أفراد المجتمع * واذا كان الشرع يرفع من شأن الخلافة ويفضلها على الملكية فذلك لأنها شريفة فى ذاتها ونبيلة فى غايتها بيد أن الشرع لم يذم النظام الملكى لذاته ولكنه ذم المفسد الناشئة عنه من الظلم والقهر والتمتع بالذات وهى كلها من توابع هذا النظام ومقتضياته * .

(١٤) مقدمة ابن خلدون تحقيق د . على عبد الواحد وائى طبعة ثانية

٦٨٣/٢ .

(١٥) المصدر السابق ٦٩٠/٢ .

(١٦) راجع : النظريات والمذاهب السياسية للدكتور مصطفى

الخشاب ص ١٣٠ .

ويعرف ابن خلدون الخلافة بقوله : « ان الخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الآخروية ، والدنيوية الراجعة اليها : اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى — أى الخلافة — فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به » (١٧) •

ونحن نلاحظ هنا أن تعريف ابن خلدون هذا للخلافة يشابه الى حد كبير تعريف فقيهن الماوردى للخلافة بأنها : « خلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » • والحق ان ابن خلدون قد تأثر الى حد كبير بما كتبه الامام الماوردى من مؤلفات قيمة متنوعة وعلى وجه التحديد السياسة منها ، وكما هو معلوم فان الماوردى يعد من رواد المفكرين العرب فى الكتابة عن السياسة ونظم الحكم فى الاسلام ، ولم يكن ابن خلدون مبتكرا لكل ما كتبه فى السياسة ونظم الحكم ، وهذا ما يؤكد الدكتور طه حسين فى مؤلفه عن ابن خلدون • ومن أقوى أسس الدولة عند ابن خلدون ، كما هى عند الماوردى أيضا ، الدين حيث وجد الانسان لكى يؤدى الواجبات التى فرضها عليه الدين المحنيف لتهيئة حياته الآخرة ، ولكى يتوصل الى معرفة الشرع الالهى الذى يؤمن له السعادة فى الآخرة يجب أن يرشده نبي أو من يحل محله وهو الخليفة ••• فالخلافة (١٨) تهدى الناس وفق الشرع وأحكامه ومن هنا أيضا فان ابن خلدون يبنى ضرورة الامام أو الخليفة على الشريعة السماوية المنزلة من قبل الاله •

ونظم الحكم عند ابن خلدون ثلاثة أنواع : النوع الاول : الحكم الطبيعى أو كما يعبر هو : « الملك الطبيعى » وتعريفه له هو : « حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهرة » (١٩) ودون الرجوع الى قانون

(١٧) المقدمة لابن خلدون ج ٢ ص ٦٨٨ •

(١٨) انظر : الخلافة للتفسير توماس آرنولد ص ٤٠ •

(١٩) المقدمة لابن خلدون ج ٢ ص ٦٨٨ •

وضعى أو شرعى • وخاصة هذا النوع من الحكم أنه ثمرة العواطف والغرائز الانسانية من ميول وأهواء ، كحب الذات ، والرغبة فى الاستعلاء والاستبداد ، والسعى الى تحقيق المطامع الفردية النفعية الانانية • وهذا النوع من الحكم مذموم عند ابن خلدون •

والنوع الثانى من الحكم هو الحكم أو « الملك السياسى » ويعرفه ابن خلدون بأنه : « هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار » • (٢٠) وهذا النوع من الحكم يرجع الى القوانين الوضعية التى يضعها فلاسفة الدولة وعظمائها بدون أن ينظر فيها الى الشرع ، وهدفهم من هذه القوانين جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار • وهذا النوع من الحكم مذموم أيضا عند ابن خلدون وان كان يحاول له فى بعض الاحيان مدحه • ويقول ابن خلدون فى صدد شرح هذين النوعين من الحكم : « لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضرورى للبشر ، ومقتضاه التغلب والقهر للذاتان هما من آثار الغضب والحيوانية ، كانت أحكام صاحبه فى الغالب جائرة عن الحق ، مجحفة بمن تحت يده من الخلق فى أحوال دنياهم ، لحمله اياهم فى الغالب على ما ليس فى طوقهم من أغراضه وشهواته • ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم • فتعسر طاعته لذلك ، وتجىء العصبية المفضية الى الهرج والقتل • فوجب أن يرجع فى ذلك الى قوانين سياسية مفروضة يسلم بها الكافة وينقادون الى أحكامها ، كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الامم واذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ، ولا يتم استيلاؤها : سنة الله فى الذين خلوا من قبل » (٢١) •

« فالنوع الاول من الحكم أقرب اذن الى ما نسميه اليوم بالحكم الاستبدادى أو الفردى أو « الاوتوقراطى » ، أو غير الدستورى ،

(٢٠) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٨٨ •

(٢١) المقدمة ج ٢ ص ٦٨٦ — ٦٨٧ •

ويمكن أن يشمل أيضا حالة ما اذا كان الذين يحكمون وفقا لطبائعهم أو أهوائهم الغريزية مجموعة من الافراد أو طبقة معينة • وقد رأيت أن عواقب هذا الحكم الفوضى والشقاق وعدم الاستقرار ، ثم انهيار الدولة • أما الثانى فهو يقابل ما نسميه اليوم بالحكم أو « الملك الدستورى » • وهو يحقق العدالة الى حد ما ، ويجلب المنافع للمحكومين فى هذه الحياة الدنيا ، لأنه يسير وفق سياسة عقلية وضعها عقلاء الامة وحكامؤها ، وينتج عنه الاستقرار وانتظام الامر وغلبة الدولة وتقدمها • ولكنه على كل حال نظام مادى ، يقصر نظره على شئون هذه الحياة الدنيا ، ويغفل عن الحياة الروحية أو الناحية الدينية ، ولا يحقق مصالح المحكومين به بالنسبة الى دار الخلود ، وهى السدار الآخرة » (٣٣) •

وعلى ذلك فلا بد من نظام ثالث للحكم ، ويعرفه ابن خلدون بأنه « حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الاخرية والدينية الراجعة اليها ، اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به » (٣٤) وهذا النوع من الحكم هو ما يسمى بالخلافة أو الامامة وهو نظام يوحى به الله بواسطة الانبياء ويراعى فيه جلب المصالح الدنيوية من جلب المنافع ودفع المضار ومصالح الناس الاخرية من جلب المنافع ودفع المضار أيضا • والخليفة (٣٥) هو الذى ينوب عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حمل الكافة على ما ذكر وملكه ملك سياسى شرعى لا طبيعى فقط ولا سياسى فقط ويستوى بعد ذلك

(٢٢) النظريات السياسية الاسلامية للدكتور ضياء الدين الرئيس ص ١٢١ ، وراجع أيضا : حقيقة الاسلام وأصول الحكم للشيخ محمد بخيت المطيعى ص ٧ — ٨ وأيضا : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية لطله حسين ترجمة محمد عبد الله عنان ص ١٢٨ — ١٢٩ •

(٢٣) مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٦٨٨ •

(٢٤) حقيقة الاسلام وأصول الحكم للشيخ بخيت المطيعى ص ٨ •

أن يطلق عليه لفظ خليفة بالمعنى اللغوي أو اماما عاما أو ملكا أو سلطانا أعظم أو غير ذلك لأن العبرة بالمعنى لا باللقاب •

ويقارون ابن خلدون بين نظام الخلافة وبين الحكم السابق وهو « الملك السياسى » فيقول : « فاذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة كانت سياسة عقلية واذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشعرها كانت سياسة دينية ، نافعة في الحياة الدنيا والآخرة » (٢٥) وفي هذه الانواع الثلاثة من الملك يقول ابن خلدون أيضا « (٢٦) فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب واهمال القوة الغضبية في مرعاها فجور وعدوان ، ومذموم عنه ، كما هو مقتضى الحكمة السياسية • وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضا لأنه نظر بغير نور الله ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور • لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم ، من أمور آخرتهم ، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم ، من ملك أو غيره ، قال صلى الله عليه وسلم : انما هي أعمالكم ترد عليكم » •

ويعلق جورجى زيدان على هذا التقسيم بقوله : ان الذى يتأتى له أن يتولى أمور الناس ، أما أن يسير بهم على قانون مفروض (رقم ٢) ، أو على مقتضى ميوله وأغراضه (رقم ١) ، وأكثر حكام العالم المتمدن يحكمون بقوانين سياسية وضعها عقلاء الامة وأكابر الدولة ، يطبقها الناس ويجرون على أحكامها ، كذلك كان الفرس والروم قبل الإسلام ، وكان هذا شأن الملوك المطلقين في أوروبا الى عهد قريب ، بل كذلك شأن الديمقراطيات التى يتولى الحكم فيها ملك يرث العرش عن آبائه ، أو رئيس جمهورية ينتخبه الشعب وفق قواعد مقررة في الدستور ويقوم بالحكم فى حدود يعينها الدستور أيضا (٢٧) وأما

(٢٥) المئمة ج ٢ ص ٦٨٧ •

(٢٧) تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ١٢٧ — ١٢٨ •

الخلافة فانها مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها أمته ،
ويحمل الناس على أحكامها بالنيابة عن النبي صاحب تلك الشريعة •

فحكومة الخلافة ، وهى حكومة دينية ، تعد خير حكومة ، ذلك
لأن هدفها هو الصالح العام للمجتمع ، وقانون هذه الحكومة هو شرع
الاسلام المستمد من أصول أربعة هى القرآن والسنة والاجماع والقياس ،
ويلزم الخليفة أن يتبع الشريعة التى قررها الله وهى لا تقبل التعديل ،
وهذا يوضح لنا بالتالى أحد الفوارق الهامة بين الخليفة فى النظام
الاسلامى وبين البابا الحاكم فى امبراطورية الروم مثلاً ، حيث نجد البابا
يستمتع بسلطات دينية مطلقة لا يتوفر مثلها للخليفة •

ولم يفكر ابن خلدون فى دور الشعب فى قيام الحكومة ، وهو
هنا يختلف اختلافاً بينا عن الماوردى الذى أكد دور الرعية فى قيام
الحكومة التى تتولى أمره وترعى مصالحه ، وهذه الحكومة تنشأ عند
الماوردى — وسيوضح ذلك تفصيلاً فيما بعد — نتيجة عقد بين الخليفة
والشعب • لم يفكر ابن خلدون فى هذا حيث يرى أن كلا من الشعب
والملك كيانان طبيعيان ينشأ كل منهما نشأة مستقلة عن الآخر ، وان
كان كل منهما يؤثر ويتأثر بالآخر • يقول ابن خلدون : (٢٨) « ان الملك
والسلطان من الامور الاضافية ، وهى نسبة بين منتسبين ، فحقيقة
السلطان : أنه المالك للرعية ، والقائم فى أمورهم عليهم ، فالسلطان من له
رعية والرعية من لها سلطان والصفة التى له — أى للسلطان — من حيث
اضافته لهم هى التى تسمى « الملكة » وهى كونه يملكهم » • ومعنى هذا
أن الرعية عند ابن خلدون ملك للملك يتصرف فيها تصرف المالك فيما
يملك •

وبخلاف الماوردى يتحدث ابن خلدون بأسهاب عن موضوع انقلاب
الخلافة الى ملك ، ويعتبر ابن خلدون تحول الخلافة الى الملكية أمراً

طبيعيا بعد أن تذهب عن النفوس قوة الوازع الدينى ، وتستعيد بذلك عواطفها الطبيعية وشغفها بمتع الحياة الدنيا ، وقد حدث هذا التحول أيضا نتيجة لقوة العصبية وهى القوة العاملة فى الحياة والحاكمة للمجتمع وهى لا بد وأن تفضى الى الملك ، يضاف الى ذلك الاحداث السياسية التى شهدتها العالم الاسلامى وأبرزها ، على سبيل المثال ، قيام الخلافة الاسلامية المستقلة فى الاندلس ، وادعاء كل سلطان لنفسه الخلافة • يقول ابن خلدون : (٢٩) « قد تبين لك كيف انقلبت الخلافة الى الملك ، وأن الامر كان فى أوله خلافة ووازع كل أحد فيها من نفسه وهو الدين ، وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم ، وأن أفضت الى هلاكهم وحدهم دون المكافة • • • فقد رأيت كيف صار الامر الى الملك وبقيت معانى الخلافة : من تحرى الدين ومذاهبه ، والجري على منهاج الحق • ولم يظهر المتغير الا فى الوازع الذى كان ديننا ثم انقلب عصبية وسيفا • وهكذا كان الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك ، والصدر الاول من خلفاء بنى العباس الى « الرشيد » وبعض ولده • ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق الا اسمها • وصار الامر ملكا بحتا ، وجرت طبيعة التغلب الى غايتها ، واستعملت فى أغراضها من القهر والتقلب فى الشهوات والملاذ ، وهكذا كان الامر لولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بنى العباس ، واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب ، والخلافة والملك فى الطورين ملتبس بعضهما ببعض ، ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشى أحوالهم ، وبقي الامر ملكا بحتا كما كان الشأن فى ملوك العجم بالمشرق » • ويكمل ابن خلدون ما تقدم حيث يقول : « فقد تبين أن الخلافة قد وجدت دون الملك أولا • ثم التبست معانيهما واختلطت ، ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبية الخلافة والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار » (٣٠) •

(٢٩) المصدر السابق — ج ٢ ص ٧١٧ — ٧١٨ •

(٣٠) المقدمة ٢ / ٧١٨ •

ويفرق ابن خلدون بين ملك وجهته الباطل وملك وجهته الحق ،
وعنده أن الاول ليس من الاسلام في شيء بل هو مذموم بصريح العبارة ،
أما الثانى فلا يذم بل تحمد آثاره العادلة وهو جزء لا يتجزأ من
الاسلام . ويقول في ذلك : « ووجدنا » أيضا — أى الشرع — قد ذم
الملك وأهله ، ونعى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاف ، والاسراف
في غير المقصد ، والتنكب عن صراط الله . وانما حض على الالفه في
الدين وحذر من الخلاف والفرقة » (٣١) . وبعد استشهاد ابن خلدون
بالأمثلة يقول مكمل حديثه : « وكذا الملك لما ذمه الشارع لم يذم
منه الغلب بالحق ، وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح ، وانما
ذمه لما فيه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طول الاغراض والشهوات
كما قلناه . فلو كان الملك مخلصا في غلبه للناس أنه لله ولحماتهم على
عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموما » (٣٢) وفي حديثه عن الخلفاء
الراشدين يقول : (٣٣) « وهكذا كان شأن الصحابة في رفض الملك
وأحواله ونسيان عوائده حذرا من التباسها بالباطل ، أيضا ، » ولم يجز
للملك — أى في ذلك العهد — ذكر ، لما أنه مظنة للباطل ، ونحلة يومئذ
الأهل الكفر وأعداء الدين » . ولا ريب ، اذن ، أن الخلافة كما تمام بها
أبو بكر وعمر مثل أعلى ، بيد أن وجود الدول الاموية والعباسية حادث
وضعى . . ومن الواجب ما دام الملك عاد لا رقيق المشاعر أن نقرر
بسلطته دون أن نصمه بالخروج على الدين » (٣٤) .

وقد ابتدع ابن خلدون نظرية العصبية التى تعد بمثابة المحور
الذى يدور حوله معظم المباحث الاجتماعية ، وتتصل به جميع مباحث
« الاجتماع السياسى » . « ولا نغالى اذا قلنا — بهذا الاعتبار — انها

(٣١) المقدمة ٧٠٨/٢ — ٧٠٩ .

(٣٢) المصدر السابق ٢ / ٧١٠ .

(٣٣) نفس المصدر ٢ / ٧١١ .

(٣٤) أنظر : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية للدكتور طه حسين ص ١٣٥

تؤلف « أنظومة » *Système* تامة التكوين في الاجتماع بوجه عام ،
والاجتماع السياسى بوجه خاص » (٣٥) وعلى هذا الاساس فان
ابن خلدون ينظر الى ظاهرة العصبية كظاهرة في الطبيعة «
Phenomenon in nature وكقوة في المجتمع *a power in society*
في آن معا .

والعصبية عند ابن خلدون هي عبارة عما تتمتع به القبيلة أو الاسرة
من القوة والجاه اللذان يجعلان من أفرادها جمعا متراس البنيان ،
قوى الجانب يخشى بأسه ، وقوام العصبية في نظره الاتصال برابطة
النسب والمقاربة وما اليهما من الروابط الماثلة . وتمت كلمة « العصبية »
بصلة الاشتقاق اللغوى الى كلمة « العصب » بمعنى الشد والربط ، ولكامة
« العصابة » بمعنى الرابطة ، وتسمى اللغة العربية الخصال والافعال
الناجمة عن ذلك — من تعاضد وتشيع — باسم « العصبية »

ويذهب البعض (٣٦) الى ابن خلدون لم يبتكر اصطلاح « العصبية »
لاول مرة « فقبل الاسلام كانت الكلمة تستعمل لتدل على « تبني شخص
لقضية ذويه » ، وهو الامر الذى كان من الجائز أن يقضى الى « مساندة
الشخص العمياء لجماعته دون أن يأبه لعدالة موقفها » . وبمقدم الاسلام،
اندثرت العصبية بعنف ، وتضاءلت آثارها السيئة ، وتداعى المسلمون
ليبتخلصوا من آثارها القبلية المتخلفة . ويمكن القول الآن أن ابن خلدون كان
يدرك معارضة الاسلام للعصبية ، وأنه قد حاول أن يقترب منها ، لاجل
منطق نظرياته ومعقوليتها ، من وجهة نظر أخرى ، في محاولة لايجاد
أرضية تلتقى عليها مبادئ الاسلام مع العصبية » .

ويوجد أكثر من تفسير لمعنى اصطلاح العصبية في الدراسات

(٣٥) دراسات عن مقدمة ابن خلدون لسطع الحصرى ص ٣٢٣ .

(٣٦) M.M. Rabi : The political Theory of Ibn Khldun, p. 48.

الحديثه ، فقد ترجم البارون « دوسلان » عندما نقل مقدمة ابن خلدون الى الفرنسية كلمة العصبية بتعبير *Esprit de Corps* وهو يدل في الاصل على « روح التكتف الذى يظهر بين الاشخاص المنتسبين الى المهنة الواحدة »^(٣٧) ولما كان هذا التعبير قاصرا عن مقابلة مقاصد ابن خلدون مقابلة كافية ، فقد اقترح « غوثيه » الاستاذ في جامعة الجزائر استبدال التعبير المذكور بتعبير آخر هو *esprit de clan* الذى يدل في الاصل على « روح التكتف الذى يظهر بين أفراد القبيلة الواحدة أو الطائفة الواحدة » • وهو تعبير أقرب الى معنى العصبية من التعبير الذى كان قد اختاره البارون « دوسلان » في ترجمة المقدمة • ومن الاستعمالات الاخرى لمعنى العصبية : « روح التماسك » *sense of solidarity* و « الشعور الجمعى » *group feeling* و « الولاء للجماعة » *group loyalty* « وهذه التفسيرات انما تعكس أحيانا معانى مختلفة كالاخلاص للجماعة والرغبة في الدفاع عنها ، والوحدة الداخلية ، والارادة الجماعية النازعة الى القوة أو خير الجماعة »^(٣٨) •

ويتحدث ابن خلدون عن مصدر العصبية ، رادا اياها الى الطبيعة البشرية والى أثر القرابة في الحياة الاجتماعية فيقول : « ان صلة الرحم طبيعى في البشر ، الا في الاقل • ومن صلتها : المنعة على ذوى القربى والارحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة فان القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه ، أو العداة عليه ، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك : نزعة طبيعية في البشر منذ كانوا »^(٣٩)

(٣٧) راجع : دراسات عن مقدمة ابن خلدون لسطاع الحصرى ص. ٣٥ .

(٣٨) M.M. Rabi : The political Theory of Ibn Khldun, p. (٢٨)

49.

(٣٩) مقدمة ابن خلدون ٢/٥٩ •

وهى نزعة تؤدي الى « الاتحاد والالتحام » بين افراد النسب الواحد لانها تحملهم على التعاضد والتناصر وتستلزم استماتة كل واحد منهم دون صاحبه • وبهذا يتضح لنا أن العصبية تتولد من القرابة ، كما أنها تستند الى وحدة النسب •

ويقول الدكتور طه حسين^(٢٠) « ان التاريخ لم يذكر قط شعبا يفوق الشعب العربى فى الاستمسك بعصبيته وتقديم صلة الرحم على ما سواها من الصلات • واذا استثنينا الاربعين عاما الاولى من تاريخ الاسلام فان تاريخ الامة العربية قبل الاسلام وبعده ليس الا سلسلة طويلة من الخصومات بين القبائل وهى خصومات منشؤها الحقيقى تلك العصبية التى دفعت الى حد التعصب • يقول المثل العربى : « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما » فلا عجب اذا كان ابن خلدون يعلق على العصبية أهمية عظيمة ويعتبرها العامل الجوهرى لقوة المجتمع السياسى •

ويذهب ابن خلدون الى أن درجة القرابة يكون لها أثر هام فى قوة العصبية ، وأن الالتحام المتولد من وحدة النسب الخاص يكون أقوى من الالتحام المتأتى من وحدة النسب العام : « فالنصرة تقع عن أهل نسبهم المخصوص وعن أهل النسب العام ، الا أنها فى النسب الخاص أشد لقرب المحمة »^(٢١) وتلعب هذه العصبية المتولدة من وحدة النسب الخاص دورا هاما فى المجتمع السياسى : « ان الاتحاد والدينامية فى مثل هذه الوحدة تكون أقوى مما تكون بين ذوى القرابة البعيدة والمنتمين انتماء ضعيفا الى العصبية • وحيث أن التفوق على الجماعة لا يمكن الحصول عليه الا بالصراع ، فان هذه الوحدة (الفئة) تكون فى وضع أحسن لممارسة السيطرة والوصول الى التجانس بين أفرادها ، ثم تعتمد بالتالى الى مد نفوذها الى غيرها من الجماعات بالقوة ••• وقد

(٢٠) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ٨٦ .

(٢١) مقدمة ابن خلدون ٢ / ٥٩٨ .

لاحظ ابن خلدون أن السلالة تكون قوية قرب عصبها عما هي عليه في مناطق هوامشها وأطرافها لأن النقص يتزايد في قواها في المناطق المتباعدة » (٤٢) •

وتعد العصبية ، عند ابن خلدون ، من أخص خصائص البادية ، وتوجد علاقة وثيقة بين البداوة وتكوين خواص العصبية : « وكمثال لذلك فان الحياة الشاقة لشعب بدائي في الفلاة تجعل أفراده متحفزين ليردوا الهجمات بجموع متوحشة متعطشة للانتقام اذ ليس هناك أسوار ولا حراس تحميهم في الليل ، والضمانة الوحيدة لاستمرار حياتهم في مثل هذه الظروف الشاقة تنحصر في مدى شجاعتهم وقوة بأسهم الذي يعد أساس اطمئنانهم وهو ما يستمد من قوة مشاعرهم الطبيعية وشعورهم بالحب للقبيلة أو الجماعة واستعدادهم للتضحية بأنفسهم في سبيل الدفاع عنها • هذه المشاعر التي سماها ابن خلدون بالعصبية تؤدي الى نوع من الصلابة الاجتماعية المتينة والعلاقات الوثيقة التي تجمع بينهم ليواجهوا مثل تلك البيئة ••• ويتمثل دور العصبية هنا في أنها تحمي أفراد الجماعة من المخاطر التي تتهددهم كما تحمي أيضا أولئك الذين يرتبطون معهم في علاقات الالف أو الولاء » (٤٣) •

ويلاحظ ابن خلدون أن للبداوة ثلاثة أنماط من العصبية ، وهذه الانماط تنبع من ثلاثة أنواع من العلاقات متميزة وهي : صلة الرحم (روابط الدم) وصلة الالف ، وصلة الولاء • ويؤكد ابن خلدون أهمية النمط الاول من أنماط العصبية بقوله (٤٤) : « لعل (فضل) علاقة الدم تتمثل في أنها شيء طبيعي بين البشر • وهي تؤدي الى محبة الفرد لاقاربه الذين يتصل معهم دمه ، محبة يمازجها الرغبة في الا يحيق

M.M. Rabi : The political Theory of Ibn khaldun, p. (٤٢)

(٤٣) المصدر السابق ص ٥٠ — ٥١ •

(٤٤) نفس المصدر ص ٤٩ •

بهم مكروه أو تصدع كيانههم قارعة • محبة تلعب دورا هاما في تبادل
العون والمساعدة ، وتماثل مشاعر العداء والخوف من الاعداء ، مما يضاعف
قوتهم ويزيد مهابتهم حيث تفوق محبة الانسان لعشيرته وقبيلته
وعصبية أى شىء آخر » •

والعصبية الناشئة عن علاقة القرابة الوثيقة تلك ، تختلف عن
النمطين الآخرين القائمين على أساس من الالف والولاء ، فالنوعان
الاخيران انما هما نتاج تقارب الافراد المنحدرين من سلالة ما من سلالات
الجماعات مع أفراد سلالة أخرى من خلال التزاوج والمصاهرة أو بسط
حماية احداها على الاخرى أو غير ذلك من أسس العلاقات الاجتماعية •
وبالرغم من أن مثل أولئك الافراد يمكن أن يعتبروا كأفراد سلالة واحدة،
ولهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات ، الا أنهم يظلون منحطين
بالنسبة لافراد العصبية الذين يجرى في عروقهم دماء قرباها • وابن
خلدون لم يدع مجال شك في أنه قد اعتبر هذا النمط الاول القائم
على أساس من روابط الدم أقوى الانماط وأكثرها حيوية وأوفرها
تأثيرا في الشعور بالصلابة الاجتماعية • ان له آثارا تفوق الانماط
الاخرى • وكان الدين هو الاستثناء الوحيد الذى اعترف بأن له تأثيرا
أقوى بالنسبة للصلابة الاجتماعية عما نسبه للعصبية » •

وخلاصة القول ، فان العصبية في الحياة البدائية تمثل قوة ضخمة
ذات أثر توحيدى يوحد أفراد الجماعة ، وتساعد هذه القوة في الدفاع
عن الجماعة والحفاظ على حقوقها ، كما أنها تدفع التغيير الى حياة
أكثر تقدما •

وكما توجد العصبية في البادية توجد أيضا في الامصار ، ويعنون
ابن خلدون أحد فصول كتابه بهذا العنوان : « وجود العصبية في الامصار ،
وتغلب بعضهم على بعض » •

ولا بد للحاكم عند ابن خلدون من عصبية تمكنه من تأسيس السلطة

السياسية The political power ، وتساعده على حمل الناس على الطاعة والنظام واحترام الحقوق وأداء الواجبات ، وبتعبير آخر فان العصبية هي منشأ الرياسة والسلطان أو الدولة ، وتكون الرياسة دائما لاهل العصبية ، ويعتبر الملك ، بهذا المعنى ، غاية طبيعية للعصبية « . والطريقة المتى استخدم بها ابن خلدون اصطلاح « الغاية » ghàya يدل على معنى موضوعي وآخر ذاتي . من الناحية الموضوعية فان زعيم العصبية يهدف الى الحصول على قوة ملك وسلطان كوسيلة لحياة أفضل وأسهل . ومن الناحية الذاتية فان التطور من الثقافة البدائية الى الثقافة المتحضرة انما يتحقق بمقتضى ضرورة طبيعية natural necessity تجد وسيلتها في العصبية « (٤٥) . ولا يجوز للحاكم أن يتجاوز حدا معيناً في تعامله مع أفراد شعبه ، لأن طاعتهم المنبثقة من العصبية مشروطة conditional بشروط معينة . انها ليست طاعة عمياء لحاكم شرير أو فاسد (٤٦) .

وتؤكد عبارات ابن خلدون التالية الدور الحيوى الحاسم الذى تلعبه العصبية فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، فهى تحمل الافراد على التناصر والتعاقد فى المدافعة والحماية والمقاتلة انها ضرورية : « فى كل أمر يحمل الناس عليه من نبوة أو اقامة ملك أو دعوة اذ بلوغ الغرض من ذلك كله انما يتم بالقتال عليه ، لما فى طباع البشر من الاستنصاء ولا بد فى القتال من العصبية » (٤٧) « الرئاسة لا تكون الا بالغلب ، والغلب انما يكون بالعصبية » (٤٨) . « الملك انما يحصل بالغلب ، والغلب انما يكون بالعصبية » (٤٩) « ان العصبية بها تكون الحماية والمدافعة

(٤٥) النظرية السياسية عند ابن خلدون لمحمد محمود ربيع ص ٥١

(٤٦) نفس المصدر ص ٥٩ .

(٤٧) مقدمة ابن خلدون ٥٩٣/٢ .

(٤٨) المقدمة ٦٣٦/٢ .

(٤٩) المقدمة ٦٣٦ / ٢ .

والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه » (٥٠) « ولما كانت الرياسة انما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها وتقم الرياسة لاهلها ، فاذا وجب ذلك تعين أن الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم » (٥١) .
« أما الملك فهو التغلب والحكم والقهر + وصاحب العصبية اذا بلغ الى رتبة طلب ما فوقها ، فاذا بلغ الى رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل الى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس + ولا يتم اقتدارها عليه الا بالعصبية التي يكون بها متبوعا + فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت » (٥٢) كل هذا يوضح الدور الهام الذي تلعبه العصبية في تأسيس الملك وتكوين الدولة « لأن الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالبا ، وقل أن يسلمه أحد لصاحبه ، الا غلب عليه ، فتقع المنازعة وتفضى الى الحرب والقتال والمغالبة ، وشيء منها لا يقع الا بالعصبية كما ذكرنا آنفا » (٥٣) .

ويتناسب اتساع الدولة عند ابن خلدون مع قوة تلك العصبية ويوضح ذلك قوله ، ان كل دولة لها حصة من الممالك والاطوان لا تزيد عليها (٥٤) وبرهان ابن خلدون على ذلك الملاحظات التالية :

« ان عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لابد من توزيعهم حصصا على الممالك والثغور التي تصير اليهم ، ويستولون عليها لحمايتها من العدو وامضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك + فاذا

(٥٠) المقدمة ٢ / ٦٠٩ .

(٥١) المقدمة ٢ / ٥٩٨ .

(٥٢) المقدمة ٢ / ٦٠٩ .

(٥٣) المقدمة ٢ / ٦٣١ .

(٥٤) المقدمة ٢ / ٦٤٢ يتصرف .

توزعت العصائب كلها على الثغور والجمالك ، فلا بد من نفاذ عددها وقد بلغت الممالك حينئذ الى حد يكون تغرا للدولة وتخما لوطنها ، ونطاقا لمركز ملكها . فاذا تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على ما بيدها ، بقى دون حامية وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور ، ويعود وبال ذلك على الدولة ، بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة » (٥٦) .

واذا تعددت العصبية ودب بينها الخلاف فان ذلك قد يعرقل ، في نظر ابن خلدون ، تأسيس الدولة وقيام السيادة السياسية . ويوجد في المقدمة فصل من الفصول عنوانه : « ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة » ويقول ابن خلدون ان « السبب في ذلك اختلاف الآراء والاهواء . وأن وراء كل رأى منها وهوى عصبية تمنع دونها ، فيكثر الانتقاض على الدولة . والخروج عليها في كل وقت ، وان كانت ذات عصبية ، لأن كل عصبية من تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة » (٥٦) ومعنى ذلك أن « كثرة العصائب والمقباتل تحمل على عدم الازعان والانقياد للدولة » (٥٧) وعلى النقيض من ذلك فان الاوطان الخالية من العصبية يسهل تأسيس الدولة فيها لأن سلطانها يكون « وازعا لقلّة المهرج والانتقاض ولا تحتاج الدولة فيها الى كثير من العصبية » (٥٨) .

ويشترط ابن خلدون توافر شرط هام لكي تؤدي العصبية الى نبيل الملك ، وهذا الشرط هو نقاء النسل . وهو نقاء يفوز به بدو الصحراء أكثر مما يفوز به سواهم ، وذلك لعزلتهم ومبالغتهم في التمسك

(٥٥) المقدمة ٢ / ٦٤٢ — ٦٤٣ .

(٥٦) مقدمة ابن خلدون ٢ / ٦٤٦ .

(٥٧) نفس المصدر .

(٥٨) المقدمة ٢ / ٦٤٨ .

بأصولهم » (٥٩) * وبخصوص حجم العصبية (ضخامتها وعمومها أو صغرها وقصورها) لم يقتنع ابن خلدون بأن القائد ينبغي أن يكون من عصبية كبيرة فحسب ، بل انه أيضا قد اعتبر أنه ينبغي أن يكون من نسل أقوى فرع من تلك العصبية الكبيرة * هذا الفرع المتميز من العصبية يقدم — كما تشير كتابات ابن خلدون — درجة كبيرة من الاتحاد والتضامن والصلابة والاستجابة لزعامة القائد » (٦٠) *

ولا يعنى ذلك بحال من الاحوال أن العصبية عند ابن خلدون تقوم على أساس من العنصرية racism وتعد أقواله وآراؤه فى طبيعة وأخلاق البدو خير مؤكد لذلك * وهو يوضح أن : « بدائيتهم تجعلهم أقل الناس حبا للتبعية لانهم معتدون ، متكبرون طموحون ، مشوقون للقيادة * وليس كون الانسان غريبا هو الذى يحول بينه وبين القيادة عندهم ولكن أبناء نفس السلالة أيضا يعوق كل منهم الآخر عن الحصول على ميزة الزعامة ما لم تغتصب بالقوة لا بالمشهرة ومجرد النبالة » (٦١) *

ومن المعلوم أن الدين لا يقوم فى مجتمع من المجتمعات الا اذا اعتمد على قوة مادية تسنده ، ذلك لان الانبياء العزل يهلكون ، وبهذا يتأكد لنا دور العصبية فى الحياة الاجتماعية ، فالعصبية ضرورية للملة وبوجودها يتم أمر الله منها ، والملك غاية طبيعية للعصبية * وفى عبارة أخرى ، فان للدعوى الدينية أثر فى تقوية الدولة ، ولكن الدعوة الدينية نفسها لا يمكن أن تتحقق دون « عصبية » * ويؤدى هذا بنا الى القول بوجود علائق هامة بين قوة العصبية وبين أمور الدعوة الدينية ، ويوضح هذا قول ابن خلدون : « ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم » (٦٢) *

(٥٩) انظر : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية للدكتور طه حسين ص ٩٠ وما بعدها .

(٦٠) النظرية السياسية عند ابن خلدون للدكتور محمد ربيع ص ٥٧ .

(٦١) نفس المصدر ص ٦٠ .

(٦٢) مقدمة ابن خلدون ٢ / ٦٣٨ .

(م ٦ — الماوردى)

وقوله (٦٣) : « ان الشرائع والديانات ، وكل أمر يحمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصبية اذ المطالبة لا تتم الا بها فالعصبية ضرورية للملة وفي الحديث : « ما بعث الله نبيا الا في منعة من قومه » واذا كان هذا في الانبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد ، فما ظنك بغيرهم الا تخرف له العادة في الغلب بغير عصبية » • ويصرح ابن خلدون بأن عمل الدين في هذا الصدد يشبه عمل العصبية حيث يقول : « ان الدعوة الدينية ، تريد الدولة في أصلها قوة على العصبية التي كانت لها من عددها » (٦٤)، كما يقول ان الاجتماع الديني يضاعف قوة العصبية • (٦٥) وهذا الاجتماع الديني يكفل للجماعة التغلب على من هم أوفر عددا وأقوى عصبية منهم في حالة فقدانهم بعدئذ لهذا « الاجتماع الديني » • ويقول ابن خلدون في ذلك : « اذا حالت صبغة الدين وفسدت ينتقض الامر ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين ، فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية وأشد بداوة منها » (٦٦) •

ويدل ابن خلدون على صدق ما يقول بإيراد بعض الوقائع التاريخية ويذكر على الاخص « ما وقع للعرب في صدر الاسلام » بالقادسية واليرموك ، حيث غلبت جيوش المسلمين « جموع فارس وجموع هرقل » مع أن عددهم كان بضعة وثلاثين ألفا ، في حين أن مجموع فارس كانت نحو مائة وعشرين ألفا بالقادسية وجموع هرقل كانت — على ما قاله الواقدي — أربعمئة ألف باليرموك • وتوضح لنا خطبة الخليفة عمر (٦٧) — التي حث فيها العرب على غزو فارس والعراق والتي رواها ابن خلدون

(٦٣) مقدمة ابن خلدون ٢ / ٦٣٨ •

(٦٤) المقدمة ٢ / ٦٣٧ •

(٦٥) المقدمة ٢ / ٦٣٨ •

(٦٦) المقدمة ٢ / ٦٣٨ •

(٦٧) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية للدكتور طه حسين ص ٩٨

— كيف استطاع الخلفاء أن يستثيروا الحمية الدينية ليدفعوا العرب إلى فتح العالم : « ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى أهله الا بذلك ، اين القراء المهاجرون عن موعد الله ، سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن بوركتموها فقال : لنظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (٦٨) •

يتضح لنا مما تقدم ، أن نظرية ابن خلدون في « علاقة العصبية بالدولة ، ونظريته في علاقة العصبية بالدين » يتمم بعضها بعضا ، وتنسجمان تمام الانسجام في نطاق أنظومة واسعة الخطوط :
ان الملك والدولة العامة ، انما يحصلان بالقبيل والعصبية •
ان الدعوة الدينية أيضا لا تتم من غير عصبية •

الا أن هذه الدعوة اذا ما تمت بمساعدة القوة العصبية ، ضاعفت تلك القوة ، وجعلتها أقوى بكثير مما كانت عليه قبلا » (٦٩) •
ويذكر ابن خلدون ثلاثة أسباب لتدهور وسقوط العصبية (٧٠) •

١ — من خواص القبيلة أنها تأبى أن تدفع الضريبة ، وهي قد تعترف بسلطة دولة مجاورة لها بل قد تكون جزءا منها ولكن بشرط الا تخضع لمذلة دفع الضريبة ... فالضريبة في نظرهم اهانة لا يقبلونها • ويعلق الدكتور طه حسين على ذلك بقوله : « ان من الغريب أن تتغلب لدى ابن خلدون في تلك الحالة الذهنية البدوية على الذهنية الاسلامية فان المسلمين لم يعتبروا قط لا في كتبهم الفقهية ولا في حياتهم العلمية أن الضريبة فرض مهين بل كانوا يرون فيها دائما وخصوصا في القرون الثلاثة الاولى ما رآه الفرنسيون بعد الثورة أي أنها اشترك في

(٦٨) مقدمة ابن خلدون ٢ / ٦١٨ ..

(٦٩) دراسات عن مقدمة ابن خلدون لسطح الحصري ص ٣٤٩ •

(٧٠) انظر : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية للدكتور طه حسين ص ٩٣

وما بعدها •

المشروعات العامة والدولة لا تعيش بغير الضرائب ولا يستطيع الجيش دفاعا عنها ولا تقام الفرائض بدونها ، هذا ومن الضروري أن يقوم كل مسلم بقسطه من النفقات العامة كما يتمتع بقسطه من الرفاهية الوطنية والأمن في الداخل والخارج • وليس في كلمة (الزكاة) التي تعبر عن تلك الضريبة في القرآن والسنة وكتب الفقه — (كما تستعمل كلمة contribution في الفرنسية مكان كلمة impôt) — ما يهين أو يخذش بل ربما كان اختيارها لتحل محل كلمة مهينة هي (الأثاوة) التي كانت تستعمل في الامارات العربية الخاضعة للرومان والفرس في الشام والعراق ومعنى الاولى هو « التطهير » وبذلك تصبح الضريبة تعبيرا للصدقة التي تطهر المتصدق ومعنى الثانية « الجزية » • وقد فهم فيلسوف سابق على ابن خلدون بثلاثة قرون هو أبو العلاء معنى اشتراك الافراد في النفقات العامة فهما تاما فقال ان الملوك وأعوانهم ليسوا في الحقيقة الا عمالا يستخدمهم دافعوا الضرائب • ويقول ابن خلدون انه متى رضيت القبيلة بدفع الضريبة أخذت عصبيتها في المضعف وفقد أعضاؤها عاطفة استقلالهم وفقدت القبيلة الشعور بقوتها شيئا فشيئا وانتهت الى الاضمحلال والاندماج في الدولة التي تغلبها على أمرها •

٢ — وقد يؤدي سكنى القبيلة المدينة أو الحقل الى الخضوع لحكومة منظمة أجنبية ، فاذا استمر ذلك الخضوع دون أن تستطيع القبيلة مقاومته والتخلص منه فان الاستعباد يهدم عصبيتها ويفقدها أهلية الدفاع ، ومن باب أولى يفقدها القدرة على الهجوم أو تأسيس الدولة •

٣ — تفقد القبيلة التي تحل في الارض الخصبة وتزرعها عصبيتها بمرور الزمن لما يغمرها من الرخاء وأسباب الترف ، هذا فضلا عن أن الزارع يميل دائما الى البقاء في الارض التي يزرعها ويرضى بكل مذلة تفرض عليه بشرط أن يحتفظ بأرضه وأملاكه • وقد فقد الانباط الذين

ليسوا في الاصل الا قبيلة عربية بأسهم وأنسابهم لأنهم لزموا الارض التي زرعوها في العراق • والحق أن الترف *Luxury* له دور هام في تخريب الحكم « وبانطفاء جذوة الحماس والتقشف والاعتداد بالحياة في بساطتها، تنسى الجماعة كل ما يقصل بالعصبية ، وتنسى لذة القوة وحلاوة الشهرة » (٧١) •

ولا يدمر اضمحلال العصبية السلطة السياسية للمجتمع فحسب ، ولكنه يؤدي أيضا ، الى حالة من الفوضى والتسيخوخة والضعف •

أما عن الماوردي فانه لم يقل بالعصبية ، ولم يرد في كتاباته ما يشير اليها صراحة ، وهو يرى أنه لا بد من توافر رضى الشعب واقتناعه التام حتى يستطيع الحاكم الوصول الى قمة السلطة السياسية في الدولة •

ويقول الامام الغزالي في كتابه (الاقتصاد في الاعتقاد) : « ان الدنيا والامن على الانفس والاموال ، لا ينتظم الا بسلطان مطاع ، فتشهد له مشاهدة أوقات الفتن بموت السلاطين والائمة ، وان ذلك لو دام ولم يتدارك بنص بسلطان آخر مطاع ، دام المهرج ، وعم السيف وشمل القحط وهلكت المواشي وبطلت الصناعات ، وكان كل غلب سلب ، ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلم ان بقي حيا • والاكثر من يهلكون تحت ظلال السيوف ولهذا قيل الدين أس ، والسلطان حارس ، وما لا أس له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع • وعلى الجملة لا يتمارى العاقل في أن الخلق على اختلاف طبقاتهم ، وما هم عليه من تشتت الاهواء وتباين الآراء (لو تركوا شأنهم) ولم يكن لهم رأى مطاع يجمع شتاتهم ، لهلكوا من عند آخرهم • وهذا داء لا علاج الا بسلطان قاهر مطاع يجمع شتات الآراء • فبان أن السلطان ضرورى في نظام

الدنيا ، ونظام الدنيا ضرورى فى نظام الدين ، ونظام الدين ضرورى فى الفوز بسعادة الآخرة ، وهو مقصود الانبياء قطعا • فكان وجوب الامام من ضروريات الشرع الذى لا سبيل الى تركه • فاعلم ذلك » •

وعندما يؤكد الغزالى أهمية السلطة القاهرة ، وتوفر القوة فى صاحب السلطة فانه لم يطلب ذلك من أجل القهر فى ذاته أو السلطة فى ذاتها • وانما طلب ذلك من أجل التأمين الاجتماعى لحياة الناس فى دينهم ومعاشهم وتوفير الظروف التى تضمن سعادة الدنيا والآخرة • ومن ثم فقد أكد الى جانب السلطة جانب المسؤولية التى تتمثل فى رعاية الشعب وخدمته^(٧٢) » •

تعريف الامامة :

ولما كان المصدر العام للحكم فى الاسلام هو القرآن ، فقد كان أساس الحكم بعد وفاة النبی صلى الله عليه وسلم هو الخلافة أو الامامة •

والامامة عند الماوردى موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وعقدها لمن يقوم بها فى الامة واجب بالاجماع^(٧٣) •

ويتضح من تعريف الماوردى هذا أن الامامة للخلافة عن النبوة ، وأن موضوع هذه الخلافة هو حراسة الدين أولا ، ثم سياسة الدنيا ثانيا ، ومما يدخل فى صميم اختصاصات النبوة سياسة الدنيا • والامامة عند الماوردى تعتبر بمثابة أمانة ومسئولية ووظيفة عامة يجب على الحاكم أن يحسن القيام بها وتأديتها على أمثل وجه • ويلتقى « عضد الدين الايجى » مع الماوردى فى تعريفه للامامة ، فالامامة عند الايجى هى

(٧٢) انظر كتاب : فى الفكر السياسى العربى للدكتور محمد عبد المعز

نصر ص ٧٠ •

(٧٣) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٣ •

خلافة الرسول في اقامة الدين ، وحفظ حوزة الملة بحيث يجب اتباعه
على كافة الامة •

ويقول الماوردي في مخطوطته « نصيحة الملوك » : « ولجلالة شأن
الملك ما سمي في الدين واللغة سلطانا ، والسلطان في اللغة هو الحجة •
قال الله عز وجل : « أم اكم سلطان مبين فاتوا بكتابكم أن كنتم صادقين »
... فجعل الله تبارك وتعالى العادلين من الملوك حق على خلقه ...
وقد سمي المسلمون السلطان الأجل في الاسلام أماما لأنه ممن يجب أن
يؤتم به ويقتدى به في فعله ويؤتم له بأمره » (٧٤) •

قال العلامة الأصولي المحقق « السعد التفتازاني » (٧٥) في متن
مقاصد الطالبين ، في علم أصول عقائد الدين : « الفصل الرابع — أي
من العقائد السمعية — الامامة وهي رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا
خلافة عن النبي صلى الله عليه وسلم » فهذا هو ما يذهب اليه علماء
الفقه الاسلامي • وعرفها علماء التفسير بأنها « عبارة عن خلافة شخص
من الأشخاص للرسول عليه السلام في اقامة القوانين الشرعية ، وحفظ
حوزة الملة على وجه يجب اتباعه على كافة الامة » (٧٦) •

وهي عند علماء الاجتماع من المسلمين ، كما عرفها ابن خلدون :
« حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدينية
الراجعة اليها ، اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها
بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة
الدين وسياسة الدنيا به » (٧٧) •

(٧٤) نصيحة الملوك للماوردي — وهو مخطوط — ورقة ٨ •

(٧٥) سعد الدين التفتازاني عمدة علماء الكلام من العرب توفي سنة

٧٩١ و طبع شرحه للمقاصد في الاستانة سنة ١٣٠٥ .

(٧٦) من كلام العلامة محمد الشيرازي البضاوي المتوفى سنة ٧٩١هـ

والمعروف بكتابه في تفسير القرآن •

(٧٧) مقدمة ابن خلدون ٢ / ٦٨٨ •

وكلام سائر علماء العقائد والفقهاء ، من جميع مذاهب أهل السنة ، لا يخرج عن هذا المعنى ، الا أن الامام الرازي زاد قيدها في التعريف فقال : « هي رئاسة عامة في الدين والدنيا لشخص واحد من الأشخاص » . وقال هو احتراز عن كل الأمة اذا عزلوا الامام لفسقه . قال السعد في شرح المقاصد بعد ذكر هذا القيد في التعريف وما علله به : وكأنه أراد بكل الأمة أهل الحل والعقد واعتبر رئاستهم على من عداهم أو على كل آحاد الأمة . ١ هـ (٧٨) .

ويقول « الجويني » : والامامة رئاسة تامة وزعامة عامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا متضمنها حفظ الحوزة ورعاية الرعية وأقامة الدعوة بالحجة والسيف والانتصاف للمظلومين من المظالمين واستيفاء الحقوق من الممتنعين وإيفائها على المستحقين (٧٩) .

والخلافة ، والامامة العظمى وامارة المؤمنين ، ثلاث كلمات معناها واحد هو رئاسة الحكومة الاسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا .

والخلافة : لغة مصدر تخلف فلان فلانا اذا تأخر عنه ، اما معه واما بعده . قال الله تعالى ، في سورة الزخرف « ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون » . والخلافة النيابة عن الغير ، أما لغيبة المنوب عنه وأما لموته واما لعجزه الخ والخلائف جمع خليفة ، وخلفاء جمع خليف (٨٠) والخليفة السلطان الأعظم (٨١) والخليفة على زنة فعيلة

(٧٨) الخلافة أو الامامة العظمى لمحمد رشيد رضا ص ١٠ .
(٧٩) غياث الامم لامام الحرمين الجويني — مخطوط — ص ٩ وراجع ايضا:
الفصوص للياسة لمحمد بن اسماعيل — مخطوط — ص ٥٤ : حيث يذهب الى ان الامامة العظمى هي اقامة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتنفيذ احكام الشريعة » .

(٨٠) راجع المفردات في غريب القرآن للصفهاني .

(٨١) القاموس والصاح وغيرهما ..

اسم مفعول من خلف بالتخفيف ومنه قوله تعالى : « جعلكم خلائف فخلف من بعدهم خلف » ♦

وقد عرف لقب « خليفة » لأول مرة لدى اختيار أبى بكر عقب مبايعته (المعروفة ♦♦ ببيعة السقيفة) ليخلف رسول الله ♦ فتسميته خليفة راجع الى أنه يخلف النبى في أمته ♦ ومن هنا كان تعريف الماوردى لها بأنها « خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا » ♦ ويقال له خليفة باطلاق ، وخليفة رسول الله ♦ وقد أجاز بعض علماء الاسلام تسمية الخليفة بأنه خليفة الله استنادا الى بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى في سورة البقرة : « واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ♦♦♦ » وقوله تعالى في سورة « ص » : « يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ♦♦♦♦ » ولكن يلاحظ أن هذه الآيات انما تشير الى خلافة الانبياء وأنهم حكام من قبل الله فى الأرض لهداية البشر (٨٢) ♦

والامامة : هى مصدر قولك فلان أم الناس صار لهم أماما يتبعونه فى صلاته فقط ، أو فيها وفى أوامره ونواهيه ، والأول ذو الامامة الصغرى والثانى ذو الامامة الكبرى ♦ ويرى الامام ابن حزم الأندلسى أن لفظ الامام « اذا أطلق فانه لا ينصرف الا الى صاحب الامامة الكبرى (أى الى الخليفة) ، أما اذا أريدت الإشارة الى معنى من المعانى الخاصة فلا بد من أضافة اللفظ الى ما يدل على ذلك ، فيقال فلان أمام فى الدين ، وأمام بنى فلان ♦♦♦ الخ (٨٣) وتقيد كلمة « امام » معنى التقدم ، والهداية والارشاد والقيادة ، ويعرف الامام الرازى ، الامام

(٨٢) راجع : الفصل للدكتور عبد الحميد متولى ص ٢٤٢ ، ود ♦ مصطفى الخشاب فى النظريات والمذاهب السياسية ص ٦٨ وما بعدها .
(٨٣) الفصل فى المال والنحل لابن حزم (المتوفى ٤٥٦ هـ) الطبعة الاولى القاهرة ١٣٢١ هـ ٤ / ٩٠ .

بأنه « كل شخص يقتدى به في الدين »^(٨٤) وفي العقائد النسفية والمسلمون لابد لهم من أمام يقوم بتنفيذ أحكامهم وأقامة حدودهم وسد ثغورهم وتجهيز جيوشهم وأخذ صدقاتهم وقهر المتغلبة والمتلصصة وقطاع الطريق واقامة الجمع والأعياد وقبول الشهادات القائمة على الحقوق وقسمة الغنائم • ١ هـ (٨٥) •

ويقول « ابن خلدون » ان تسمية الخليفة « اماما » انما كان تشبيها بامام الصلاة في اتباعه والافتداء به ولهذا سميت الخلافة : « الامامة الكبرى »^(٨٦) وقد خص الشيعة عليا بلقب « الامام » ، كما خصوا به من يسوقون اليه منصب الخلافة من بعده • ومن الهداية الى الخير ، وكما سبق القول ، ويقول الله تعالى في سورة الفرقان « وجعلنا للمتقين اماما » ، وقوله في سورة الانبياء : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » • على أننا نجد تلك الكلمة استعملت أحيانا لتفيد معنى الشراكة في قوله تعالى (في سورة القصص) : « وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون » ، وقواه (في سورة التوبة) : « فقاتلوا أئمة الكفر أنهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون » •

على أنه يلاحظ في العصر الحديث أن لفظ « امام » (دون وصف آخر) يطلق على الشخص دون أن يعنى ذلك تحميل اللفظ معنى الامامة الكبرى (أى الخلافة) فنقول مثلا الامام محمد عبده •

أما لقب « أمير المؤمنين » فقد أطلق أول ما أطلق على الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه • وبيان ذلك أنه حدث أن دعا بعض الصحابة عمر بأمير المؤمنين ، فلقى هذا الوصف (أو اللقب) قبولا

(٨٤) تفسير الرازى ١ / ٧١٠ وراجع أيضا في لقب امام : لسان العرب

لابن منظور — مادة « امم » •

(٨٥) رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ١ / ٥١١ •

(٨٦) المقدمة ٢ / ٦٨٩ •

لدى الناس فجرت عادتهم على تلقيبهم اياه به • وقيل فى رواية أخرى ان رجلا جاء الى المدينة يسأل عن عمر ويقول : أين أمير المؤمنين ، فلما سمع ذلك بعض الصحابة قالوا : أنه أمير المؤمنين حقا • ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الوصف لقبا لعمر ولمن تلاه من الخلفاء (٨٧) •

ويذهب الماوردى الى أن الامام ، يسمى خليفة ، لأنه خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته ، فيجوز أن يقال يا خليفة رسول الله وعلى الاطلاق فيقال الخليفة • واختلفوا هل يجوز أن يقال يا خليفة الله فجوزه بعضهم لقيامه بحقوقه فى خلفه ولقوله تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات » • وامتنع جمهور العلماء من جواز ذلك ونسبوا قائله الى الفجور ، وقالوا يستخلف من يغيب أو يموت والله لا يغيب ولا يموت ، وقد قيل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه يا خليفة الله فقال لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٨٨) •

فتسمية الامام بخليفة الله لم يرتضه أبو بكر ووافقه الأصحاب ولقبوه خليفة رسول الله باعتبار أن المعنى اللغوى متحقق فيه أيضا ، وأن رسول الله استخلفه فى الصلاة ، فقالوا رضى رسول الله خليفة عنه فى أمور ديننا فنرضاه خليفة عنه فى أمور دنيانا • وقد أجمع الصحابة على عدم اطلاق لفظ خليفة رسول الله على أحد بعد أبى بكر بل أطلقوا على من بعده من عمر وعثمان وعلى ومن بعدهم لقب أمير المؤمنين • وإذا جرت على الألسنة كلمة « خليفة الله » أو « خليفة رسول الله » فإنه كان ينظر اليها من خلال صاحبها الملقب بها ، وأنه أولا وقبل كل شيء انسان منهم ، وليس له نسب ينتسب به الى الله أو الى رسول الله الا عمله الذى يدينه أو يبعده من الله ورسوله •

(٨٧) راجع المقدمة لابن خلدون .

(٨٨) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٣ •

وهذا ما يؤكد السير « توماس آرنولد » في كتابه عن « الخلافة » حيث يقول (٨٩) : ونظرية الخلافة تختلف عن نظرية الامبراطورية الرومانية المقدسة فالمسلم السنى لم يقل قط بوجود أى منصب يقابل منصب البابا ، بينما خصص لدى الشيعة للامام مركز فخم من السلطة باعتباره موضع الحقيقة الالهية بينما اعتبر الوحي الالهى منتهيا بختام القرآن والحديث عند السنيين وقد عهد بمهمة تفسير مصادر الحقيقة هذه الى العلماء الدينيين وليس للخليفة فيها يدان • • وهكذا فالخليفة لم يمنح مهمات روحية • وبعد ذلك يقول « توماس آرنولد » ومن المهم اذا أن نعترف أن الخليفة موظف سياسى رفيع الشأن لندرك منصب الخلافة واذا كان بحكم منصبه يستطيع أن يقوم بمهام دينية فان هذه المهام لا تضمن له أى قوى روحية تميزه عن باقى المؤمنين » (٩٠) •

فسلطة الخليفة وهى أساس الحكم فى الدولة الاسلامية تتلخص كما يقول الماوردى فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ، أو بمعنى آخر رعاية الدين والاشتغال بالسياسة وفن الحكم ، فهى بذلك رئاسة عملية •

واذا حاولنا التفرقة بين الخلافة والملك ، لوجدنا أن الملكية — بخلاف الخلافة — نظام وراثى غير ذى صبغة دينية وهى ترجع الى القوانين الوضعية التى يضعها عقلاء الأمة وحكماؤها بدون أن ينظر فيها الى الشرع ، وينتج عنها استقرار الأمور وانتظامها ولكنها على كل حال نظام مادى يغفل عن الحياة الروحية ولا يحقق مصالح المحكومين بالنسبة

(٨٩) الخلافة للسير توماس آرنولد اسناد اللغة العربية بجامعة لندن ترجمة جميل معلى ص ٤ (ويعد توماس آرنولد أيضا عمدة المستشرقين الانجليز فى الربع الاول من هذا القرن ، والنحج عندهم فى هذا الموضوع فى كتابه المشار اليه (انخلافة The caliphate))

الى دار الخلود • والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى القانون الشرعى الملاحظ فيه مقتضى العقل والشرع معا • وقوانين الخلافة السياسية مفروضة من قبل الله على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام مراعى فيها جلب المصالح الدنيوية والأخروية من جلب المنافع ودفع المضار •

والخليفة هو الذى ينوب عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حمل الكافة على ما ذكر ، وملكه ملك سياسى شرعى ، ويستوى بعد ذلك أن يطلق عليه لفظ خليفة أو أماما عاما أو ملكا أو سلطانا أعظم أو غير ذلك فالعبرة بالمعانى لا بالألقاب •

وعلى ذلك فالتعريف الحقيقى للخلافة أو الامامة أنها : الحكومة الاسلامية الشرعية أو الدستورية بلغة العصر الحديث أو بعبارة أكثر تحديدا : « الحكومة التى تكون الشريعة الاسلامية قانونها » وهذه الشريعة تستمد مبادئها من القرآن والسنة والاجماع ، الذى هو الارادة العامة للأمة ، والقياس الذى هو الاجتهاد العقلى للفرد •

ويقول الأستاذ عبد الوهاب خلاف فى كتابه « السياسة الشرعية »^(٩١) « تختلف الخلافة عن سائر الرياسات العليا فى الحكومات الدستورية فى أن الخلافة رئاسة عامة فى أمور الدين والدنيا ، كما أن الخليفة تشمل ولايته التشريع والقضاء والتنفيذ وغير هذا مما تقتضى به سياسة الملك ونظام الشئون الدنيوية ، فان له أيضا امامة الصلاة وأمرة الجهاد والاذن باقامة الشعائر الدينية ••• ومنشأ الجمع بين الولايتين له أن الغاية من اقامته ومبايعته أن يقوم بحراسة الدين وسياسة الدنيا به ، وذلك قاض بأن يكون له النظر فى الشئون الدينية والدنيوية معا •• وليس عموم ولاية الخليفة وشمولها للشئون الدينية بجاعل الخليفة ذا صلة الهية أو مستمدا سلطانه من قوة غيبية ، وما هو الا فرد

(٩١) السياسة الشرعية للاستاذ عبد الوهاب خلاف ص ٥٩ •

من المسلمين وثقوا بكفايته لحراسة الدين وسياسة الدنيا فبايعوه على أن يقوم برعاية مصالحهم ولهم عليهم حق السمع والطاعة ، وسلطانهم مكتسب من بيعتهم له وثقتهم به » •

أختلاف الآراء وتعددتها حول نصب الخليفة :

اختلفت آراء فقهاء الاسلام حول وجوب نصب الخليفة فرأى بعضهم أن تولية الخليفة واجب على المسلمين شرعا لا عقلا فقط اذا تركه المسلمون أثموا كلهم • « واستدلوا بأمور لخصها السعد في متن المقاصد بقوله (٩٢) : لنا وجوه (الأول) الاجماع ، وبين في الشرح أن المراد اجماع الصحابة قال وهو العمدة ، حتى قدموه على دفن النبي (ص) (الثاني) أنه لا يتم الا به ماوجب من اقامة الحدود وسد الثغور ونحو ذلك مما يتعلق بحفظ النظام • (الثالث) أن فيه جلب منافع ودفع مضار لا تحصى وذلك واجب اجماعا • (الرابع) وجوب طاعته ومعرفته بالكتاب والسنة » وهو يقتضى وجوب حصوله وذلك بنصبه • اه • ومعنى الأخير أن مااجمعوا عليه من وجوب طاعته في المعروف شرعا ووجوب معرفته بالكتاب والسنة وكونها من أهم شروطه يقتضى أن نصبه واجب شرعا » (٩٣) •

ويرى الآخرون أن الخلافة غير واجبة شرعا ومن حججهم أنه لم يرد للمخالفة ذكر في القرآن الكريم ، وكما أهمل القرآن ذكر الخلافة أهملتها السنة أيضا فلم يتعرض الحديث النبوي لها • ونصب الخليفة واجب بالعقل فقط ، فكل أمة لا تستغنى عن قوة تحمى قوانينها وتدير شئون

(٩٢) الخلافة أو الامامة العظمى لمحمد رشيد رضا ص ١٠ — ١١ •

(٩٣) راجع : كتاب القول المفيد على الرسالة المسماة وسيلة العبيد في

علم التوحيد للشيخ محمد بخيت ص ٢٠٠ ، والخلافة للسير توماس آرنولد

ص ٢١ — ٢٢ ، ص ٤ •

أفرادها وبأن وجود الحاكم الوازع ضرورى من ضروريات الاجتماع
البشرى •

وواجب نصب الخليفة أو الحاكم قد يكون مرجعه العقل ، أو الشرع
، أو العقل والشرع معا ويمكن التوفيق بينهما لأنه « لا مانع أن تكون
تولية الخليفة مما يقضى به العقل لحياطة القوانين وحماية الأفراد ، وقرره
الشرع تأييدا لمقتضى العقل فيكون العقل والشرع متوافقين على ايجاب
تولية الخليفة غير أن العقل قاض بوجود الوازع المطلق والشرع داع
الى مثل أعلى ووازع خاص يستمد سلطانه منبيعة الأمة لا من القهر
فمقتضى الشرع أكمل فرد من أفراد ما يقتضيه العقل » (٩٤) •

ويقول الشيرازى : ولا ريب أن قيام مصالح الدين والدنيا واستقامتها
عقلا وشرعا انما كان ويكون بواحد ليستقيم الحال على كلمة واحدة فينظم
الأمر نظما واحدا على يد واحدة ولسان واحد مؤتلفا غير مختلف ، ولا
شك أن ذلك الواحد ينبغى أن يكون فردا لا نظير له موصوفا بكمال
أهلية ينتظم به قيام المصالح كلها (٩٥) •

وهذا أيضا هو ماذهب اليه الماوردى وغيره من الفقهاء المسلمين ،
فما كان العقل ليتعارض مع الشرع بحال من الأحوال ، وذلك لأن الشريعة
الاسلامية معقولة الأحكام والغايات •

وفى هذا يقول أفضى القضاة أبو الحسن الماوردى ما نصه :
الامامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وعقدها
لمن يقوم بها فى الأمة واجب بالاجماع وان شذ عنهم الأصم (وهو أبو
بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم المعتزلى) — واختلف فى وجوبها ،

(٩٤) السياسة الشرعية للاستاذ عبد الوهاب خلاف ص ٥٣ .

(٩٥) تحفة الملوك والسلاطين لعلى بن احمد الشيرازى — وهو

مخطوط — ص ٩٩ — ١٠٠

هل وجبت بالعقل أو الشرع فقالت، طائفة وجبت بالعقل ، لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم ، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم ، ولولا ذلك لكانوا فوضى مهملين وهمجا مضاعين ، قال الأفوه : الأودى وهو شاعر جاهلى :

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم . ولا سراة اذا جهالهم سادوا
وقالت طائفة أخرى : بل وجبت بالشرع دون العقل ، لأن الامام يقوم بأمر شرعية قد كان يجوز في العقل الا يرد التعبد بها ، فلم يكن العقل مجوزا لها ، وانما أوجب العقل أن يمنع كل واحد من العقلاء نفسه من التظالم والتقاطع ، ويأخذ بمقتضى العقل في التناصف والتواصل ويتدبر بعقله لا بعقل غيره .

ولكن جاء الشرع بتفويض الأمر الى وليه في الدين ، قال الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ففرض علينا طاعة أولى الأمر فينا وهم الأئمة (الأمراء) المتأمرون علينا .

وروى هشام بن عروة عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سيليكم بعدى ولالة ، فيليكم البر ببره ، ويليكم الفاجر بفجوره ، فاسمعوا وأطيعوا في كل ما وافق الحق ، فإن أحسنوا فلكم ولهم ، وأن أساءوا فلكم وعليهم (٩٧) » .

ويذكر الفقيه المعروف « ابن حزم الاندلسى ما نصه » : اتفق جميع أهل السنة ، وجميع المرجئة ، وجميع الشيعة ، وجميع الخوارج ، على وجوب الامامة وأن الأمة واجب عليها الانقياد لامام عادل يقيم فيهم أحكام الله ، ويسوسهم بأحكام الشريعة التى جاء بها رسول الله صلى

(٩٧) الاحكام السلطانية للهاوردى ص ٣ — ٤ ، وأدب الدنيا والدين للهاوردى تحقيق الاستاذ مصطفى السقا ص ١٢٢ .

الله عليه وسلم حاشا النجدات من الخوارج ، فانهم قالوا لا يلزم الناس فرض الامامة ، وانما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم ، وهذه فرقة مانرى بقى منهم أحد ، وقول هذه الفرقة ساقط • يكفى للرد عليه وابطاله اجماع كل من ذكرنا على بطلانه ، والقرآن والسنة قد وردا بايجاب الامام • ومن ذلك قوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » مع أحاديث كثيرة صحاح فى طاعة الأئمة ووجوب الامامة (٩٨) •

وبعد ذلك يذكر ابن حزم أن الله تعالى يقول : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » فوجب اليقين بأنه تعالى لا يكلف الناس مالا يطيقون احتماله ، وقد علمنا بضرورة العقل وبديهته ، أن قيام الناس بما أوجب الله عليهم من الأحكام فى الأموال والجنايات والدماء والنكاح والطلاق ، وسائر الأحكام كلها ، ومنع الظالم وأنصاف المظلوم ، لا يمكن أن يكون الا باسناد الأمر الى امام فاضل حسن السياسة قوى على التنفيذ •

ويرى الامام « ابن تيمية » أن الخلافة (الامامة) واجب على المسلمين اقامتها شرعا • • فلا تبرأ ذمتهم الا اذا قام على مجتمعهم خليفة أو حاكم ينظم شئون الناس ، ويقيم الحدود •

ويقول « ابن تيمية » : « يجب أن يعرف أن ولاية الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا يقام الدين الا بها ، فان بنى آدم لا تتم مصلحتهم الا بالاجتماع لحاجة بعضهم الى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم « اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » رواه أبو داود من حديث أبى سعيد وأبى هريرة •

وروى الامام أحمد فى السند عن عبد الله بن عمرو ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة (الصحراء)

من الأرض الا أمروا عليهم أحدهم » فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل المعارض في السفر ، تنبيهها بذلك على سائر أنواع الاجتماع ، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يتم ذلك الا بقوة وامارة وكذلك سائر ما أوجبه الله من الجهاد والعدل واقامة الحج والأعياد ونصر المظلوم واقامة الحدود في الأرض « ويقال » « ستون سنة من أمام جائر (ظالم) أصلح من ليلة بلا سلطان » •

ثم يقول « ابن تيمية » : « فالواجب اتخاذ الامارة ديناً وقربة يتقرب بها الى الله ، فان التقرب اليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات » (٩٩) •

ويتضح من كلام ابن تيمية أنه يقطع بأن الخلافة واجبة شرعاً ، وأن المسلمين مأمورون بالألا يعيشوا الا في ظل امارة وحكومة والا خالفوا ما يأمر به الدين « فالقصود بالولايات اصلاح دين الخلق — الذي متى فاتهم خسروا خسرانا مبيناً ، ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا — واصلاح ما لا يقوم الدين الا به من أمر الدنيا » •

وهناك أيضاً من الفقهاء المسلمين من يذهب الى أن الخلافة ونصب الامام أوجبها الشرع وحث عليها منهم امام الحرمين أبى المعالى الجوينى الذى يقول « والذى صار اليه جماهير الأمة أن وجوب النصب (للامام) مستفاد من الشرع المنقول غير متلقى من قضايا العقول » (١٠٠) ونصب الامام واجب ، وولاية أمور الناس من فروض الكفايات ، وهى من أعظم

(٩٩) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١٧٢ — ١٧٤ ، ويذهب القاضى أبى يعلى الفراء فى كتابه : الاحكام السلطانية ص ٣ الى أن طريق وجوب الامامة السمع لا العقل .

(١٠٠) غياث الأمم فى التياث الظلم للجوينى — مخطوط ص ١٠ ، وانظر : اثار الاول فى ترتيب الدول للحسن بن عبد الله العباسى ، وهو مطبوع ص ١١

واجبات الدين وأهم أمور المسلمين بل لا قيام للدين والدنيا الا بها (١٠١) « ونصب الامام واجب على الامة سمعا لا عقلا خلافا للمعتزلة حيث قال بعضهم واجب عقلا وبعضهم كالكعبى وأبى الحسين عقلا وسمعا » (١٠٢) ويقول أيضا صاحب المسامرة بعد ذلك : « وأما وجوبه علينا سمعا فقد تواتر اجماع المسلمين فى الصدر الأول عليه حتى جعلوه أهم الواجبات وبدعوا به قبل دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلافهم فى التعيين لا يقدح فى ذلك الاتفاق » .

وننتقل الى مؤسس علم الاجتماع العلامة « ابن خلدون » والخلافة عنده واجبة شرعا وأنها حين تقوم انما تقوم باسم الدين وتعمل بمقررات شريعته ولكن ابن خلدون يتخذ أسلوب المنطق ومنهج الفلسفة فى تقرير نظرياته ويقول :

« ثم أن نصب الامام واجب ، فقد عرف وجوبه فى الشرع باجماع الصحابة والتابعين ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا الى بيعة أبى بكر رضى الله عنه وتسليم النظر اليه فى أمورهم وكذا فى كل عصر من بعد ذلك ، ولم تترك الناس فوضى فى عصر من الأعصار ، واستقر ذلك اجماعا دالا على وجوب نصب الامام .

وقد ذهب بعض الناس الى أن مدرك وجوبه بالعقل وأن الاجماع الذى وقع انما هو قضاء يحكم العقل فيه . وانما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين . ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض ، فما لم يكن الحاكم الموازع ، أفضى

(١٠١) النفع الغزير فى صلاح السلطان والوزير للشيخ أحمد الدمنهورى المتوفى ١١٩٢ هـ وهو مخطوط ص ٤ وما بعدها ، وحسن السلوك فى آداب الملوك للشيخ أحمد الفيومى — مخطوط — ص ١٨ — ١٩ .
(١٠٢) المسامرة بشرح المسامرة لابن أبى شريف — مخطوط — ظهر ورقة ٥٩ .

ذلك الى المهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية ♦♦♦♦

وقد شذ بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا المنصب رأسا لا بالعقل ولا بالشرع ، منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج وغيرهم ، والواجب عند هؤلاء انما هو امضاء أحكام الشرع ، فاذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج الى امام ولا يجب نصبه ♦

وهؤلاء محجوجون بالاجماع ♦ والذي حملهم على هذا المذهب انما هو الفرار من الملك ومذاهبه من الاستطالة والتغلب ، والاستمتاع بالدنيا ، لما رأوا الشريعة ممثلة بدم ذلك والنعمى على أهله ، ومرغبة في رفضه » ♦

ثم نقول لهم : ان هذا الفرار من الملك بعدم وجوب هذا المنصب لا يغنيكم شيئا ، لأنكم موافقون على وجوب اقامة أحكام الشريعة ، وذلك لا يحصل الا بالمعصية والشوكة ، والمعصية مفضية بطبعها للملك ، فيحصل الملك وأن لم ينصب امام ، وهو عين ما فررتكم منه ♦ واذا تقرر أن هذا المنصب واجب باجماع ، فهو من فروض الكفاية (١٠٣) ♦

هذا هو رأى ابن خلدون في الخلافة ، فهي عنده خلافة عن صاحب الشرع ، في حراسة الدين ، وفي سياسة الدنيا به ♦ وواضح من رأى ابن خلدون أن الحكم المثالي في نظره هو الذى يقوم على الشريعة الاسلامية ويخضع لقانونها ♦

ونوجز هنا ما ذهب اليه كلا من القاضى عبيد الرحمن الايجى

(١٠٣) المقدمة لابن خلدون ، تحقيق د. على عبد الواحد وافي ٢ / ٦٨٩

والسيد الشريف الجرجاني ، كما جاء في متن « المواقف » للأول وشرحه
للثاني حيث يقولان (١٠٤) :

« قد اختلفوا في أن نصب الامام واجب أولا ، وأختلف القائلون
بوجوبه في طريق معرفته ، وعندنا (أى أهل السنة) أن نصب الامام
واجب علينا سمعا وقالت المعتزلة والزيدية (فرقة من الشيعة) : بل
عقلا • وقال الجاحظ والكعبي وأبو الحسين من المعتزلة : بل عقلا
وسمعا معا ، وقالت الامامية والاسماعيلية (من فرق الشيعة) لا يجب
نصب الامام علينا بل على الله سبحانه ، وقالت الخوارج لا يجب نصب
الامام أصلا ، بل هو من الأمور الجائزة •

ومنهم من فصل : فقال بعضهم ، كهشام الفوطى وأتباعه :
يجب عند الأمن دون الفتنة ، وقال قوم ، كأبى الأصم وتابعيه بالعكس ،
أى يجب عند الفتنة دون الأمن •

وبعد أن بين المؤلفان الايجى والجرجانى الخلاف على هذا النحو ،
ذكرا أن الدليل على وجوب نصب الامام من وجهين ، الأول أنه تواتر اجماع
المسلمين فى الصدر الأول بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم على امتناع
خلو الوقت من خليفة وأمام ، حتى قال أبو بكر رضى الله عنه فى خطبته
المشهورة حين وفاته عليه السلام : الا أن محمدا قد مات ، ولا بد لهذا
الدين ممن يقوم به •

وحينئذ بادر الكل الى قبول هذا القول ، ولم يقل أحد أنه لا حاجة
الى ذلك ، وتركوا من أجل اختيار الخليفة أهم الأشياء ، وهو دفن الرسول
صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل الناس فى كل عصر على نصب امام متبع •

والوجه الثانى هو أن فى نصب الامام دفع ضرر مظنون ، وأن

دفع هذا الضرر واجب شرعا • وبيان ذلك أننا نعلم علما يقارب
الضرورة أن مقصود الشارع — فيما شرع من المعاملات ، والمناكحات ،
والجهاد ، والحدود والمقاصات ، وأظهار شعائر الشرع في الأعياد
والجمعيات — إنما هو مصالح عائدة إلى الخلق معاشا ومعادا ،
وذلك المقصود لا يتم إلا بإمام يكون من قبل الشارع يرجعون إليه
فيما يعين لهم •

فإنهم مع اختلاف الأهواء وتشتت الآراء ، وما بينهم في الشحناء ،
قلما يبنقاد بعضهم لبعض ، فيفضي ذلك إلى التنازع ، وربما أدى إلى
هلاكهم جميعا ، ويشهد لذلك التجربة والفتن القائمة عند موت المولاه
إلى نصب آخر بحيث لو تمادى لعطلت المعاش و صار كل أحد مشغولا
بحفظ ماله ونفسه تحت قائم سيفه وذلك يؤدي إلى رفع الدين وهلاك
جميع المسلمين • ففي نصب الامام دفع مضره لا يتصور أعظم منها ،
بل نقول : نصب الامام من أتم مصالح المسلمين ، وأعظم مقاصد
الدين ، فحكمه الإيجاب السمعي شرعا •

وتولى المؤلفان بعد ذلك مهمة الرد على المذاهب والآراء
المخالفة (١٠٥) ، مذهب المانعين لوجوب نصب الامام على الله أو على
الناس ، ومذهب القائلين بوجوبه على الله ، مذهب القائلين بوجوبه على
الأمه عقلا لا شرعا ، وأنتهى بهما المطاف إلى أن الحق هو ما ذهب إليه
أهل السنة •

أهمية القاعدة الشعبية في اختيار الحاكم عند الماوردي :

الحكومة الإسلامية جهاز يرأسه رئيس يختاره الشعب ، ويكون
مسؤولا أمام هذا الشعب ، أو يختاره مندوبو الشعب (أهل الحل والعقد)

(١٠٥) انظر : المواقف وشرحه ج ٨ ص ٢٦٧ وما بعدها .

ويكون مسئولا أمام هذه الهيئة ، ويتمتع هذا الرئيس بحق اختيار معاونيه على مسئوليته ، ويشترط في هذا عدم اعتراض الشعب ، والحكومة الاسلامية بهذا أقرب ما تكون الى الجمهورية الرئاسية . والامامة بهذا المعنى هي أكمل نوع من أنواع الحكومات لأن السلطة فيها مستمدة من الامة وترجع الى قوانين سياسية دينية وضعها الله نافعة في الحياة الدنيا والآخرة ، فكان للمسلمين حاجة ضرورية بهذه الحكومة في الدين والدنيا ليعملوا على أن تكون الدنيا مطية الآخرة كما قال الله تعالى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الأرض أن الله لا يحب المفسدين) .

ويرى الماوردي أن الأمة هي الأصل في عقد الامامة ، وهو يعبر عن الأمة بلفظ « المسلمين » فاذا حدث وتنازع اثنان على الحكم « وادعى كل واحد منهما أنه الأسبق ، لم تسمع دعواه ، ولم يحلف عليها ، لأنه لا يختص بالحق فيها ، وانما هو حق المسلمين جميعا » وهذه العبارة (حق المسلمين جميعا) تدل دلالة أكيدة على ديمقراطية مطلقة ، وأن القاعدة الشعبية التي لها وحدها حق اختيار الحاكم كانت في نظر الماوردي وفي ظل الاسلام أكثر ما تكون اتساعا . وسلطة الخليفة انما تستمد من الأمة ، فهي مصدر قوته ، وهي التي تختاره لهذا المقام ، ولعل المحطية قد نزع ذلك المنزع حين يقول لعمر ابن الخطاب « .

أنت الامام الذي من بعد صاحبه . ألقى اليك مقاليد النهي البشر لم يؤثروك بها اذ قدموك لها . لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

ويتعين رئيس الدولة في الاسلام بطريق الانتخاب ، وقد تنوعت طريقة اختيار الخلفاء الرشدين الأربعة « وفي تنوع طرق اختيار الخليفة في المصدر الأول ما يدل على المرونة ، وأنه يمكن ابتداع أية طريقة في

اختيار رئيس الدولة ، ما دامت تؤدي الى الغاية المرجوة ، الا وهى الحكم المصالح ووضع مقاليد الأمور كلها فى يد أمام عادل » (١٠٦) •

ويذكر الماوردى أن الامامة تنعقد من وجهين ، أحدهما باختيار أهل الحل والعقد (وهم ممثلو الشعب ومندوبوه) ، والثانى بعهد الامام من قبل :

« والامامة تنعقد من وجهين : أحدهما باختيار أهل العقد والحل ، والثانى بعهد الامام من قبل » •

فأما انعقادها باختيار أهل الحل والعقد فقد اختلف العلماء فى عدد من تنعقد به الأمامة منهم على مذاهب ثنتى • فقالت طائفة لا تنعقد الا بجمهور أهل العقد والحل من كل بلد ليكون الرضاء به عاما والتسليم لامامته اجماعا • وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبى بكر رضى الله عنه عن الخلافة باختيار من حضرها ولم ينتظر بيعته قدوم غائب عنها • وقالت طائفة أخرى أقل من تنعقد به الامامة خمسة يجتمعون على عقدها أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة استدلالا بأمرين أحدهما أنبيعة أبى بكر رضى الله عنه انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس فيها وهم عمر بن الخطاب وأبو عبيده ابن الجراح وأسيد ابن خضير وبشر بن سعد وسالم مولى أبى حذيفة رضى الله عنهم • والثانى أن عمر رضى الله عنه جعل الشورى فى ستة ليعقد أحدهم برضا الخمسة ، وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة • وقال آخرون من علماء الكوفة تنعقد بثلاثة يتولاها أحدهم برضا الاثنين ليكونوا حاكما وشاهدين كما يصح عقد النكاح بولى وشاهدين • وقالت طائفة أخرى تنعقد بواحد لأن العباس قال لعلى رضوان الله عليهما امدد يدك أبايك فيقول الناس

(١٠٦) فكرة الدولة فى الاسلام للدكتور مصطفى الحفناوى ص ٢١
(محاضرة القايت فى قاعة المحاضرات بالجامع الازهر سنة ١٩٥٩) •

عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابن عمه فلا يختلف عليك
اثنان ولأنه حكم وحكم واحد نافذ » (١٠٧) •

وفي الخلاف في عدد من يصح له عقد الامامة يقول امام الحرمين
الجويني :

« وفي ذكر عدد من اليه الاختيار والعقد نقول ما نقطع به أن
الاجماع ليس شرطا في عقد الامامة بالاجماع • والذي يوضح ذلك أن
أبا بكر رضى الله عنه صحت له البيعة فقضى وحكم وأبرم وعقد الألوية
ولم ينتظر في تنفيذ الأمور انتشار الاخبار في اقطار خطة الاسلام
وتقرير البيعة من الذين لم يكونوا في بلد الهجرة وكذلك جرى الأمر
في أمامة الخلفاء الأربعة • والذي يعضد ذلك أن الغرض من نصب
الامام حفظ الحوزة والاهتمام بمهمات الاسلام ومعظم الأمور الخطيرة
لا يقبل الريث ولا المكث ولو أخر النظر فيه لجر ذلك خلا لا يتلافى • •
فاستبان من وضع الامامة استحالة اشتراط الاجماع في عقدها • ويقول
امام الحرمين بعد ذلك :

« وذهب بعض العلماء الى أن الامامة تنعقد ببيعة اثنين من
أهل الحل والعقد واشترط طوائف عددا هو أربعة وذهب بعض من
لا يعد من أحزاب الأصوليين الى اشتراط أربعين وهو عدد الجماعة
عند الشافعي رضى الله عنه ، وهذه المذاهب لا أصل لها من الامانة ،
وأقرب المذاهب ما أرتضاه القاضي أبو بكر ، وهو هذا المذهب أنه تقرر أن
الاجماع ليس شرطا في عقد الامامة ثم لم يثبت توقيت في عدد مخصوص ،
والعقود في الشرع يتولاها عاقد واحد • • • ولا وجه للتحكيم في اثبات
عدد مخصوص ، فاذا لم يقم دليل على عدد لم يثبت العدد ، وقد

(١٠٧) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٤ وراجع : الاحكام السلطانية
لابي يعلى انفراء ص ٧ ، والملا والنحل للشهرستاني ٢٧/١ — ٢٨ •

تحققنا أن الاجماع ليس شرطا فانتفى الاجماع بالاجماع وبطل العدد
بانعدام الدليل عليه « (١٠٨) » •

وفي هذا الصدد نورد أيضا آراء كل من ابن حزم الأندلسي
والأشعري ، وصاحبى المسيرة والمسامرة ، وصاحب المواقف وشارحها ،
وابن خلدون ، والفقهاء والاحناف ، والشيعية •

ويبين لنا زعيم الظاهرية ، ابن حزم الأندلسي ، رأيه المدعم
أياه بالأدلة المؤكدة لصحته ، وذلك بعد فراغه من عرض الآراء التى
لا يوافق عليها وتوضيحه لفساد كل منها • ويبدأ ابن حزم بقوله :
« ذهب قوم الى أن الامامة لا تصح الا باجماع فضلاء الأمة فى
أقطار البلاد ، وذهب آخرون الى أن الامامة انما تصح بعقد أهل
حضرة الامام والموضع الذى فيه قرار الأئمة •

وذهب أبو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى (زعيم فرقة من
المعتزلة معروفة باسمه) الى أن الامامة لا تصح بأقل من عقد خمسة
رجال •

ولم يختلفوا فى أن عقد الامامة يصح بعهد من الامام الميت اذا قصد
فيه حسن الاختيار للأمة عند موته ، ولم يقصد بذلك هوى •

هذه أربعة مذاهب ذكرها ابن حزم ، وأخذ بعد هذا بإبطال
الثلاثة الأولى منها ، ولأن القول بأن انعقاد الامامة لا يكون الا بعقد
فضلاء الأمة فى جميع البلاد باطل ، وذلك لما فيه من الحرج الشديد ،
بل ليكون تكليفا لنا بما ليس فى وسعنا ولا يطاق ، والله تعالى يقول :
« لا يكلف الله نفسا الا وسعها » ويقول « وما جعل عليكم فى الدين
من حرج » •

(١٠٨). غياث الامم فى التياث الظلم لامام الحرمين أبى المعالى بن يوسف
الجوينى — مخطوط — ص ٣٤ — ٣٥ •

وكذلك باطل قول من ذهبوا الى أن عقد الامامة لا يصح الا بعقد أهل حضرة الامام وأهل الموضع الذى فيه قرار الأمة لا حجة للقائلين به من قرآن أو سنة أو اجماع الأمة اليقيني ، يكون قولاً لا برهان له فلا يعتد به •

وأخيراً ينتهى الى قول الجبائى ، فإنه لا يسنده تعلقه بصنيع سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الشورى عندما أحس بقرب موته ، اذ قلدها ستة رجال وأمرهم أن يختاروا واحدا منهم ، فصار الاختيار منهم بخمسة فقط • وذلك لأن عمرا لم يقل أن جعل الاختيار لاقل من خمسة لا يجوز ، بل أنه قال أن مال ثلاثة الى واحد وثلاثة الى واحد فاتبعوا الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، وبهذا يكون قد أجاز أن يعقد الخلافة ثلاثة فقط •

ومع هذا وذلك ، فان رأى عمر ، لا يلزم الأمة اذا لم يوافق نص قرآن أو سنة ، وهو كسائر الصحابة رضى الله عنهم جميعاً لا يجوز أن يخص الله بوجوب اتباعه دون غيره منهم (١٠٩) •

وبعد أن تناول ابن حزم بالتنفيذ هذه الآراء الثلاثة التى ذكرها أولاً ، ينتهى الى تقرير رأى الذى يراه الأصح ، فيقرر أن عقد الامامة بوجوه ، أولها وأفضلها وأصحها أن يعهد الامام القائم الى انسان يختاره اماماً بعد موته ، كما فعل الرسول ﷺ بأبى بكر ، وكما فعل أبو بكر بعمر ، وفعل سليمان بن عبد الملك بعمر بن عبد العزيز •

وهذا هو الوجه الذى نختاره ونكره غيره ، لما فيه من اتصال الامامة وانتظام أمر السلام وأهله ، ورفع ما يتخوف من الاختلاف

والشغب ، مما يتوقع في غيره من بقاء الأمة فوضى وانتشار الأمر وحدوث
الاطماع (١١٠) •

والوجه الثاني أن مات الامام ولم يعهد الى أحد أن يبادر رجل
مستحق للامامة فيدعو الى نفسه ولا منازع له ، فيكون علينا حينئذ
اتباعه والانقياد لبيعته والتزام امامته وطاعته ، وذلك كما فعل على بن
أبي طالب اذ قتل عثمان رضى الله عنهما •

والوجه الثالث أن يجعل الامام عند وفاته اختيار خليفة المسلمين
الى رجل ثقة ، أو الى أكثر من واحد كما فعل عمر بن الخطاب قبيل
موته ، وليس عندنا في هذا الوجه الا التسليم لما أجمع عليه المسلمون •

ويخلص زعيم المذهب الظاهري بعد بيان هذه الوجوه الثلاثة التي
تنعقد الامامة بأحدها الى القول : « فبأحد هذه الوجوه تصح الامامة ،
ولا تصح بغير هذه الوجوه البتة » (١١١) •

ويهتم الامام الأشعري في كتابه « مقالات الاسلاميين » باستحضار
الآراء المختلفة في المسألة التي يتكلم عنها • ومهما يكن ، فانه يذكر
أنهم اختلفوا في الامامة : هل هي بنص — أم قد تكون بغير نص ؟ —
فقال قائلون : لا تكون الا بنص من الله سبحانه وتوقيف ، وكذلك كل
امام ينص على امام بعده فهو نص من الله سبحانه على ذلك وتوقيف
عليه • وقال قائلون : قد تكون بغير نص ولا توقيف بل بعقد أهل العقد •

واختلفوا في عدد من تنعقد بهم الامامة من الرجال ، فقال قائلون

(١١٠). المصدر السابق ١٧٠/٤ (وقد بين ابن خلدون في مقدمته
بطلان ما ذهب اليه الشيعة الامامية من أن الرسول صلى الله عليه وسلم نص
في وصيته على امامة على رضى الله عنه بعد وفاته ، وذلك بأدلة قاطعة ، كما
بين الشبهة التي دعت الامامية الى الذهاب الى الراى الذى ذهبوا اليه من أن
الامامة لا تثبت الا بالنص) •

(١١١) المصدر السابق (الفصل فى الملل والاهواء والنحل) ١٧٠/٤ .

تعتقد برجل واحد من أهل العلم والمعرفة والستر ، وقال قائلون : لا تتعقد الامامة بأقل من رجلين ، وقال قائلون : لا تتعقد بأقل من أربعة يعتقدونها ، وقال قائلون : لا تتعقد بأقل من خمسة يعتقدونها ، وقال قائلون : لا تتعقد الا بجماعة لا يجوز عليهم أن يتواطئوا على الكذب ولا تلحقهم الظنة ، وقال الأصم (وهو أبو بكر الأصم المعتزلى) لا تتعقد الا باجماع المسلمين (١١٢) •

وذهب البعض (١١٣) الى أن الامام الأشعري يرى أن الامامة تثبت بالاتفاق والاختيار ، دون النص والتعيين ، ومعنى هذا أن الخليفة قد تسلم الخلافة من يد الناس ، لا من النبوة •• بوصاية أو ولاية ، ومعنى هذا أن سلطانه فيما يملكه الناس ويفوضونه فيه ، والناس لا يملكون الا ما كان من أمر الدنيا •• أما ما كان من أمر الدين فليس لهم سلطان قائم عليه ، يتصرفون فيه تصرف المالك فيما ملك •

ويذهب الكمال بن الهمام والكمال بن أبى شريف ، صاحبى المسيرة والمسامرة ، الى أن عقد الامامة يثبت بأحد أمرين : اما استخلاف الخليفة المقائم كما فعل أبو بكر اذ استخلف عمر رضى الله عنهما ، فرضى المسلمون بخلافته ، فذلك اجماع على صحة الاستخلاف •

واما ببيعة من تعتبر من أهل الحل والعقد ، ولا يشترط بيعة جميعهم ولا عدد محدود ، بل يكفى بيعة جماعة من العلماء أو من المشهورين من أهل رأى ، فاذا بايع انعقدت الامامة لمن بايعه ، فقد بايع عمر أبا بكر ولم يتوقف هذا الى انتشار الأخبار فى الأقطار ولم ينكر عليه أحد حين بادر الى القيام بأمر المسلمين ، وبايع عبد الرحمن ابن عوف عثمان بن عفان ، وتبعه بقية أهل الشورى وغيرهم •

وانما يكتفى بالواحد الموصوف بما مر ، بشرط كون العقد بمشهد من شهود وحضورهم ، وذلك لدفع أنكار من قد ينكر عقد البيعة •

(١١١) راجع : مقالات الاسلاميين ج ٢ ص ٤٥٩ — ٤٦٠ •

(١١٣) الخلافة والامامة للاستاذ عبد الكريم الخطيب ص ٢٤٤ •

وشرط المعتزلة بيعة خمسة ، كل منهم أهل للامامة ، وذلك أخذا من جعل عمر الأمر شورى بين ستة يبايع خمسة منهم السادس • وذكر بعض الأحناف (حناف ؟) اشترط مبايعة جماعة دون عدد مخصوص ، فلم يكتف هؤلاء ببيعة واحد فقط (١١٤) •

ويرى القاضى عضد الدين الايجى والسيد الشريف الجرجانى أن الشخص بمجرد صلاحيته للامامة وتوافر شروطها فيه لا يصير اماما ، بل لابد فى ذلك من أمر آخر ، والى أنها تثبت بالنص من الرسول أو من الامام السابق بالاجماع ، كما تثبت أيضا ببيعة أهل الحل والعقد عند أهل السنة والجماعة والمعتزلة والصالحية من الشيعة والزيدية ، خلافا لأكثر الشيعة الآخرين (أى الامامية) فإنهم يرون أنه لا طريق لثبوت الامامة الا بالنص •

واحتج هؤلاء لرأيهم ، الذى يؤدى الى عدم انعقاد الامامة بالبيعة ، وانعقادها عن طريق النص بوجوه كثيرة منها أنه ليس لأهل البيعة تصرف فى غيرهم ، فلا يصير اختيارهم لانسان أن يكون خليفة حجة على من عداهم • ومنها أن الامامة خلافة ونيابة عن الله ورسوله ، فلا تثبت الا بالنص ، لا بقول أهل البيعة ، والا كان من يختارونه خليفة عنهم لا عن الله ورسوله •

ومنها أيضا ، أن ثبوت الامامة بالبيعة يؤدى الى الفتنة ، وذلك لأنه قد يبايع أكثر من واحد فى بلدان مختلفة ، ويدعى كل من الأقوام الذين بايعوا هؤلاء المتعددين أن من اختاروه هو أولى من غيره فيكون هو الامام وحده ، وفى هذا من الفتنة والضرر ما فيه •

ومن هذه الوجوه أيضا ، أن من شروط الامام العصمة من الذنوب والآثام ، والعلم التفصيلى بجميع مسائل الدين بحيث لا يحتاج فى شيء

منها الى النظر والاستدلال ، وهذا وذاك لا يعلمه الا الله تعالى دون
أهل البيعة ، واذن ، فلا تنعقد الامامة ببيعتهم ، بل لابد من النص من
الله ورسوله (١١٥) .

ويذهب المؤلفان الى أنه لا يشترط في البيعة الاجماع من جميع
أهل الحل والعقد لأن ذلك لم يقم عليه دليل من العقل أو السمع ،
بل في الواحد والاثنين من أهل الحل والعقد كفاية في انعقاد الامامة
وثبوتها ووجوب طاعة الامام الذي بويح وجوب طاعته . وقال بعض
الأصحاب يجب كون ذلك العقد من واحد أو اثنين بمشهد بينه عادلة ، كفا
للخصام في ادعاء من يزعم عقد الامامة له سرا قبل من عقد له جهرا . . .
وهذا الذي ذكر من اعتبار البيعة العادلة وعدم اعتبارها من المسائل
الاجتهادية ، فيجتهد فيها ويعمل بما يؤدي الاجتهاد اليه (١١٦) . واليك
نص كلامهما : « واذا ثبت حصول الامامة بالاختيار والبيعة فاعلم أن ذلك
الحصول لا يفتقر الى الاجماع من جميع أهل الحل والعقد اذ لم يقيم
عليه دليل من العقل أو السمع بل الواحد والاثنين من أهل الحل والعقد
كان في ثبوت الامامة ووجوب اتباع الامام (كعقد عمر الأبي بكر وعقد
عبد الرحمن بن عوف لعثمان) . ولم يشترطوا في عقد الامامة اجتماع من
في المدينة من أهل الحل والعقد فضلا عن اجماع الأمة من علماء أنصار
الاسلام ومجتهدي جميع أقطارها . . . وقال بعض الأصحاب يجب كون
ذلك العقد من واحد أو اثنين بمشهد بينه عادلة كفا للخصام في ادعاء
من يزعم عقد الامامة له سرا قبل من عقد له جهرا . وهذا الذي ذكر من
اعتبار البيعة العادلة وعدم اعتبارها من المسائل الاجتهادية فيجتهد فيها
ويعمل بما يؤدي الاجتهاد اليه » .

(١١٥) انظر : هذد الوجوه والرد عليها في المواقف وشرحها ج ٨ ص

٣٥١ — ٣٥٢ ، يتصرف .

(١١٦) المصدر السابق ٨ / ٣٥٢ — ٣٥٣ . وراجع : تحفة الملوك

والسلطين للشيرازي — مخطوط — ص ٩٣ — ٩٤ .

والخلافة تقوم عند المسلمين ، بحسب رأى ابن خلدون ، على أساس البيعة الاختيارية ، وترتكز على رغبة أهل الحل والعقد من المسلمين ورضاهم ، إذ الأصل في الخلافة عند المسلمين أن تكون راجعة الى اختيار أهل العقد والحل « وإذا تقرر أن هذا النصب (للالمام واجب باجماع ، فهو من فروض الكفاية وراجع الى اختيار أهل العقد والحل ، فيتعين عليهم نصبه ، ويجب على الخلق جميعا طاعته ، لقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (آية ٥٩ من سورة النساء « سورة ٤) : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (١١٧) .

وفي عرضنا لرأى الفقهاء والاحناف ، نجد في حاشية ابن عابدين على الدر المختار شرح تنوير الأبصار ، أن الخلافة تنعقد بأمرين :

المبايعة من الأشراف والأعيان والاستخلاف عن الامام القائم قبل موته . وزاد ابن عابدين أنها تنعقد بأمر ثالث ، وهو التغلب والقهر ، إذ يصير المتغلب اماما دون مبايعة أو استخلاف من الامام السابق . ويشترط لثبوت الامامة لمن بويح ، أو استخلف ، أن يكون له من القوة ما به ينفذ حكمه في الرعية ، فان بايع الناس اماما ولم ينفذ حكمه فيهم بعجزه عن قهرهم ، لا يصير اماما ، وكذلك الأمر ان كان قد صار اماما بالعهد اليه من الخليفة الذي كان قبله .

ويقول ابن عابدين في هذا وذاك ما نصه : « فقد علم أنه يصير اماما بثلاثة أمور » يريد بها كما هو واضح : المبايعة ، والاستخلاف ، والتغلب . وقد يكون مع التغلب المبايعة أيضا فيما بعد ، وهو ما كان يحصل في أيام ابن عابدين ، كما يقول (١١٨) .

(١١٧) المقدمة لابن خلدون ٦٩١/٢ .
(١١٨) حاشية ابن عابدين على الدر المختار ٣ / ٣١٩ — ٣٢٠ .

رأى الشيعة :

أما عن رأى الشيعة ، فيذهب ابن خلدون الى أن « الشيعة لغة هم الصحب والأتباع ، ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين — المتكلمون هم علماء التوحيد المسمى بعلم الكلام) — من الخلف والسلف على أتباع على وبنيه رضى الله عنهم * ومذهبهم جميعا متفقين عليه : « أن الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوض الى نظر الأمة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الاسلام ، ولا يجوز لنبي أغفاله ولا تفويضه الى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر » وأن عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهابذة السنة ولا تقبله الشريعة ، بل أكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة » (١١٩) .

ويقول « ابن حجر العسقلانى » (١٢٠) ، إن التشيع هو محبة على وتقديمه على الصحابة * فمن قدمه على أبى بكر وعمر فهو غال ، ويطلق عليه رافضى ، والافشيعى * ويقول أيضا ، والغالى فى زماننا وعرفنا هو الذى يكفر هؤلاء السادة * فأساس التشيع ، اذن ، هو الاعتقاد بأن « عليا » وذريته أحق الناس بالخلافة ، وأن عليا كان أحق بها من أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وأن النبى ﷺ عهد له بها من بعده ، وكان كل امام يعهد بها لمن بعده .

ويفضل الشيعة لقب امام على لقب خليفة ، ومن أجل هذا ، فان الشيعة كانوا يسمون ولاية الأمر المعترف بهم منهم : « خلفاء » ، لا « أئمة » * والدليل على أن « الامامة » عند الشيعة أكمل من — « الخلافة » ما ينقله التفنازانى (١٢١) من « أن الشيعة كانوا يذهبون

(١١٩) المقدمة لابن خلدون ٢ / ٦٩٧ .

(١٢٠) انظر : مقدمة فتح البارى .

(١٢١) شرح العقائد النسفية ص ١٤٣ .

الى أن « الامامة » أخص من « الخلافة » * ويذهب ابن خلدون الى أن الشيعة خصوا عليا باسم « الامام » تشبيها له بامام الصلاة في اتباعه والافتداء به *

والمعتزلة — خصوم الشيعة — كانوا يعتمدون في اصدار آرائهم السياسية على العقل والقياس ، ومن هنا كانت آراء المعتزلة تعارض آراء الشيعة في كل شيء وعلى وجه التخصيص مسائل الامامة ، ومسائل التشبيه قبل في ترجمة « واصل » رأس المعتزلة — : « ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة ، والدهرية ، والمرجئة منه » (١٢٣) ويرى المعتزلة « أن النبي ﷺ لم ينص على من يخلفه وترك الأمر للناس يرون ما يصلح لهم ومن يصلح لهم ، ويذهبون أيضا الى أن الخليفة لا يكون الا بانتخاب حر صريح ، يقوم به عامة المسلمين ، لا فريق منهم ، ويستمر خليفة ما دام محافظا على الدين ، راعيا لمبادئه وتعاليمه ، مبتعدا عن الخطأ والزيف *

وقد وضع المعتزلة الصحابة والتابعين موضع الناس ، يخطئون ويصيبون ، ويصدر منهم ما يمدح وما يذم ، ولم يتخرجوا من ذلك كما تخرج غيرهم ، فوضعوا الصحابة وكبار التابعين في دائرة لا يستباح مهاجمتها ، بل قالوا : « انا رأينا الصحابة أنفسهم ينقد بعضهم بعضا بل ويلعن بعضهم بعضا — لو كانت الصحابة عند نفسها بالمنزلة التي لا يصبح فيها نقد ولا لعنة لعلمت ذلك من حال نفسها ، لأنهم أعرف بمحافلهم من عوام أهل دهرنا ... » * وقالوا « وكان التابعون يسلكون بالصحابة هذا المسلك ، ويقولون في العصاة منهم هذا القول ، وانما اتخذهم العامة

أربابا بعد ذلك • والصحابة قوم من الناس ، لهم ما للناس ، وعليهم ما عليهم ، من أساء منهم ذمناه ، ومن أحسن منهم حمدناه • • » (١٢٣) •

ويذهب غالبية المعتزلة الى أنه لابد للمسلمين من امام « ينفذ أحكامهم ، ويقيم حدودهم ، ويحفظ بيضتهم ، ويحرس حوزتهم ، ويعبى جيوشهم ، ويقسم غنائمهم وصدقاتهم ، وينصف المظلوم ، وينتصف من الظالم ، وينصب القضاة والولاة في كل ناحية ، ويبعث القراء والدعاة الى كل طرف » ، وقد خالف من المعتزلة في ذلك أبو بكر الأصم ، وهشام الفوطي ، فرأيا كما رأى بعض الخوارج : « أن الامامة غير واجبة في الشرع وجوبا ، لو امتنعت الأمة عنه استحققت اللوم ، بل هي مبنية على معاملات الناس ، فان تعادلوها وتعاونوا وتناصروا على البر والتقوى ، واشتغل كل واحد من المكلفين بواجبه ، استغنوا عن الامام » (١٢٤) •

ونعود الى الشيعة ، فنجد أنهم يوجبون الامامة ، وأن الأرض لا يصح أن تخلو من أى وقت من الاوقات من نبي أو امام • قال محمد ابن يعقوب الكليني : (١٢٥)

« انا لما أثبتنا أن لنا خالقا صانعا متعاليا عنا وعن جميع ما خلق وكان ذلك الصانع حكيما متعاليا لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه فيباشروهم ويباشروه ويحاجهم ويحاجوه ، ثبت أن له سفراء في خلقه يعبرون عنه الى خلقه وعباده ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم

(١٢٣) هذا بعض رسالة طويلة في هذا الموضوع نقلها ابن أبي الحديد — وهو شيعي معتزلي — في شرحه لنهج البلاغة ٤ / ٥٤ عن بعض الزيدية ، والزيدية بلايذ المعتزلة نقلوا عن : ضحى الاسلام للاستاذ أحمد أمين ٧٥/٣ — ٧٦ •

(١٢٤) نهاية الاقدام للشهرستاني ص ٤٨١ •
(١٢٥) الفصول المهمة في أصول الائمة عليهم السلام لمحمد بن الحسن الحر العاملي ص ١٤٠ •

في خلقه والمعبرون عنه جل وعز وهم الأنبياء وصفوته من خلقه حكماء ومؤدبين بالحكمة مبعوثين بها غير مشاركين للناس على مشاركتهم بهم في الخلق والتركيب في شيء من أحوالهم مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة ثم يثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين لكيلا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته » *

والإيمان بالامام من الواجبات الواجبة على كافة المسلمين ، بل أن الإيمان بالامام جزء من الإيمان عند الامامية ، ويجب على كل مكلف طاعة الأئمة ، وذلك لأنهم هم الهداة لأهل كل زمان * « عن أبي حمزة قال لى أبو جعفر : أنما يعبد الله من يعرف الله ، فأما من لا يعرف الله فانما يعبد هكذا ضلالا * قلت : جعلت فداك ، فما معرفة الله ؟ قال : تصديق الله عز وجل ، وتصديق رسوله ، وموالاته على والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام ، والبراءة الى الله عز وجل من عدوهم * هكذا يعرف الله » (١٢٦) وقال أبو جعفر : « ان من أصبح من هذه الأمة لا امام له ، أصبح ضالا نائها ، وان مات على هذه الحال مات ميتة كفر ونفاق » (١٢٧) *

وقد أنقسمت الشيعة بعد سيدنا على رضى الله عنه الى عدد عظيم من الفرق ويعدها « الألوسى » في « مختصر التحفة الاثنى عشرية » بأربع وعشرون فرقة ، ويذكر « العنصر — في المواقف » أنهم اثنتان وعشرون فرقة : يكفر بعضهم وهم أصول ثلاث : فرق غلاة ، وزيدية وامامية * ثم ذكر للغلاة منهم ثمانى عشرة فرقة ، وللزيدية ثلاثا ، ثم

(١٢٦) كتاب اصول الكافى للكلينى ص ٨٤ .

(١٢٧) المصدر السابق ص ٨٥ (والكلينى : هو محمد بن يعقوب ، يعد من افاضل الشيعة ورؤسائهم ، وهو عند الشيعة كالبخارى عند أهل السنة ، له كتاب الكافى فى ثلاثة أجزاء : الاول فى الاصول والثانى والثالث فى الفروع ومات فى بغداد سنة ٣٢٨ — راجع هامش كتاب : ضحى الاسلام لاساذ أحمد أمين ٢١٣/٣) .

ذكر عن الامامية أنهم يكفرون الصحابة • وذكر عن الخوارج أنهم يكفرون عليا ومعه اثنا عشر ألف صحابي ممن رضى بالتحكيم ، وأنهم لا يوجبون نصب أمام ويكفرون عثمان أيضا • وأكثر الصحابة ومرتكب الكبيرة • ومنهم الاباضية ، وذكر لهم سبع فرق • وعلى ما ذكره العنبر : فالزيدية والامامية من المعتدلين لا الغالين ، والامامية الاثنى عشرية يلقبون أيضا بالجعفرية • وبعبارة أخرى نقول أن مذاهب الشيعة تعددت كثيرا فمنهم الغلاة ، والاثنى عشرية ، والواقفية ، والكيسانية ، والزيدية ، والامامية ، والاسماعيلية ، والخلاف بينهم وبين غيرهم مسألة « الخلافة » لمن تكون •

وقد اختلفت جهات نظر الشيعة في أصول بينهم كما يؤكد ذلك البغدادى في « أصول الدين » ، وأساس الاختلاف بين الشيعة شيئان :

١ — اختلاف في المبادئ والتعاليم ، فمنهم المغال المتطرف في التشيع والذي يصل به تطرفه الى حد تأليه الأئمة ، ومنهم المعتدل المترن الذي يرى أحقية الأئمة في اعتدال ودون تكفير لمن يخالفهم •

٢ — الاختلاف في تعيين الأئمة : فقد أعقب على وأبناؤه كثيرين ، واختلفت الشيعة فيمن يستحق الامامة من ذرية على ، فمنهم من يقول هذا ، ومنهم من يقول ذاك •

ومن أشهر مذاهب الشيعة الباقية الى اليوم مذهبان كبيران (١٢٨) : وهما الامامية والزيدية •

والشيعة الامامية سميت بهذا الاسم نسبة الى الامام (الخليفة)
الأنهم أكثروا من الاهتمام به وركزوا كثيرا من تعاليمهم حوله • فكانوا يرون أن عليا يستحق الخلافة بعد النبي ﷺ لا من طريق الكفاية وحدها ،

(١٢٨) راجع : الجزء الثالث من كتاب : ضحى الاسلام للاستاذ أحمد أمين (ص ٢١٠ وما بعدها) .

ولا من طريق ما ورد عن النبي ﷺ من أوصاف لا تنطبق الا عليه ، بل من طريق النص عليه بالاسم • ويقال للامامية أيضا « الرافضة » — اما لرفضهم امامة « الشيخين » ، أبو بكر وعمر ، واما لرفضهم « زيدا » على قول آخر • وحسب ما تقدم فانه لا يجوز للرعية اختيار الأئمة ، بل لابد فنيه من النص •

« فيروى محمد بن يعقوب الكليني عن الرضا عليه السلام في حديث طويل قال : هل يعرفون الامامة ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم • ان الامامة أجل قدرا ، وأعظم نأنا ، وأعلى مكانا ، وأمنع جانبا ، وأبعد غورا من أن تبلغها الناس بعقولهم أو ينالوا بآرائهم أو يقيموا اماما فمن أين يختار هؤلاء الجهال • ان الامامة هي منزلة الأنبياء وارث الاوصياء • ان الامامة خلافة الله وخلافة الرسول ومقام أمير المؤمنين وميراث الحسن والحسين عليهما السلام • ان الامامة زمام الدين ونظام المسلمين وصالح الدنيا وعز المؤمنين فمن ذا الذي يبلغ معرفة الامام أو يمكنه اختياره هيئات هيئات ضلت العقول وتاهت الحلوم وجارت الألباب وخسئت العيون عن وصف شأن من شأنه أو فضيلة من فضائله وأقرت بالعجز والتقصير وكيف يوصف ب كله أو ينعت بكنهه أو يفهم شيء من أمره أو يوجد من يقوم مقامه ويغنى عنه • لا كيف وأنى حيث النجم من يد المتناولين ووصف الواصفين فأين الاختيار من هذا وأين العقول من هذا وأين يوجد مثل هذا • راموا اقامة الامام بعقول جايرة بايرة ناقصة واراها مضلة فلم يزدادوا منه الا بعدا رغبوا من اختيار الله واختيار رسوله الى اختيارهم والقرآن يناديههم وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة من أمرهم سبحان الله وتعالى عما يشركون • وقال عز وجل : وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم فكيف لهم باختيارهم الامام والامام عالم لا يجهل راع لا ينكل معدن القدس والطهارة والنسك والزهادة والعلم والعبادة » (١٢٩) •

(١). الفصول المهمة في اصول الأئمة عليهم السلام نلحر العالمى

« والامامية الاثنا عشرية » من أهم فرق الامامية ، وقد سميت بذلك لأنها تقول باثني عشر اماما على الترتيب ، وأولهم طبعاً الامام على رضى الله عنه ، وعقيدتهم هي العقيدة التي يدين بها الايرانيون الى اليوم . « والامامية الاثنا عشرية » يفرضون في الامام سلطاناً مقدساً يأخذه بايضاء عن « النبي ﷺ » فكما أن ولايته أمر الأمة كانت بالوصاية ، فتصرفاته كلها مشتقة من صاحب هذه الوصاية ، وهو النبي ﷺ . وتتفرع عن الامامية ، أيضاً فرقة « الاسماعيلية » التي تتبع اسماعيل ابن « جعفر الصادق » . وجعفر الصادق هذا بن محمد الباقر ، هو زعيم حركة « الامامية » . ويذهب « الاسماعيلية » الى أن الامام ليس مسئولاً أمام أحد من الناس وليس لأحد من الناس أن يخطئه مهما يأت من أفعال ، وذلك لأن عنده من العلم ما لا قبل لأحد بمعرفته ، وبحسب كلامهم هذا فانهم يقررون أن الأئمة معصومون .

وكما هو معروف ، فإن أهم ما يدور من خلاف بين الامامية وبين أهل السنة إنما يدور حول مسألة الامام . فعند أهل السنة الخليفة أو الامام نائب عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا ، أما عند الشيعة ، فالامام أكبر معلم ، وهو القوام على الشريعة بعد « النبي ﷺ » ، وهذا الامام ليس شخصاً عادياً بل هو فوق الناس لأنه معصوم من الخطأ . ووجوده ليس ضرورياً فقط لبيان الشريعة ، بل هو أيضاً ضروري لحفظ الشريعة وصيانتها من الضياع ، وانه بعصمته التي توجب طاعته والافتداء به ، يكون الدين محفوظاً الى يوم القيامة .

وخلاصة القول ، فإن الامامة (الخلافة) لا تجب عند الشيعة الامامية الا من طريق النص ، وهم يورثونها على وجه الاطلاق ، وبمعنى آخر فانه لا يصح في الامامة الاختيار وذلك لأنها : « خلافة الله وخلافة الرسول ومقام أمير المؤمنين وميراث الحسن والحسين عليهما السلام » (١٣٠) .

والزيدية أتباع زيد بن حسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وهم كفرقة شيعية أقرب فرق الشيعة الى الجماعة الاسلامية ، ومذهبهم أعدل مذاهب الشيعة ، وأقرب الى أهل السنة من الفرق الأخرى ، ونظر الشيعة الزيدية الى الامام نظر معتدل ، فهي لم ترفع الأئمة الى مرتبة النبوة ، بل لم ترفعهم الى مرتبة تقاربها ، بل اعتبروهم كسائر الناس ، ولكنهم أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ، وهم لا يؤمنون بالخرافات التي ألصقت بالامام فجعلت له جزءا الهيا . والامام عند الزيدية يجب أن ينتخب ، وهم يرفضون له حق تعيين خلفه ، فليست هناك امامة بالنص ، ولم ينزل وحى يعين الأئمة بل هي « باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص » (١٣١) وتقبل الزيدية بامكان وجود امامين في نفس الوقت ، على أن يكون كل واحد منهما اماما في الاقليم الذي خرج فيه ما دام متحليا بالأوصاف التي يشترط توافرها في الامام ، ومادام الاختيار كان حرا من أولى الحل والعقد ، هذا مع التأكيد بأن لا يجوز قيام أمامين في إقليم واحد ، ولأن هذا منهي عنه صراحة . وقد تبرر الظروف عند الزيدية ، التجاوز عن الامام الشرعى لمدة من الزمن وانتخاب بعض من ليس له الحق في ذلك ، أى أنهم يجيزون امامة المفضول مع وجود الأفضل . ولا يزال الزيدية في اليمن الى الآن .

يقول المسير « توماس آرنولد » أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن : « ان علماء الشيعة يرفضون » ما عدا الزيديين « مبدأ الانتخاب ، ويتمسكون بأن النبي عين عليا مباشرة خالفا له ، وأن صفات علي انتقلت الى أولاده الذين أمر الله أن يشغلوا هذا المنصب الرفيع » (١٣٢) .

والى الشيعة يرجع الفضل في وضع علم « الامامة » (١٣٣) ، فلقد وجدت مباحث الامامة — وهي الجانب السياسى من علم الكلام الذى يبحث في

(١٣١) المقدمة لابن خلدون تحقيق د . على عبد الواحد وافي ٧٠٤/٢

(١٣٢) الخلافة : لنوماس آرنولد ص ١١٥

(١٣٣) راجع : النظريات السياسية الاسلامية للدكتور محمد ضياء

الدين الرئيس ص ٨٤ — ٨٥

العقائد الدينية — نتيجة للنقاش بين الشيعة ومخالفهم : من خوارج ومعتزلة وأهل سنة أيضا • والشيعة — في الغالب — هم الذين اختاروا للإمامة مصطلحاتها الفنية ، بل هم الذين سموها بهذا الاسم ، وهم الذين قسموا العلم وبوبوا أبوابه ، وعينوا مجاله ورسموا حدوده • وأن أبحاث الفرق الأخرى انما كانت محصورة في أنها أجوبة على الأسئلة التي يضعها الشيعة ، أو لم تكن الا مجموعة من الردود على الدعاوى التي كان الشيعة يبدأون باثارتها •

أهل الحل والعقد :

وحق اختيار الخليفة لم يكن متروكا لجميع أفراد الأمة وانما حق الاختيار كان مقصورا على فئة معينة يطلق عليها أهل الحل والعقد أو أهل الاختيار « واذ تقرر أن هذا النصب واجب باجماع ، فهو من فروض الكفاية ، وراجع الى اختيار أهل العقد والحل ، فيتعين عليهم نصبه ، ويجب على الخلق جميعا طاعته ، لقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (آية ٥٩ من سورة النساء) (سورة ٤) : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (١٣٤) •

فأهل الحل والعقد هم أصحاب الرأي والعلم وموضع الثقة من فئات الأمة المتعددة ، ولا يوجد هناك فرق كبير بينهم وبين أعضاء المجالس النيابية في النظم الدستورية الحديثة • فالنواب هم مصدر القوانين كلها بلا استثناء ، والأمر كذلك في الاسلام الا فيما جاء فيه نص حكم من القرآن أو سنة ثابتة عن الرسول ، فان هذا لا رأى فيه لأهل الحل والعقد مطلقا الا في فهم هذه النصوص •

واحدى طرق عقد الإمامة عند الماوردي أن تتم باختيار أهل العقد والحل ولكن هناك اختلاف في عدد من تنعقد بهم الإمامة ،

فذهب البعض الى أنه لابد من رضى أهل العقد والحل من كل بلد ،
وذهب البعض الآخر الى أن أقل ما تنعقد به الامامة خمسة يجتمعون
على عقدها أو يعقدها برضا الأربعة الأخر ، وذهبت طائفة ثالثة الى
أن الامامة يكفى لانعقادها وتنصيب الامام ثلاثة يتولاها أحدهم يرضا
الاثنين ليكونوا حاكما وشاهدين كما يصح عقد النكاح بولى وشاهدين *
وقالت طائفة رابعة تنعقد الامامة بواحد لأن العباس قال لعلى رضوان الله
عليهما امدد يدك أبايعك فيقول الناس عم رسول الله صلى الله عليه بايع
ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان ولأنه حكم ، وحكم واحد نافذ *

وقد « اتفق أهل السنة على أن نصب الخليفة فرض كفاية ،
وأن المطالب به أهل الحل والعقد في الأمة ، ووافقهم المعتزلة والخوارج
على أن الامامة تنعقد ببيعة أهل الحل والعقد * ولكن اضطرب كلام
بعض العلماء في أهل الحل والعقد من هم ؟ وكان ينبغي أن تكون تسميتهم
بأهل الحل والعقد مانعة من الخلاف فيهم ، اذ المتبادر منه أنهم زعماء
الأمة وأولوا المكانة وموضع الثقة من سوادها الأعظم ، بحيث تتبعهم في
طاعة من يولون عليها ، فينتظم به أمرها ويكون بمان من عصيانها
وخروجها عليه ... فاذا لم يكن المبايعون بحيث تتبعهم الأمة فلا تنعقد
الامامة بمبايعتهم * وهذا هو المأخوذ من عمل الصحابة رضى الله عنهم في
تولية الخلفاء الراشدين » (١٣٥) *

والأصل في المبايعة أن تكون بعد استشارة جمهور المسلمين
واختيار أهل الحل والعقد ، ولا تعتبر مبايعة غيرهم الا أن تكون
تبعاً لهم : « فاذا اجتمع أهل العقد والحل للاختيار تصفحوا أحوال أهل
الامامة الموجودة فيهم شروطها ، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً
وأكملهم شروطاً ، ومن يسرع الناس الى طاعته * فاذا تعين لهم
بين الجماعة من أداهم الاجتهاد الى اختياره عرضوها عليه ، فان أجاب
اليها بايعوه عليها ، وانعقدت ببيعتهم له الامامة ، فلزم كافة الاممة

الدخول في بيعته والانقياد لاطاعته وان امتنع من الإمامة ولم يجب إليها لم يجبر عليها • لأنها عقد مراضاة واختيار لا يداخله إكراه ولا إجبار ، وعدل عنه إلى من سواه من مستحقيها » (١٣٦) •

وإذا صلحت أحوال أهل الحل والعقد صلح حال الأمة وحال حكامها ، وإذا فسدت فسدا ، ذلك أن أهل الحل والعقد هم سداة الأمة وزعمائها ورؤسائها ، الذين تثق بهم في العلوم والأعمال والمصالح التي بها قيام حياتها ، وتتبعهم فيما يقررونه بشأن الدين والديني منها ، ولذلك كان مقتضى الإصلاح الإسلامي أن يكون أهل الحل والعقد في الإسلام من أهل العلم الاستقلالي بشريعة الأمة ومصالحها السياسية والاجتماعية ، والقضائية ، والادارية والمالية ، ومن أهل العدالة والرأى والحكمة (١٣٧) •

ولكل هذه الأهمية التي يمثلها أهل الحل والعقد ، والواجبات الهامة الملقاة على عاتقهم ، والمسئولية التي يتحملونها ، اشترط مفكرنا الماوردي فيهم عدة شروط هامة •

قال الماوردي : « فأما أهل الاختيار فالشروط المعتبرة فيهم ثلاثة : أحدها : العدالة الجامعة لشروطها » •

والثاني : العلم ، الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيها •

والثالث : الرأى والحكمة ، المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح ، وبتدبير المصالح أقوم وأعرف (١٣٨) •

وهذه الشروط تتطلب فيمن يطلق عليهم « أهل الحل والعقد » ، وهم الذين يقع على عاتقهم اختيار الخليفة ومبايعته — نقول أن هذه

(١٣٦) الأحكام السلطانية للماوردي ص ٥

(١٣٧) راجع : الخلافة للسيد محمد رشيد رضا ص ٥٨

(١٣٨) الأحكام للماوردي ص ٥ ، والأحكام السلطانية لأبى يعلى

الفراء ص ٣

الشروط تتطلب في أهل الحل والعقد الى جانب صفات المعرفة والحداية صفات أخرى ذات صبغة أدبية أو أخلاقية كاشتراط العدالة (أى التقوى والورع) ، أما الحكمة التى يشترطها الماوردى ، فهى فى نظر علماء المسلمين ، نوعان : قولية وفعلية فالقولية هى قول الحق والفعلية هى فعل الصواب (١٣٩) •

ذكرنا أن الماوردى اشترط أن تتوافر فى أهل الحل والعقد ، أو « أولى الأمر » الذين تجب طاعتهم بأمر الله فى القرآن بعض الصفات كالعدالة ، والعلم ، والرأى ، والحكمة • وقد فصل الشيخ محمد عبده المراد من « أولى الأمر » الذين أمر الله بطاعتهم ، وهم أهل الحل والعقد ، والذى أوضحت فقرة الماوردى الموجزة الصفات المطلوب توافرها فيهم — نقول فصل الامام محمد عبده ما يقصده من « أولى الأمر » الذين أمر الله بطاعتهم فى قوله تعالى فى سورة النساء : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خيرا وأحسن تأويلا » ••• وقد نقل ذلك عنه السيد محمد رشيد رضا اذ يقول : (١٤٠) •

قال رحمه الله تعالى : أنه فكر فى هذه المسألة من زمن بعيد • فانتهى به الفكر الى أن المراد بأولى الأمر جماعة « أهل الحل والعقد » من المسلمين ، وهم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع اليهم الناس فى الحاجات والمصالح العامة ، اذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه •

ويقول السيد محمد رشيد رضا فى موضع آخر من تفسيره : هكذا يجب أن يكون فى الأمة رجال أهل بصيرة ورأى فى سياستها ومصالحها

(١٣٩) راجع : أغاثة اللفهان ، لابن القيم (تحقيق الاستاذ محمد سيد كيلانى) طبعة ١٩٦١ — ٢٥٣/٢
(١٤٠) تفسير المنار ١٨١/٥ — ١٨٢

الاجتماعية وقدرة على الاستنباط يرد اليهم أمر الأمن والخوف وسائر الأمور الاجتماعية والسياسية ، وهؤلاء هم الذين يسمون في عرف الاسلام « أهل الشورى » ، و « أهل الحل والعقد » * وهم الذين يسمون عند الأمم الأخرى بنواب الأمة (١٤١) *

وتنتهى اذن الى أن الماوردى يرى أن مصدر السيادة في الدولة هو الأمة ممثلة في « أهل الحل والعقد » وليس هو الخليفة أو الامام * ويجب الا يصدر عن أهل الحل والعقد رأى أو قرار يعارض نصا محكما من كتاب الله ، أو سنة ثابتة بلا ريب عن رسول الله ، ذلك أن مصدر السيادة هو التشريع الذى يؤخذ من الكتاب والسنة الصحيحة والذى يمثل السيادة هنا هم « أولوا الأمر » أو « أهل الحل والعقد » والذين اشترط الماوردى فيهم من أجل هذه المسئوليات الكبيرة الملقاة على عاتقهم توافر شرائط العدالة ، والعلم ، والرأى ، والحكمة *

ولاية العهد أو الاستخلاف :

قلنا أن الماوردى يذهب الى أن الامامة تنعقد من وجه * أحدهما : باختيار أهل العقد والحل ، والثانى : بعهد الامام من قبل ، ذلك أن الخلافة كما تثبت بمبايعة أهل الحل والعقد ، فهي تثبت كذلك عن طريق الاستخلاف (أو ولاية العهد) ، ودليل ذلك أن الخلافة تثبت لعمر لأن الخليفة أباً بكر عهد بها اليه من بعده *

يقول فقيهننا الماوردى فى انعقاد الامامة بعهد : « وأما انعقاد الامامة بعهد من قبله فهو مما انعقد الاجماع على جوازہ ، ووقع الاتفاق على صحته الأمرين عمل المسلمون بهما ولم يتناكروهما * أحدهما أن أباً بكر رضى الله عنه عهد بها الى عمر رضى الله عنه ، فأثبت المسلمون امامته بعهدہ * والثانى أن عمر رضى الله عنه عهد بها الى أهل الشورى

فقبلت الجماعة دخولهم فيها وهم أعيان العصر اعتقادا لصحة العهد بها وخرج باقى الصحابة منها ، وقال على للعباس رضوان الله عليهما حين عاتبه على الدخول فى الشورى ، كان أمرا عظيما من أمور الاسلام لم أر لنفسى الخروج منه فصار العهد بها اجماعا فى انعقاد الامامة •

فإذا أراد الامام أن يعهد بها فعليه أن يجهد رأيه فى الأحق بها والأقوم بشروطها ، فإذا تعين له الاجتهاد فى واحد نظر فيه ، فإن لم يكن ولدا ولا والدا جاز أن ينفرد بعقد البيعة له وبتفويض العهد اليه ، وإن لم يستشر فيه أحدا من أهل الاختيار • ولكن اختلفوا هل يكون ظهور الرضا منهم شرطا فى انعقاد بيعته أولا • فذهب بعض علماء أهل البصرة الى أن رضا أهل الاختيار لبيعته شرط فى لزومها للأمة لأنها حق يتعلق بهم ، فلم تلزمهم الا برضا أهل الاختيار منهم • والصحيح أن بيعته منعقدة وأن الرضا بها غير معتبر ، لأن بيعة عمر رضى الله عنه لم تنتوقف على رضا الصحابة ، ولأن الامام أحق بها فكان اختياره فيها أمضى وقوله فيها أنفذ » (١٤٢) •

ويقول امام الحرمين (الجوينى) بشأن ولاية العهد : « وأصل تولية العهد ثابت قطعا ، مستند الى اجماع حملة الشريعة ، فإن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ لما عهد الى عمر ابن الخطاب رضى الله عنهما ، وولاه الامامة بعده ، لم يبد أحد من صحب رسول الله عليه السلام نكيرا ، ثم اعتقد كافة علماء الدين تولية العهد مسلکا فى اثبات الامامة فى حق المعهود اليه المولى » (١٤٣) •

ولى العهد حين يكون ابنا أو والدا :

وقد اختلف العلماء القدامى فى صحة انفراد الخليفة فى العهد بالخلافة الى ابيه أو ابنه دون متساورة أو موافقة أهل الحل والعقد •

(١٤٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٧

(١٤٣) غياث الأمم — مخطوط — ص ٦٥

ويذكر الماوردي بأن البعض يرى أن هذا غير جائز « لأن ذلك منه (أي من الخليفة تركية) له ، مجرى الشهادة ، وتقليده على الأمة (أي إقامة ولي العهد خليفة) يجرى مجرى الحكم وهو لا يجوز أن يشهد لوالد أو لولد ولا يحكم لواحد منهما ، للتهمة العائدة اليه بما جبل من الميل اليه » ثم يقول بأن هناك رأيا آخر يقول أصحابه بأنه « يجوز أن ينفرد (الخليفة) بعقدها لولد ووالد ، لأنه أمير الأمة (أي حاكمها) تافذ الأمر لهم وعليهم ، فغلب حكم المنصب على حكم النسب ، ولم يجعل للتهمة طريقا على أمامته ، ولا سبيلا الى معارضته (١٤٤) » .

ويقول ابن خلدون في هذه المسألة : « ولا يتهم الامام في هذا الأمر ، وان عهد الى أبيه لأنه مأمون على النظر لهم في حياته ، فأولى الا يحتمل فيها تبعة بعد مماته ، خلافا لمن قال باتهامه في الولد والوالد ، أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد ، فانه بعيد عن الظنة في ذلك كله ، لاسيما اذا كانت هناك داعية تدعو اليه من ايثار صلحة أو توقع مفسدة ، فتنتفى الظنة عند ذلك رأسا ، كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد » (١٤٥) .

هل يجوز العهد لأكثر من واحد :

والجواب أن ذلك جائز ، بشرط أن يكون العدد محصورا . وقد بنى الفقهاء اجازتهم لذلك على سابقة تاريخية ودستورية مشهورة ، وهي عهد « عمر » لأهل الشورى ، وكانوا ستة ، ويكون الحكم أن لأهل الاختيار أن يختاروا أحد المعهود اليهم بعد موت الامام ، فهم اذن الذين يعينون الخليفة . ولكن لا يجوز لهم تعيين ولي العهد في حياة الامام الا بإذنه ، « لأنه بالامامة أحق فلم يجز أن يشارك فيها » ، واذا خافوا انتشار (اضطراب) الأمر بعد موته أستأذنوه وأتموا الاختيار . وفي حالة الشورى التي يشير اليها الفقهاء كان الاختيار قد تم بعد وفاة عمر —

(١٤٤) الأحكام السلطانية للماوردي ص ٧ — ٨ بتصرف

(١٤٥) المقدمة لابن خلدون ٧٢٢/٢ — ٧٢٣ .

رضى الله عنه — بأن تناول ثلاثة من الستة — هم — سعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة — فأنحصر العهد في ثلاثة، ثم عرض عبد الرحمن بن عوف أن يخرج نفسه أيضا على أن يتولى مهمة اختيار واحد من الاثنين الباقيين بعد استطلاع رأى الجماعة، فأصبح العهد محصورا في اثنين: عثمان وعلى. وبعد المتساورة تم تعيين عثمان. قال الماوردي معلقا في كتابه (الأحكام السلطانية): «ثم بايع — أى ابن عوف — عثمان بن عفان، فكانت الشورى التى دخل أهل الامامة فيها، وأنعقد الاجتماع عليها، أصلا في انعقاد الامامة بالعهد، وفي انعقاد البيعة بعدد يتعين فيه الامامة باختيار أهل الحل والعقد» (١٤٦) فإذا تعين أحدهم باختيار أهل الحل والعقد وأفضت إليه الامامة، جاز له أن يعهد الى غير من كانوا شركاءه في العهد.

ويتحدث الماوردي عن ولاية العهد، وهل يجوز العهد لأكثر من واحد فيقول: «واذا عهد الامام بالخلافة الى من يصح العهد اليه على الشروط المعتبرة فيه كان العهد موقوفا على قبول المولى» (١٤٧) واختلاف في زمان قبوله، فقليل بعد موت المولى في الوقت الذى يصح فيه نظر المولى، وقيل وهو الأصح أنه ما بين عهد المولى وموته لتنتقل عنه الامامة الى المولى مستقرة بالقبول المتقدم. وليس للامام المولى عزل من عهد اليه ما لم يتغير حاله، وان جاز له عزل من استنابه من سائر خلفائه، لأنه مستخلف لهم في حق نفسه، فجاز له عزلهم، ومستخلف لمولى عهده في حق المسلمين، فلم يكن عزله، كما لم يكن لأهل الاختيار عزل من بايعوه اذا لم يتغير حاله. ولو عهد الامام بعد عزل الأول الى ثان كان عهد الثانى باطلا، والأول على بيعته، فان خلع الأول نفسه لم يصح بيعة الثانى حتى يبتدىء، واذا استعفى ولى العهد لم يبطل

(١٤٦) الاحكام للماوردي ص ١٠.

(١٤٧) ويقول الجويني في مخطوطه غياث الامم ص ٦٦: «وتولية العهد

لا تثبت ما لم يقبل المعهود اليه العهد، فان المولى وان كان مستناب الامام، فالتولية من الامام العاهد المولى عقد الامامة للمولى».

عهده بالاستعفاء حتى يعفى للزومه من جهة المولى ثم نظر فان وجد غيره جاز استعفاؤه وخرج من العهد باجماعهما على الاستعفاء والاعفاء •• واذا عهد الامام الى غائب وهو مجهول الحياة لم يصح عهده (١٤٨) •

اذا عهد الخليفة الى اثنين أو أكثر ونص على ترتيب الخلافة فيهم ، ما الحكم في ذلك :

ولكن ما الحكم اذا عهد الخليفة الى اثنين أو أكثر ونص على ترتيب الخلافة فيهم ؟ • وحكم الماوردى في ذلك أنه يجوز أن يعهد الخليفة الى اثنين أو أكثر بحيث تنتقل الخلافة على حسب ما رتبته الخليفة في عهده اليهم • والماوردى ، يستشهد في ذلك ، بما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استخلف على جيوشه مؤتة زيد بن حارثة ، وقال فان أصيب فجعفر بن أبي طالب ، فان أصيب فعبد الله ابن رواحة ، فان أصيب فليرتضى المسلمون رجلا آخر موثوقا فيه وفي أمانته وكفائه ، وقدرته على تحمل المسؤولية • وفي حالة موت الخليفة هل يجوز لأول من عهد اليه الخلافة أن يغير من الترتيب الذى نص عليه الخليفة ؟ ونحن نجد هنا اختلافا بين الفقهاء ، فمنهم من منع ذلك حملا على مقتضى الترتيب ، ومن الفقهاء ، ونخص منهم الشافعى رحمه الله ، من جوز ذلك فلولى العهد أن يعهد بها الى من شاء •

ويقول الماوردى في ذلك تفصيلا : « ولو عهد الخليفة الى اثنين أو أكثر ورتب الخلافة فيهم فقال الخليفة بعدى فلان ، فان مات فالخليفة بعد موته فلان ، فان مات فالخليفة بعده فلان ، جاز وكانت الخلافة منتقلة الى الثلاثة على رتبها ، فقد استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش مؤتة زيد بن حارثة وقال فان أصيب فجعفر بن أبي طالب ، فان أصيب فعبد الله بن رواحة ، فان أصيب فليرتضى المسلمون

(١٤٨) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٨ •

رجلا فتقدم زيد فقتل ، فأخذ الراية جعفر وتقدم فقتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم فقتل فاختار المسلمون بعده خالد بن الوليد ، واذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في الامارة ، جاز مثله في الخلافة •

وقد رتبها الرشيد رضى الله عنه في ثلاثة من بنيهِ في الأمين ثم المأمون ثم المؤمن عن مشورة من عاصره من فضلاء العلماء • فاذا عهد الخليفة الى ثلاثة رتب الخلافة فيهم ومات الثلاثة أحياء ، كانت الخلافة بعد موته للأول ، ولو مات الأول في حياة الخليفة ، كانت الخلافة بعده للثاني ، ولو مات الأول والثاني في حياة الخليفة ، فالخلافة بعده للثالث ، لأنه قد استقر لكل واحد من الثلاثة بالعهد اليه حكم الخلافة بعده •

ولو مات الخليفة والثلاثة من أولياء عهده أحياء ، وأفضت الخلافة الى الأول منهم ، فأراد أن يعهد بها الى غير الاثنين ممن يختار لها ، فمن الفقهاء من منعه من ذلك حملا على مقتضى الترتيب ، الا أن يستنزل عنها مستحقها طوعا • والظاهر من مذهب الشافعى رحمه الله ، وما عليه جمهور الفقهاء أنه يجوز لمن أفضت اليه الخلافة من أولياء العهد أن يعهد بها الى من شاء ، ويصرفها عن من كان مرتبا معه ، ويكون هذا الترتيب مقصورا على من يستحق الخلافة منهم بعد موت المستخلف » (١٤٩) •

وامتدح بعض العلماء ، ومنهم الامام ابن حزم طريقة (التولية) بعهد) ، باعتبار أنها تفضل ما عداها من طرق اختيار الخلفاء أو الولاة ، لأنها تحول دون اثاره الخلافات وحدوث المنازعات والمنافسات التي تثيرها طريقة الانتخاب (أو المبايعه) ، فاختار عمر بن الخطاب انما تم بهذه الطريقة (طريقة الاستخلاف أو ولاية العهد) ، اذ ولاه سلفه

أبو بكر ، وكذلك كان شأن عمر بن عبد العزيز الذى اشتهر بالعدل ، وكان أعظم خلفاء بنى أمية (اذ اختاره للخلافة سلفه سليمان بن عبد الملك) (١٥٠)

على أنه يجب أن يكون واضحا ، أن العهد لو احد هو بمثابة ترشيح ، لا يكون له أثر الا بالبيعة العامة ، وهذا « الترشيح » يملكه الخليفة القائم كما يملكه كل من المسلمين ، فعمر لم يصبح خليفة — كما يقولون بمجرد أن عهد اليه أبو بكر بالخلافة ، فهو لم يتولى السلطان ، ولم يصبح خليفة الا بعد أن تمت له البيعة من الصحابة ، فالعهد أو الاستخلاف لا يعدو — كما يقولون — أن يكون ترشيحا من السلف للخلف ، والأمة بعد ذلك صاحبه القول الفصل فيمن نختاره اماما » (١٥١) •

« وعندنا أن هذا التصوير لجواز الاستخلاف محل نظر ، والأشبه ما ذهب اليه علماء البصرة ، من أن رضا أهل الاختيار بالبيعة شرط في لزومها للأمة ، لأنها حق يتعلق بالأمة فلم تلزمها الا برضا أهل الاختيار منهم ، (١٥٢) أى من أبناء الأمة •

أما السابقتان اللتان أملتنا على بعض الفقهاء أو على الفقهاء هذا الرأي فأقصى ما تدلان عليه : أن الامام كان يرشح للمسلمين من يراه أحق بالأمر وأصلح له من بعده ، أما ثبوت الامامة له وانعقادها فلا يكون الا ببيعة الناس له عن رضا واختيار • ويبدو أن القاضى « أبى يعلى » يميل الى هذا حيث يقول فى كتابه (الأحكام السلطانية) : ان امامة

(١٥٠) الفصل فى الملل والاهواء والنحل لابن حزم ١٦٩/٤ (حيث يضيف الى ما تقدم مثالا آخر وهو مثال أبى بكر حيث يقول بأن هذا هو ما فعله كذلك « رسول الله بأبى بكر ») •

(١٥١) وهذا هو ما يذهب اليه الشيخ خلاف فى مؤلفه (السياسة الشرعية) ، والدكتور محمد يوسف موسى فى مؤلفه « نظام الحكم فى الاسلام » ص ٧٢ •

(١٥٢) الاحكام السلطانية للمواردى ص ٧ •

المعهود اليه تنعقد بعد موته ، أى بعد موت العاقد باختيار أهل الوقت » •

وقد وجدنا دليلا على هذا الفهم نفسه عند عمر رضى الله عنه ، (الذى يراد أن يفسر مسلكه هذا التفسير) ، فيما ورد فى صحيح البخارى من الخطبة المهمة الدقيقة التى خطبها عمر فى أخريات أيامه ، حينما سمع الناس يتكلمون ويتناولون فيما كان منه يوم وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، حينما توجه الى السقيفة ، وكان منه ما كان مما أدى الى خلافة أبى بكر رضى الله عنه • قال فى هذه الخطبة ، وهذا ما يعيننا : فمن بايع رجلا من غير مشورة المسلمين فلا يتابع هو والذى بايعه (١٥٣) •

ونعرض هنا بشيء من التوضيح الايجازى لرأى ابن خلدون فى « ولاية العهد » حيث يقول : « قدمنا الكلام فى الامامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة ، وأن حقيقتها النظر فى مصالح الأمة لدينهم ودنياهم ، فهو وليهم والأمن عليهم ينظر لهم ذلك فى حياته ، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ، ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها ، ويتقون بنظره لهم فى ذلك كما وثقوا به فيما قبل • وقد عرف ذلك من الشرع باجماع الأمة على جوازه وانعقاده ، اذ وقع بعهد أبى بكر رضى الله عنه لعمر بمحضر من الصحابة وأجازوه وأوجبوه على أنفسهم به طاعة عمر رضى الله عنه وعنهم • كذلك عهد عمر فى الشورى الى الستة ، ببقية العشرة ، وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين ففوض بعضهم الى بعض ، حتى أفضى ذلك الى عبد الرحمن بن عوف ، فاجتهد وناظر المسلمين

(١٥٣) راجع : نص الخطبة فى صحيح البخارى ، وفى منهاج السنة لابن تيمية ج ٣ ص ١١٨ — ١١٩ ، وفيه أن عمر لما سمع كلام الناس قال : (انى أن شاء الله لقائم العشية فى الناس فمحذرهم ، هؤلاء الذين يريدون أن يعضلوهم أمورهم : أى أن البيعة لواحد من غير مشورة ولارضا تعتبر نوعا من الغضب من محاضرة للدكتور أحمد كمال أبو المجد (نظرات حول الفقه الدستورى فى الاسلام) •

فوجدتهم متفقين على عثمان وعلى علي ، فأثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته آياه على لزوم الاقتداء بالشيخين في كل ما يعين دون اجتهاده ، فانعقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته • والملا من الصحابة حاضرون للأولى والثانية ولم ينكره أحد منهم • فدل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته ، والاجماع حجة كما عرف ^(١٥٤) وكما يقول الدكتور طه حسين في رسالته عن فلسفة ابن خلدون ^(١٥٥) أن ابن خلدون يسلم بأن نقل الحكم في الخلافة وفي الملك من حقوق الملك ، ولم يتعرض القرآن ولا السنة للنص على وراثة الحكم ولكن الرأي المتفق عليه عامة هو أن عرف الكافة واجماع صحابة النبي لهما قوة القانون •

ويذهب ابن خلدون الى أن النبي لم يختار خليفة له وأن أبا بكر قد اختار خليفته ولكن بشرط أن يصادق المسلمون على اختياره ، وعلى العموم فإن الصحابة كانوا ينكرون انتقال الحكم بواسطة الوراثة ويعتبرونه تشبهاً بالأكاسرة ويقر ابن خلدون مخلصاً نقل الحكم بواسطة الوراثة ويرى وجوب اقراره بشرط التحقق من أن الملك لم يستعمله الا لصالح الكافة •

ولكن هل أوصى النبي بالخلافة الى أسرته ؟ يقول الشيعة أن نعم وينكر أهل السنة ذلك الزعم ويحاول ابن خلدون أن يثبت عدم صحة الأحاديث التي رواها الشيعة عن النبي في هذا الصدد • ويزعم الشيعة الإمامية أن النبي (صلى الله عليه وسلم) عهد بالخلافة بعده الى علي رضي الله عنه ، وبنوا على هذا أن الخلافة لا تثبت الا بنص • ويقرر ابن خلدون أن هذا العهد أو الوصية لعلي أمر « لم يصح ، ولا نقله أحد من أئمة النقل » والذي جاء في الصحيح أن الرسول طلب الدواة والقرباس ليكتب الوصية وأن عمر منع من ذلك ، دليل واضح على أن ما ذهب

(١٥٤) المقدمة ج ٢ ص ٧٢١ — ٧٢٢ •

(١٥٥) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ١٣٥ وما بعدها •

اليه الشيعة لم يقع • وكذلك من الأدلة على هذا أن عمراً حين طعن وسئل أن يعهد لاحد بعده قال : ان أعهد فقد عهد من هو خير مني ، يعنى أبا بكر ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني ، يعنى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لم يعهد •

وكذلك من الثابت أن العباس دعا عليا ، رضى الله عنهما ، الى الدخول الى الرسول وهو فى مرض موته يسألانه عن شأنهما فى العهد ، فأبى على ذلك وقال : أنه ان منعنا منها فلا نطمع فيها آخر الدهر ، وهذا دليل على أن عليا علم أن الرسول لم يوص ولا عهد الى أحد (١٥٦) •

والذى ننتهى اليه من حديثنا عن « ولاية العهد أو الاستخلاف » ان تولية الخليفة لا تتم الا بالبيعة رضا واختيارا ، وأن عهد الخليفة السابق ليس الا ترشيحا لمن يراه أهلا للخلافة ، وأن الطريق الوحيد للتولية هو البيعة من أهلها • وفى جميع الحالات — سواء كان الحاكم أو الامام تولى الحكم بناء على عهد سابق أولا — فان المبدأ الخطير الذى تمسك به الماوردى وأصر على تأكيده هو أن الحكومة ليست شخصية ، وأن الحاكم أو الامام لا ينبغى أن يكتسب لنفسه حقوقا خاصة أو امتيازات معينة •

الشروط الواجب توافرها فى الأئمة :

هناك عدة شروط يجب أن تتوفر فى الأئمة ليكون عقد (الامامة) صحيحا ، وهذه الشروط كما تعتبر فى الابتداء ، تعتبر أيضا فى الاستدامة : فاذا لم تكن متوفرة منذ البداية لم يصح العقد أصلا ، وكانت المولاية باطلة ، واذا اختلف شرط منها بعد ذلك صار العقد باطلا ، أو وجب أن يحكم ببطلانه • وقد اختلف الفقهاء فيما بينهم فى عدد هذه الشروط ، وفى الواقع الخلاف شكلى ، فالشروط الأساسية مشتركة بينهم •

وتتلخص الشروط الواجب توافرها في الامام عند الماوردي في سبعة
حيث يقول :

« وأما أهل الامامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة » :

أحدها : العدالة على شروطها الجامعة •

والثاني : العلم المؤدى الى الاجتهاد في النوازل والأحكام •

والثالث : سلامة الحواس من السمع والبصر ليصح معها مباشرة
ما يدرك بها •

والرابع : سلامة الأعضاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة وسرعة
النهوض •

والخامس : الرأي المفضى الى سياسة الرعية وتدبير المصالح •
والسادس : الشجاعة والنجدة المؤدية الى حماية البيضة وجهاد
العدو •

والسابع : النسب ، وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه
وانعقاد الاجماع عليه ، ولا اعتبار بضرار حين شذ فجوزها في جميع
الناس ، لأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه احتج يوم السقيفة على
الأنصار في دفعهم عن الخلافة لما بايعوا سعد بن عبادة عليها بقول النبي
صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش فأقلعوا عن التفرد بها ورجعوا عن
المشاركة فيها حين قالوا منا أمير ومنكم أمير تسليما لروايته وتصديقا
لخبره ، ورضوا بقوله نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، وقال النبي صلى الله
عليه وسلم قدموا قريشا ، ولا تقدموها ، وليس مع هذا النص المسلم
شبهة لمنازع ، ولا قول لمخالف له . » (١٥٧) •

(١٥٧) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٤ ، ويذهب القاضى أبى يعلى
الفراء صاحب كتاب (الاحكام السلطانية ص ٤) الى القول : « وأما أهل الامامة

ونحاول الآن توضيح هذه الشروط بقليل من التفصيل .

ويقصد بالعدالة — وهو الشرط الأول — « المورع والتقوى » . وقد فسر الماوردي شروط العدالة الجامعة فقال : « والعدالة أن يكون صادق اللهجة ، ظاهر الأمانة عفيفا عن المحارم ، متوقيا المآثم ، بعيدا من الريب مأمونا في الرضا والغضب ، مستعملا لمروءة مثله ، في دينه ودنياه » (١٥٨) . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من والى يلى ولاية الا جاء يوم القيامة ويداه مغلولتان أنجاة عدله وأهلكه جوره » (١٥٩) . وأول ما يجب على الملك المعنى بأمور رعيته المهتم بحماية حوزته وعمارة بيضته تقوى الله فانها أفضل ما تواسى به الفضلاء والعلماء وأنها عصمة لمن أعتمد بها ، وحرز لمن تمسك بها ، وملجأ لمن لجأ اليها . قال الله تعالى « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » (١٦٠) .

ومن معانى العدل القيام بالواجب والمساواة والتسوية والمعرفة ، وهو الحكم بالحق عدلا بحيث لا يميل الى أحد الجهتين ، « والعدل صورة العقل الذى وضعه الله عز وجل فى أحب خلقه اليه ، وبالعقل عمرت الأرض وقامت الممالك ، وانطاع العباد » (١٦١) وروى ابن ماجة والبزار واللفظ له عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال السلطان ظل الله فى الأرض يأوى اليه كل مظلوم من عباده

فيعتبر فيهم أربعة شروط . أحدها : أن يكون قرشيا من الصميم . الثانى : أن يكون على صفة من يصلح أن يكون قاضيا من الحرية والبلوغ والعقل والعلم والعدالة . والثالث : أن يكون قديما بأمر الحرب والسياسة وإقامة الحدود ، والذب عن الأمة ، الرابع : أن يكون أفضلهم فى العلم والدين ، وراجع : نحفه الملوك والسلطين للشيرازى — مخطوط — ص ١١٥ — ١١٦

(١٥٨) الاحكام للماوردي ص ٥٣ .

(١٥٩) نصيحة الملوك للماوردي ، ورقة ٢٦ .

(١٦٠) المصدر السابق ورقة ٢٧ .

(١٦١) من رسالة ارسطاطاليس للاسكندر — مخطوط — ترجمة يوحنا

البطريق ص ٤٦ .

فان عدل كان له الأجر وكان على الرعية المشكر ، وان جار أو خاف أو ظلم كان على الرعية الوزر وكان على الرعية الصبر واذا جارت الولاية قجحت السماء •

والعدالة بهذا المعنى تقتضى أن لا يرتكب الحاكم أى ظلم : سواء أكان متعلقا بالمال ، أو بالحرية ، أو العرض ، أو أى حق من الحقوق : وسواء أكان ظلما بقول ، أو فعل • فان أى شىء من هذا يخرج به عن كونه أهلا للإمامة ، وهذه العدالة التى تطلب من الامام ، تشتمل أنواع العدالة المختلفة ، بحيث يكون هو عدلا فى ذاته ، لا يؤثر قرابة ، ولا يقدم أحدا ، لهوى ، ولا يؤثر ذا محبة ، ولا يبعد ذا بغض ، ولقد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، وان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وار تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » •

وعدالة الامام توجب عليه أن يولى الأمور من يصلح لها ، ويؤسدها لأهل العدالة والرفق ، ولقد شدد « النبى صلى الله عليه وسلم » فى اختيار الولاية وقال : « من ولى من أمر أمتى شيئا ، فأمر أحدا محاباة ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا • وقال صلى الله عليه وسلم • « من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » • « والعدل هو الذى تستغزر به الأموال ، وتعمر به الأعمال ، وتستصلح به الرجال : (١٦٢) وعلى الحاكم أن يكون محبا للعدل والصدق وأهلهم مبعضا للجور والكذب وأهلهم منصفين من نفسه ذلك أن العدل هو : « قوام الملك ، ودوام الدول وأس كل مملكة » (١٦٣) •

(١٦٢) الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا ، المعروف بابن الطيطى

ص ١٥ •

(١٦٣) سراج الملوك للطرطوشى ص ٥١ •

ويرى الامام الغزالي في كتابه « التبر المسبوك في نصيحة الملوك »
أن أصول العدل والانصاف عشرة ، (١٦٤) فيوجه الخطاب الى السلطان
معلما اياه :

١ — « أن تعرف أولا قدر الولاية وتعلم خطرها • فان الولاية نعمة
من قام بحققها نال من السعادة ما لا نهاية له ، ولا سعادة بعده • ومن
قصر عن النهوض بحققها حصل في شقاوة ، ولا شقاوة بعدها الا الكفر
بالله تعالى • والدليل على عظم قدرها وجلالة خطرها ما روى عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه قال « عدل السلطان يوما واحدا أفضل من عبادة
سبعين سنة » •

٢ — أن يستعين السلطان بعالم صالح الذى « لا يطمع فيما عندك
من المال وينصفك في الوعظ والمقال » •

٣ — الا يقنع السلطان بدفع الظلم فيما يتصل بنفسه ، بل يجب
عليه أن يحول كذلك بين عماله ونوابه وأصحابه ، وبين اقتراف الظلم •
ولا يتحقق عدل السلطان وعدل عماله ، الا اذا ساد العقل وتغلب
على الغضب الذى يؤدي الى الانتقام ، وعلى الشهوات التى تقضى
الى الاستئثار بأطاييب الأشياء •

٤ — الا يكون السلطان متكبرا • فان التكبر يحدث غلبة السخط
الداعية الى الانتقام • وعليه أن يميل الى جانب العفو ، وأن يتعود الكرم
والتجاور •

٥ — يسير السلطان فى أحكامه على المبدأ الآتى : « فى كل واقعة
تصل اليك وتعرض عليك ، تقدر أنك واحد من جملة الرعية ، وأن الوالى
سواك » : فكل ما لا ترضاه لنفسك لا ترضى به لأحد من المسلمين • وأن
رضيت لهم ما لا ترضاه لنفسك ، فقد خنت رعييتك وغششت أهل ولايتك •

٦ — أن يبادر الى قضاء حاجات المحتاجين ، وأن لا تحقر انتظار أرباب الحوائج ووقوفهم ببابك • فتحقير انتظار أرباب الحوائج من أخطر الأخطار ، ومهما كان للمسلمين اليك حاجة فلا تشتغل بنوافل العبادة •

٧ — الا يعود السلطان نفسه بالاشتغال بالشهوات من « لبس الثياب الفاخرة ، وأكل الأطعمة الطيبة » بل عليه أن « يستعمل القناعة في جميع الأشياء ، فلا عدل بسلا قناعة » •

٨ — أن ينفذ السلطان أموره بالرفق ، والا يلجأ الى الشدة والعنف في كل أمر يستطيع تحقيقه عن هذا الطريق • فلقد دعا صلى الله عليه وسلم • فقال : « اللهم الطف بكل وال يلطف برعيته ، واعف عن كل وال يعفو عن رعيته » •

٩ — أن تجتهد في أن يرضى عنه جميع رعيته بموافقة الشرع •

١٠ — « الا يطلب رضى أحد من الناس بمخالفة الشرع ، فان من سخط بخلاف الشرع لا يضر سخطه » • ويسوق الغزالى في تأييد ذلك تجربة عمر بن الخطاب ، اذ كان يردد القول « أننى أصبح كل يوم ونصف الخلق على ساخط • ولا بد لكل من يؤخذ منه الحق أن يسخطه • ولا يمكن أن يرضى الخصمان • وأكثر جهلا من ترك رضى الحق لأجل رضى الخلق » (١٦٥) •

ونخلص من حديثنا عن هذا الشرط الى قول الماوردى : « انه اذا عرف الامام بالتقوى والدين أحبته قلوب الرعية ، واتفقت عليه كلمة الخاصة والعامة ، ورغب أهل الدين والمعنيون به في مجاورته وصحبته ،

ووثقوا منه بالعدل ، فان رأوا منه محبوبا شكروه عليه ، واذا رأوا مكروها عذروه فيه » (١٦٦) •

والشرط الثاني الذي يشترطه الماوردي في الامام هو العلم •

والعلم عصمة الملوك والأمراء ، ومعقل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم الى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية ، وكما أن الملك الحازم لا يتم حزمه الا بمشاورة الوزراء والأخيار كذلك لا يتم عدله الا باستفتاء العلماء الأبرار (١٦٧) • وعلى الحاكم أن يكون محبا للعلم والعلماء ، واذا لم يكن الامام فقيه النفس أضاع حقوقا كثيرة على أصحابها وغاية الشريعة مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وذلك يوضح ضرورة توافر الحكمة والعلم بالشرائع والسنن في رئيس الأمة (١٦٨) • واذا كان الحاكم محبا للعلم والعلماء ، تأكدت بذلك منزلته في قلوب الرعية ، وعليت مكانته ، وهذا دليل على انسانيته كحاكم « على أن أفضل ما في الناس عموما ، وفي السلطان خصوصا محبة العلم ، والتشوق الى استماعه ، والتقريب لحملته • فان ذلك دليل على قوة الانسانية ، ومن أعظم ما يتحبب به الى الرعية » (١٦٩) • ويقول (الحسن العباسي) : « يجب على الملك احترام العلماء وحفاظ الشريعة وأكرامهم • ومن العلوم التي ينتفع بها ويحتاج اليها علم الطب وعلم الحساب والمساحة وعلم الأوقات والأزمان ، فمن تمام رونق المملكة اشتمالها على أئمة في هذه العلوم ، فما أضيع دولة قل علماؤها ، فانها ينقطع ذكرها عند انقضاء أيامها » (١٧٠) •

(١٦٦) نصيحة الملوك ، للماوردي ، ورقة ٢٨ •

(١٦٧) سراج الملوك للطرطوشي ص ٤ ، ٥٣ •

(١٦٨) آراء اهل المدينة الفاضلة لابي نصر الفارابي ص ٦٧ •

(١٦٩) كتاب في السياسة للوزير الكامل ابي القاسم الحسين بن علي

المغربى المنوفى سنة ٤١٨ هـ ص ٥٥ •

(١٧٠) آثار الاول في ترتيب الدول للحسن العباسي ص ٦٦ — ٤٧ •

ويقصد الماوردى ، هنا ، بالعلم علم الشريعة الاسلامية ، وأحكامها ومصادر تلك الأحكام ، كما يقصد أيضا شتى ألوان المعارف الأخرى التى تلزم لإدارة الدولة وتحقيق مصالح العباد « ومما يجب على الملك أن يقتنيه من الفضائل ، ويحتاج اليها فى الديانة والسياسة العلم ، فان العلم من أجل الفضائل وأعلاها مرتبة • وكيف لا يكون كذلك ، فقد رضى الله وصفا لنفسه ، وجعله فى أول مبادئه التى امتدح بها الى خلقه فقال « ان الله بكل شىء عليم » وقال « وكان الله عليما حكيما » • وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » وقال الامام على رضى الله عنه : « العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال » • والعلم هو الشىء الذى لا يستغنى عنه فى ديانة ولا سياسة ولا صناعة • • • ولا يمكن استفادة هذه العلوم الا بمعونة أمرين أحدهما مجالسه العلماء والحكماء من كل طبقة ، والثانية النظر فى كتب الديانة وتعلمها « وأولى العلوم وأفضلها علم الدين » ويتعلق بالدين علوم ، قد بين الشافعى رحمه الله فضيلة كل واحد منها • فقال : من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن تعلم الفقه نبل مقداره ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن تعلم الحساب جزل (قوى وحسن) رأيه ، ومن تعلم اللغة رقى طبعه ، ومن لم يصن نفسه ، لم ينفعه علمه « (١٧١) ويقول الجوينى فى ذلك : « وأول ما يجب على كل أمير أن يكون عالما بكل فن ، عنده طرف من كل علم » (١٧٢) •

• وجميع فقهاء الاسلام يتشددون فى اشتراط صفة العلم والمعرفة فى الخليفة الحاكم • ويقول ابن طباطبا : (والفاضل من طلاب الرئاسة هو الذى يكون مطبوعا على المعرفة ، مخلوقا فيه صحة التمييز ، مكتسبا للعلم بما جرى فى الدنيا من تصارييف الدهور ، وتنقل الدول عارفا

(١٧١) راجع فى ذلك : نصيحة الملوك للماوردى أوراق ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، وكذلك أدب الدنيا والدين ص ٢٨—٢٩ .

(١٧٢) غياث الامم للجوينى ص ٥٢ •

بمداراة الأعداء كتوما لسره *** وينبغي أن يكون ذا روية عند اشتباه الآراء وعزيمة عند اختلاف الأهواء حتى يكشف * (١٧٣) ويؤكد ابن حزم على ضرورة أن يكون الامام عالما بما يخصه من أمور الدين من العبادات والسياسة والاحكام ، وهذا ما يشترطه أيضا صاحبى المسائرة والمسامرة من علم الامام بما ينبغي العلم به من أصول الدين وفروعه والكفاية التى يقدر بها على القيام بأمور الامامة *

ولكن الى أى حد ينبغي أن يصل هذا العلم ، يجيب على ذلك ابن خلدون ولا يكفى من العلم الا أن يكون مجتهدا ، لأن التقليد نقص ، والامامة تستدعى الكمال فى الأوصاف والأحوال * وكان قد بين من قبل حكمة اشتراط هذا الشرط فقال : فأما اشتراط العلم فظاهر ، لأنه انما يكون منفذا الأحكام الله تعالى اذا كان عالما بها ، وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها (١٧٤) * وينص الجوينى على أن من الصفات المشروطة كون الامام مجتهدا متصفا بصفات المفتين (١٧٥) *

ويشرح الماوردى معنى الاجتهاد ، وهو يتكلم عن شروط القضاء فيقول :

« ويشترط أن يكون عالما بالأحكام الشرعية ، وعلمه بها يشتمل على علم أصولها ، والارتياض بفروعها ، وأصول الأحكام فى الشرع أربعة * أحدها : علمه بكتاب الله عز وجل الذى تصح به معرفة ما تضمنه من الأحكام * والثانى : علمه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة من أقواله وأفعاله ، وطريق مجيئها * والثالث : علمه بتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه واختلفوا فيه * والرابع : علمه بالقياس الموجب لرد الفروع

(١٧٣) كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية لمحمد بن على ابن بلباب المعروف بابن الطقطقة ص ٥٢ *

(١٧٤) المقدمة لابن خلدون ٢ / ٦٩٢ *

(١٧٥) غياث الأمم للجوينى ص ٤١ ، ١٢٨ *

المسكوت عنها الى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها • فاذا أحاط علما بهذه الأصول الأربعة في أحكام الشريعة ، صار بها من أهل الاجتهاد في الدين وان أدخل بها أو بشيء منها ، خرج من أن يكون من أهل الاجتهاد » (١٧٦) •

ومعنى ذلك أن اجتهاد الامام لا يكمل الا اذا أضيف الى علم الامام بالعلوم الدينية على تنوعها وتعددتها من تفسير وحديث ، وتاريخ تشريع ، وكذلك علوم الأصول والمنطق وعلوم اللغة العربية وتاريخ الدولة الاسلامية ، نقول لا يكمل اجتهاد المرء في العصر الحديث الا اذا أضيف الى العلوم السابقة دراسات اقتصادية وسياسية ، واجتماعية مقارنة ، بالنسبة لما عند الأمم المختلفة ، وبالنسبة لما بين الأزمنة قديمها وحديثها •

وفي عصرنا الحديث يتأكد لنا كل يوم قيمة العلم والعلماء ، فهو الأصل في كل تقدم وبالعلم يستطيع المرء أن يسيطر على كل شيء ، وهذا ما حدا بابن طباطبا أن يقول : « والعلم يزين الملوك ، واذا كان الملك عالما صار العالم ملكا » (١٧٧) ويجب على الخليفة أن يجلب العلماء وأساطين الدين •

أما ما يشترطه الماوردي في الامام من سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح ما يدرك بها ، وكذلك سلامة الاعضاء من نقص يمنع من أستيفاء الحركة وسرعة النهوض وهما الشرطان الثالث والرابع عند الماوردي • فنقول ان المراد بكل ذلك هو كفاية الحاكم الجسمية مما يمكن أن يكون له أثر في رأى الحاكم وعمله • ويقول ابن خلدون في ذلك : « وأما سلامة الحواس والأعضاء ، من النقص والعطلة : كالجنون والعمى والصمم والخرس ، وما يؤثر فقده من الأعضاء في العمل كفقده

(١٧٦) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٥٤ •

(١٧٧) كتاب الفخرى في الآداب السلطانية لابن طباطبا ص ٥ •

الميدين والرجلين ، فتشترط السلامة منها كلها ، لتأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل اليه • وان كان مما يشين في المنظر فقط ، كفقد أحد هذه الأعضاء ، فشرط السلامة منه شرط كمال » (١٧٨) ففقد البصر مثلا يمانع من الانتهاض في الملومات ، والأصم لا يصلح لهذا المنصب العظيم ولا يضر كلال البصر • أما حاسة الشم والذوق فلا أثر لهما في الامامة • وأما ما يرتبط بنقصان الأعضاء ، فكل ما لا يؤثر عدمه في رأى ولا عمل من أعمال الامامة ، ولا يؤدي الى شين ظاهر في المنظر فلا يضر فقده •

والشرطان الخامس والسادس اللذان يشترطهما الماوردى في الامام هما : الرأى المفضى الى سياسة الرعية وتدبير المصالح ، والشجاعة والنجدة المؤدية الى حماية البيضة وجهاد العدو • وتلخيصهما فيما يجب أن يتوافر لدى الحاكم من ثقافة سياسية وادارية وحربية تؤهله لأن يؤدي واجباته في تلك النواحي على أحسن ما يكون الأداء • ويعبر البغدادى في (أصول الدين) عن ذلك بقوله : « الاهتداء الى وجوه السياسة وحسن التدبير ، بأن يعرف مراتب الناس فيحفظهم عليها • ولا يستعين على الأعمال الكبار بالعمال الصغار ، ويكون عارفا بتدبير الحروب » • فالامام يجب أن يكون ذا رأى ليدبر مصالح الرعية الدينية والدنيوية ويحكم سياستهم ، وعليه أن يكون قوى المعزيمة على ما يبتغى ، فالحاكم يجب عليه أن يكون : « ذا شجاعة واقدام وتأنى وحسن خلق واحتمال » والمدارة في مكانها والرأى والتدبير في الأمور ، وينبغى أن يكون وافر العقل ذا فطنة » (١٧٩) •

(١٧٨) المقدمة لابن خلدون ٦٩٣/٢ وراجع ايضا : آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ص ٦٦ ، وسلوك المالك في تدبير الممالك لشهاب الدين احمد بن أبى الربيع (طبع حجر) ص ١١ •

(١٧٩) تذكرة الملوك الى أحسن السلوك — مخطوط — الفه بعض الافاضل ص ٢٦ — ٢٧ •

ويلخص ابن خلدون ذلك بقوله : « أن يكون جريئاً على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيراً بها ، كفيلاً بحمل الناس عليها ، عارفاً بالعصبية وأحوال الدهاء ، قوياً على معاناة السياسة ، ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين ، وجهاد العدو وإقامة الأحكام ، وتدبير المصالح » (١٨٠) •

أما النسب القرشي للامام فقد اختلف الفقهاء بشأنه : فمنهم من اشترط أن يكون الامام من قریش ، وذلك للآثار الكثيرة الواردة في فضل قریش المشيرة الى أن الامارة تكون فيهم • ومن هذه الآثار قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه : « لا يزال هذا الأمر في قریش ما بقى من الناس اثنان » (١٨١) وقد قال النبي : « الناس تبع لقریش في الخير والشر » وان كانت هذه النصوص من الأخبار والآثار لا تدل دلالة قطعية على أن الامامة يجب أن تكون من قریش ، بل يصح أن تكون بياناً للأفضلية • ومن الفقهاء من يرى أنه لا يشترط عند تولية الامام ونصبه للحكم أن يكون من قریش بل ذهب البعض صراحة الى نفى النسب القرشي واشتراطه عند اختيار الامام كالقاضي أبو بكر الباقلاني •

وأبو الحسن الماوردي يذهب الى ضرورة توافر النسب القرشي للامام عند اختياره حاكماً للأمة ، وهو الشرط السابع ضمن الشروط المعتمدة في الأئمة عنده « لورود النص فيه وانعقاد الاجماع عليه » (على النسب القرشي) ولا اعتبار بضرار حين شذ فجوزها في جميع الناس لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه احتج يوم السقيفة على الأنصار في دفعهم عن الخلافة لما بايعوا سعد ابن عباد عليها بقول النبي صلى الله عليه وسلم الأئمة من قریش فأقلعوا عن التفرد بها ورجعوا عن المشاركة فيها حين قالوا منا أمير ومنكم أمير تسليماً لروايته وتصديقاً

(١٨٠) المقدمة لابن خلدون ٢ / ٦٩٣ •

(١٨١) الاحكام للماوردي ص ٤ •

لخبره ورضو بقوله نحن الأمراء وأنتم الوزراء • وقال النبي صلى الله عليه وسلم قدموا قريشاً ولا تقدموها ، وليس مع هذا النص المسلم شبهة لمنازع فيه ولا قول لخالف له (١٨٢) ويذهب السيد محمد رشيد رضا الى أن « حكمة جعله صلوات الله وسلامه عليه خلافة نبوته فيها وسببه أمران : (الأول) كثرة المزايا التي تنتشر بها الدعوة وتكون بحسب طباع البشر سببا لجمع الكلمة ، ومنع المعارضة والمزاحمة أو ضعفها — (والثاني) أن تكون اقامة الاسلام متسلسلة في سلاسل أول من تلقاها ودعا اليها ونشرها حتى لا ينقطع اتصال سيرها المعنوي والتاريخي فان الحقوق الخاصة من الملل والأمم وليدة التاريخ وربيبته » (١٨٣) •

ويرى بعض الشيعة أن تكون دائرة الاختيار للامام محصورة في قريش ، لأن العرب أطوع للقرشيين ، ولأن الخليفة ينبغي أن يكون ذا عصبية تشد أذره وتحمي ظهره ، ولا قبيلة في العرب أعز من قريش ، وسائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكنون لغلبهم : فلو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم •

ولكن أبا بكر الباقلاني — من كبار الاشاعرة وزعماء السنة في القرن الرابع — كان من أوائل من ذهبوا الى نفى شرط « القرشية » ثم تبعه آخرون ونخص منهم على وجه التحديد تلميذه أمام الحرمين الجويني : « ومن القائلين بنفى اشتراط القرشية أبو بكر الباقلاني ، لما أدرك ما عليه عصبية قريش من الثلاثي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء ، فأسقط شرط القرشية » (١٨٤) وأمام الحرمين الجويني رغم أنه يتطلب القرشية في الامام « فالصالح للامامة هو الرجل الحر القرشي المجتهد الورع ذو النجدة والكفاية » (١٨٥) الى أنه يذهب

(١٨٢) الاحكام للماوردي ص ٤ •

(١٨٣) الخلافة للسيد / محمد رشيد رضا ص ٢١ — ٢٢ •

(١٨٤) المقدمة لابن خلدون ٢ / ٦٩٤ •

(١٨٥) غياث الأمم للجويني ص ٤٣ ، ٣٠ ، ١٥٧ •

بعد ذلك الى القول أنه اذا أم تتوافر شرائط الدراية والكفاية في الامام القرشي وتوافرت في غيره من غير القرشي فيجب تقديم هذا الأخير المتميز بالكفاية والتقوى والعلم : « فان قيل ما قولكم في قرشي ليس بذى دراية ولا بذى كفاية اذا عاصره عالم كاف تقى فمن أولى بالأمر منهما ، قلنا لا نقدم الا الكافى التقى العالم ومن لا كفاية فيه فلا احتفال به ولا اعتداد بمكانه » (١٨٦) •

والخوارج لا يقولون بشرط القرشية على الاطلاق : بل يقولون ان الامامة حق لكل مسلم ، تكاملت فيه الشروط الأخرى : من العلم والعدالة والشجاعة « من غير اعتبار لنسبه وقبيلته وجنسه (صحيح مسلم) عن (أم الحصين) أنها سمعت رسول الله (ص) يقول : « ان استعمل عليكم عبد أسود مجدع يقودكم بكتاب الله تعالى فاسمعوا وأطيعوا » • وقد روى (البخارى) أن رسول الله (ص) قال : « اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة » •

واختلفت المعتزلة بينهم في اشتراط أن يكون الامام من قریش ، فاشتراطها بعضهم ولم يشترطها قوم منهم ، وقالوا : أن حديث « الأئمة من قریش » لم يكن متواترا ، اذ لو تواتر لما ادعت الأنصار مشاركة المهاجرين في الخلافة ، بل أن عمر كان يجوز امامة المولى ، فقد قال : « لو كان سالم — مولى خديفة — حيا لوليته » وبالحق « ضرار » من المعتزلة فقال : « اذا استوى الحال في القرشي والأعجمي ، فالأعجمي أولى بها ، والمولى أولى بها من المصميم » ، وهذا كما ورد في (أصول الدين للبغدادى) •

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد (١٨٧) « ان الكثيرين يرون التحلل من هذا الشرط (شرط القرشية) لاسباب كثيرة منها ، أنه شرط

(١٨٦) المصدر السابق ص ١٦٠ •

(١٨٧) الديمقراطية في الاسلام ص ٧٠ •

من شروط متعددة ، فاذا اجتمع أكثرها ولم تكن منها النسبة القرشية كان فيها الكفاية ، ومنها أن النبي عليه السلام قال : « لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته » • ومنها أن النبي لا يدعو الى عصبية لانه نهى عنها في أحاديث كثيرة وبرىء من كل دعوة الى العصبية ، فهو صلوات الله عليه يؤثر الامام القرشي لصفات القدرة على القيام بالامامة ، لا للعصبية ولو فقدت القدرة ، وقد كانت قريش أقدر القبائل بمكة عاصمة الجزيرة في عهد الدعوة المحمدية فكانت امامتها هناك أرجح امامة ، وظلت كذلك الى أن قام بالامر من اجتمعت له شروط الامامة ، دونها أما ما عدا الامامة من أعمال الولاية فلا اختلاف عليه في زمن من الأزمان على عهد النبي وبعد عهده ، فقد ولى عليه السلام زيدا وابنه أسامة قيادة جيوش كان فيها جلة الصحابة القرشيين ، ومنهم عمر ابن الخطاب •

والحق ان الخلافة يجب أن تكون لمن هو جدير بها مهما كان شخصه وخاصة اذا اتفق المسلمون وأجمعوا على اختياره • « قال أبو داود الطيالسي في سننه : حدثنا سكين بن عبد العزيز عن سيار بن سلامة عن أبي برزة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا ، ووعدوا ، واسترحموا فرحموا » • وهذا الحديث ، بالتالي ، يدل على أن أحق الناس بالخلافة قريش ، ولكنه لا يدل على بطلان خلافة غيرهم ، وقوله « ما حكموا فعدلوا • الخ » يدل على أن المعيار هو اتصافهم بهذه الصفات : العدل ، والوفاء ، والرحمة (١٨٨) •

ويذهب ابن خلدون الى أن شروط منصب الامامة أربعة وهي العلم ، والعدالة والكفاية ، وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل ، بالإضافة الى ما سبق توضيحه من الاختلاف على شرط القرشية •

(١٨٨) راجع هامش ص ٩ من كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي تحقيق الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد .

ويقول الدكتور طه حسين^(١٨٩) ان ابن خلدون يرى أن الخليفة يمكن الا يكون قرشياً بل يمكن الا يكون عربياً ، وهو مذهب بعض المتكلمين ومنهم الباقلاني الذي عاش في القرن الرابع الهجري ، ثم يؤيد ابن خلدون ذلك الرأي بمذهبه في العصبية • والخلاصة على قوله هي أن الخلافة لم تفرض الا لتنفيذ أوامر الله والسهر على مصالح الكافة ولتأدية هذا الواجب يحتاج الخليفة الى أنصار يؤيدونه ويطيعونه • واذا كان المسلمون المتقدمون قد خصوا قریشاً بالخلافة فذلك لأنها كانت أقوى القبائل وكان بوسعها أن تضع العرب لصولتها وكذلك الأمم المغلوبة ، وان الله ورسوله أعدل من أن يجعل من الخلافة امتيازاً يقصره على أسرة أو قبيلة • وقد جاء بالقرآن ، وصرح النبي والخلفاء الراشدون في فرص عدة ، أن الاسلام يقرر المساواة التامة بين جميع الأمم والطوائف • ولئن وجب أن يكون للبعض امتيازات في الآخرة فان استحقاقها ليس الا ثمرة التقوى والعبادة • وما دام القرشيون قد عجزوا عن حماية الدين وقيادة الأمة الاسلامية في سبيل الخير فيجب أن يترك للأمة الخيار في أن تعهد بتلك المهمة الى من يستطيع القيام بها •

وقد حصر الامام الغزالي صفات الامامة في عشر صفات ، وضحاها في كتابه « المستظهرى » ست منها خلقية لا تكتسب ، وأربع منها تكتسب أو يفيد الاكتساب فيها مزيداً « (١٩٠) •

فأما الست الخلقية فهي : البلوغ ، والعقل ، والحرية ، والذكورية ، ونسب قریش ، وسلامة حاسة السمع والبصر •

وأما الصفات الأربع المكتسبة فهي : النجدة ، والكفاية ، والعلم ، والورع •

(١٨٩) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية للدكتور طه حسين ص ١٣٢ — ١٣٣

(١٩٠) المستظهرى للغزالي ص ٦٧ •

ويوضح ابن أبي الربيع (القرن التاسع الميلادي) في كتابه المشهور «سلوك المالك في تدبير الممالك» الصفات التي يجب توافرها في الحاكم ويجعلها في ثلاث عشرة صفة هي : (١٩١) القدرة على التخيل ، صحة الأعضاء ، جودة الفهم والعلم بكتاب الله ، جودة الحفظ ، الذكاء والفطنة ، الفصاحة وحسن العبارة ، حب التعلم ، الصدق ، عدم الشراهة في الشهوات كبر النفس والشهامة ، حب العدل ، قوة العزيمة ، احتفاره عرض الدنيا الزائل .

أما الفيلسوف الاسلامي أبو نصر الفارابي صاحب آراء أهل المدينة الفاضلة فيخبر في خصال رئيس المدينة الفاضلة : (١٩٢) «انه هو الرئيس الذي لا يرأسه انسان آخر أصلا ، وهو الامام ، وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة ، وهو رئيس الأمة الفاضلة ورئيس المعمورة من الأرض كلها ، ولا يمكن أن تصبح هذه الحال الا لمن اجتمعت فيه بالطبع اثنتا عشرة خصلة فطر عليها : أحدها أن يكون تام الأعضاء *** ثم أن يكون بالطبع جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له فيلقاه بفهمه على ما يقصده القائل وعلى حسب الأمر في نفسه ، ثم أن يكون جيد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه ولما يدركه وفي الجملة لا يكاد ينساه ، ثم أن يكون جيد الفطنة ذكيا اذا رأى الشيء بأدنى دليل فطن له على الجهة التي دل عليها الدليل ، ثم يكون حسن العبارة يؤاثره لسانه على ابانة كل ما يضمه ابانة تامة ، ثم أن يكون محبا للتعليم والاستفادة منقادا له سهل القبول لا يؤلمه تعب التعليم ولا يؤذيه الكد الذي يناله منه ، ثم أن يكون غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح ، متجنبا بالطبع للعب مبغضا للذات الكائنة عن هذه ، ثم أن يكون محبا للصدق وأهله مبغضا للكذب وأهله ، ثم أن يكون كبير النفس محبا للكرامة » .

(١٩١) سلوك المالك في تدبير الممالك ص ١١ — ١٢ وهو طبع حجر .

(١٩٢) آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي ص ٦٦ — ٦٧ وانظر ايضا :

كتاب في السياسة لنوزير الكامل ابي القاسم الحسين بن علي المغربي ص

ثم يقول الفارابى بعد تعديد هذه الصفات الكاملة : « واجتماع هذه كلها فى انسان عسر ، فلذلك لا يوجد من فطر على هذه المفطرة الا الواحد بعد الواحد والأقل من الناس ، فان وجد مثل هذا فى المدينة الفاضلة ثم حصلت فيه بعد أن يكبر تلك الشرائط الست المذكورة قبل أو الخمس منها دون الأنداد من جهة القوة المتخيلة كان هو الرئيس » •

اما ابن طباطبا فيذهب الى أن الملك الفاضل هو الذى اجتمعت فيه خصال ، وعدمت فيه خصال • فأما الخصال التى يستحب أن توجد فيه ، فمنها العقل ، وهو أصلها وبه تناسس الدول بل الملل ، ومنها العدل ، وهو الذى تستغرز به الأموال ، وتعمر به الأعمال ، وتستصلح به الرجال ، ومنها العلم وهو ثمرة العقل وبه يتزين الملك فى عيون العامة والخاصة ، ومنها الخوف من الله تعالى ، وهذه الخصلة هى أصل كل خير ، ومفتاح كل بركة ، فان الملك متى خاف الله ، أمنه عباد الله ، ومنها العفو عن الذنوب ، وحسن الصفح عن الهفوات ، ومنها الكرم وهو الأصل فى استمالة القلوب ، وتحصيل النصائح واستخدام الأشراف •• ومما جاء فى الحديث النبوى ، صلوات الله على صاحبه : « (تجاوزوا عن ذنب السخى ، فان الله آخذ بيده كلما عثر ، وفاتح عليه كلما افتقر) ، ومنها الهيبة ، وبها يحفظ نظام المملكة ••• ومنها السياسة وهى رأس مال الملك وعليها التعويل فى حقن الدماء ، وحفظ الأموال ومنع الشرور وقمع الدمار والمفسدين ، والمنع من التظالم ••• ومنها الوفاء بالعهد • قال الله تعالى (وأوفوا بالعهد أن العهد كان مسئولا) وهو الأصل فى تسكين القلوب وطمأنينة النفوس ووثوق الرعية بالملك •• ومنها الاطلاع على غوامض أحوال المملكة ودقائق أمور الرعية ومجازات المحسن على احسانه ، والمساء على اساءته •• فهذه عشر خصال من خصال الخير ، من كن فيه استحق الرئاسة الكبرى » (١٩٣) •

(١٩٣) راجع : الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا ص ١٤ — ٢١
مطبعة الموسوعات بمصر •

أما الخصال التى يستحب أن تكون معدومة فيه ، فقد ذكرها ابن المقفع فى كلام له ، قال ليس للمالك أن يغضب ، لأن القدرة من وراء حاجته ، وليس له أن يكذب ، لأنه لا يقدر أحد على الزامه بغير ما يريد ، وليس له أن ييخل ، لأنه أقل الناس عذرا فى خوف الفقر ، وليس له أن يكون حقودا ، لأن قدره قد عظم عن المجازاة لاحد على اساءة قد صدرت منه * * * والملك متى كان حقودا فسدت نيته لرعيته ، فمقتهم ، وقلال الالتفات اليهم ، والشفقة عليهم ، ومتى أحسوا بذلك تغيرت نياتهم له وفسدت بواطنهم ، وهل يتمكن الملك مما يريده من مهمات مملكته ، وبلوغ أغراضه ، كما فى نفسه الا بصفاء قلوب رعيته ، وليس له أن يحلف اذا حدث لأن الذى يحمل الانسان على اليمين فى حديثه خلال : اما مهانة يجدها فى نفسه واحتياج الى أن يصدق الناس ، واما عمى وحصر وعجز عن الكلام فيريد أن يجعل اليمين تنتمه لكلامه ، أو حشوا فيه ، واما أن يكون قد عرف أنه مشهور عند الناس بالكذب ، فهو يجعل نفسه بمنزلة من لا يصدق ولا يقبل قوله الا باليمين ، وحينئذ كلما ازداد أيمانا ، ازداد الناس له تكذيبا وقدر الملك أكبر من ذلك * * * ومن الخصال التى يستحب أن تكون معدومة فى الملك الحدة ، فانها ربما أصدرت عنه فعلا يندم عليه ، حين لا ينفع الندم ، ومن الخصال أيضا الضجر والسأم والملل فذلك من أضر الأضرار (١٩٤) *

ونخلص الى القول بأنه يكفى الحاكم أن يكون قبل كل شىء رجلا واسع الأفق ، خبيرا بالرجال ، موفقا فى التقدير ، وهذا هو بالضبط ما ذهب اليه أفلاطون على الترجيح من أن السياسة تحتاج الى « رجال أرهفت المراتة العقلية ادراكهم ، وقوت ملكتهم على تفهم الحياة الطيبة ، وجعلتهم قادرين على التمييز بين الغث والسمين ، والمفاضلة بين الوسائل المناسبة وغير المناسبة لتحقيق الخير » *

مقارنة بين مكيافللى والماوردى :

واذا حاولنا الآن أن نعقد مقارنة بين ما يشترطه الماوردى من شروط فى الحاكم (الامام أو الخليفة) وبين ما يذهب اليه مفكر « كمكيافللى » صاحب كتاب « الأمير » ١٥١٣ م لهالنا ما يقول به ميكافلى فى هذا الأمر (١٩٥) •

ويعتبر مكيافللى أول من فصل بين السياسة والأخلاق هادفا من وراء ذلك الى جعل علم السياسة علما قائما بذاته ، وبهذا فان مكيافللى قد طلق السياسة من الاخلاق طلاقا بائنا لا رجعة فيه • ولقد دعا مكيافللى فى السياسة الى الكذب والخداع والغدر والقسوة والارهاب والنكث بالعهد واهدار الاخلاص والصداقة والامانة والدين وأن كل هذا من شأنه المحافظة على سلامة الدولة وضممان ما يتنافى مع الطبيعة البشرية أن « بطل » مكيافللى قائد (أو حاكم) لازم له ولا ضمير حتى ان اسم مكيافللى قد « أدرج فى كل لغة لفظا للدلالة على (الشيطان) • أو « مفيستوفوليس » Mephistopheles ، كما يلقب جيته Goethe الشيطان (١٩٦) • وانتشرت هذه الفكرة كل الانتشار حتى أصبح الشيطان نفسه هو « نيك العجوز » Old Nick ، ولا سبب لذلك ، كما يحدثنا مؤرخ وسياسى من الفطاحل الانجليز ، سوى أن « نيقولا » هو اسم ماكيافللى « و » عندما يتساءل شاكير على لسان شخصيته فى مسرحيته « نساء وندسور المرحات The Merry wives of windsor : هل أنا أريب ؟ هل أنا ماكيافللى ؟ لم يكن يعنى من وراء ذلك مديحا لمكيافللى ، أو اطراء له وقصارى القول ، ان الفكرة

(١٩٥) ميكافلى : من المفكرين السياسيين فى القرن ١٦م وندونديغورنسا

عام ١٢٦٩ م .

(١٩٦) نقولا ماكيافللى : دراسة تحليلية محورها كتاب الأمير ترجمة وتحليل

الاستاذ محمد مختار الزقزوقى ص ٥٥ — ٥٦ .

العامة لجميع هذه الاشارات قد نلخصها في اشارة من بيجماليون
Pigma lon لمارستون Marston حين يقول : « ان انسانا
ماكيا فلليا ملعونا يحمل الشمعة لحظة للشيطان » (١٩٧) •

لقد صار اسم فلسفة مكيا فللي البغيضة وحده ضربا من الخزي
عند رجال الدولة حتى أفسدهم سلوكا • ولم يكن الأخلاقيون وحدهم
هم الذين يزرون عليها بل الملوك الذين يدعى أنها قد ألقت لهم قد
نبذوها نبذا • وأنها لتستحق هذا المقت الاجماعى ، ومن المحال على
المرء أن يقرها متى تظن في قراءة كتاب الأمير •• ويظهر أن مكيا فللي
قد فقد كل تمييز بين الخير والشر • يتخذ عادة نماذجه من أولئك الذين
يعلن الرأى العام فزعسه منهم باعتبارهم أغوالا ، ويرسم مكيا فللي
مصورا للفضائل التى ينبغى أن يتصف بها الأمير ، ويقيس بمقياسة غاية
في الضبط ما هو السخاء والتبذير والقسوة والرحمة وحسن النية
والمكر ، ويقر الكذب بلا أدنى تردد والعدو والسم والاغتيال كلما كانت
هذه الوسائل المعنيفة نافعة • والغرض الوحيد هو البقاء فى السلطان بأى
ثمن كان ، وان النجاح ليبرر كل انتهاك للحرمان (١٩٨) •

وعند مكيا فللي أن القسوة وليس الرأفة ، هى ما يناسب السلطان ،
وقد تكون الوسيلة الوحيدة لتحقيق السلام والاستقرار ، فاذا كان ينبغى
على الأمير أن يكون رحيمًا فإنه يتحتم عليه أن يعرف كيف يستعمل الرهبة
بل وينبغى عليه أن يكون شديدًا قاسيًا ، ذلك أن الرحمة قد تؤدى الى
الفوضى ، وأن القسوة تقيم النظام وتحقق الوحدة ، وكثيرا ما تقضى
على الفوضى وهى لا تزال فى مهدها •• ان هذه القسوة مباركة لأن
رحمة الأمير الزائدة قد تؤدى الى الفوضى ومن ثم فهى فى غير صالح

(١٩٧) المصدر السابق ص ٦٥ •

(١٩٨) من مقدمة بارثلمى سانتهيلير لكتاب السياسة لارسطو ص ٦٩

الجماعة « فالأمير لا يخشى أن يتصف بالقسوة ، (١٩٩) لأن قسوته تكون أشد رحمة من الأمراء الذين يتمادون في اللين ويسمحون بالقتل المتى تجلب القتل والسلب وهذه تصيب الشعب كله ، أما قسوة الأمير فلا تصيب الا فردا أو أفرادا » .

والأصلح للأمير أن يكون مرهوب الجانب من رعيته تخشى بأسه ، على أن يكون محبوبا منهم ، فالناس كثيرا ما يسيئون الى من يحبون ، ولكنهم يفكرون مرة أو مرتين قبل أن يسيئوا الى من يرهبون « والأفضل (للأمير) أن يهاب لأنه يحق القول عن الناس عامة أنهم ينكرون الجميل ... ثم ان الناس أسرع الى اساءة من يحبون منهم الى اساءة من يرهبون لأن الحب قائم على نفعهم الذاتي فاذا انتهى هذا النفع ذهب الحب ، أما الخوف فأساسه العقاب ورهبة العقاب لا تزول مطلقا » (٢٠٠) .

ويعرض ماكيافللي للوفاء ، مبينا أن تمسك الأمراء بعهودهم قد يدفع بهم الى غير ما يحبون ، وقد دلت التجربة على أن من لا يتمسك منهم بعهوده ومواثيقه يستطيع أن يحقق أزمته الكثير . « لا يخفى على أحد ما يلحق بالأمراء من الثناء اذا اشتهروا بحفظ الوعود ومراعاة العهود ولكن تجارب زماننا هذا دلت على أن الأمراء الذين لم يراعوا العهود قاموا بأعمال كبيرة وتمكنوا من تحيير أو هام الناس بمكرهم » (٢٠١) .

وعلى الحاكم أن يتطبع بطباع الحيوان فيكون فيه من صفات الثعلب والأسد الكثير من حيث المداهنة والتغريير بالغير ، والتنكيل بمن يقف في سبيله ، وعلى الحاكم أن يتقن أساليب الغدر والخيانة ،

(١٩٩) كتاب الأمير ، لنيقولا ماكيافللي ، تعريب محمد لطفى جمعه ص

١٤٧ .

(٢٠٠) كتاب الأمير لماكيافللي ترجمة محمد لطفى جمعة ص ١٤٨ .

(٢٠١) المصدر السابق ص ١٥١ .

ويبطش ذات اليمين وذات الشمال » والأمير مضطر للتطبع بطبع الحيوان
فنيقلد الأسد والثعلب ، لأن الأسد لا يستطيع أن يحمي ذاته مما يرمى
له من الحبائل ، والثعلب لا يستطيع أن يتقى الذئب ، لذا ينبغي
للأمير أن يكون ثعلبا ليتقى الحفائر وأسدا ليرهب الذئب . . . لأجل
هذا لا ينبغي للأمير الحذر أن يحفظ العهود إذا كانت ضد
مصلحته » (٢٠٢) .

ويضيف ماكيافللي — تبريرا لنصائحه السالفة — أنه بالنسبة للأمير
ليست المعبرة بالتصرفات والوسائل ، بل العبرة بالنتائج . فالأمير عنده
ليس حاكما عادلا مشرعا ، ولكنه رجل حرب وسياسة ، رجل قوة ومكر .
وعلى الأمير ألا يخشى في هذا المصدد مبادئ الدين أو الفضائل
الانسانية ، أو قواعد العرف والتقاليد ، فالحكم لا يريد إلا رجلا متلونا
يجيد فن المداينة والتلاعب بالعهود والمواثيق وتخطيط الخطط ،
والبطش بكل من يقف في طريقه . « فالأمير لا يفقد حيلة شرعية يركن
اليها إذا لم يف بوعده . . . والذين استطاعوا من الأمراء تقاليد الثعلب
قد فازوا وانصروا . ولكن من الضروري أن يخفي الرجل هذه الخليقة
وأن يكون ماهرا في فن المتظاهر بغير شعوره ثم أن الناس من البساطة يمكن
وهم أصحاب حاجات وصاحبها أرعن مطيع فلا يعدم الخادع
فريسته » (٢٠٣) وإذا أفلح الأمير في تحقيق الغاية مهما كانت الوسيلة ،
واحتفظ بدولته فان الناس جميعا سرعان ما يؤيدون هذه الوسائل ويرونها
شريفة مشرفة ولو كانت غير مشروعة استندت كلها الى الرذائل والوسائل
غير الاخلاقية وغير المشروعة . والحاكم الذي لا يريد أن يسير هذه
السيرة ، ويتصف بهذه الصفات السابقة من اجادة لفنون المكر والخداع
والكذب والاخلال بالعهود والغدر والسم والاغتيال والنفاق والشح

(٢٠٢) المصدر السابق ص ١٥٢ .

(٢٠٣) نفس المصدر السابق ص ١٥٢ ،

والموضاعة وما اليها مما يتنافى مع المثل الفاضلة وتأباه الاخلاق والانسانية عليه أن يبتعد عن الحكم ومظاهره ويحيا حياة منفردة خاصة •

ويقول ماكيافللى ، الذى لم ينقطع موسولينى عن الاستشهاد به فى مواضع متفرقة ، فى الباب الثالث من « المقالات » (٢٠٤) : « من الضرورى لمن يعد جمهورية ويضع فيها نظاما ، أن يفترض أن البشر جميعا خبيثاء ، ومستعدون دائما لاستخدام ميل نفوسهم الى الشر حينما يجدون فرصة متواتية لذلك » وموسولينى يخص الشعب بهذا الميل الفطرى الى الشر ، بينما ماكيافللى يعمه على البشر جميعا ، حكاما ومحكومين •

ونورد هنا بعضا من أقوال هتلر التى يتضح فيها المعانى الماكيافللية بصورة لا لبس فيها ، ولقد كان يحلو لهتلر أن يصف نفسه بأنه « تلميذ لماكيافللى » ، ومن المعلوم أن هتلر كان يشجع الحيلة والخداع كوسائل سياسية فعالة •

يقول هتلر (٢٠٥) « ان ما يعنينى هو سياسة القوة ، وأعنى بذلك أن استعمل كل الوسائل التى تبدو لى أن من الممكن الاستفادة منها ، دون أقل اهتمام بمراعاة خصائص الوسائل ، أو باتباع قانون الشرف • واذا جاء الناس يشكون من هذه الأساليب عندى ، ويدعون أننى لم احترم الوعود التى أعطيتها لهم ، وأننى لا أعبأ بالمعاهدات ، وأننى أسير على سياسة دعامتها الحيلة ، وخداع الناس ، والتظاهر بغير الحقيقة ، فسوف اجيب قائلا : حسنا ، وماذا فى ذلك ؟ أنكم أحرار فى أن تفعلوا كما أفعل • أن أحدا لا يمنعكم من ذلك » •

« أننى لا أعترف بقانون أخلاقى فى مسائل السياسة • ان السياسة

(٢٠٤) نيقولا ماكيافللى ترجمة وتحليل محمد مختار الزقزوقى ص ١٠١ .

(٢٠٥) انظر كتاب : نيقولا ماكيافللى ترجمة وتحليل الاستاذ محمد مختار

الزقزوقى ص ١١٥ — ١١٨ .

لعبة يسمح فيها بكل أنواع الحيل ، وتغيير قواعد اللعب على أيدي اللاعبين أنفسهم حتى توافق أهواءهم » •

ويقول هتلر في الخوف والمحبة : « يجب أن نكون قساة ، ويجب أن يطمئن ضميرنا الى القسوة ، وبهذا وحده نستطيع أن نظهر الشعب من نعومته وعواطفه المخنثة » •

« ان الحكم والمحافظة على النظام لا يمكن ادراكهما بدون أكرام ، أن كل نظام جديد يبدو كما لو كان استبدادا ••• » •

وفي الوفاء بالوعد في السياسة يقول : « اننى مستعد لأن أضمن جمع الحدود ، ولأن أعقد اتفاقات عدم اعتداء ، وأبرم محالفات ودية مع أى انسان • والامتناع عن الانتفاع بمثل هذه الاجراءات ، لا لشيء سوى أنه قد يساق الانسان الى موقف يضطر فيه لأن ينكث بعهد مقدس ، مجرد سخافة • لم توجد قط معاهدة أقسم عاقدوها على احترامها ولم تنكث يوما أن قريبا أو بعيدا ••• انه لا يوجد شيء اسمه محالفة أبدية ، فالرجل الذى يبلغ به احساس الضمير الى حد أن يمتنع عن توقيع معاهدة رجل أبله ••• لماذا لا أعقد اليوم اتفاقا بنية حسنة ثم أنكثه فى الغد دون تردد ••• » •

فأين هذا الذى يقول به ماكيافللى وتلاميذه والذين اقتدوا به واعتبروا وصاياه التى تضمنها كتابه « الأمير » للحاكم أفضل طرق الحكم ، وأمثلة الوسائل لسيادة الشعوب التى يحكمونها ، نقول أين هذا كله مما نجده عند مفكرنا الماوردى من ضرورة اشتراط التقوى والورع وكبر النفس والشهامة ، وحب العدل والابتعاد عن الحاق الأذى والضرر بالغير ، واجتهاد الحاكم فى أن يجعل طاعة الخاصة والعامة له طاعة محبة ، لا طاعة رهبة • كما يشترط الماوردى على الحاكم أن يعلى دائما من شأن المصدق على الكذب والصواب على الخطأ ، والتواضع على التكبر ، والجود على البخل ، والتدين على التهتك ، وأن الامام اذا عرف

بالتقوى والدين أحبته القلوب واتفقت عليه كلمة العامة والخاص
ويورد الماوردي في مخطوطته « نصيحة الملوك » أن أرسطاطاليس
يتطلب من الحاكم أربع خصال : وهى أن يكون حيبا ، وأن يكون ورعا ،
وأن يكون عالما ، وأن يكون غير عجول * ويحذر أن يكون الحاكم مشتهيا
للکلام ، فالحكومة لا يصلح لها من كان كذلك « وأركان السلطان ، على
حسب أفلاطون ، هى أولا العدل المنظم الأعلى للدولة ، كما هو للفرد ،
ثم النزاهة والمعرفة والاعتدال والمسئولية واحترام القانون » (٢٠٦) •

ويقول الماوردي في مخطوطته « نصيحة الملوك » (٢٠٧) : « فلا أحد
أحق باختيار المحامد وتعودها من الملوك (الحكام) ، ومن الفضائل
التي يجب عليه حيازتها فيختار الشكر على الكفر ، والتدين على التهنك
والعلم على الجهل ، والعقل على الحمق ، والشجاعة على الجبن ، والكرم
على البخل ، والصبر على الجزع ، والحمد على الذم ، والحلم على الطيش ،
والرزانة على الخفة ، والصدق على الكذب ، والتواضع على التكبر ،
والعدل على الجور والصواب على الخطأ ، والحزم على التهور وأمثالها ،
فان لكل شئ من المذام ثمرة مدمومة ، ولكل شئ من المحامد عاقبة
محمودة » •

ولا شك أن النظرية السياسية المثالية تستند بالأصالة الى دعائم
أخلاقية ، ولذلك يحرص أصحابها دائما على تعزيز معانى العدالة المثلى
والفضيلة العليا والخير الأسمى ، وليس من المستطاع الى حد بعيد أن
نعزل الفكرة السياسية عن المعنى الحقيقي للأخلاق ، ولذلك فحتى عند
أولئك الذين توهموا أنهم فصلوا بين الاخلاق والسياسة ، نلاحظ أن بعض
العناصر الأخلاقية قائمة في صميم نظرياتهم • ولعل السبب العميق في
هذا هو أن المجتمع الانسانى ، مهما تكن طبيعته وأيا كانت مقوماته ،
مجتمع ينهض على بعض القيم الأساسية المرتبطة بالخير والفضيلة

(٢٠٦) من مقدمة بارتلمى سانتهيلير لكتاب السياسة لأرسطو ص ١٧ •

(٢٠٧) نصيحة الملوك للماوردي ورقة ١٠ •

والمساواة والعدالة والحق والواجب * فاعمال القيم الأخلاقية في نظرية من النظريات هو أفعال متعمد من صاحبها واتجاه منه الى الاشادة بالغرائر الأنانية التدميرية الكائنة في الانسان * والسياسة عند أفلاطون علم أخلاقي غايته تحقيق العدالة في المدينة ، كما أن الفضيلة هي تحقيق العدالة في النفس ، ونظرية أفلاطون السياسية ، تبعا لذلك ، نظرية مؤسسة أصلا على فلسفته الاخلاقية ، وهو يحرص في فلسفته الاخلاقية على أن يستقيم في الفرد توازن بين فضائل ثلاث هي العفة والشجاعة والحكمة * واستقامة هذا التوازن تقضى الى توافر العدالة داخل الأفراد فتنعكس على المجتمع ، وهذا هو الخير الأسمى * ومن جهة أخرى نجد أن السوفسطائيين يبنون فلسفتهم السياسية على القوة والعنف والسيطرة ، والحرية هي حرية القوى والحق حقه هو وحده ، والخير والعدالة والحق وسائر القيم لا تعدو كونها مقاييس اعتبارية يصطلح عليها الناس وتتفاوت بتفاوت القوة والحيلة والنضليل والخديعة كوسائل سياسية فعالة ، ومن هنا جرى مذهب ماكيافلي مثلا على كل سياسة تظهر غير ما تبطن وتقول غير ما تفعل ، وتسعى الى غاية لا تتورع في سبيل تحقيقها عن التوسل بكل وسيلة ممكنة ، مسقطه كل اعتبار أخلاقي (٢٠٨) *

والحق أن هناك صلة وثيقة بين الأخلاق والسياسة ، وقد حرص الموردي على ابراز هذه الصلة وخاصة عند حديثه عن الخليفة أو الحاكم كما يجب أن يكون وعن خلاله المثلى ، وينكر «هيجل» أيضا تجزئة السياسة عن الأخلاق ، حيث أن الدولة عنده كما ورد في « فلسفة القانون » هي الفكرة الأخلاقية الملموسة *

ويؤكد الدرس الذي يلقيه سقراط على تلميذه السيبياذ صحة ما يقرره الموردي ويذهب اليه من ضرورة تمسك الامام بقواعد الشريعة الحنيئة

(٢٠٨) راجع : نماذج من الفلسفة السياسية للدكتور محمد مفتحي الشنيطي ص ٩-٤ .

ومبادئ الأخلاق القويمة حيث يقول : « بل أن المدرس الذى كان يلقيه سقراط على تلميذه السيبياذ مازال أولى بالأساسة أن يثلقوه وأن ينتفعوا به : « يجب قبل كل شيء يا صديقى أن تفكر فى اكتساب الفضيلة أنت وكل رجل يريد الا يعنى بنفسه وبماله من الأشياء فحسب ، بل أيضا بالدولة وبالشئون التى هى للدولة » (٢٠٩) •

ما الحكم فى حالة توافر شروط الامامة فى اثنين :

والرأى الذى يراه الماوردى فى حالة توافر شروط الامامة فى اثنين أن يفضل اختيار أسنهما لما يتميز به من حكمة وحنكة وخبرة ودراية بشئون الدولة وفن ادارتها ، دون الزام بذلك ، ومع هذا يجوز مبايعة الاصغر سنا اذا توافرت فيه الشروط والمؤهلات التى تؤهله للحكم وخدمة الرعية • ويكيف الماوردى هنا حكمه فى الاختيار تبعا لما عليه أحوال الدولة وظروف العصر وعلاقة الدولة بجيرانها وعلى أهل الاختيار مراعاة ما يوجبه حكم الوقت ، فان كان الوقت وقت حروب ودفاع أو فتن ، كان من فيه فضل الشجاعة أحق ، وان كانت أحوال الدولة يسودها الامن والسلام والطمأنينة والمعرفة وكان هناك احتياج الى العلم ، ففى هذه الحالة يكون العلم هو الاحق • ويقول الماوردى فى هذا ما نصه : (٢١٠)

« فلو تكافأ فى شروط الامامة اثنان قدم لها اختيارا أسنهما ، وان لم تكن زيادة السن مع كمال البلوغ شرطا فان بويع أصغرهما سنا جاز • ولو كان أحدهما أعلم والآخر أشجع روعى فى الاختيار ما يوجبه حكم الوقت ، فان كانت الحاجة الى فضل الشجاعة أدعى لانتشار الشخور وظهور البغاة كان الاشجع أحق ، وان كانت الحاجة الى فضل العلم أدعى لسكون الدهماء وظهور أهل البدع كان العلم أحق » •

(٢٠٩) من مقدمة بارتمى سانتهيلير لكتاب السياسة لأرسطو ص ٢١ •

(٢١٠) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٥ •

(م ١١ — الماوردى)

ويستطرد الماوردي بعد ذلك قائلا : « فان وقف الاختيار على واحد من اثنين فتنازعاها فقد قال بعض الفقهاء يكون قدحا منها ويعدل الى غيرهما * والذى عليه جمهور العلماء والفقهاء أن التنازع فيها لا يكون قدحا مانعا ، وليس طلب الامامة مكروها فقد تنازع فيها أهل الشورى ، فما رد عنها طالب ولا منع منها راغب * واختلف الفقهاء فيما يقطع به تنازعهما مع تكافؤ أحوالهما فقالت طائفة يقرع بينهما ، ويقدم من قرع منهما * وقال آخرون بل يكون أهل الاختيار بالخيار في بيعة أيهما شاءوا من غير قرعة » (٢١١) *

ويقرر الماوردي أن السعى لطلب الحكم ليس بالشئ المكروه ، ومما يستدل به في ذلك أن « أهل الشورى تنازعوا الامامة فلم يكن ذلك سبيلا لمنع أحد منهم » ، والسعى لطلب الحكم من حق كل انسان يلتمس في نفسه المقدرة على تحمل تبعه هذه المسؤولية الجسيمة ، وتتوافر فيه الشرائط التي يشترطها الماوردي في الخليفة من العلم والرأى والشجاعة والعدالة * الخ * ولكن كيف يقطع النزاع بينهما ، مع أنهما متكافئان ، فكما بين الماوردي ، فان الامر في ذلك متروك لأهل الاختيار ، فيكون لهم الحق والسلطة أن يبايعوا أيهما شاءوا ، أى من غير قرعة * فالامة — ممثلة في أهل الحل والعقد — هي الاصل في عقد الامامة ، كما يؤكد ذلك الماوردي *

امامة المفضول :

ثم نحاول أن نرى موقف أقصى القضاة الماوردي من قضية امامة المفضول والتي دار حولها اختلاف بين الفقهاء ، فبعض الفقهاء جاوز امامة للمفضول مع وجود الافضل ؟ *

الذى يذهب اليه الماوردي أن امامة المفضول تنعقد حتى لو حدث ووجد بعد مبايعته من هو أفضل منه ، والذى يقتضى ذلك عدة مبررات

(٢١١) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٥ *

منها مثلا اصغاء الناس للامام المفضول ، وميل أولى النجسدة والبأس اليه ومكانته في قلوب الرعية والشعب ، اذ الغرض من نصب الامام هو صلاح الرعية •

ويقول الماوردي : (٢١٢) « فلو تعين لاهل الاختيار واحد هو أفضل الجماعة فبايعوه على الامامة ، وحدث بعده من هو أفضل منه انعقدت ببيعتهم امامة الاول ، ولم يجز العدول عنه الى من هو أفضل منه • ولو ابتدأوا ببيعة المفضول مع وجود الافضل نظر فان كان ذلك لعذر دعا اليه من كون الافضل غائبا أو مريضا أو كون المفضول أطوع في الناس وأقرب في القلوب انعقدت بيعة المفضول وصحت امامته • وان بويع لغير عذر فقد اختلف في انعقاد بيعته وصحت امامته فذهب طائفة منهم الجاحظ الى أن بيعته لا تنعقد لأن الاختيار اذا دعا الى أولى الامرين لم يجز العدول عنه الى غيره مما ليس بأولى كالاكتفاء في الاحكام الشرعية وقال الاكثر من الفقهاء والمتكلمين تجوز امامته وصحت بيعته ولا يكون وجود الافضل مانعا من امامة المفضول اذا لم يكن مقصرا عن شروط الامامة كما يجوز في ولاية القضاء تقليد المفضول مع وجود الافضل لان زيادة الفضل مبالغة في الاختيار وليست معتبرة في شروط الاستحقاق • فلو تفرد في الوقت بشروط الامامة واحد لم يشرك فيها غيره تعينت فيه الامامة ولم يجز أن يعدل بها عنه الى غيره •

واختلف أهل العلم في ثبوت امامته وانعقاد ولايته بغير عقد ولا اختيار • فذهب بعض فقهاء العراق الى ثبوت ولايته وانعقاد امامته وحمل الامامة على طاعته ، وان لم يعقدها أهل الاختيار ، لأن مقصود الاختيار تمييز المولى وقد تميز هذا بصفته • وذهب جمهور الفقهاء والمتكلمين الى أن امامته لا تنعقد الا بالرضا والاختيار لكن يلزم أهل الاختيار عقد الامامة له فان اتفقوا أتموا » •

ويتفق مع الماوردي في جواز انعقاد امامة المفضل ، وبشرط توافر
شرائط الامامة فيه كثير من العلماء •

يقول امام الحرمين الجويني : « ذهبت طوائف منهم الزيدية الى
تصحيح عقد الامامة للمفضل على الاطلاق • • فالمعنى بالفضل
استجماع الخلال التي يشترط اجتماعها في المتصدي للامامة • • • فالافضل
الاصح للقيام على الخلق بسبل صلاحهم • • • فاذا تقرر ذلك ، فقد صار
طوائف الى تجويز عقد الامامة للمفضل مع التمكن من العقد للافضل
والاصح ، واعتلوا بأن المفضل اذا كان مستجمعا للشرائط المرعية
فاختصاص الفاضل بالمزايا اتضاف بما لا تقتدر الامامة اليه • • • وذهب
معظم المنتمين الى الاصول الى أن الامامة لا تنعقد للمفضل مع امكان
العقد للفاضل • • • وأقول لا خلاف أنه اذا عسر عقد الامامة للفاضل
واقترض مصلحة المسلمين تقديم المفضل وذلك لصغو الناس ، وميل أولى
النجدة والبأس اليه ، ولو فرض تقديم الفاضل لا شرأبت الفتن وثار
الحن • • • فاذا كانت الحاجة في تقديم المفضل قد لا محالة اذ الغرض
من نصب الامام استصلاح الامة » (٢١٣) •

ورأى صاحبى المسيرة والمسامرة الكمال بن الهمام والكمال بن أبى
شريف هو : « جواز عقد الامامة للمفضل مع وجود الفاضل لمصلحة
تقتضيه » (٢١٤) • واذا وجدت الشروط في جماعة بحيث يصلح كل منهم
للامامة فالاولى بالولاية أفضلهم فان ولى المفضل مع وجود الافضل
صحت ولايته » (٢١٥) •

ويقول ابن العربي في كتابه (العواصم من القواصم) ان « ولاية
المفضل نافذة وان كان هناك من هو أفضل منه اذا عقدت له ولما في حلها

(٢١٣) غياث الامم لامام الحرمين الجويني ص ٧٩ — ٨١ •

(٢١٤) المسامرة بشرح المسيرة لابن أبى شريف — مخطوط — وجه
ورقة ٦٥ •

(٢١٥) المصدر السابق ظهر ورقة ٦٧ •

أو طلب الافضل من استباحة ما لا يباح وتشتيت الكلمة وتفريق أمر
الامة » (٢١٦) .

ومن المحبذين ، أيضا ، لامامة المفضول « ابن حجر الهيتمي » حيث
يقول : « اعلم أنه يجوز نصب المفضول مع وجود من هو أفضل منه
لاجتماع العلماء بعد الخلفاء الراشدين على امامة بعض من قرئش مع
وجود أفضل منهم ولأن عمر رضى الله عنه جعل الخلافة بين ستة من
العشرة منهم عثمان وعلى رضى الله تعالى عنهما وهما أفضل أهل زمانهما
بعد عمر فلو تعين الافضل لعين عمر عثمان فدل عدم تعيينه أنه يجوز
نصب غير عثمان وعلى مع وجودهما . والمعنى فى ذلك أن غير الافضل
قد يكون أقدر منه على القيام بمصالح الدين وأعرف بتدبير الملك وأوفق
لانتظام حال الرعية وأوثق فى اندفاع الفتنة » (٢١٧) .

ويقول « الباقلانى » فى التمهيد « ان الامام انما ينصب لدفع
العدو وحماية البيضة وسد الخلل واقامة الحدود واستخراج الحقوق
فاذا خيف باقامة أفضلهم الهرج والفساد والتغالب وترك الطاعة واختلاف
السيوف . . . الخ . ويذكر الباقلانى أيضا أن ذلك لا يحتاج الى كونه
معصوما عالما بالغيب وأن ظاهر الخبر لا يقضى بكونه قرشيا ولا العقل
يوجبه وهو يشير الى الحديث الذى أخرجه احمد وأبو يعلى والطيالسى
الاثمة من قرئش ما حكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا واسترحموا فرحموا .

ويتفق مع الآراء السابقة فى جواز انعقاد امامة المفضول مع وجود
الافضل ، الفقيه ابن حزم الاندلسى ، وكما هى عادته فى الاستشهاد
بآراء الغير ، والاتيان بالآراء المتعارضة ، ينتهى الى صحة انعقاد امامة

(٢١٦) العواصم من القواصم لابی بكر محمد بن عبد الله بن العربى .
المطبعة انجزائية الاسلامية سنة ١٩٢٧ ج ٢ ص ١٦٨ .

(٢١٧) الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة لابن حجر
الهيتمى ص ٩ .

المفضول حيث يقول : « ذهبت طوائف من الخوارج ، وطوائف من المعتزلة ، وطوائف من المرجئة منهم محمد بن الطيب الباقلاني ومن اتبعه ، وجميع الرافضة من الشيعة ، الى أنه لا يجوز امامة من يوجد في الناس أفضل منه • وذهبت طائفة من الخوارج ، وطائفة من المعتزلة ، وطائفة من المرجئة ، وجميع الزيدية من الشيعة ، وجميع أهل السنة الى أن الامامة جائزة لمن غيره أفضل منه • وأما الرافضة فقالوا ان الامام واحد معروف بعينه في العالم •• وما نعلم لمن قال ان الامامة لا تجوز الا لأفضل من يوجد حجة أصلا لا من القرآن ولا من سنة ولا من اجماع ، ولا من صحة عقل ولا من قياس ولا قول صاحب ، ومن كان هكذا فهو حق قول بالاطراح » (٢١٨) •

وأكثر الشيعة لا يقولون بامامة المفضول (٢١٩) وكذلك أكثر المرجئة والمجاhez من المعتزلة • وانما تكون للأفضل من القرشيين الا النظام فانه يجعلها في الأفضل ولو غ يرقرشي ، والجعفرية لا يجعلونها الا في أبناء الحسين •

هل يجوز تولية أكثر من امام :

يذهب الماوردي الى أنه لا يجوز أن يكون للامة امامان في وقت واحد ، واذا حدث وتنازع اثنان على الحكم « وادعى كل واحد منهما أنه السابق ، لم تسمع دعواه ، ولم يحلف عليها ، لأنه لا يختص بالحق فيها ، وانما هو حق المسلمين جميعا » وهذا يدل على ديمقراطية فكر الاسلام • والمصلحة العامة ، والنظر السديد يقتضى أن يكون الخليفة واحدا غير متعدد ، لأنه لو جاز أن يكون للامة امامان ، لجاز أن يكون لها ثلاثة أو

(٢١٨) الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم ١٦٣/٤ •

(٢١٩) راجع مقدمة الاستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف لكتاب ابن حجر الهيتمي النصوص المحرقة ص ٢٢ •

أربعة أو أكثر ، كما أن نصب أكثر من امام للامة مدعاة للفساد والتنازع ، وحكم الامة يقتضى الاستقلال ، والتعدد يفضى الى أحكام متضادة ، والغرض من الامامة أصلا هو صلاح حال الرعية ، واستتباب الامن والنظام .

يقول الماوردى فى ذلك : « فأما اقامة امامين أو ثلاثة فى عصر واحد ، وبلد واحد ، فلا يجوز اجماعا ، فأما فى بلدان شتى ، وأمصار متباعدة ، فقد ذهبت طائفة شاذة الى جواز ذلك ، (٢٢٠) لأن الامام مندوب للمصالح ، وإذا كان اثنان فى بلدين أو ناحيتين ، كان كل منهما أقوم بما فى يديه ، وأضبط لما يليه ، ولأنه لما جاز بعثة نبين فى عصر واحد ، ولم يؤد ذلك الى ابطال النبوة كانت الامامة أولى ، ولا يؤدى ذلك الى ابطال الامامة .

وذهب الجمهور الى أن اقامة امامين فى عصر واحد لا يجوز شرعا ، لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا بويح أميران ، فولوا أحدهما » . وروى : « فاقتلوا الآخر منهما » (٢٢١) .

ويؤكد الماوردى هذا المعنى أيضا فى مؤلفه (الاحكام السلطانية) ، من أنه لا يجوز أن يكون للامة امامان فى وقت واحد ، بل لا بد للامة من امام واحد منعا للقتل واثارة الفتنة والشغب ، وضياح مصالح الرعية قائلا : « اذا عقدت الامامة لامامين فى بلدين لم تنعقد امامتهما ، لأنه لا يجوز أن يكون للامة امامان فى وقت واحد ، وان شذ قوم فجوزه . واختلف الفقهاء فى الامام منهما فقالت طائفة هو الذى عقدت له الامامة

(٢٢٠) وأقول : انما جوزه من جوزه فى حال تعذر الوحدة ، وهذا هو الخلاف الذى نقله العضد فى المواقف اذ قال : « ولا يجوز العقد لامامين فى صقع متضايق الاقطار ، اما فى متسعتها بحيث لا يسع الواحد تدبيره فهو محل الاجتهاد » الخلافة : لرشيد رضا ص ٤٨ .

(٢٢١) أدب الدنيا والدين للماوردى تحقيق الاستاذ / مصطفى السقا . طبعة الثالثة ١٩٥٥ ص ١٢٢ .

في البلد الذي مات فيه من تقدمه * وقال آخرون بل على كل واحد منهما أن يدفع الإمامة عن نفسه ويسلمها الى صاحبه طلبا للسلامة وحسما للفتنة ليختار أهل العقد أحدهما أو غيرهما * وقال آخرون ، بل يقرع بينهما دفعا للتنازع ، وقطعا للتخاصم ، فأيهما قرع كان بالإمامة أحق * والصحيح في ذلك وما عليه الفقهاء المحققون أن الإمامة لاسبقهما بيعة وعقدا * * * فإذا تعين السابق منهما استقرت له الإمامة ، وعلى المسبوق تسليم الأمر اليه والدخول في بيعته * وان تنازعاها ، وادعى كل واحد منهما أنه الاسبق لم تسمع دعواه ، ولم يحلف عليها لأنه لا يختص بالحق فيها ، وانما هو حق المسلمين جميعا ، فلا حكم ليمينه فيه ولا لنكوله عنه * * * » (٢٢٢) *

ويلتقى مع رأى الماوردي هذا امام الحرمين الجويني ، وصاحبى المسامرة والمسامرة ، في أن الخليفة لا بد وأن يكون واحدا ، وأنه لا يجوز أن يكون للإمامة امامان أو أكثر ، فالمنطق الطبيعي يقتضى ذلك وطبيعة الاشياء تحتتم هذا * ولنر اذن ما يقولان *

يقول الجويني : « وقد تقرر أن نصب امامين مدعاة الفساد * ثم ان فرض نصب امامين على أن ينفذ أمر كل واحد منهما في جميع الخطة ، جر ذلك تدافعا وتنازعا * والغرض من الإمامة استصلاح العامة ، وتمهيد الامور ، وسد الثغور ، فاذا تيسر نصب امام واحد نافذ الامر ، فهو أصلح لا محالة في مقتضى السياسة * * كما أن منصب الإمامة يقتضى الاستقلال » (٢٢٣) *

ويقول صاحبى المسامرة والمسامرة : « ولا يولى الإمامة أكثر من واحد لقوله صلى الله عليه وسلم اذا بويح للخليفتين فاقتلوا الآخر منهما *

(٢٢٢) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٦ — ٧ .

(٢٢٣) غياث الامم للجويني ص ٨٤ — ٨٧ .

رواه مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى * والمعنى فى امتناع تعدد الامام أنه مناف لمقصود الامامة من اتحاد كلمة أهل الاسلام ، واندفاع الفتن ، وان التعدد يقتضى لزوم أحكام متضادة * وعبرة حجة الاسلام اذا اجتمع عدة من الموصوفين بهذه الصفات فالامام من انعقدت له البيعة «(٢٢٤) * فكون الامام واحدا أمر اجماعى تتفق عليه جميع الامم ، وذلك تحاشيا لاي فوضى ، وضبطا للنظام ، ومنعا من تعارض الآراء وحرصا على الصالح العام *

هل يجب معرفة الامام بعينه واسمه :

يذهب الماوردى الى أن من حق ممثلى الشعب ، وهم أهل الاختيار ، معرفة مؤهلات الحاكم الذى سيتولى مسئولية الحكم ، وكذلك معرفة كل ما يتعلق به حتى يكون هناك اطمئنان وثقة فى الحاكم : « فاذا استقرت الخلافة لمن تقلدها ، اما بعهد أو اختيار ، لزم كافة الأمة أن يعرفوا افضاء الخلافة الى مستحقها بصفاته ، ولا يلزم أن يعرفوه بعينه واسمه الا أهل الاختيار الذين تقوم بهم الحجة ، وببيعتهم تنعقد الخلافة * وقال سليمان بن جرير واجب على الناس كلهم معرفة الامام بعينه واسمه ، كما عليهم معرفة الله ومعرفة رسوله ، والذى عليه جمهور الناس أن معرفة الامام تلزم المكافة على الجملة دون التفصيل «(٢٢٥) والذى أثار هذه المسألة الشيعة : فهم يوجبون أن يعرف الامام باسمه وعينه ، ويعتبرون ذلك من أصول الايمان * ولكن جمهور أهل السنة يقولون أن الذى يلزم كافة الأمة هو معرفة افضاء الخلافة الى مستحقها بصفاته ، فى حين يجب على أهل الاختيار ، وكما تقدم ذلك — المعرفة الكاملة ، ولأن بيعتهم تنعقد الخلافة ، وتعليل الماوردى لذلك كالاتى : « ولو لزم كل واحد من الامة أن يعرف الامام

(٢٢٤) المسامرة بشرح المسامرة لابن أبى شريف وجه ورقة ٦٨ *

(٢٢٥) الاحكام السلطانية للماوردى ص ١٢ *

بعينه وأسمه للزمت الهجرة اليه ، ولما تخلف الأبعاد ، والأفصى ذلك الى خلو الاوطان » •

ما الحكم اذا خلع الامام نفسه :

واذا خلع الخليفة نفسه ، انتقلت الى ولى عهده ، وقام خلعهم مقام موته • ولو عهد الخليفة الى اثنين لم يقدم أحدهما على الآخر جاز ، واختار أهل الاختيار أحدهما بعد موته كأهل الشورى فان عمر رضى الله عنه جعلها في ستة (٢٢٦) • فخلع الخليفة لنفسه جائز ، ويقوم هذا الخلع مقام الموت ، وتنتقل الامامة الى غيره بالاختيار ، عن طريق ممثلى الشعب ، وهم أهل الحل والعقد ، فالاختيار هنا يكون شوريا وهذا ما فعله عمر رضى الله عنه •

أهمية الخلافة في الاسلام :

ينكر قليل من العلماء — ومنهم الأستاذ على عبد الرازق — على الاسلام أنه نظام يجمع بين الشئون الدينية والمدنيوية ، وأن الشرع الاسلامى يوجب تنصيب حاكم عام (الخليفة) للامة • والحق أن هناك ما يشبه الاتفاق على ضرورة وجود حاكم قوى يتولى مأمورية الحكم فى الدولة • وقد أدى الاختلاف بين المذاهب الاسلامية السياسية حول موضوع الخلافة الى تكوين مختلف الفرق والأحزاب (٢٢٧) وبحيث نتج عن بحوث هذه الفرق والأحزاب ، المتعلقة بالخلافة ، علم جديد هو علم الامامة أو النظريات السياسية الاسلامية • ولعل هذا هو ما قصده الامام الشهرستانى بقوله فى (الملل والنحل) « (٢٢٨) » وأعظم خلاف بين الأمة

(٢٢٦) المصدر السابق ص ٩ •

(٢٢٧) راجع : المذاهب السياسية الاسلامية (من مجموعة الالف كتاب)

للاستاذ الشيخ محمد أبو زهرة ص ٣١ •

(٢٢٨) الملل والنحل ج ١ ص ٢١ — ٢٢ •

خلاف الامامة ، اذ ما سل سيف في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة •

اتفق فقهاء الاسلام على وجوب الخلافة ، وأن ولاية أمور الناس من فروض الكفايات ، كالجهاد في سبيل الله ، وطلب العلم ، فاذا قام بتلك الفروض (الواجبات) من هو من أهلها من الأمة الاسلامية سقط فرضها على الكافة ، وهذه الولاية (ولاية حكم الناس) من أعظم واجبات الدين وأهمها قاطبة ، ولولاها لتعطلت شرائع الدين وبطل العمل بها ، واختل نظام المسلمين • ويوجب الامامة أهل السنة جميعا ، والمعتزلة والخوارج ، باستثناء عدد قليل من أولئك وهؤلاء • وهذا أيضا هو رأى الشيعة ، الا أن لهم وجهة نظر خاصة في فهم هذا الوجوب للخلافة •

يقول الأستاذ على عبد الرازق في كتابه (الاسلام وأصول الحكم) معبرا عن نتيجة من النتائج التي انتهى اليها بحثه ، ما نصه :
« والحق أن الدين الاسلامي برىء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون ، وبرىء من كل ما هيأوا حولها من رغبة ورهبة ، ومن عز وقوة • والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية ، كلا ولا القضاء ولا غيرها من وظائف الحكم ومراكز الدولة • وانما تلك كلها خطط سياسية صرفة ، لا شأن للدين بها فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ، ولا نهى عنها ، وانما تركها لنا لنرجع فيها الى أحكام العقل ، وتجارب الأمم وقواعد السياسة » (٣٣٩) •

وليس القرآن وحده هو الذي أهمل تلك الخلافة ولم يتصد لها ، بل السنة كالقرآن أيضا قد تركتها ولم تتعرض لها • الخ (٣٣٠) •

وهذا الرأى الذي توضحه هذه المقتطفات ، فيما يختص بوجوب تعيين الحاكم الاعلى للامة شرعا ، يؤكدده الاستاذ على عبد الرازق في أكثر

(٢٢٩) الاسلام واصول الحكم لعلى عبد الرازق ص ١٠٣ •

(٢٣٠) راجع : المصدر انساب ص ١٣ - ١٦ •

من موضع من كتابه ، بل يكاد أن يكون هو موضوع البحث كله والذي ينتهي منه الى أن الاسلام لم يجبذ أن يقيم المسلمون اماما حاكما للأمة كلها ، وتتضح أيضا من كتابه أن اقامة الشعائر الدينية والأحكام الشرعية لا يتوقف في شيء على وجود الخلافة أو الامامة •

ولعل آراء الماوردي وآراء غيره التي سبق أن قدمناها في أول هذا الفصل والتي تدور كلها حول ضرورة وجود حاكم قوى يتولى أمور المسلمين ، تشكل ردا مقنعا على آراء الأستاذ عبد الرزاق •

يقول الماوردي في مؤلفه (الاحكام السلطانية) ما نصه : « الامامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن قام بها في الأمة واجب بالاجماع » (٣٣١) ويذهب الماوردي أيضا الى أن مما تصلح به الدنيا السلطان القاهر العادل ، فهو الذي تتألف بسلطته الأهواء المختلفة ، وتجتمع بهيئته القلوب المتفرقة ، وتنكف بسطوته الأيدي المتغالبية ، وتنقمع من خوفه النفوس المتعادية ، لأن في طباع الناس من حب المغالبة والمنافسة على ما آثروه ، والقهر لمن عاندوه ، ما لا ينكفون عنه الا بمانع قوى ، ورادع ملى (٣٣٢) •

وهناك آخرون يلتقون مع الماوردي مؤكدين بذلك وجهة نظره في ضرورة الامامة ووجوب نصب الخليفة ، ونخص منهم على وجه التحديد ابن خلدون في مقدمته الشهيرة ، وأبى يعلى الفراء في كتابه (الاحكام السلطانية) ، وصاحبى المسائرة والمسامرة الكمالان بن الهمام وابن أبى الشريف ، وابن حزم الأندلسي في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ، وابن تيمية في كتابه (السياسة الشرعية) •

(٣٣١) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٣ .

(٣٣٢) ادب الدنيا والدين للماوردي ص ١٢٠ .

وقد قام بالرد العلمى الوافى على آراء الأستاذ عبد الرازق فى كتابه (الاسلام وأصول الحكم) عالمان فاضلان هما الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر سابقا فى كتابه القيم (نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم) ، والاستاذ المفتى الشيخ محمد بخيت المطيعى فى كتابه (حقيقة الاسلام وأصول الحكم) ، وكان هدفهما فى ردهما تجلية الحق وتوضيح الرأى اليقين .

وهناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التى توجب « الامامة » ، واقامة حاكم أعلى للدولة تجب طاعته . ان فى آية (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) . لدليلا واضحا على ما نقول ، وقد ذكر كثير من رجال التفسير الاعلام أن المراد بأولى الأمر لنا الخلفاء والأمراء .

وهذا هو الامام ابن جرير الطبرى يذكر فى تفسير هذه الآية قول من قالوا بأن المراد بأولى الأمر هم السلاطين ، ومن ذهبوا الى أنهم هم أهل الفقه والدين ، ومن ذهبوا الى أنهم هم العلماء ، ثم قال : « وأولى الأقوال ذلك بالصواب قول من قال هم الأمراء والولاة ، لصحة الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان طاعة وللمسلمين مصلحة » (٢٣٣) .

وكذلك الامام فخر الدين الرازى يقول فى تفسيره الكبير بعد أن ذكر هذه الآية من سورة النساء : أعلم أنه تعالى لمسا أمر الرعاة والولاة بالعدل فى الرعية (أى فى الآية السابقة لتلك الآية من السورة نفسها) أمر الرعية بطاعة الولاة . ولهذا قال على بن أبى طالب رضى الله عنه ، حق على الامام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدى الأمانة ، فاذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا .

ثم أشار بعد ذلك الى أن بعض المفسرين ذكر أن المراد بأولى الامر هم الخلفاء الراشدون وأمراء السرايا ، وأهم العلماء الذين يفتون بالأحكام الشرعية ويعلمونهم دينهم • ثم أشار أخيرا ، الى أن حمل «أولى الأمر» على الأمراء والسلطين أى بصفة عامة ، لا من كانوا في عهد الرسول فقط — أولى بالقبول ، ما داموا « لا يأمرون الا بما هو طاعة ومصلحة » (٢٣٤) •

ومن الأحاديث الشريفة التى تبين حرص الاسلام على وجود الرياسة حيث يوجد العمل الذى يحتاج الى تدبير وإدارة ، قوله صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته » (٢٣٥) وقوله صلى الله عليه وسلم « من مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » (٢٣٦) وهذا يدل على وجوب المبايعة للخليفة ، وقوله صلى الله عليه وسلم « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد ، يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه » (٢٣٧) ومن هذه الأحاديث ، حديث ابن أبى مریم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين ، فاحتجب دون حاجتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة » ، أخرجه أبو داود والترمذى فى قصة ابن أبى مریم مع معاوية • ومنها أيضا قوله صلى الله عليه وسلم : « من بايع اماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه أن استطاع فان جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » فهذه الأحاديث وغيرها تدل دلالة صريحة على وجود أمراء للمسلمين وأئمة لهم

(٢٣٤) راجع الكشف ١/٣٧٠ نقلا عن : نظام الحكم فى الاسلام . د . محمد يوسف موسى ص ٢٨ .

(٢٣٥) راجع البخارى فى صحيحه .

(٢٣٦) رواه مسلم فى صحيحه .

(٢٣٧) رواه البخارى فى صحيحه .

وولاية (٢٣٨) • ومن أقوال السلف المصالح نور دقول أبي بكر عقب وفاة الرسول:
أن محمدا مضى بسبيله ، ولا بد لهذا الدين ممن يقوم به وقول عمر بن
الخطاب : « لا اسلام الا بجماعة ولا جماعة الا بامارة ، ولا امارة
الا بطاعة » •

ومن المفكرين الذين ينكرون على الاسلام عنايته بأى نظام للحكم
وبالتالى اشارته الى موضوع الخلافة الدكتور طه حسين فى رسالته عن
فلسفة ابن خلدون الاجتماعية حيث يقول : (٢٣٩) « ولم يشر القرآن
ولا السنة — اذا استثنينا آراء الشيعة — باشارات واضحة الى موضوع
الخلافة ، بل يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم أثناء مرضه طلب عمر
ما يكتب عليه ليمليه وصيته يتقى بها المؤمنون كل حيرة فأبى عمر معتقدا
أن النبى كان متأثرا من الحمى وأن القرآن بكماله يجب أن يكفى لارشاد
المسلمين وليس لنا أن نبحث هنا فى قيمة هذا الحديث فقد كذبه بعض
العلماء ولكن صدقه معظمهم وكان ابن خلدون من المصدقين لان البخارى
(٨١٠ — ٨٧٩ م) قد رواه » •

(٢٣٨) راجع : حقيقة الاسلام واصول الحكم للشيخ محمد بخيت المطيعى
ص ٤٧ :

وراجع أيضا : قول الشيخ فى (القول المفيد على الرسالة المسماة
وسيلة العبيد فى علم التوحيد ص ١٠٠) : ونصب الامام « يتوقف عليه اظهار
الشعائر الدينية وصلاح الرعية ، وذلك كالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ،
الذين هما فرضان بلا شك . . وبدون نصب الامام لا يمكن القيام بهما . . واذا
لم يتم بهما أحد لا تنتظم الرعية ، بل يقوم التهاوب فيما بينهم مقام التواهب ،
ويكثر الظلم ، وتعم الفوضى ، ولا تفصل الخصومات التى هى من ضروريات
المجتمع الانسانى ، ولا شك أن ما يتوقف عليه الفرض فرض ، فكان نصب
الامام فرضا كذلك . . ومثل الامر والنهى فى التوقف على نصب الامام
الكليات الست التى تجب المحافظة عليها بالزواج والحدود التى بينهاها
الشارع لا بغير ذلك . . والكليات الست هى حفظ الدين . . وحفظ النفس . .
وحفظ العقل . . وحفظ النسب . . وحفظ المال . . وحفظ العرض » ١٠ هـ .

والمهم هو أن نقرر أن المسلمين عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وجدوا أنفسهم بلا قانون دستوري ، واضطرتهم طبيعة الأمور أن يختاروا من تلقاء أنفسهم رئيساً لهم *** » ♦

ويتابع الدكتور طه حسين رأيه قائلاً : « وإذا لم تكن ثمة نصوص واضحة يقرها المسلمون فقد كان لكل انسان أن يرى في الخلافة رأياً يستمد من الدين ذاته ، وأن يعلنه بل يقاتل في سبيل تأييده إذا لم يكن سواد المجتمع قد اعتنق رأياً آخر ، إذ في تلك الحالة لا يتسنى لامرئ أن يقاتل تأييداً لرأيه ، وإنما يستطيع أن يحتفظ به وأن يدعو إليه *** » ♦

ونورد هنا أيضاً ، قول الأستاذ الشيخ محمد الخضر الحسين وهو يوضح حرص الدين الاسلامي على وجود الرياسة أو نظام الخلافة : « وتقرير الاجماع في قضية الخلافة الذي لا يزال علماء الاسلام يلهجون به جيلاً بعد جيل ، أن الصحابة رضی الله عنهم عقب انتقال صاحب الرسالة صلوات الله عليه الى الرفيق الأعلى وقبل مواراة جثته الشريفه في قبره الكريم بادروا الى الائتثار بتعيين الامام ولم يجز بينهم خلاف في حكم اقامته وإنما تنازعوا في مبدأ المفاوضة شيئاً قليلاً في اختيار الشخص الكافي لهذا المنصب ثم تضافروا على مبايعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ومن تخلف عن المبايعة لم يذهب الى الخلاف في وجوب نصب الامام وإنما هي الموجدة لعدم ايثاره بالاماره أو لانجاز المبايعة دون حضوره وقبل أخذ رأيه في جملة المؤتمرين ، وكذلك كان شأنهم في الاهتمام بأمر الخلافة لعهد سائر الخلفاء الراشدين فمن بعدهم ، ومن يتخلف عن بيعة خليفة فلعذر يرجع الى عدم وفاقه على بيعة الشخص المعين ، ولم ينقل عن أحد أنه توقف في وجوب نصب الأمير العام أو قال ليس بنا حاجة الى تلك الخلافة لأمر ديننا ولا الأمور دنيانا » (٢٤٠) ♦

(٢٤٠) نقض كتاب الاسلام واصول الحكم للشيخ محمد الخضر حسين

ومن الواضح ان الاسلام عنى بمشكلات الحكم ، بل ان نظام الحكم جزء من التفكير الاسلامى وتراثه الخالد ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم باشر سلطات سياسية متعددة كولاية الجهاد والحروب ، وعقد المعاهدات واقامة الحدود • ويؤكد الامام محمد عبده فى كتابه (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) ضرورة وجود قوة أو امام حاكم لاقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضى وحسن نظام الجماعة • ويتضح لنا أيضا ان القرآن والسنة يفرضهما علينا اطاعة الحكام والولاء العادلون ممن يرعون شئون الرعية ، ويسهرون على خدمتها ، وينتصفون للمظلومين من الظالمين ، ويعملون على استيفاء الحقوق من الممتنعين وايفاءها على المستحقين ، فلذلك كان من الواجب علينا شرعا اقامة حاكم أعلى للدولة ، وهو ما يؤكد الماوردى — من مسئولياته حسن اختيار من يعاونه من الحكام والولاء الآخرين •

ونخلص من كل ما تقدم الى القول بأن ولاية الناس من أعظم واجبات الدين ، ولا قيام للدين الا بها ، ولا بد للناس عند اجتماعهم من رأس حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » (رواه أبو داود من حديث أبى سعيد وأبى هريرة) • كما يقول الحديث النبوى الشريف : « ان أحب الناس الى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا امام عادل ، وأبغض الناس الى الله وأبعدهم منه مجلسا امام جائر » •

الفصل الثالث

بين الحاكم والمحكوم

- ١ - الانسان ، عند الماوردى ، مدنى بطبعه .
- ٢ - العقد الاجتماعى عند الماوردى : -
الامة هى الأصل فى عقد الامامة
- ٣ - البيعة عقد اجتماعى
- ٤ - واجبات الحاكم
- ٥ - الأشياء التى تستوجب عزل الامام عن الحكم .
- ٦ - العقد الاجتماعى عند كل من هوبز ، ولوك ، وهيوم ،
وروسو : -
- ٧ - هوبز
- ٨ - لوك
- ٩ - هيوم
- ١٠ - روسو
- ١١ - نتيجة هامة : سبق الماوردى للوك وروسو فى تقريره ضرورة
قيام السلطة الحاكمة برضى المواطنين .

الانسان عند الماوردى مدنى بطبعه :

اذا كنا سنلاحظ هنا اتفاقا واضحا بين فكر الماوردى وفكر أرسطو ، حيث نجد أن الانسان عند كليهما مدنى بطبعه ، فاننا سنلاحظ أيضا أن الماوردى بقوله وتقريره ان الانسان اجتماعى بطبيعة يخالف فى ذلك مخالفة صريحة ما يذهب اليه هوبز من أن الانسان ليس مدنيا بطبعه ، بل ان الخوف هو الذى يدفع الانسان الى الاجتماع بغيره ، ولا شيء غير ذلك •

يقول الماوردى فى ذلك « أعلم أن الله تعالى لنافذ قدرته ، وبالسبح حكمته ، خلق الخلق بتدبيره ، وفطرهم بتقديره ، فكان من لطيف ما دبر ، وبديع ما قدر ، أن خلقهم محتاجين ، وفطرهم عاجزين ، ليكون بالغنى منفردا ، وبالقدرة مختصا ، حتى يشعروا بقدرته أنه خالق ، ويعلموا بغناه أنه رازق ، فنذعن (نسرع اليها) بطاعته رغبة ورهبة ، ونقرر بنقصنا عجزا وحاجة •

ثم جعل الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان ، لأن من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه ، والانسان مطبوع على الافتقار الى جنسه ، واستعانتته صفة لازمة اطبعه ، وخلقته قائمة فى جوهره ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « وخلق الانسان ضعيفا » ، يعنى : عن الصبر عما هو اليه مفتقر ، واحتمال ما هو عنه عاجز • ولما كان الانسان أكثر افتقارا اليه ، والمفتقر الى الشيء عاجز عنه • وقال بعض الحكماء المتقدمين : استغناؤك عن الشيء خير من استغناؤك به •

وانما خص الله تعالى الانسان بكثرة الحاجة ، وظهور العجز نعمة عليه ولطفا به ، ليكون ذل الحاجة ، ومهانة العجز ، يمنعانه من طغيان الغنى ، وبغى القدرة ، لأن الطغيان مركوز فى طبعه اذا استغنى ، والبغى مستول عليه اذا قدر ، وقد أنبأ الله تعالى بذلك عنه ، فقال :

« كلا ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى » ، ثم ليكون أقوى الامور شاهدا على نقصه ، وأوضحها دليلا على عجزه •

ولما خلق الله الانسان ماس الحاجة ، ظاهر العجز ، جعل لنيل حاجته أسبابا ، ولدفع عجزه حيلة ، دل عليها بالعقل ، وأرشده اليها بالفتنة • قال الله تعالى : « والذى قدر فهدى » ، وقال مجاهد ، قدر أحوال خلقه ، فهدى الى سبيل الخير والشر • وقال ابن مسعود في قوله تعالى : « وهديناه النجدين » : يعنى المطريقين : طريق الخير ، وطريق الشر • (١)

ومعنى ذلك أن الانسان اجتماعى بالطبع ، خلق ليعيش فى مجتمع تربط أفراد بعضهم ببعض روابط معينة ، وتربطه بغيره من المجتمعات روابط أخرى معينة • والانسان معروف — رغم ما فيه من صفات طيبة — بنزوعه نحو العنف ، والرغبة فى السيطرة ، مما يجعل الضعيف فريسة للقوى ، والفقر طعمة للغنى • ومن هنا ، أيضا ، تنتزع الحاجة الى وجود حكومة فى كل مجتمع بشرى تأخذ من القوى للضعيف ، وتكون رسالتها الأساسية تحقيق العدالة والتوازن بين أفراد المجتمع بعضهم وبعض من ناحية • وبينهم وبين الحكومة نفسها من ناحية أخرى ولولا السلطان لما قدر العالم على نشر علمه ولا الحاكم على انفاذ حكمه ولا العابد على عبادته ولا الصانع على صناعته ، ولا التاجر على تجارته ولا انقطعت السبل وتعطلت الشغور وظهرت المصائب والتسور ولكن من لطف الله تعالى بعباده ورأفته ببلاده أجرى عادته وحكمته فى كل زمان أن ينصب لبريته فى الأرض سلطانا لينصف المظلوم من الظالم ، ويردع أهل الفساد عن المظالم ويصنع للرعية جميع المصالح ويقابل كل أحد بما يستحقه من صالح وطالح • (٢)

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ١١٦ — ١١٧ •

(٢) النفع الغزير فى صلاح السلطان والوزير للشيخ احمد الدمنهورى المتوفى ١١٩٢ هـ — مخطوط — ص ٤٦ — ، وراجع مخطوط الشيخ احمد الفيومى : حسن السلوك فى آداب الملوك ص ١٦ — ١٩ •

وهذا الذى يقرره الماوردى من أن الانسان اجتماعى بالطبع ، وأنه يصعب عليه العيش منفردا ، بل لابد من اجتماعه وتعاونه مع غيره من أفراد المجتمع الآخرين من أجل صوالحهم جميعا ، يتفق فيه مع الماوردى كثيرون ونخص منهم بالذكر أرسطو ، فالانسان عند أرسطو مدنى بالطبع ، ويقول فى ذلك : « ومن لا يستطيع الائتلاف ، أو ليس بحاجة الى شىء لاكتفائه بذاته ، لا يمت الى الدولة بصلة • وهو وحش أو اله » (٣) • ويذهب ابن تيمية أيضا فى هذا الصدد الى أن : « كل بنى آدم لا تتم مصلحتهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة الا بالاجتماع والتعاون والتناصر • فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم ، والتناصر لدفع مضارهم • ولهذا يقال الانسان مدنى بالطبع • فاذا أجمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة وأمر يجتنبونها لما فيها من المفسدة ، ويكونون مطيعين للأمر بتلك المقاصد • والناهى عن تلك المفاصد » (٤) ويقرر الفاربى أيضا هذه الحقيقة فيقول : « كل من الناس مفطور على أنه محتاج فى قوامه وفى أن يبلغ أفضل كمالاته الى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده ، بل يحتاج الى قوم يقوم له كل واحد منهم بشىء مما يحتاج اليه • • فلذلك لا يمكن أن يكون الانسان ينال الكمال الذى لأجله جعلت له الفطرة البيعية الا باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج اليه فى قوامه » (٥) • ويقول الفاربى ، بعد ذلك ، فى موضع آخر « والانسان من الأنواع التى لا يمكن أن يتم لها الضرورى من أمورها ، ولا ينال الأفضل من أحوالها الا بالاجتماع » (٦) •

(٣) السياسيات لأرسطو للاب أوغسطينيس برباره بيروت سنة ١٩٥٧ ص ١٠ •

(٤) الحسبة فى الاسلام أو وظيفة الحكومة الاسلامية لابن تيمية ص ٣

(٥) آراء أهل المدينة الفاضلة لآبى نصر الفارابى • الطبعة الثانية ١٩٠٧ م ص ٦٠ •

(٦) السياسات المدنية (ضمن مجموعة) للفارابى ص ٣٨ •

العقد الاجتماعي عند الماوردي :

والامامة ، التي هي عند الماوردي من أجل حراسة الدين وسياسة الدنيا ، هي عقد مبايعة بين من يقوم بها من أهلها ، وبين أهل الحل والعقد من الأمة الإسلامية على أن يقوم فيهم بحراسة دينهم وسياسة دنياهم على وفق ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله أو ما استمد منهما من إجماع أو قياس صحيح بحيث لو لم يحصل هذا العقد بين الامام والرعية يقع في الحرج والاثم فريقان أحدهما أهل الاختيار وهم أهل الحل والعقد ، ولا يخرجون عن ذلك الا بأن يختاروا اماما للأمة وثانيهما من يكون أهلا للامامة حتى ينتصب من الأمة أحدهم للامامة ويقبل البيعة على شرطها ، وليس على من هذين الفريقين من الأمة في تأخير الامامة حرج ولا مأثم .

واختيار الامام هو « المبايعة » من أولى الحل والعقد . أى أن أولى الحل والعقد والجنود وجماهير المسلمين يعطون الامام (الخليفة) عهدا على السمع والطاعة في المنشط والمكره ، مالم تكن معصية ، ويعطيهم العهد على أن يقيم الحدود والفرائض ، ويسير على سنة العدل ، وعلى مقتضى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . والامام بمقتضى هذه « المبايعة » وهي « عقد متبادل » بين الحاكم والمحكومين يتولى اذن الحكم برضا المحكومين . و « هذا العهد على الطاعة يكون للخليفة وحده وليس لزوجته ، وذلك على عكس ما كان يحدث في الدول المسيحية كبيزنطة مثلا : التي كانت تولية الملك الحكم تعنى تولية زوجته معه » (٧) .

والعلاقة بين الامام أو الحاكم من ناحية ، والمرعية من ناحية أخرى هي عقد اجتماعي ، والعقد الاجتماعي نظرية شهيرة ترجع جذورها الأولى

(١٧) تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى للدكتور عبد المنعم ماجد . القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٧ .

الى أيام فلاسفة اليونان ، وقد أفاض في شرحها بعض الفلاسفة والمفكرين مثل هوبز ولوك ورسو وهيوم * والامر عند الماوردى لا يعدو أن يكون عقدا عرفيا ينظم العلاقة بين الحاكم ورعاياه في ظل مجموعة من الحقوق والواجبات المتبادلة بحيث اذا أخل أحد الطرفين بشرط العقد أو أهمل في واجباته نحو الطرف الآخر ، جاز لهذا الطرف الأخير التحلل من شروط العقد * « وقد ذهب (مينجولا) ، وهو داعية بابوى كان يكتب حوالى سنة ١٠٨٠ ، الى أنه » اذا تعدى الملك بأية حالة كانت العقد الذى أختير بمقتضاه ، فانه يحل بذلك الناس من الخضوع » * ، ويبدو أن مبادئ « السياسة » « لارسطو » ، أيدت حق الجماهير ، لا في انتخاب الحاكم فحسب ، بل وفي محاسبته أيضا * . ويكتب القديس توما فى نظام الأمراء *De Regimine Principum* أن الحكومة يؤسسها المجتمع وله أن يعزلها أو أن يحد من سلطتها اذا طغت ، بل انه يضيف ، أن الحاكم الطاغية « يستحق الا تحافظ رعيته على العقد المبرم بينه وبينهم » (٨) *

يقول الماوردى : « ذهب جمهور الفقهاء والمتكلمين الى أن (الامامة) لا تنعقد الا بالرضا والاختيار ، لكن يلزم أهل الاختيار عقد الامامة له ، فان أنفقوا أنموا ، لأن الامامة عقد لا يتم الا بعقد » *

« والامامة من الحقوق العامة المشتركة بين حق الله تعالى وحقوق الآدميين ، لا يجوز صرف من استقرت فيه اذا كان على صفته ، فلم يفتقر تقليد مستحقها مع تميزه الى عقد مستثبت له » (٩) *

ويقول الدكتور طه حسين فى كتابه : « الفتنة الكبرى » (ان أمر الخلافة قام على البيعة ، فأصبحت « الخلافة » عقدا بين الحاكم

(٨) من مقدمة سير (ارنست باركر) لكتاب « العقد الاجتماعى » لوك .

هيوم . روسو ص ٦ — ٧ .

(٩) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٦ .

والمحكومين ، يعطى الخلفاء من أنفسهم أن يسوسوا المسلمين بالحق والعدل وأن يرفعوا مصالحهم ، وأن يسيروا فيهم سيرة النبي ما وسعهم ذلك • ويعطى المسلمون من أنفسهم العهد أن يسمعوا ويطيعوا ، وأن ينصحوا ويعينوا » (١٠) •

الأمة هي الأصل :

ويقول الماوردي بصدد توضيح أن الأمة هي الأصل في عقد الامامة : « فان تنازعاها (أى تنازع اثنان على الامامة أو الحكم) وادعى كل واحد منهما أنه الأسبق لم تسمع دعواه ، ولم يحلف عليها ، لأنه لا يختص بالحق فيها ، وانما هو حق المسلمين جميعا ، فلا حكم ليمينه فيه ولا لنكوله عنه » (١١) •

فالمسلمون هنا ، أو الشعب بمعنى آخر ، هم الذين يتولون اختيار الامام ، وهو الذى يتولى رعاية نسئوهم ، ويتم الاختيار بطريق البيعة الصحيحة الشرعية • ويتولى هذه البيعة نواب الأمة وممثلوها ، وهم أهل الحل والعقد ، ويشترط فى أفراد هذه الجماعة أن يكونوا عدولا ، وأهل علم وخبرة حتى يتسنى لهم أداء المهمة الخطيرة الموكولة اليهم على خير وجه •

ولخطورة المهمة الملقاة على عاتق أهل الاختيار فى اقامة الامام واختياره ، فلقد أشترط أن تجتمع فيهم عدة شروط عليها مدار المشورة وبها تشتمل صواب الرأى • والشروط التى يجب أن تتوافر فى أهل الاختيار هي :

١ — الفطنة والذكاء : لئلا تشتبه عليهم الامور فتلتبس ، فلا يصح مع اشتباها عزم •

(١٠.) الفتنة الكبرى ص ٢٦ •

(١١) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٦ •

٢ — الامانة : لئلا يخونوا فيما ائتمنوا عليه ، ولا يفشون فيما استندحوا فيه •

٣ — الصدق : صدق اللهجة •

٤ — أن يسلّموا فيما بينهم من التحاسد والتنافس ، فان ذلك يمنعهم من الكشف عن صواب الرأي •

٥ — أن يسلّموا فيما بينهم وبين الناس من العداوة والشحناء ، فان العداوة تصد عن التناصف وتحجب عن صواب الرأي •

٦ — أن لا يكونوا من أهل الاهواء ، فيخرجهم الهوى عن الحق إلى الباطل •

٧ — أن يكونوا من كبراء الدولة ومشايخ الأعوان ، لأن المشايخ قد حنكتهم التجارب ، وعركتهم النوائب ، وقد شاهدوا من اختلاف الدلة ماوضح لعقولهم صواب الرأي •

« فأهل الحل والعقد » أو كما يسميهم الماوردي « أهل الاختيار » هم الذين يترك لهم الاضطلاع ، نيابة عن الأمة ، بمسئولية اختيار حاكم الامة ، وهم الذين يوجبون « العقد » ومسئولون أيضا عن اتمامه وانفاذه ، وهم في مباشرتهم لهذه المسئولية . يفعلون ذلك نيابة عن الأمة كلها ، في استعمال ما هو حق أصلي لها ، ولا يعتبرون في ذلك متصرفين في حق من حقوق أنفسهم ، ويقع على أهل الاختيار الاثم اذا قصرت في تأدية مهمة الاختيار احاكم الأمة ، وهذا هو ما ينبغى أن يفهم من قول الماوردي :

« وان لم يقم بها (أى الامامة) أحد ، خرج من الناس فريقان • أحدهما أهل الاختيار حتى يختاروا اماما للأمة • والثانى أهل الامامة حتى ينصب أحدهم للامامة • وليس على من عدا هذين الفريقين من الأمة في تأخير الامامة حرج ولا مأثم • اذا تميز هذان الفريقان من الأمة في

في تأخير الامامة حرج ولا مآثم • وإذا تميز هذان الفريقان من الأمة في فرض الامامة ، وجب أن يعتبر كل فريق منهما بالشروط المعتمدة فيه » (١٢) •

فشرائط الاختيار عند الماوردي ، أو كما يسميهم (البغدادي) : « اهل الاجتهاد » أو كما يقول (النووي) في كتابه : « المنهاج » : « العلماء والرؤساء ووجوه الناس ، الذين يتييسر اجتماعهم » ، نقول ان الصفات النية يجب أن تتوفر في أهل الاختيار عند الماوردي ، هي بلغة عصرية الأخلاق الفاضلة ، والعلم بأحكام هذا المنصب في الدين ، والثقافة والخبرة السياسيتين ، ولا يعتبر باختيار « الامي » ، أو الجاهل غير المثقف ، لأنه أصلا غير قادر على الاختيار •

فعقد الامامة — عند الماوردي — يقوم اذن على اختيار الأمة ، ومبدأ الانتخاب قائم كما هو مسلم به لم يخرج عليه أحد • وعلماء الاسلام جميعا يرون أن يكون اختيار الامام عن طريق المبايعة الصحيحة الحرة • وأن الاختيار لابد أن يظفر بالموافقة العامة ، ولا بد أن يكون تعيين الامام بالمشاورة والرضاء • والاختيار هنا انما يكون لأفضل الرجال وأكثرهم تقوى وورعا وعلما ودراية بأمور الحياة ، وهذا ما يوضحه قول الماوردي :

« فإذا اجتمع أهل الحل والعقد للاختيار ، تصفحوا أحوال أهل الامامة الموجودة فيهم شروطها ، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلا ، وأكملهم شروطا ، ومن يسرع الناس الى طاعته ، ولا يتوقفون عن بيعته » (١٣) •

فالموجب اذن لعقد الامامة عند الماوردي ، وكما اتضح لنا من الادلة السابقة ، أن الطرف الأول لعقد الامامة هو الأمة ، أو كما يعبر عنها

(١٢) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٢ •

(١٣) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٥ •

المأوردى بلفظ « المسلمين » * فالامامة — كما تقدم ذلك في الفصل الاول وبقول المأوردى — « نيابة » عن المسلمين ، وأنها حق الأمة جميعا ، وتنطوى على حقوق لهم ، وما دام قد ثبت لدينا أن « الامامة » هي نيابة أو وكالة عن الأمة فمعنى ذلك أن الأمة من الوجهة السياسية العلمية هي « مصدر السلطات ، وبالتالي فإن كل ما يصدر عن الامام ، وهو رئيس الدولة ، — من سلطات أو ولايات ، فمرجعه الأول ارادتها * وهذه الارادة الشعبية هي التي « توجب » العقد باختيار ، وتمنح حق التصرف في تلك الحقوق باختيار * وهذا العقد ما بين الحاكم والمحكومين ، وهو ما يتم بديمقراطية تامة . هو حجر الأساس في بناء الدولة ، وهو ما يؤكد المأوردى بقوله :

« لأنها (وهي الامامة) عقد مراعاة واختيار ، لا يداخله اكراه ولا اجبار » (١٤) *

البيعة عقد اجتماعي :

يقول ابن خلدون : « البيعة : هي العهد على الطاعة ، لأن المبيع يعاهد أميره على أن يسلم له أمر النظر وأمور المسلمين ، لا ينازعه في شيء من ذلك ، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكروه » (١٥) فالبيعة إذن عقد بين طرفين * * أشبه بما بين البائع والمشتري فالامام طرف ، والجماعة الاسلامية الطرف الآخر * * والخلافة هي موضوع البيع * والعهد الذي يقطعه الخليفة على نفسه هو أشبه بالثمن الذي يبذله المشتري للسلعة ، وأن ما في يد المسلم من حق في اختيار الحاكم هو السلعة

(١٤) المصدر السابق ص ٥ ، وانظر أيضا : نظرية العقد لابن تيمية تحقيق محمد حامد الفقى ص ١٥٣ ، ٢١٩ وخلاصته : أن الاصل في العقود هو رضى المتعاقدين ، واشتراط التراضي : وهو الرضى من الجانبين * .

(١٥) المقدمة لابن خلدون ٧١٩/٢ *

التي يسلمها للمستترى عند قبض الثمن * والخلافة بمفهوم هذا التصور هي حق مشاع بين المسلمين جميعا ، لكل فرد منهم نصيبه على قدم المساواة مع أى فرد آخر ، وكل مسلم حر عاقل بالغ من حقه أن يشهد البيعة وأن يشارك فيها — قبولا أو رفضا — أن يؤدي هذا الحق الى أهله ، ويضعه موضعه * والبيعة بهذا عهد وميثاق بين الذين بايعوا للخليفة ، وبين الخليفة الذي قبل هذه البيعة ، ويترتب على هذه البيعة حقوق وواجبات لكلا الطرفين * فالمرشح يعطى العهد على نفسه بأن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، وأن يقيم العدل بين الناس ، وينتصف للمظلوم من ظالمه ، ويقيم الحدود ، ويدافع عن الوطن ، ويأخذ لنفسه السمع والطاعة ممن أعطاهم هذه العهود * والجماعة المبايعة تعطى للخليفة السمع والطاعة ، وتأخذ لنفسها منه العدل في الحكومة ، والقيام على أمور الدين ، وغير ذلك مما يبذل من عهود *

والبيعة عقد وكالة . ويؤيد ذلك المرحوم محمود فياض حيث يقول :
« واذن فالبيعة هي عقد وكالة بين الامة وحاكمها المنتخب من أفرادها
المستؤل عنها » (١٦) *

فالمبايعون هنا هم أفراد من الامة ، وليست الامة كلها هي التي تباع ، أو تتعاقد مع الحاكم الذي تقيمه عليها ، وهؤلاء الافراد هم أهل الحل والعقد في الامة أو « أهل الاختيار » كما يسميهم الماوردي *

ويقول الاستاذ محمود فياض أيضا بصدد البيعة وعقد الوكالة :
« وهو — أى عقد البيعة — عقد مؤقت مشروط ، فهو خاضع لرقابة
الاصيل ، فان رأى الوكيل ملتزما للشروط المحددة ورأى استمرار العقد

(١٦) الفقه السياسى عند المسلمين للاستاذ محمود فياض (سلسلة
الثقافة الاسلامية) ص ٢٦ .

لصالحه أبقى الوكيل ان شاء ♦♦ فان رأى الوكيل قد جانب الشرط وخرج من العهدة عزله ان شاء ♦♦ اذا لم يعزل هو نفسه » ♦

ثم يقول : « لهذا اتفق فقهاء الاسلام على أن الحاكم وكيل عن الامة خاضع لرقابتها ، ولها عليه سلطان التولية والعزل والتوجيه » ♦

« ولكل فرد من أفرادها حق أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وهى — الامر بالمعروف والنهي عن المنكر — السلطة الكبرى التى جعلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم كما يقول الاستاذ « محمد عبده » فى كتابه « الاسلام والنصرانية » (١٧) ♦

ثم يتابع الاستاذ محمود فياض حديثه قائلاً : « ومما يقطع بصحة فكرة وكالة الحاكم عن الأمة وخضوعه لرقابتها وسلطانها ، أن جميع الفقهاء اعتبروه واحدا من أفراد الامة فى كل تصرفاته ، وألزموه بمثاله وجنباياته ، فهو يؤخذ بالقصاص اذا قتل عامدا أو ظالما ، ويلزم بالاموال التى يتلفها ، وتقطع يده اذا سرق ، ويحد أو يرحم اذا زنى ♦ ويقول الامام « القفال » من المشافعية — اذا زنى — الخليفة — يقيم عليه الحد من ولى الحكم عنه ، وهو الأمة (١٨) وذلك لأن الاسلام لم يفرد للحاكم أو الامام وضع خاص فى الحياة ، فهو فرد كأى فرد آخر من أفراد الامة ، لا فرق بينه وبين غيره الا بالتقوى ، والعمل الصالح ، والحاكم راع وهو أيضا مسئول عن رعيته ، فالناس عباد الله ، والحاكم أو الخليفة هو الراعى لهؤلاء « العباد » وهو مسئول عن أى تقصير أو اهمال يقع منه » ♦

وقد اتصفت العقود فى الاسلام بالقداسة والجلالة ، وقد أوجب الله الوفاء بها ، ويؤكد ذلك الكثير من الآيات القرآنية والاحاديث الشريفة ♦

(١٧) المصدر السابق ص ٢٦ .

(١٨) المصدر السابق ص ٢٧ .

ومن هذه الآيات ، قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » *
(المائدة : ١) ، وقوله : « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » *
(الاسراء : ٣٤) ، وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان
بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا * ان الله يعلم ما تفعلون
(النحل : ٩١) * ومن الاحاديث قوله عليه الصلاة والسلام : « أربع
من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه
خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا ائتمن خان ، واذا حدث كذب ، واذا
عاهد غدر ، واذا خاصم فجر * رواه الشيخان ، وقوله صلى الله عليه
وسلم : « ان الغادر يرفع له لواء يوم القيامة يقال : هذه غدرة فلان
ابن فلان » ، كما ورد في الصحيحين * ويتضح أنه الى جانب ضرورة
الوفاء بالعقود وعدم الاخلال بشروطها ، أن كل ما يؤثر في حرية الارادة ،
يؤثر أيضا في صحة التعاقد * .

واجبات الحاكم :

يتكلم الماوردي بالتفصيل عن واجبات الخليفة ، تمثيا مع
ما يقره الاسلام من التحدث عن الواجبات أكثر من التحدث عن الحقوق ،
ذلك أنه يقر أن القيام بالواجبات هو السبيل الوحيد لنيل الحقوق * وفي
القرآن يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم
ويثبت أقدامكم » ، « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » ، وغير هذه الآيات
القرآنية كثير في كتاب الله ، وهي توضح بعض ما يجب علينا لله والمجتمع ،
كما نجد فيها أيضا بعض ما تفضل به الله علينا بالخير ووعدنا به ، وسماه
حقوقا لنا في مقابل ما هو واجب علينا من واجبات نؤديها * والذي يلزم
الخليفة (الحاكم) من الامور العامة (الواجبات) عند الماوردي عشرة
أشياء : (١٩)

(١٩) الاحكام السلطانية للماوردي ص ١٢ — ١٣ ، وادب الدنيا
والدين للماوردي ص ١٢٣ . وانظر : الاحكام السلطانية لابن يعلى الفراء ص
١١ — ١٢ ، وايضا : المنهج السلوك في سياسة الملوك — مخطوط —
لعبد الرحمن ابن نصر الشيرازي ص ٣٣ — ٣٥ .

أحدها : حفظ الدين على أصوله المستقره وما أجمع عليه سلف الامة،
فان نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنده أوضح له الحجة وبين له الصواب
وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ، ليكون الدين محروسا من خلال
والامة ممنوعة من ذلك (٢٠) .

الثانى : تنفيذ الاحكام بين المنشاجرين وقطع الخصام بين
المتنازعين حتى تعم الصفة ، فلا يتعدى ظالم ، ولا يضعف مظلوم (٣١) .

الثالث : حماية البيضة والذب عن الحريم ليتصرف الناس في
المعاش وينتشروا في الاسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال (٣٢) .

والدين للماوردى تحقيق الاستاذ مصطفى السقا ص ١٢٣ ، وانظر : الاحكام
السلطانية لابی يعلى الفراء ص ١١ — ١٢ ، وأيضا ، المنهج السلوك
في سياسة الملوك — مخطوط — لعبد الرحمن بن نصر الشيزرى ص ٣٣ — ٣٥

(٢٠) يعلق السيد / محمد رشيد رضا في كتابة (الخلافة) ص ٢٩ على
هذا الواجب بقوله : « (أقول) عبارته في الواجب الاول في منتهى التحقيق
وهو المحافظة على ما أجمع عليه السلف الصالح من الدين واطلاق الحرية
للامة فيما سواه من المسائل الاجتهادية على بعض ، باستشارة العلماء من
اهل الحق والعقد ، ولا سيما اذا لم يكن هو من اهل الاجتهاد في الشرع ، ولقد
كان ائمة الدين يطيعون الخلفاء فيما يخالف اجتهادهم من أمور الحكمة اذا
لم يخالف النص القطعى من الكتاب والسنة ولكنهم لم يطيعوهم في القول بخلق
القرآن لانه من أمور العقائد التى خالفوا فيها السلف » . ويقول السيد
محمد خليل الاسدى في مخطوط له بعنوان : (التيسير والاعتبار ص ٥٤)
« ويجب على الملوك الاجتهاد في الاحكام لما يوافق الاجماع من اهل السنة
والجماعة والاحتياط في الاجتهاد على ما يجب عمله وتعديله من مصالح العباد
والبلاد ودوام التفقد للاحوال واللوازم والغاء الملهوف واعانة المظلوم وردع
الظالم » .

(٢١) ويقول الشيخ على الأيدى في مخطوطته (مسلك السلاطين والملوك
وتحفة الملوك في السلوك) ص ٤٠ : « ومما يجب على الملوك والسلاطين دفع
الظلم عن العباد فثبت الملك والدولة بالعدل » .

(٢٢) البيضة : في اللغة الواحدة من بيض الطير وبيضة الحديد ، وحوزة
كل شيء وهى المراد هنا أى يحمى حوزة الامة وهو ما يسمونه اليوم بالامن
العام (هامش كتاب الخلافة للسيد / محمد رشيد رضا ص ٢٨) .

(م ١٣ — الماوردى)

الرابع : اقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من اتلاف واستهلاك *

الخامس : تحصين الثغور بالعدة المانعة ، والقوة الدافعة حتى لا تظهر الاعداء بغرة ينتهكون فيها محرما أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دما *

السادس : جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة ليقام بحق الله تعالى في اظهاره على الدين كله (٢٣) *

السابع : جباية الفىء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصا واجتهادا من غير خوف ولا عسف *

الثامن : تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير *

التاسع : استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض اليهم من الأعمال ويكله اليهم من الأموال لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة (٢٤) *

(٢٣) ويعلق السيد محمد رشيد رضا في كتابه (الخلافة : ص ٢٩ — ٣٠) على هذا الواجب فيقول : « اراد به القتال العيني والكفائي وانما يجب على كل مكلف اذا استولى العدو على بعض بلاد المسلمين وتوقف دفعه على ذلك والا اكتفى بمن يستفزهم الامام بحسب الحاجة ، والجهاد قد يكون بالمال واللسان ومنه الدعوة الى الاسلام بالبرهان ، وتجب طاعة الامام في التعليم العسكري بنظام القرعة وغيره وعليه ان يعد للاعداء ما يستطيع من قسوة ليقاقلهم بما يقاقلوننا به أو يفوقهم ، ومنه انشاء البوارج والغواصات والطائرات الحربية وأنواع الاسلحة ... الخ ويجب طاعته في ذلك كله بالمال والنفس بنص قوله تعالى (واعدوا لهم ما استطعتم) والخطاب للامة وانما الرئيس هو الذي يوحد النظام فيها . وعلى هذا تكون العلوم والفنون الطبيعية والكيمائية والآلية كلها من الواجبات الكفائية وما لا يتم الواجب المطلق الا به فهو واجب »

(٢٤) ويقول ابن القيم الجوزية : « على الحاكم في اختياره لعسالة الدولة التدقيق في هذا الاختيار دون مراعاة لعوامل المحابة وخلافه : » قال

العاشر : أن يباشِر بنفسه الأمور وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة فقد يخون الأمين ويغش الناصح (٢٥) *

وهذه الواجبات ، بمعنى آخر ، عبارة عن تنفيذ الأحكام ، وإقامة العدل ، وحماية الأموال ، وإقامة الحدود ، وتحصين البلاد والدفاع عنها ضد الأعداء ، وجباية الأموال المستحقة على القادرين ، وتوزيعه الصدقات على المحتاجين ، وحسن الاختيار لمعاونيه ، ومباشرة مشاركة الأمور ، وتصفحه الأحوال عمال الدولة والرعية *

عمر رضى الله عنه من قتل رجلًا على عصابة وهو يجد في تلك العصابة من هو أرضى منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين . والغالب أنه لا يوجد الكامل في ذلك فيجب تحري خير الخيرين ودفع شر الشرين» الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية لابن القيم الجوزية . مطبعة الآداب ، مصر سنة ١٣١٧ به ص ٢١٧ — ٢١٨ .

ويقول الطرابلسي في (معين الحكام ص ١٤) : وإذا أراد الامام تولية أحد اجتهد لنفسه وللمسلمين ولا يحابى ولا يقصد بالتولية الا وجهه الله تعالى » . وفي قول لبعض الافاضل أنه : « ينبغي للملك ان ينظر الى ما قلده الله من أمور الرعية بالاستشراف على أحوالهم وأن يعتمد على رجال من اهل الدين والصلاح والامانة بأن يجعلهم عيونًا له لكشف المظالم وردع اهل المنكر وكف الغواة المتعصبين في الفتن فان ذلك مما تحسن به سيرة الملك » « تذكرة الملوك الى احسن السلوك — مخطوط — لبض الافاضل ص ١٣ — ١٤ .

(٢٥) وفي مخطوط قيم نجد ما يأتى بشأن هذا الواجب : « وإذا كان الاختيار وتفقد الرعايا واجبا فقد تعين ذكر كفيته وهو ينقسم الى قسمين : القسم الاول يتعلق بأحوال الخاص . والقسم الثانى يتعلق بأحوال العام فالامر الخاص متعلق بالخواص ، وهم اولو المراتب والحكام ومن يتقلد الامر عن السلطان فيجب على الملك أن يتفقد أحوال كل منهم وما يتعلق به وما يصدر عنه وما يجب عليه وما يحدث منه فان وجده على السداد شكره وأنعم عليه وان وجده بخلاف ذلك عزله . وأما ما يتعلق بأحوال الرعايا فى القرى والبوادي وأماكن الزروع والآثار فلا بد من التفقد لأحوالهم والتطلع على أخبارهم وما يصدر منهم والنظر فى أمورهم واصلاح شئونهم » التيسير والاعتبار — مخطوط — لمحمد خليل الاسدى ص ٥٧ — ٥٨ .

وهذه الواجبات ، كما أوردتها الماوردي ، قد يدخل بعضها في البعض الآخر ، ولكنها جميعا يمكن ارجاعها الى اقامة الدين وبيانه وأخذ الناس بالنزول على أحكامه وتعاليمه ، وإدارة شئون الدولة بمهارة وبراعة ، كما يتصل بهذه الواجبات واجبات أخرى لعل أوضحها العمل على نشر العلم والمعرفة بكل سبيل ، بما يتضمنه ذلك من احترام العلماء وتكريمهم ، فما أضيع دولة قل علماؤها فانها ينقطع ذكرها عند انقضاء أيامها ، ومن هذه الواجبات أيضا العمل على توفير الحياة الكريمة لجميع أفراد الشعب ، وهذا يكون بما نسميه اليوم التكافل والتضامن الاجتماعي الذي يدعو اليه الاسلام ، ونرى أمثلة كثيرة في الأخذ به في تاريخ الخلفاء الراشدين .

ويذكر السيد محمد رشيد رضا في كتابه (الخلافة) (٢٦) وذلك في معرض حديثه لما يجب على الامام للملة والامة ، أن الماوردي قد بين هذه الواجبات في عشر قواعد كلية لم يذكر منها مسألة المشاورة ، على كثرة النصوص فيها ، واستفاضة آثار الراشدين في الجرى عليها ، اتباعا كما صرح من عمل النبي (ص) . ويقول السيد محمد رشيد رضا (٢٧) :

« وأهم ما يجب على الامام المشاورة في كل ما لا نص فيه عن الله ورسوله ، ولا اجماع صحيحا يحتج به ، أو ما فيه نص اجتهادي غير قطعي ولا سيما في أمور السياسة والحرب المبنية على أساس المصلحة العامة ، وكذا طرق تنفيذ النصوص في هذه الأمور اذ هي تختلف باختلاف الزمان والمكان ، فهو ليس حاكما مطلقا كما يتوهم الكثيرون ، بل مقيد بأدلة الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين العامة والمشاورة ، ولو لم يرد فيها الا وصف المؤمنين بقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) وقوله لرسوله (وشاورهم في الأمر) لكفى ، فكيف وقد ثبتت في الأخبار

(٢٦) الخلافة لمحمد رشيد رضا ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢٧) المصدر السابق ص ٣٠ .

والآثار قولاً وعملاً ، وسبب هذا الأمر للرسول (ص) بالمشاورة في أمر الأمة ، جعله قاعدة شرعية لمصالحها العامة ، فان هذه المصالح كثيرة الشعب والفروع لا يمكن تحديدها وتختلف باختلاف الزمان والمكان فلا يمكن تقييدها » *

وهذه المؤاخذه التي يأخذها السيد محمد رشيد رضا على الماوردي ليس لها محل من الصحة ، وذلك لأن السيد محمد رشيد رضا لم يكلف نفسه عناء الاطلاع على مؤلفات الماوردي الاخرى وخاصة أدب الدنيا والدين ، ونصيحة الملوك ، بل اكتفى بالاعتماد في ذلك على كتاب الماوردي الاحكام السلطانية * والحق ان مسألة المشاورة احتلت عند الماوردي مكانا بارزا في العديد من مؤلفاته * وقد أوجب الماوردي على الحاكم ضرورة مشاورته لاهل الرأي والخبرة في أمور الدولة ، وكما يقول البعض فان الخطأ مع المشورة أصلح من الصواب مع الانفراد والاستبداد *

ويؤكد الماوردي في (مخطوطته : نصيحة الملوك ، ورقة ٤٠) : « أن على الملك (الحاكم) مشاورة أهل الرأي والفضل والعلم والعقل والدين والامانة والعفة والتجربة * * ويقول الله سبحانه وتعالى لنبيه : « وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله » ، ومدح أقواما بذلك فقال : (« وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم » * * * وكان عبد الله ابن المعتز يقول : المشورة راحة لك ، وتعب على غيرك * وفي بعض كتب الهند من وصل عقول العقلاء بعقله استبان بها من الامر مثل الذي يستبين في الظلمة نور المصابيح * ولا يجوز للملك أن يغفل هذه الخلعة ويضرب عنها صفحا مع جلالة موقعه وعلو مرتبته وعظم الحظر في كثير من أموره » * ويذكر الماوردي أيضا (٢٨) ، أن كثيرا من الخلفاء كانوا اذا أحسوا من أنفسهم بعجب أو فظاظة أوتيه أو قساوة سألوا العلماء أن ينصحوهم ويعظوهم وليس يجوز لمن رغب في النصيحة أن يعرضها

على هواه ، بل يجب أن يعرضها ، وهواه جميعا على الحق وما يوجبه العقل .

ويحرص الماوردى أشد الحرص على توضيح فضل المشورة بالنسبة للحاكم فيما يتصل بأمور الدولة الهامة السياسية منها والحربية وخلافه ، وعلى الحاكم أن يستعين في هذه الأمور برأى أهل المشورة الذين تتوافر فيهم صفات الفطنة والذكاء والأمانة والصدق والموضوعية والخبرة والحنكة بتجارب الحياة ، والهدف من وراء كل ذلك هو صلاح حال الدولة ، « وفي نصيحة السلطان نصيحة الكافة ، وفي نصيحة الكافة هداية الى مصلحة العالم بأسره ، ونظام أمور الكل بجملته » (٢٩) .

ونختتم هذه المسألة بقول الماوردى : « اعلم أن من الحزم لكل ذى لب ، الا يبرم أمرا ولا يمضى عزما ، الا بمشورة ذى الرأى الناصح ومطالعة ذى العقل الراجح ، فان الله تعالى أمر بالمشورة نبيه صلى الله عليه وسلم ، مع ما تكفل به من ارشاده ، ووعد به من تأييده ، فقال تعالى : « وشاورهم فى الامر » . قتال قتادة : أمره بمشاورتهم تألفا لهم ، وتطبيبا لانفسهم . وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ، ويتبعه فيها المؤمنون ، وان كان عن مشورتهم غنيا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المشورة حصن من الندامة ، وأمان من الملامة » . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه الرجال ثلاثة : رجل ترد عليه الامور ، فيسدها برأيه ، ورجل يشاور فيما أشكل عليه ، وينزل حيث أمره أهل الرأى ، ورجل حائر بائر ، لا يأتى مرشدا ، ولا يطيع مرشدا » (٣٠) .

(٢٩) نصيحة الملوك للماوردى ورقة ٢ .

(٣٠) أدب الدنيا والدين للماوردى ص ٢٧٣ .

ويتحدث الاستاذ الاكبر الشيخ « محمود شلتوت » عن الشورى
كأساس هام للدولة في الاسلام فيقول : (٣١) *

« أما الشورى فهي أساس الحكم الصالح ، وهي السبيل الى تبين
الحق ، ومعرفة الآراء الناضجة ، أمر بها القرآن ، وجعلها عنصرا من
العناصر التي تقوم عليها ، الدولة الاسلامية ، ففي الكتاب الكريم سورة
عرفت باسم « سورة الشورى » وقد سميت بذلك لانها السورة
الوحيدة التي قررت « الشورى » عنصرا من عناصر الشخصية اليمانية
الحقة ، ونظمتها في عقد ، حياته طهارة القلب بالايمان والتوكل ، وطهارة
الجوارح من الاثم والفواحش ، ومراقبة الله باقامة الصلاة ، وحسن
التضامن بالشورى ، والانفاق في سبيل الله ، ثم عنصر العزة بالانتصار
على البغى والعدوان ، وذلك في قوله تعالى من تلك السورة : « وما عند
الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى « ربهم يتوكلون » والذين يجتنبون
كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا
لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون *
والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون » (٣٢) *

وقد نزل بعد أن أصيب المسلمون في غزوة أحد بما أصيبوا ، أمر الله
لنبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما يطرأ لهم من الشئون
ربطاً للقلوب وتقريراً لما يجب أن يكون بين المؤمنين من حسن التضامن
في سياسة الامور ، وتدبير الشئون ، وذلك قوله تعالى في سورة آل
عمران : فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا
من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر ، فاذا عزم
فتوكل على الله » (٣٣) *

(٣١) الاسلام عقيدة وشريعة : محمود شلتوت . مطبوعات الادارة
العامية للثقافة الاسلامية بالازهر ص ٣٦٨ — ٣٧٠ .
(٣٢) الآيات ٣٦ — ٣٩ من سورة الشورى .
(٣٣) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

ومن هنا كانت الشورى أصلاً في إدارة الشئون الجماعية ، وكان تحرى الحق أو الموافق في المصلحة من ألزم الواجبات على صاحب الامر ، وقد درج على ذلك أصحاب الرسول بعده ، فإن أبو بكر يستشير الصحابة فيما يعرض له من شئون الجماعة ، وكان يأخذ برأى غيره متى بدت آيات الحق فيه ، وكان عمر يجمع كبار الصحابة في عهده ، وكان يمنعهم من الخروج من المدينة لكان حاجته الى استشارتهم •

وكان الاساس في الاستشارة كفالة الحرية التامة في ابداء الآراء ما لم تمس أصلاً من أصول العقيدة أو العبادة • ولم يضع القرآن ، ولا الرسول للشورى نظاماً خاصاً ، وإنما هو النظام الفطرى ، يجمع النبى أو الخليفة من بعده أصحابه ، ويطرح عليهم المسألة ، ويبدون آراءهم فيها ، ومتى أجمعوا على رأى ، أو ترجح عندهم رأى عن طريق الاغلبية ، أو عن طريق قوة البرهان أخذ به وتنفيذ • وإنما ترك هذا الجانب من غير أن يوضع له نظام خاص ، لأنه من الشئون التى تتغير فيها وجهة النظر بتغير الاجيال ، والتقدم البشرى ، فلو وضع نظام فى ذلك العهد لاتخذ أصلاً لا يحيد عنه من يجيء بعدهم ، ويكون فى ذلك التصديق كل التصديق عليهم الايجاروا غيرهم فى نظام الشورى •

فالشورى من الامور التى تركت نظمها دون تحديد ، رحمة بالناس غير نسيان ، توسعة عليهم ، وتمكيناً لهم من اختيار ما يتاح للعقول وتدركه البشرية الناضجة ، وما دام المقصود هو أصل المشورة ، والوصول بها الى قوانين التنظيم العادل التى تجمع الامة ولا تفرقها ، والتسى تعمر وتبنى ، ولا تخرب وتهدم ، فالامر فى الوسيلة سهل ميسور •

وبتقرير القرآن مبدأ الشورى ، قضى الاسلام على عدو الانسانية الفاضلة ومفسدها ، وهو : الاستبداد بالحكم والرأى ، واحتكار التشريع والتصريف والادارة ، وحقق للفرد كرامته الفكرية ، وللجماعة حقها الطبيعى فى تدبير شئونها » •

وقد تحدث أيضا عن واجبات الحاكم عالمان هما ابن طباطبا ، وابن أبي الربيع في كتابه القيم « سلوك المالك في تدبير الممالك ، ونكتفى هنا بحديث (ابن طباطبا) عن واجبات الخليفة أو الملك كما يسميه • يقول (ابن طباطبا) في الحديث عن واجبات الحكم ما يلي :

« على الملك حماية البيضة وسد الثغور وتحصين الاطراف وأمن السواحل وقمع الذعار ، فهذه حقوق تلزم السلطان تجرى مجرى الفروض الواجبة وبهذه الامور تجب لماعته على رعيته ، وعلى الملك الرفق بالرعية والصبر على صادرات هفواتهم ، وردع قلوبهم عن ضعيفهم وانصاف ذليلهم عن عزيزهم واقامة الحدود فيهم واقرار حقوقهم والتسوية في حكمه بين الابدع منهم والاقرب والاذل والاعز • ومما يكفل فضيلة الملك أن تكون قوة الاختيار عنده سليمة لم تعترضها آفة فيكون اختيار الرجال اختيارا فاضلا » • (٣٦)

ويقول الماوردي — بعد أن ذكر الواجبات المفروضة على الحاكم — ما نصه :

« واذا قام الامام بما ذكرناه من حقوق الامة فقد أدى حق الله تعالى فيما لهم وعليهم ، ووجب له عليهم حقان : الطاعة والنصرة ، ما لم يتغير حاله • • » (٣٥) وهذه العبارة هامة جدا ، لأن الماوردي استعملها بلفظ « اذا » وهي أداة شرط ، بمعنى أن الطاعة والنصرة لا تجب على الرعية للحاكم ، الا اذا نهض الامام بالواجبات المفروضة عليه ، فاذا أهمل وقصر فلا طاعة ولا نصرة • • وهذه الصياغة في حد ذاتها توضح أن الماوردي اعتبر العلاقة بين الحاكم ورعاياه عقدا متبادلا • ثم أن سلطة الحاكم ليست مطلقة أبدية ، وانما يراعى في الحاكم شروط معينة ويشترط

(٣٦) كتاب الفخرى في الآداب السلطانية لابن الطقطقي (ابن طباطبا) ص ٣٠ — ٣١ ، وص ٣٥ ، وراجع كذلك : السياسات المدنية (ضمن مجموعة) للفارابي ص ٥٤ •

(٣٥) الاحكام السلطانية للماوردي ص ١٤ ، وأدب الدنيا والدين ص ١٢٣

فيه النهوض بالتزامات محددة ، فإذا أدخل بشرط منصبه أو أهمل في أداء واجباته ، جاز للرعية خلعه ، وذلك لان المأوردى اشترط على الرعية طاعة الحاكم ونصرته « مالم يتغير حاله » •

يقول اذا قام الامام بما عليه من واجبات هي حقوق عليه لله وللأمة، وجب له من الحقوق ما يمكنه من القيام بالمهمة العظمى التي اختارته الأمة لها : « وهذه الحقوق هي طاعته بالمعروف ونصرته فيما يراه ويأمر به وتعيين راتب له يكفيه للمعيشة هو وأهله معيشة كريمة في غير تقتير أو سرف ، وجميع هذه الحقوق يفرضها العقل ، ويؤيدها الشرع وبها جاء القرآن والسنة والآثار الصحيحة » (٣٦) •

فالعقل والشرع يحتمان أن يكون الامام مطاعا ، ومسموع الكلمة من الرعية وأن تهب لنصرته عند حلول الشدائد • ويقول الله تعالى في ذلك : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » ، ومن الاحاديث الشريفة المتفق عليها في هذه الناحية أيضا قوله عليه الصلاة والسلام : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كرهما لم يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » • ذاك ان واجب المسلم في طاعة الحكومة المثلة في شخص الحاكم ليس واجبا مطلقا لا تحده حدود • بل ان له شروطا أشار اليها الرسول ، أولها استطاعة الفرد نفسه أن يفي بالواجبات المترتبة على البيعة • روى عبد الله ابن عمر رضى الله عنه فقال : « كنا اذا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ، يقول لنا : فيما استطعتم » • (رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر) •

ويوجب العقل أن يفرض للامام من مال الأمة ما يمكنه من العيش

(٣٦) نظام الحكم في الاسلام للدكتور محمد يوسف موسى ص ٩٢ •

المريخ هو وأسرته بالمعروف : حتى يتفرغ تماما لخدمة الامة ورعاية مجالها .

روى ابن سعد عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، قالت : لما ولى أبو بكر قال : قد علم قومي أن حرفتى لم تكن لتعجز عن مئونة أهلى ، وقد شغلت بأمر المسلمين وسأحترف للمسلمين فى مالهم ، وسيأكل آل أبو بكر من هذا المال . وروى ابن سعد أيضا أنه لما استخلف أبو بكر جعلوا له ألفين فقال : زيدونى فان لى عيالا وقد شغلتمونى عن التجارة فزادوه خمسمائة . وبعد هذا يقول الراوى : اما أن تكون ألفين فزادوه خمسمائة ، أو كانت ألفين وخمسمائة فزادوه خمسمائة (٣٧) .

الاشياء التى تستوجب عزل الامام عن الحكم :

ونذكر هنا بالتفصيل ما يراه الماوردى فى الاشياء التى يستحق بها الامام العزل والخروج عن الخلافة (٣٨) :

« . . والذى يتغير به حاله فيخرج به عن الامامة شيان : أحدهما الجرح فى عدالته ، والثانى نقص فى بدنه .

فأما الجرح فى عدالته وهو الفسق (٣٩) ، فهو على ضربين : أحدهما ما تابع فيه الشهوة ، والثانى ما تعلق فيه بشبهة . فأما الاول منهما

(٣٧) : الطبقات ٣ / ١٨٤ / ١٨٥ .

(٣٨) : الاحكام السلطانية للماوردى ص ١٤ — ١٩ ، وراجع : رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ٣ / ٤٢٨ — ٤٢٩ ، ومخطوط الجوينى غياث الامم ص ٤٧ — ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٦٠ ، والمسامرة بشرح المسامرة لابن أبى شريف ظهر ورقة ٦٧ ، وأيضا ، الاحكام السلطانية لآبى يعلى الفراء ص ٤ — ٧ .

(٣٩) ويقول السيد رشيد رضا أن (ما ذكره الماوردى من انعزال الامام بالفسق فقد اختلف فيه والمشهور الذى حققه الجمهور أنه لا يجوز تولية الفاسق ، ولكن طرؤ الفسق بعد التولية لا تبطل به الامامة مطلقا وبعضهم فصل : قال السعد فى شرح المقاصد : واذا ثبت الامام بالقهر والغلبة ثم جاء

فمتعلق بأفعال الجوارح وهو ارتكابه للمحظورات واقدامه على المنكرات ،
تحكيماً للشهوة ، وانقياداً للهوى ، فهذا فسق يمنع من انعقاد الامامة
ومن استدامتها •

فاذا طرأ على من انعقدت امامته خرج منها ، فلو عاد الى العدالة
لم يغد الى الامامة الا بعقد جديد • وقال بعض المتكلمين يعود الى
الامامة بعوده الى العدالة من غير أن يستأنف له عقد ولا بيعة ، لعموم
ولايته ولحوق المشقة في استئناف بيعته •

وأما الثانى منهما فمتعلق بالاعتقاد المتأول بشبهة تعترض ، فيتأول
لها خلاف الحق • وقد اختلف العلماء فيها ، فذهب فريق منهم الى أنها
تمنع من انعقاد الامامة ومن استدامتها ، ويخرج بحدوثه منها ، لأنه لما
استوى حكم الكفر بتأويل وغير تأويل ، وجب أن يستوى حال الفسق
بتأويل وغير تأويل •

وقال كثير من علماء البصرة انه لا يمنع من انعقاد الامامة ، ولا يخرج
به منها ، كما لا يمنع من ولاية القضاء وجواز الشهادة •

وأما ما طرأ على بدنه من نقص (وهو الامر الثانى الذى يخرج
به الخليفة من منصب الحكم) ، فينقسم ثلاثة أقسام : أحدها نقص
الحواس ، والثانى نقص الاعضاء ، والثالث نقص التصرف •

فأما نقص الحواس : فينقسم ثلاثة أقسام : قسم يمنع من
الامامة ، وقسم لا يمنع منها ، وقسم مختلف فيه •

آخر فتهره انعزل وصار القاهر اماماً . ولا يجوز خلع الامام (أى الحق)
بلاسبب ، ولو خلعه لم ينفذ ، وان خلع نفسه فان كان لعجز من القيام
بالامر انعزل والا فلا ، ولا ينعزل الامام بالفسق والاغصاء
وينعزل بالجنون والعمى والصمم والخرس وبالمرض الذى ينسيه الغلوم
ص ٢٧٢ ج ٧ نقلاً عن الخلافة لمحمد رشيد رضا ص ٤٠ ، •

فأما القسم المانع منها فشيئان : أحدهما : زوال العقل ، والثاني :
ذهاب البصر .

فأما زوال العقل فضربان : أحدهما ما كان عارضا مرجو الزوال
كالأغماء ، فهذا لا يمنع من انعقاد الإمامة ولا يخرج منها ، لانه مرض
قليل اللبس ، سريع الزوال . والضرب الثاني ما كان لازما لا يرجى زواله
كالجنون ، والخبل فهو على ضربين : أحدهما أن يكون مطبقا دائما
لا يتخلله أفاقة فهذا يمنع من عقد الإمامة واستدامتها ، فاذا طرأ هذا
بطلت به الإمامة بعد تحققه والقطع به . والضرب الثاني أن يتخلله أفاقه
يعود بها الى حال السلامة فينظر فيه ، فان كان زمان الخبل أكثر من
زمان الأفاقه فهو كالمستديم يمنع من عقد الإمامة واستدامتها ويخرج
بحدوثه منها ، وان كان زمان الأفاقة أكثر من زمان الخبل منع من عقد
الإمامة . واختلف في منعه من استدامتها فقليل يمنع من استدامتها كما
يمنع من ابتدائها ، فاذا طرأ بطلت به الإمامة ، لان في استدامته اخلالا
بالنظر المستحق فيه ، وقيل لا يمنع من استدامة وان منع من عقدها في
الابتداء لانه يراعى في ابتداء عقدها سلامة كاملة وفي الخروج منها نقص
كامل .

وأما ذهاب البصر فيمنع من عقد الإمامة واستدامتها ، فاذا طرأ
بحلت به الإمامة لانه لما أبطل ولاية القضاء ، ومنع من جواز الشهادة
فأولى أن يمنع من صحة الإمامة . وأما عشاء الليل فلا يمنع من الإمامة
في عقد ولا استدامة لانه مرض يرجى زواله ، وأما ضعف البصر فان
كان يعرف به الأشخاص اذا رآها لم يمنع من الإمامة ، وان كان يدرك
الأشخاص ولا يعرفها منع من الإمامة عقدا واستدامة .

وأما القسم الثاني من الحواس التي لا يؤثر فقدها في الإمامة
فشيئان : أحدهما الخشم في الأنف الذي لا يدرك به شم الروائح ، والثاني
فقد الذوق الذي يفرق به بين الطعوم ، فلا يؤثر هذا في عقد الإمامة ،
لانهما يؤثران في اللذة ولا يؤثران في الرأي والعمل .

وأما القسم الثالث من الحواس المختلف فيها فحسيان : الصمم والخرس ، فيمنعان من ابتداء عقد الامامة ، لان كمال الاوصاف بوجودهما مفقود ، واختلف في الخروج بهما من الامامة • فقالت طائفة يخرج بهما كما يخرج بذهاب البصر لتأثيرهما في التدبير والعمل • وقال آخرون لا يخرج بهما من الامامة لقيام الاشارة مقامهما • وأما تمتمة اللسان وثقل السمع مع ادراك الصوت اذا كان عاليا فلا يخرج بهما من الامامة اذا حدثا ، واختلف في ابتداء عقدها معهما ، فقليل يمنع ذلك من ابتداء عقدها لانهما نقص يخرج بهما عن حال الكمال ، وقيل لا يمنع لان نبي الله موسى عليه السلام لم تمنعه عقدة لسانه عن النبوة فأولى أن لا يمنع من الامامة •

وأما فقد الاعضاء فينقسم الى أربعة أقسام : أحدها ما لا يمنع من صحة الامامة في عقد ولا استدامة ، وهو ما لا يؤثر فقده في رأى ، ولا عمل ولا نهوض ولا يشين في المنظر ، مثل قطع الذكر والانثيين فلا يمنع من عقد الامامة ولا من استدامتها بعد العقد ، لان فقد هذين العضوين يؤثر في التناسل دون الرأى والحنكة فيجرى مجرى العنة • والقسم الثاني ما يمنع من عقد الامامة ومن استدامتها وهو ما يمنع من العمل كذهاب اليدين أو من النهوض كذهاب الرجلين • والقسم الثالث ما يمنع من عقد الامامة ، واختلف في منعه ومن استدامتها وهو ما ذهب به بعض العمل أو فقد به بعض النهوض كذهاب احدى اليدين أو احدى الرجلين • والقسم الرابع ما يمنع من استدامة الامامة ، واختلف في منعه من ابتداء عقدها وهو ما شان وقبح ولم يؤثر في عمل ولا في نهضة كجدع الانف وسحل احدى العينين ، فلا يخرج به من الامامة بعد عقدها لعدم تأثيره في شيء من حقوقها (٤٠) •

(٤٠) ويمكن الاشارة الى كل ذلك بأن كل ما يؤثر على مقدرة الامام على النظر والرأى والتدبير والعمل من أجل صالح الرعية ، وأن كل ما يشين في المنظر ويتبجح يستحق عليه العزل والخلع •

وأما نقص التصرف فضربان : حجر ، وقهر •

فأما الحجر : فهو أن يستولى عليه من أعوانه من يستبد بتنفيذ الامور من غير تظاهر بمعصية ولا مجاهرة بمشاقة ، فلا يمنع ذلك من امامته ولا يقدر في صحة ولايته ، ولكن ينظر في أفعال من استولى على أموره ، فان كانت جارية على أحكام الدين ومقتضى العدل جاز اقراره عليها • وان كانت أفعاله خارجة عن حكم الدين ومقتضى العدل لم يجز اقراره عليها ، ولزمه أن يستنصر من يقبض يده ويزيل تغلبه •

وأما القهر ، فهو أن يحسب مأسورا في يد عدو قاهر لا يقدر على الخلاص منه فيمنع ذلك من عقد الامامة له لعجزه عن النظر في أمور المسلمين ، وان أسر بعد أن عقدت له الامامة ، فعلى كافة الامة استنقاذه لما أوجبته الامامة من نصرته وهو على امامته ما كان مرجو الخلاص مأمول الفكك اما بقتال أو فداء • فان كان في أسر المشركين خرج من الامامة لليأس من خلاصه ، واستأنف أهل الاختيار بيعة غيره على الامامة • وان كان مأسورا مع بغاة المسلمين ، فان كان مرجو الخلاص فهو على امامته وان لم يرج خلاصه لم يخل حال البغاة من أحد أمرين : أما أن يكونوا نصبوا لانفسهم اماما أو لم ينصبوا ، فان كانوا فوضى فالامام المأسور في أيديهم على امامته ، لان بيعته لهم لازمة وطاعته عليهم واجبة •

وان كان أهل البغي قد نصبوا لانفسهم اماما ، دخلوا في بيعته وانقادوا لاطاعته ، فالامام المأسور في أيديهم خارج من الامامة بالاياس من خلاصه ، وعلى أهل الاختيار في دار العدل أن يعقدوا الامامة لمن ارتضوه لها ، فان خلص المأسور لم يعد الى الامامة لخروجه منها •

ويتفق مع الماوردي علماء المسلمين جميعا ، على أن الامام الذي أصبح مستحقا للعزل لأي سبب كان ، وقد وضحت هذه الاسباب بالتفصيل كما ذكرها الماوردي ، يجب عزله فعلا ان كان هذا ممكنا ، ويتولى أهل الاختيار « أهل الحل والعقد » مقاومة الظلم والجور والانكار على أهله

بالفعل • « ومن يخلعه : قلنا المخلع الهى من اليه العقد • • وقد ذهب بعض الى أننا نشترط الاجماع فى الخلع وان لم نشترطه فى العقد وهذا زل عظيم فان الحاجة قد تزهق الى الخلع ولو انتظر لا تسع الخرق » (٢١) •

وبذلك يؤكد الماوردى أن سلطته الامام ليست مقدسة ، وأنه ليس حاكما مؤلها ، وبالتالي فلسطانه ليس مطلقا ، فاذا اتضح أن الامام لا يؤدي واجبه بالاخلاص أو الكفاءة المطلوبين ، واذا ثبت أيضا عجزه عن ادارة شئون الدولة بسبب العجز البدنى الناجم عن ظروف لا سلطان للفرد عليها (مثل اعتلال فى الصحة أو خلل فى القوى العقلية) ، أو العجز الادبى المعنى بالحديث الشريف « لا طاعة فى معصية ، انما الطاعة فى المعروف » (رواه البخارى ومسلم عن على ابن أبى طالب) جاز للرعية خلعه وابعاده عن الحكم • ولا يفوت الماوردى فرصة أو مناسبة الا ويؤكد أهمية السلطة الشعبية وقوتها فى تنصيب الحاكم وبالتالي خلعه لان الخليفة أصلا وكيل عن الامة فى حراسة الدين والدفاع عنه وتولى مهام ادارة شئون الدولة والخليفة ، بهذا يستمد سلطانه وسيادته من الامة التى يمثلها ، والتى وكلته القيام بمهام منصبه ، فصار أكثرهم تبعات وأثقلهم حملا ومن ثم ليس له أن يستبد بالامر دونهم ، ويزعم أنه لا سلطان فوق سلطانه ، وأنه مصدر القوة والسلطان والسيادة ، فمصدر السيادة اذن هو الموكل الاصيل ، وهو الامة ، لا النائب الوكيل •

ويقول المرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف فى هذا الصدد فى مؤلفه (السياسة الشرعية) : « وهذ الرئاسة العليا مكانتها من الحكومة الإسلامية مكان الرئاسة العليا من أية حكومة دستورية ، لأن الخليفة يستمد سلطانه من الامة المثلة فى أولى الحل والعقد ، ويعتمد فى بقاء هذا السلطان على ثقتهم به ونظره فى مصالحهم • ولهذا قرر علماء المسلمين أن للامة خلع الخليفة لسبب يوجبها ، وان أدى الى الفتنة احتمل أدنى المضرتين » •

ومن الآيات القرآنية التي يستدل منها على أن الامة هي مصدر السيادة ، وليس الخليفة ، وبالتالي فان سلطته ليست مطلقة ، قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » (سورة النساء : ١٣٥) • ويستدل أيضا على سلطة الامة بحديث « لا تجتمع أمتي على ضلالة » أو كما جاء في رواية أخرى : « سألت ربي الا تجتمع أمتي على ضلالة وأعطينيها » وهو في مسند الامام احمد بن حنبل وغيره من دواوين الحديث ، وهذا معناه أنه متى اجتمعت الامة على رأى كان هو الحق ، وكان واجبا الاخذ به ، لانه مصدر ممن له حق السيادة والرياسة •

وكما قدمنا ، لا تخرج العلاقة بين الحاكم ورعاياه عند الماوردي عن كونها عقدا متبادلا ، وهو عقد قائم على الرضا والاختيار ، والخليفة بمقتضى هذا العقد ، عند الماوردي ، ليس له أى صفات من صفات الالهية وليس مقدسا أو معصوما في نظر الرعية ، وليس له الحق وحده في بيان الدين وتفسير نصوصه ، كما هو الحال عند المفكر الانجليزى توماس هوبز ، وليس له سلطة دينية على أحد ، بل هو رجل وثقت الامة بدينه وعدالته فولته امورها يديرها بأمر الله وبمقتضى شريعته •

أما جمهور علماء المسلمين فهم على ما ذكر الاستاذ الامام محمد عبده في كتابه : الاسلام والنصرانية : « الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ، ولا هو مهبط الوحي ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة • • هو على هذا لا يخصه الدين بمزية في فهم الكتاب والعلم بالاحكام ، ولا يرتفع به الى منزلة خاصة ، بل هو وسائر طلاب العلم سواء ، انما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الاصابة في الحكم •

ثم هو مطاع ما دام على الحجة ونهج الكتاب والسنة ، والمسلمون له بالمرصاد ، فاذا انحرف عن النهج أقاموه عليه ، واذا أعوج قوموه بالنصيحة والاعذار اليه • •

فالامة أو نائب الامة هو الذى ينصبه ، والامة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه » (٤٢) •

وبعد ذلك يقول : « ليس فى الاسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعدة الحسنة ، والدعوة الى الخير ، والتنفير عن الشر ، وهى سلطة خولها الله لادنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم كما خولها لأعلاهم يتناول بها أدناهم » (٤٣) •

ويكشف عن تجريد الاسلام الخليفة من كل ظل من ظلال الألوهية موقف الخليفة أبو بكر رضى الله عنه حينما نهى الناس عن أن يسموه خليفة الله فقال : لست خليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله •

وتنفرد الشيعة « الامامية » بموقف خاص وفريد فى هذه المسألة ، فالامام عندهم يتمتع بقوى روحية خارقة ، وهو كالنبي يتمتع بالعصمة ، والامام معصوم من السهو والخطأ والنسيان ، وهو فوق أن يحكم عليه ، معنى هذا أن الامام عندهم فى منزلة فوق منزلة النبي ، فلقد سها النبي صلى الله عليه وسلم بل وأخطأ مجتهدا • والامام هو الهادى لاهل كل زمان ، وهو يحل حلال الله ويحرم حرام الله • والامام يعلم أيضا جميع تفسير القرآن وتأويله وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومنشأه ، وهو لا يفعل شيئا الا بعهد من الله عز وجل وأمر منه لا يتجاوز ، والنبي والائمة — ع حجج الله على الانس والجن ، وأنه ليس شيء من الحق فى أيدي الناس الا ما خرج من عند الأئمة ، بل ان بعض النصوص الشيعية توضح أن الامام اله وليس بشرا يمكن أن يصيب وأن يخطئ ، فيصبح بالتالى لزاما على الرعية تصحيح أخطاءه • ونورد هنا نصوصا توضح ذلك :

(٤٢) الاسلام والنصرانية ص ٦٣ — ٦٥ •

(٤٣) المصدر السابق ص ٦٦ •

« الأئمة عليهم السلام لم يفعلوا ولا يفعلون الا بعهد من الله عز وجل وأمر منه لا يتجاوزونه ، وعلى ذلك يجب على الرعية التسليم للأئمة والرد اليهم ففي حديث عن أبي جعفر عليه السلام قال : « انما كلف الناس ثلاثة معرفة الأئمة والتسليم لهم فيما ورد عليهم والرد اليهم فيما اختلفوا فيه » (٢٤) .

« والنبي والأئمة — ع — حجج الله على الانس والجن ، وأنه ليس شيء من الحق في أيدي الناس الا ما خرج من عند الأئمة (ع) وأن كل شيء لم يخرج من عندهم فهو باطل . وفي حديث عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال : « ليس عنه أحد من الناس حق ولا صواب ولا أحد من الناس يقضى بقضاء الا ما خرج منا أهل البيت واذا تشعبت بهم الأمور كان الخطأ منهم والصواب من على عليه السلام » (٢٥) . وفي (تنزيه الأنبياء للمرئضى علم الهدى) نجد أن النبي والأئمة الاثنى عشرية — ع — أفضل من سائر المخلوقات من الأنبياء والأوصياء السابقين والملائكة وغيرهم .

« ونعتقد أن الامام كالنبي يجب أن يكون معصوما من جميع الرذائل والفواحش ، ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة الى الموت ، عمدا وسهوا . كما يجب أن يكون معصوما من السهو ، والخطأ والنسيان ، لأن الأئمة حفظة الشرع ، والقوامون عليه حالهم في ذلك حال النبي ، والدليل الذي اقتضانا أن نعتقد بعصمة الأنبياء هو نفسه يقتضي أن نعتقد بعصمة الأئمة بلا فرق » (٢٦) .

ويقول السيد المظفر أيضا : « ونعتقد أن الأئمة هم أولو الأمر ، الذين أمر الله تعالى بطاعتهم ، وأنهم الشهداء على الناس ، وأنهم أبواب

(٢٤) الفصول المهمة في اصول الأئمة عليهم السلام للحر العاملي ص

(٢٥) الفصول المهمة للحر العاملي ص ١٥٠ .

(٢٦) عقائد الامامية لحمد الرضا المظفر ص ٥١ .

الله والسبل اليه والأدلاء عليه ، وأنهم عيبة علم الله (العيبة : الحقيقة أو الخرج) وتراجمة وحيه ، وأركان توحيده ، وخزان معرفته ، ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض ، كما أن النجوم أمان لأهل السماء وكذلك ان مثلهم في هذه الأمة كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق وهوى . وأنهم حسبما جاء في الكتاب المجيد عباد الله المكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون . . بل نعتقد أن أمرهم أمر الله تعالى ، ونهيهم نهيه ، وطاعتهم طاعته ، ومعصيتهم معصيته ، ووليهم وليه ، وعدوهم عدوه ، ولا يجوز الراد عليهم ، والراد عليهم كالراد على الرسول ، والمراد على الرسول كالراد على الله تعالى . فيجب التسليم لهم والانقياد لأمرهم والأخذ بقولهم . . ونعتقد أن الأحكام الشرعية الالهية لا تستقى الا من نمر مائهم ولا يصح أخذها الا منهم ، ولا تفرغ ذمة المكلف بالرجوع الى غيرهم ، ولا يطمئن بينه وبين الله الى أنه قد أدى ما عليه من التكاليف المفروضة الا من طريقتهم . انهم كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق في هذا البحر المائج الزاخر بأفواج الشبه والضلالات ، والادعاءات والمنازعات » (٤٧) .

« ويجب على كل مكلف طاعة الأئمة ، ذلك ان الأئمة هم الهداة لأهل كل زمان — وأن الامام يجب أن يكون أعلم وأفضل وأكمل من جميع الرعية ففي حديث طويل عن الرضا (ع) قال :

الامام يحل حلال الله ويحرم حرام الله ويقيم حدود الله ويذهب عن دين الله الى أن قال : الامام المطهر من الذنوب والمبرأ من العيوب المخصوص بالعلم الموسوم بالحلم نظام الدين وعز المسلمين وغيظ المنافقين وبوار الكافرين ، الامام واحد دهره لا يداينه أحد ولا يعادله عالم ولا يوجد منه بدل ولا له مثل ولا نظير مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه ولا اكتساب بل اختصاص من الفضل الوهاب » (٤٨) .

(٤٧) المصدر السابق ص ٥٤ — ٥٥ .

(٤٨) الفصول المهمة في أصول الأئمة عليهم السلام للحر العاملي ص ١٤٢

والأئمة يعلمون جميع تفسير القرآن وتأويله وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ، فرسول الله أفضل الراسخين في العلم قد علمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله ، ومعنى هذا أن النبي والأئمة يعلمون جميع العلوم التي نزلت من السماء . « وعن أبي جعفر (ع) قال : أن العالم الذي نزل مع آدم عليه السلام لم يرفع والعلم يتوارث وكان على عالم هذه الأمة وأنه لم يهلك منا عالم قط الا خلفه من يعلم . مثل علمه أو ما شاء الله » (١٩) .

والشاعر ابن هانئ الأندلسي الشيعي يذهب في تأليه الأئمة والخلفاء الى أبعد مما يذهب اليه فقهاء الشيعة وهو يقول في المعز لدين الله الفاطمي :

ما شئت لا ماشاءت الاقدار	فاحكم فأنت الواحد القهار
أنتم أحبباء الاله وآله	خلفاءه في أرضه الأبرار
شرفت بك الآفاق وانقسمت بك الا	أرزاق والآجال والأعمار
فرضان من صوم وشكر خلافة	هذا بهذا عندنا مقرون

ويقول الدكتور محمد طه بدوي في مؤلفه (القانون والدولة) (٥٠) « اننا لو رجعنا الى مؤلفات ما بعد القرن الخامس الهجري لوجدنا أكثرهم يضع الملوك والسلاطين فوق البشر غير بعيدين من مقام العزة الالهية : من ذلك أنه جاء في خطبة نجم الدين القزويني في أول الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية « فأشار الى من سعد بلطف الحق وامتاز

(٤٩) الفصول المهمة ص ١٤٤ — ١٤٥ ، وراجع أيضا أصول الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني المتوفى سنة ٣٢٨ هـ وهو من زعماء الشيعة ، حيث تجد الكليني يرفع الامام ، أيضا ، الى مرتبة فوق مرتبة البشر : فالائمة ولاية امر الله . شهداء الله على خلقه . . . وهم نور الله على الارض . . . وهم ورثة علم النبي . . . والارض كلها للامام ، وهو الدال على الهدى والمنجى من الردى . (٥٠) ص ١٠٧ — ١٠٨

بتأيينه من بين كافة المخلوق ومال الى جنابه الدانى والقاصى ، وأفلح
بمتابعته المطيع والمعاصى » • وقال قطب الدين الرازى شارح تلك
الرسالة : « حضرة من خصه الله تعالى بالنفس القدسية ، والرياسة
الأنسية • • الملائح من عزته العزاء لوائح السعادة الأبدية ، الفاتح من
همته العليا روائح العناية السرمدية • • شرف الحق والدولة والدين
رشيده الاسلام ومرشد المسلمين » • وفى حاشية ذلك الشرح يقول
عبد الحكيم السيالكونى : « جعلته عراضة لحضرة من خصه الله تعالى
بالسلطة الأبدية وأيده بالدولة السرمدية • • مروج الملة الحنيفة البيضاء ،
مؤسس قواعد الشريعة العراء ، ظل الله فى الأرضين ، غياث الاسلام
والمسلمين عامر بلاد الله خليفة رسول الله ، المؤيد بالتأييد والنصر الربانى •
» ويستطرد المؤلف قائلا : ان أفكارا كهذه نقابلها فى فلسفة هوبز فى القرن
السابع عشر عندما قال بأنه ليس من قانون سوى ذلك الذى يصدر عن
ارادة صاحب السيادة وأن القانون هو كل ما يأمر به ، وهو ما سيتضح ،
أيضا ، فى الجزء الذى كتبناه عن « توماس هوبز والعقد الاجتماعى » •
وعقيدة الشيعة الامامية ، والأفكار الأخرى التى تجاريتها ، تشل
العقل ، وتميت الفكر ، وهى أبعد ما تكون عن ديمقراطية الاسلام
الصحيحة ، التى تجعل للشعب سلطة اختيار الحكام وعزلهم اذا حادوا
عن طريق الخير ، ذلك لأن الخليفة أو الحاكم ما هو الا وكيل عن الشعب
وخادم له ، ويوم لا يقوم الحاكم بواجباته خير قيام أو فى
حالة اخلاله بشروط العقد بينه وبين الأمة التى احتارته ، لا يستحق البقاء
فى الحكم • والمجتمع الاسلامى مجتمع انسانى يقوم على الشورى ،
ويتحرك بارادته ، ويفكر بعقله ، ولا مجال فيه للحكم المطلق أو الاستبداد
بالرأى والانفراد به •

وينكر المارودى على الحاكم أن يدعى لنفسه سلطة على الناس
من دون الله حيث السيادة والسلطان الله وحده ، وينص القرآن على
أن جميع الناس خلفاء الله فى أرضه ، وليس ثمة من أسر أو أشخاص
يصطفيهم الله ، والخافاء اناس ، كسائر البشر ، يقولون بتنفيذ شريعة

الله ، عاملين على اعلاء كلمته في الارض • والخليفة — كما يقول الماوردي — لا يطاع الا حين يأمر بحق وأن عليه أن يخضع الأدنى الناس منزلة ، متى أمره بمعروف أو نهاه عن منكر ، ومعنى ذلك أن الماوردي لا يؤمن بنظرية « الحق الالهى » (droit divine) (للملوك ، وهو بالتالى لا يقيم أى تفرقة بين الحاكم والمحكوم • والماوردي بذلك يختلف اختلافا كبيرا عما يقول به « توماس هوبز » : « من أن كل فرد فى الدولة يجب أن تكون ارادته خاضعة لسلطان الحاكم ، وخضوع الحاكم لأى فرد من أفراد الرعية مخالف لمقتضى الطبيعة ، والنزوع للخروج عن ارادة الحاكم أو ردها يعتبر ثورة وتمردا ، والدين يجب أن يخضع كذلك لارادة الحاكم وتفسيره » (٥١) •

والدين الاسلامى الحنيف يكره من الانسان أن يراه متميزا بين أصحابه ، فالناس جميعا متساوون كأسنان المشط ولا فرق بين انسان وآخر الا بالتقوى والعمل الصالح • وجميع تصرفات الحاكم تخضع للمناقشة روى أن الرسول كان فى سفر فأمر أصحابه أن يعدوا شاة للطعام ، قال أحدهم : يا رسول الله : على ذبحها ، وقال آخر على سلقها ، وقال ثالث : على طبخها • قال الرسول : وعلى جمع الحطب ، قالوا : يا رسول الله ، نكفيك العمل • قال : علمت أنكم تكفوننى ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، ويقول الله سبحانه وتعالى مخاطبا خاتم المرسلين : « قال يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » (آل عمران ٦٤) •

يقول الكواكبي فى طبائع الاستبداد (٥٢) : « بنى الاسلام بل كافة الأديان على لا اله الا الله ، ومعنى ذلك أن لا يعبد حقا سواه أى سوى الصانع الأعظم ، ومعنى العبادة التذلل والخضوع — فيكون معنى لا اله

(٥١) دائرة المعارف الالمانية لمير ج ٩ ص ٣٩١ نقلا عن كتاب : نقض كتاب الاسلام واصول الحكم للشيخ محمد الخضر حسين ص ٢١ .
(٥٢) ص ٣٤ .

الا الله : لا يستحق التذلل والخضوع شيء غير الله ، فهل والمحال هذه يناسب المستبدين أن يعلم عبيدهم ذلك ويعملوا بمقتضاه • كلا ثم كلا • • • ولهذا ما انتشر نور التوحيد في أمة قط الا وتكسرت بها قيود الاسر •

ويقول الأستاذ عباس العقاد : « يقضى الاسلام بانكار أى مذهب يدعى للحاكم سلطة المهية أو سلطة لا رجعة فيها • فان الاسلام يقرر أن النبي بشر ليس له من الأمر شيء ، وكان النبي عليه السلام ينكر على الوالى أن ينتحل لنفسه ذمة الله ، ويقول لمن ولاه أمرا : « اذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، ولا تجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فانكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله ، واذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فأنت لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا » •

وكان الفاروق رضى الله عنه يأبى أن يقال عن رأيه انه مشيئة الله ، وانتهر بعض جلسائه لأنه زعم ذلك فقال : « بئس ما قلت ! هذا ما رأى عمر • ان كان صوابا فمن الله ، وان يكن خطأ فمن عمر • • ولا تجعلوا خطأ الرأى سنة للأمة » •

والذى يبدو لنا أن أقرب الأقوال الى سند السيادة فى الاسلام هو الرأى القائل بأنها عقد بين الله والخلق من جهة ، وعقد بين الراعى والرعية من جهة ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (٥٣) •

والاسلام الذى ينهى عن التفرقة بين بنى البشر ينكر على المنصور ما قاله فى خطبة له بمكة : « أيها الناس أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقيه وتسديده وتأبيده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه

(٥٣) الديمقراطية فى الاسلام للاستاذ عباس محمود العقاد ص ٦٠ •

بمشيئته وارادته وأعطيه باذنه ، فقد جعلنى الله عليه قفلا ان شاء أن يفتحنى فتحنى لا عطائكم وقسم أرزاقكم وان شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى » • ويقول جل شأنه : « ما كان لبشر أن يؤثيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله •• » (٥٤) •

ويؤكد السير (توماس آرنولد) ذلك بقوله : « ان الخليفة ليس بابا بقدر ما هو حاكم مزمى الجماعة المثالية » (٥٥) ويقول فى موضع آخر : « لا يوجد فى الاسلام أى أثر لسلطة كنسية ولا أنظمة كهنوتية مقدسة ، وفكرة التقديس المسيحى والوساطة بين الله والمؤمن من الفرد مفقودة تماما » (٥٦) •

ويرسم الاسلام الطريق للتخلص من الحاكم العاجز أو الفاسد ، أو حتى الذى فقد حب الناس ولو لم يكن عاجزا أو فاسدا وذلك عن طريق طرائق متدرجة على النحو الآتى :

أولا : الانكار القلبي واللساني : وقد وضع الرسول الكريم منهج العمل لتغيير المنكر ، وجعله بحيث يسع جميع الاحتمالات ويقول النبى (ص) : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » والانكار بالقلب هنا بمثابة اعلان حرب على المنكر ، ثم تحويلها من القلب الى اللسان ، فاللسان أداة من أدوات الحرب على المنكر ، ثم تحويلها من القلب الى اللسان ، فاللسان أداة من أدوات الحرب على المنكر ، وعلى الحاكم المنحرف ، ثم يلى ذلك مرحلة محاربة المنكر ، والحاكم اذا انحرف — وهو ما سنتحدث عنه بعد ذلك — أزيح بالقوة وهناك أحاديث كثيرة صحيحة عن الرسول (ص) تأمر بالصبر على الحاكم الذى أصبح مستحقا للعزل لأى سبب كان •

(٥٤) آل عمران ٧٩ •

(٥٥) الخلافة للسير تومات آرنولد ص ١١٩ •

(٥٦) المصدر السابق ص ١٢٤ •

لقد نقل في شرح الموطأ أن رأى الامام ورأى جمهور أهل السنة أنه اذا ظلم الامام فالطاعة أولى من الخروج * ولقد صرح «الامام أحمد» بوجوب الصبر عند الجور ونهى عن الخروج والائتمار نهيا صريحا ، ولذا روى عنه أنه قال : « الصبر تحت لواء السلطان على ما كان منه من عدل أو جور ، ولا يخرج على الأمراء بالسيف وان جاروا » * (٥٧) * وقال رسول الله (ص) : « من رأى من أميره شيئا فكره فليصبر ، فانه ليس أحد يقارق الجماعة شبرا فيموت الامات ميتة جاهلية » * (رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن عباس) *

ثانيا : مقاومة الحاكم بالقوة : وعندما لا يجد الايدى الانكار بالقائه واللسان عزائم تستجيب لهذا النكران ، فيجب تجنيد الايدى ، وتكتيل القوى لمحاربته فعندما يخرج الحاكم عن مبادئ الاسلام العامة ، فان ذلك يتطلب من الرعية نزع السلطة عن الخليفة واسقاطه .. وقد بحث ابن حزم هذه المسألة وهو يتكلم عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو يرى وجوب الخروج على الامام الذى أصبح مستحقا للعزل ، بل جعل الصابر آثما ومعينا للامام على الظلم * (٥٨) * وسنتكلم عن رأيه تفصيلا بعد ذلك *

ويقول أبو الحسن الأشعري في مقالاته : « واختلف الناس في السيف (يعبرون عن « الخروج » بالسيف ، أو سل السيف) على أربعة أقاويل ، فقالت المعتزلة ، والزيدية ، والخوارج ، وكثير من المرجئة : ذلك واجب اذا أمكننا أن نزيل بالسيف أهل البغى ونقيم الحق * واعتلوا بقول الله عز وجل : « وتعاونوا على البر والتقوى » ويقولون : « فقاتلوا المتبغى حتى تنفى الى أمر الله » ، ويقولون : « لا ينال عهدى الظالمين » * وقالت « الروافض » بابطال السيف ولو قتلت حتى يظهر الامام فيأمر بذلك *

(٥٧) المناقب لابن الجوزى ص ١٧٦ نقلا عن المذاهب الاسلامية للشيخ محمد ابو زهرة ص ١٥٧ .

(٥٨) الفصل ج ١ ص ١٧١ — ١٧٥ .

وقال أبو بكر الأصم (كان من المعتزلة) ومن قال بقوله : « السيف
(أى واجب) وإذا اجتمع امام عادل يخرجون معه فيزيل أهل البغى

وقال قائلون : السيف باطل ولو قتلت الرجال وسبيت الذرية ،
وأن الامام قد يكون عادلا ويكون غير عادل ، وليس لنا ازالته وان كان
فاسقا ، وأنكروا الخروج على السلطان ، وهذا قول أصحاب
الحديث (٥٩) •

ويذكر الأشعري في موضع آخر أن الزيدية بأجمعها ترى السيف
على أئمة الجور ، وازالة الظلم ، واقامة الحق ، وهى بأجمعها لا ترى
الصلاة خلف الفاجر ، ولا تراها الا خلف من ليس بفاسق (٦٠) •

ولكن يجب تقييد هذا الرأى الأخير (الثنائى) بشرط واحد ، وهو
أن تتأكد الأمة أو من يمثلها من أهل الحل والعقد ، عند محاولة الخروج
بالقوة على الخليفة المستحق للعزل ، من عدم احداث فتنة أو اراقة
الدماء بلا ضرورة • والأمة لم تجن من الذين خرجوا من غير استعداد
على الخلفاء الأمويين والعباسيين الا اراقة الدماء لعشرات الألوف من
أبنائها ، وتفريق الكلمة ، وجلب كثير من المحن والكوارث عليها • « ونقل
ابن التين عن الداودى قال : (٦١) (الذى عليه العلماء فى أمراء الجور أنه
إذا قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب ، والا فالواجب الصبر •
وعن بعضهم لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء ، فان احدث جورا بعد
أن كان عدلا ، فاختلفوا فى جواز الخروج عليه والمصحح المنع الا أن يكفر
فيجب الخروج عليه •) • ا • هـ

(٥٩) مقالات الاسلاميين ج ٢ ص ٤٥١ — ٤٥٢ •

(٦٠) المصدر السابق ٧٤/١ •

(٦١) الخلافة لمحمد رشيد رضا ص ٤١ •

ويرى البعض (٦٢) أن المارودي لم يوضح متى ينبغي — إذا ثبت أن الامام مستحق للعزل — الصبر عليه ومتى ينبغي الخروج عليه بالقوة • وردنا على ذلك أننا إذا تصفحنا كتاب الأحكام السلطانية الذي خصصه المارودي لاصول الحكم ، لوجدنا أن المارودي قد قال رأيته غي هذا الموضوع ولكن بطريقة ضمنية غير مباشرة • وقد سبق لنا القول أن المخالفة عند المارودي تنشأ نتيجة عقد يبرم بين الأمة والخليفة على أوضاع وبشروط معينة ، وأن هذا العقد إذا انعقد نشأت عنه حقوق وواجبات متقابلة ، فيجب على الرعية طاعة الامام طالما هو يقوم بتأدية واجباته على الوجه الأكمل دون خروج على أحكام الشرع أو انقياد الى الهوى ، فإذا قصر الامام في تأدية واجباته قبل الأمة أو خالف أحكام الشرع باصدار قرارات أو أوامر تخالف هذه الأحكام عد جائرا وسقط بذلك ، عن الأمة واجب الطاعة والنصرة له ، وأصبح واجبا على الأمة بشتى وسائل المقاومة المشروعة حتى يتحقق لهم ابعاده عن مركز السلطة والحكم • وقد سبق لنا عرض رأى المارودي في الاشياء التي ينعزل بها الخليفة عن الحكم •

ونعرض أيضا لأفكار الفقيه ابن حزم الظاهري المتوفى سنة ٥٠٦ هجرية ، وهذه الافكار مقارنة لأفكار المارودي ، وتوضح كيف أن طاعة الامام والامتثال لأوامره لا تكون الا بقدر طاعته هو الآخر لأفكار وقواعد الدين الحنيف ومراعاته لشروط التعاقد بينه وبين الرعية • ويعرض ابن حزم الظاهري لرأيه في كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » وهذا الرأي يعتبر بمثابة رد على القائلين بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الاسلام لا يكون من آحاد الناس الا قبل آحاد الناس • أما الحاكم أن جار فليس لأحد من الناس أن ينهاء عن ذلك وإنما على المحكومين الصبر

(٦٢) راجع كتاب : نظام الحكم في الاسلام للدكتور محمد يوسف موسى.

على جورهِ ، يقول ابن حزم (٦٣) مغندا حججهم ومظهرًا أوجه الزيف والبطلان فيها :

« احتجت الطائفة المذكورة أولاً بأحاديث فيها ، أنقالتهم يا رسول الله ؟ قال : لا ما صلوا • وفي بعضها : الا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان • وفي بعضها وجوب الضرب وان ضرب ظهر أحدنا وأخذ ماله ، وفي بعضها فان خشيت أن يبهرك شعاع السيف فاطرح ثوبك على وجهك وقل اني أريد أن تبوء بأثمي وأثمك • فتكون من أصحاب النار • وفي بعضها : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل • وبقوله تعالى : « واثل عليهم نبا ابني آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » الآية • كل هذا لا حجة لهم فيه الا قد تفصيلناه غاية التفصلي خبرا خبرا بأسانيدها ومعانيها في كتابنا الموسوم بالاتصال الهى فهى معرفة الخصال ونذكر منه ان شاء الله هاهنا جملا كافية وبالله تعالى نتأيد • أما أمره صلى الله عليه وسلم بالصبر على أخذ المال وضرب الظهر ، فانما ذلك بلا شك اذا تولى الامام ذلك بحق وهذا ما لا شك فيه أنه فرض علينا الصبر له وان امتنع مع ذلك بل من ضرب رقبتة أن وجب عليه فهو فاسق عاص لله تعالى • وأما ان كان ذلك بباطل فمعاذ الله أن يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر على ذلك ، برهان ذلك قول الله عز وجل : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » • وقد علمنا أن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخالف كلام ربه تعالى • قال الله عز وجل : « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى » • وقال تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » فصح أن كل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو وحى من عند الله عز وجل لا اختلاف فيه ولا تعارض ولا تناقض • فاذا كان هذا كذلك فيقين لا شك فيه يدري كل مسلم

(٦٣) الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، باب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ج ٤ ص ١٧١ وما بعدها •

أو ذمى بغير حق وضرب ظهره بغير حق اثم وعدوان وحرام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان دمائكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم فاذا لاشك في هذا ولا اختلاف من أحد من المسلمين ، فالمسلم ماله للأخذ ظلما وظهره للضرب ظلما وهو يقدر على الامتناع من ذلك بأى وجه أمكنه معاون لظالمه على الاثم والعدوان وهذا حرام بنص القرآن ، وأما سائر الاحاديث التى ذكرنا وقصة ابنى آدم فلا حجة فى شىء منها ، وأما قصة ابنى آدم فتلك شريعة أخرى غير شريعتنا قال الله عز وجل : لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا • وأما الأحاديث فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ان استطاع فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان ليس وراء ذلك من الايمان شىء ، وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا طاعة فى معصية انما الطاعة فى اطاعة الله وعلى أهدكم المسع والطاعة مالم يؤمر بمعصية فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة ، وأنه عليه السلام قال : من قتل دون ماله فهو شهيد والمقتول دون دينه شهيد والمقتول دون مظلمة شهيد ، وقال عليه السلام لتأمرن ولتنتهون عن المنكر أو ليعمنكم الله بعذاب من عنده ، فكان ظاهر هذه الأخبار معارضا ذلك فوجب النظر فى أيهما هو الناسخ فوجدنا تلك الأحاديث التى منها النهى عن القتال موافقة لمعهود الاصل ، ولما كانت الحال عليه فى أول الاسلام بلا شك وكانت هذه الأحاديث الأخرى واردة بشريعة زائدة وهى القتال • هذا ما لا شك فيه ، فقد صح نسخ معنى تلك الأحاديث ورفع حكمها حين نطقه عليه السلام بهذه الأخر بلا شك فمن المحال المحرم أن يؤخذ بالمنسوخ ويترك الناسخ وأن يؤخذ بالشك ويترك اليقين ، ومن ادعى أن هذه الأخبار بعد أن كانت هى الناسخة فعادت منسوخا ، فقد ادعى الباطل وقفنا ما لا علم له به ، فقال على الله مالم يعلم وهذا لا يحل ولو كان هذا لما أخلى الله عز وجل هذا الحكم عن دليل وبرهان يبين به رجوع المنسوخ ناسخا لقوله تعالى فى القرآن تبياننا لكل شىء وبرهان آخر وهو أن الله عز وجل قال : « وان طائفتان من المؤمنين أقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان

بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفتى » لم يختلف
مسلمان في أن هذه الآية التي فيها فرض قتال الفئة الباغية محكمة غير
منسوخة فصح أنها المحاكمة في تلك الأحاديث فما كان موافقا لهذه الآية
فهو الناسخ الثابت وما كان مخالفا لها فهو المنسوخ المرفوع ، وقد ادعى
قوم أن هذه الآية وهذه الأحاديث في اللصوص دون السلطان •

وهذا باطل متيقن لأنه قول بلا برهان وما يعجز مدع أن يدعى في
تلك الأحاديث أنها في قوم دون قوم وفي زمان دون زمان ، والدعوى دون
برهان لا تصح وتخصيص النصوص بالدعوى لا يجوز لأنه قول على الله
تعالى بلا عام ، وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سائلا
يسأله بمن طلب ماله بغير حق فقال عليه السلام : لا تعطه ، قال فان
قاتلني ، قال قاتله ، قال فان قتلته ؟ قال الى النار ، قال فان قتلني ؟
قال فأنت في الجنة أوكلما هذا معناه ، وصح عنه عليه السلام أنه قال
المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه • وقد صح أنه عليه السلام قال
في الزكاة من سألها على وجهها فليعطها ، ومن سألها على غير وجهها فلا
يعطها وهذا خبر ثابت رويناه من طريق الثقاب عن أنس بن مالك عن أبي
بكر الصديق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا يبطل تأويل من
ناول أحاديث القتال عن المال على اللصوص لا يطلبون الزكاة وانما
يطلبه السلطان فاقصر عليه السلام معها اذا سألها على غير ما أمر به
عليه السلام ، ولو اجتمع أهل الحق ما قاواهم أهل الباطل ، نسأل الله
المعونة والتوفيق •

وينهى ابن حزم كلامه قائلا : « بأن الواجب ان وقع شيء من الجور
وان قل أن يكلم الامام في ذلك ويمنع منه فان امتنع وراجع الحق وأذعن
للقود من البشرية أو من الأعضاء ولاقامة حد الزنا والقذف والخمر عليه
فلا سبيل التي خلعه وهو امام كما كان لا يحل خلعه فان امتنع من انفاذ
شيء من هذه الواجبات عليه ولم يراجع وجب خلعه واقامة غيره ممن
يقوم بالحق لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا

الأثم والعدوان » ولا يجوز تضييع شيء من واجبات الشرائع وبالله تعالى التوفيق » •

ونخلص من كل ما تقدم الى أن مقاومة الحاكم الجائر أو المقصر في تأدية واجباته حق شرعى من حقوق الرعية لا يتعارض بحال من الأحوال مع روح الاسلام التى توجب على الرعية طاعة الحاكم الصالح العادل وتنهاهم عن الامتنال لأوامره اذا هو خالف أحكام الشرع ، فلا طاعة في معصية ، انما الطاعة في المعروف •

واذا كان فقه الشيعة يخلو من كلمة مقاومة وذلك تمشيا مع فكرهم في تأليه الامام ، فالامام معصوم من الخطأ ، لا يتصور منه جور ، وبالتالي لا محل عندهم لمسألة مقاومة الامام ، نقول اذا كان هذا هو موقف الشيعة فان النقيض لهم تماما موقف فرقة الخوارج • يوجب الخوارج على الرعية واجب مقاومة السلطان الجائر الذى يخرج على أحكام الشرع ، والخليفة أو السلطان عندهم فرد كآحاد الناس يخطئ ويصيب فأن أصاب فبها والا أصبح من واجب الرعية مقاومته بالقوة ، وهو واجب يكاف بمباشرته كل مسلم ، ولا يحول بينه وبين تأدية هذا الواجب قوة السلطان وعدته • أما المعتزلة فقد أوجبوا على الناس الخروج على السلطان على الامكان والقدرة اذا أمكنهم ذلك وقدروا عليه ، ودون أن يترتب على عملية الخروج على السلطان الجائر أى قلق أو اضطرابات في المجتمع يقاسى من جرائها أفراد المجتمع أكثر مما يقاسونه من جراء استرسال السلطان في جوره وفيه • ويقول الزمخشري ، وهو من رؤساء علماء المعتزلة ، في تفسير قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » • ان النهى عن المنكر من فروض الكفايات لا فرض عين ، لأنه لا يصلح له الا من علم كيف يرتب الأمر في اقامته وكيف يباشره ، وشروط وجوب النهى عن المنكر أن لا يغلب على ظن من يباشر النهى أنه ان أنكر لحقته مضرة عظيمة (٦٧) •

وكما جاء في مقالات الاسلاميين فانه لا يجوز الخروج على امام جائر
الا لجماعة لهم من القوة والمنعة ما يغلب على ظنهم معها أنها تكفى
للمنهوض وازالة الجور •

ويذهب القديس « ثوما الأكويني » وهو من فلاسفة القرن الثالث
عشر (١٢٢٥ — ١٢٤٧ م) الى أنه لو فرض أن أعلن الملك طغيانه وانتقل
طاغية مستبد فالأفضل ابقاء على نظام الدولة أن نحتمله بصفة مؤقتة
ولا نتور ضده ، لأن مخالفته تكون أشد خطرا على المجتمع من الاستبداد
نفسه •• ان قتل المطاغية أو الحاكم الغاصب عمل غير جائز • فلا يصح
أن نسمح للفرد بأن يقوم به من تلقاء نفسه ، وان هذا الاجراء الخطير
يجب أن يترك للشعب بأجمعه أو ممثلا في مجلس مشروع من حقه أن
يستعمل هذا الحق • ولذلك يجب أن يكون من حق الشعب انتخاب الملك
وعزله وتنقييد سلطته (١٨) •

ومن البحوث الهامة التي ظهرت في القرن السادس عشر الميلادي
رسالة تعتبر خير ما كتب في موضعها بعنوان « أحاجي ضد الاستبداد
Vindiciao Contra Tyrannos نشرت عام ١٥٧٩ ، ولم يهتد
الباحثون الى من كتبها على وجه الدقة واختلفوا في نسبتها الى المؤلف
الذي وضعها ، غير أن « بول جانيه » يقرر أن صاحب هذه الرسالة
هو المفكر « Junius Brutus » ، ويقول « بول جانية »
ان هذه الرسالة من أعظم البحوث السياسية التي وضحت سلطة الأمراء
وقررت حق المواطنين ورسمت حدودا معينة لهذه وتلك •

والجديد في كتابة هذه الرسالة السابقة أن المؤلف كتبها على هيئة
ردود على أربع مشاكل وجهت اليه بصدد أسئلة أربعة • وهذه هي أهم
الأسئلة المتصلة بموضوعنا وما قيل بصددتها من اجابات •

(٦٨) راجع النظريات والمذاهب السياسية للدكتور مصطفى الخشاب
ص ١١٧ — ١١٨ •

السؤال الأول : هل الرعية ملزمة بالطاعة والاذعان للأمرء حتى اذا أمرهم بما لا يتفق والقوانين الالهية ؟

وأجاب على هذا السؤال بعدم الطاعة • واستند في هذا الصدد الى كثير من الآيات الواردة في الكتب المقدسة وعلى المبدأ الاقطاعى الذى يقرر وجوب الطاعة للسيد الأعلى وليس لمن هو أقل منه رتبة • فالطاعة لله أفضل وأسمى ما دامت أوامر الملك تتعارض مع ما أمر به الله وجاء به السيد المسيح وأتباعه من الحواريين والرسلى •

السؤال الثانى : هل يسمح للرعية بالمقاومة اذا أمر الملك بشيء يتعارض مع القوانين الالهية ، وهل مثل هذه المقاومة مشروعة أم غير مشروعة ؟

وبصدد الاجابة على هذا السؤال نصح بالمقاومة فى حدود العقيدة الدينية • واستند فى هذا الصدد على ما جاء فى العهد القديم والعهد الجديد وعلى مبادئ القانون الرومانى • وبرر مبدأ المقاومة بفكرة جديدة أتت بها وهى فكرة التعاقد • وكان يرى أن هناك عقدين : الأول ، تعاقد بين الله وبين الملك والشعب على أن يقوموا بأداء الفرائض والعبادات الدينية والعمل وفق تعاليم الله وقوانينه • والثانى ، عقد منفرد بين الملك والرعية وبمقتضاه يحكم الملك بالعدل ويرعى مصالح رعيته وعلى هؤلاء الطاعة وتنفيذ أحكام الملك وقوانينه • ويجب ادراك أن العقد الأول لا يربط الملك بالله فقط ، ولكنه يربط الأفراد أيضا بالذات الالهية • ومن ثم فان الملك اذا تمرد على أوامر الله ونقض ميثاقه فعلى الافراد ، وهم ما زالوا مرتبطين بالله ، أن يخرجوا عن طاعته ويكونوا فى حل من الثورة عليه ، وتلزم عليهم مقاومته ما دام خارجا عن طاعة الله وأوامره وميثاقه •

السؤال الثالث : هل يسمح للرعية بالمقاومة متى كان الحاكم ظلما ، أى هل الثورة جائزة ومشروعة ضد الملك المستبد الذى لايرعى مصالح رعيته ؟

وأجاب على هذا السؤال بوجوب مقاومة هذا الحاكم مقاومة مطلقة لأنه خالف العهد الذى قطعه على نفسه فى الميثاق • فيجب خلعه وعلى ممثلى الأمة السياسيين أن يقوموا بهذا الاجراء ولا يتركون مصائر الدولة رهينة بغضبة الشعب الذى قد يتنكب الطريق السوى فى معالجة الشئون السياسية •

والمؤلف يقر هنا حق الشعوب فى الثورة واعترف بسمو الشعب على الأمراء فللشعب الحق فى طرد الأمير اذا طغى فى الأرض وبغى • وأقر مؤلف الكتاب أيضا مبدأ حمل السلاح ، ليس فقط من أجل الدين ولكن لأجل الوطن كذلك •• ويذهب المؤلف الى أن الشعب ليس هو المغوغاء أو السوقة أو الأفراد العاديين بل يجب أن ينصرف معنى الشعب الى هؤلاء الذين يمثلون كل هيئات الشعب فى المملكة أقاليمها ومدنها • فحق المقاومة لا يملكه اذن غير الهيئات النيابية صاحبة السيادة بتقويض من عامة السكان ، وهم بلا شك الممثلون الشرعيون للأمة •

ويضيف المؤلف الى ما تقدم أنه يجب على الشعوب أن تتحمل الى حد ما الأمراء الأشرار فى انتظار من هم أحسن وأقوم ، كما تتحمل العواصف الهوجاء والزلازل والبراكين والفيضانات الخطيرة ، وما اليها من الكوارث والمصائب الطبيعية • ولكن اذا أجمع كبراء الدولة وعظماءها على وجوب مقاومة الملك المستبد ، فيجب على الشعب الطاعة والاعتقاد بأن المقاومة أصبحت مشروعة لأن اعلان هؤلاء للمقاومة الشعبية هو أشبه ما يكون بإشارة من الله وبتوجيه من عنايته القدسية التى تلحظ بها شئون العالم (٦٩) •

ومن كل هذا يتضح لنا مدى الأصالة التى يتمتع بها الفكر الإسلامى ، كما يتضح لنا أيضا أصالة الأفكار التى يعبر عنها الماوردى ، وعلى وجه

(٦٩) نقلا عن النظريات والمذاهب السياسية للدكتور مصطفى الخشاب

التحديد فكرة العلاقة بين الحاكم والرعية ، أى فكرة العقد الاجتماعى المبرم والمتبادل بينهما ، وحق الشعب فى مقاومة الحاكم وخلعه اذا أخل بشروط منصبه أو قصر فى أداء واجباته أو طرأ عليه أى نقص أو عجز بدنى أو عقلى أو أدبى وهو المعنى بالحديث الشريف : « لا طاعة فى معصية ، انما الطاعة فى المعروف » ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى تدعو المسلمين الى مقاومة الحاكم الجائر قوله صلى الله عليه وسلم : « اذا رأيتم أمتى تهاب أن تقول للظالم « يا ظالم » فقد تودع منها » وقد جاء فى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أن بنى اسرائيل لما وقع فيهم النقص كان الرجل يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه فاذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ونزل فيهم القرآن فقال : « لعن الله الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم » حتى بلغ « ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي ، وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون » قال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس وقال : « لا حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق أطرا » • وقد جعل الرسول الموت فى سبيل مقاومة جور الحاكم أعلى درجات الشهادة فى سبيل الله فقد قال صلوات الله عليه : « سيد الشهداء حمزة ورجل قام الى امام جائر فأمره فنهاه فقتله » وفى رواية أخرى : « أفضل شهداء أمتى رجل قام الى امام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك ، فذلك الشهيد منزلة فى الجنة بين حمزة وجعفر » • وفى مقابل ذلك يدعونا صلوات الله وسلامه عليه الى طاعة الحاكم العادل الذى يحرص على العمل وفق شرائط العدل ومواثيق الانصاف وينهاهنا بذلك عن العصيان والتمرد غير الشرعى ، قال صلى الله عليه وسلم : « من أهان سلطان الله فى الأرض أهانه الله تعالى » (٧٠) ، وقال صلوات الله عليه أيضا : « ان من اجلال الله اكرام ذى السلطان المقسط » •

العقد الاجتماعي عند كل من هوبز • ولوك • وهيوم • وروسو

فكرة عن العقد الاجتماعي :

الفكرة المقبولة في «العقد الاجتماعي» هي حب الحرية الجماعية والاعتراف بالسلطة وبالتنظيم الاجتماعي ، وقد كانت نظرية العقد الاجتماعي « وسيلة للتعبير عن فكرتين أساسيتين أو قيمتين من القيم الأساسية سيظل العقل البشرى يتعاق بمهما دائما — قيمة الحرية أو فكرة أن الإرادة — لا القوة — هي أساس الحكم ، وقيمة العدالة أو فكرة أن الحق — لا القوة — هو أساس كل مجتمع سياسى وأساس خطة كل نظام سياسى » (٧١) • وقد ظهرت نظريات « التعاقد الاجتماعي » أول ما ظهرت من نظريات لكى تناقش فلسفة الدولة ، فى نشأتها وفى طبيعتها وفى وظائفها وفى حقوقها والتزاماتها •

ولنظرية «العقد الاجتماعي» Social Contract • أصل فى الفلسفة اليونانية ، فهى ليست فكرة جديدة من مبدعات العقل الأوروبى ، وقد أشار إليها كل من أفلاطون وأرسطو أشارات قصيرة عابرة ، فقد انشغل أرسطو وأفلاطون بدراسة المدينة اليونانية نفسها كوحدة تامة بدون النظر الى الأفراد المواطنين فيها بصفة خاصة ، وقد فسر بعض الفقهاء اليونانيين ومنهم أرسطو كيفية نشوء الدولة تفسيرا مغايرا لتفسير نظرية العقد الاجتماعي لها ، فكل من الحكومة والمحكومين أصل من صنع الطبيعة وليس للناس اختيار فيه ، ومعنى ذلك أن الدولة فى نظر «أرسطو» ليست نتيجة لعقد اجتماعى تم بين الأفراد ، بل هى ضرورة طبيعية من ضرورات الحياة نفسها ، والإنسان عنده حيوان سياسى لا بد له من العيش داخل « المدينة » اذ يتعذر عليه المعيشة خارجها • فالدولة عند أرسطو نظام طبيعى وفقا لسنة تطور الحياة نفسها •

(٧١) من مقدمة كتاب «العقد الاجتماعي — للوك ، هيوم ، روسو»
للسير ارنست باركر ص ٦ •

ويناقض أفلاطون أرسطو في تحليله للدولة ، فأفلاطون يرجع نشأة الدولة الى الحاجة ، أى الى رغبة الفرد في اشباع حاجاته الاقتصادية المادية التى تدفعه الى الاجتماع مع عدد آخر من الأفراد الذين يحتاج اليهم ويحتاجونه في نفس الوقت كى يستطيعوا اشباع حاجاتهم المتقابلة عن طريق المدينة •

وهناك تلميحات كذلك لقيام نوع من العلاقة والتعاقد بين الامبراطور والشعب في الفقه الرومانى : اذ أكدت مفاهيم القانون الرومانى بأن الشعب هو مرجع السلطة وأن الامبراطور يستمد سلطته من الشعب •

وقد ظهرت نظرية « العقد الاجتماعى » أيضا في التوراة ثم قدمتها المسيحية الأوربا خلال العصور الوسطى ، ثم ظهرت في النظام الاقطاعى الذى قام على أساس تبادل الالتزامات بين الحكام وبين أتباعهم • (وقد كانت نظرية العقد الاجتماعى مناسبة لمزاج المجتمع الاقطاعى ، (٧٢) فالقطاع كان بصفة عامة نظاما تعاقديا يستطيع في ظله كل رجل أن يقول لسيده) His Lord : سأكون مخلصا لك وصادقا معك • على شرط أن تعاملنى بما أستحق وأن تقوم بتنفيذ كل ما جاء في اتفاقنا عندما خضعت لك وقبلت مشيئتك » ومن ناحية أخرى كانت وجهة النظر التعاقدية تلائم أيضا مزاج رجال الدين في العصور الوسطى وخطة أفكارهم • فهى تفرض حدودا للحكم الزمنى ، كما تضمن حقوق رجال الدين و الحريات الكنسية » ، وكذلك يدعم حق الناس في حرمان الملك من سلطته اذا أخل بالتعاقد حق البابا في حرمان الملك ، بواسطة « الحرمان الدينى » ، ومن مبدأ السلطة (Principum) ، وهو المنحة الالهية ، اذا أذنب في حق المانع ، (كما يمكن أن يدعم حق البابا في ذلك حق الناس) وقد أخذت نظرية العقد الاجتماعى في الظهور والتطور على النحو الذى شهدته بداية العصور الحديثة •

وهناك بعض من المفكرين يرون أن الأصل في قيام الدولة يرجع الى عوامل أخرى غير الرضا والاختيار والاتفاق المتبادل من قبل الأفراد .
فابن خلدون مثالا يرى في مقدمته أن الرغبة في تحصيل القوت مما أعان على قيام الدولة : « فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة الأكثر منهم بأضعاف . . وإذا لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته . . وإذا كان التعاون قد حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة ، وتمت حكمة الله تعالى في بقاءه وحفظ نوعه — فان هذا الاجتماع ضرورى للنوع الانسانى ، والا لم يكمل وجودهم ، وما أراد الله من اعتماد العالم بهم ، واستخلافهم اياه . . وهذا هو معنى العمران » .
ونحن هنا نرى أن مما دفع بالانسان الى تكوين المجتمع الكبير هو دوافعه الفطرية المستنيرة أيضا .

ويذهب (وول ديوارنت) الى أن القوة هى العامل الأول في خلق المجتمع ، وأن الاجتماع البشرى لا ينشأ نتيجة لارادات الأفراد واختيارهم : « ليس الانسان حيوانا سياسيا عن رضى وطواعيه فالرجل لا يتحد مع زملائه مدفوعا برغبته ، بقدر ما يخشى العزلة ، ولذلك تراه مع غيره من الناس ، لأن اعتزاله يعرضه للخطر ، ولأن ثمة أشياء كثيرة يمكن أن يجود أداؤها بالتعاون أكثر مما يجود بالانفراد .

وعلى ذلك فالرجل من الناس وحشى في صميمه : يتصدى للعالم كله تصدى العدو لأعدائه بكل ما يتطلب ذلك من بطولة ، فلو جرت الأمور على ما يشتهى الرجل المتوسط لكان الأرجح الا تقوم للناس قائمة ، بل انك لتراه في يومنا هذا يمقت الدولة مقتا ، ولا يفرق بين الموت وجبابة الضرائب . ويتحرق شوقا الى حكومة لا تحكم من أمور الا أقلها » (٧٣) .

(٧٣) قصة الحضارة لول ديوارنت ترجمة د . زكى نجيب محمود
(اختيار الادارة الثقافية للجامعة العربية . . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٩ ج ١ ص ٣٩ .

وإذا كان الاجتماع البشرى قد قام عند (ديورانت « في أول أمره على القوة والقهر ، فان هذا يكشف للانسان عن حياة أفضل من حياة الوحدة والعزلة ، وسرعان ما يألف المواطن هذا الوضع الجديد • ويعتاد عليه • ويقول « ديورانت » : « ان كل دولة تبدأ بالقهر لكن سرعان ما تصبح عادات الطاعة هي مضمون الضمير ثم سرعان ما يهتز كل مواطن بشعور الولاء — للعلم علم الدولة — • والمواطن في ذلك على صواب ، فمهما تكن بداية الدولة فسرعان ما تصبح دعامة لاغنى عنها للنظام » (٧٤) ويقول « ديورانت » أيضا : « الحروب هي التى تخلق الرئيس ، وتخلق الملك ، وتخلق الدولة • كما أن هؤلاء جميعا — الرئيس والملك والدولة — هم الذين يعودون فيخلقون الحروب » (٧٥) •

ويذهب مفكرون آخرون أيضا الى أن الأصل في نشأة الجماعة البشرية هو عامل القوة والقهر • فيذهب « نيتشه » الى « أن جماعة من الوحوش الكواسر شقر البشره ، جماعة من الغزاة السادة ، بكل مالها من أنظمة حربية ، وقوة منظمة ، تنقض بمخالبها المخيفة على طائفة كبيرة من الناس ، ربما فاقتها من حيث العدد الى حد بعيد ، لكنها لم تتخذ بعد نظام يحدد أوضاعها • ، « ذلك هو أصل الدولة » (٧٦) ويقول « أوبنهمر » انك لترى أينما وجهت البصر قبيلة مقاتلة تعتدى على قبيلة أخرى أقل منها استعدادا للقتال ، ثم تستقر في أرضها مكونة جماعة الأشراف فيها ، ومؤسسة لها الدولة (٧٧) • ويذهب « راتسنهوفر » : الى أن « العنف هو الأداة التى خلقت الدولة » • ويقول « سمير » : « ان الدولة نتيجة القوة ، وهى تظل قائمة بسند من القوة » (٧٨) •

(٧٤) قصة الحضارة لديورانت ١/ ٤٦ •

(٧٥) المصدر السابق ١ / ٤١ •

(٧٦) قصة الحضارة ١ / ٤٤ •

(٧٧) المصدر السابق ١ / ٤٤ •

(٧٨) نفس المصدر السابق ١ / ٤٤ •

وينكر « دافيد هيووم » وهو ما سنوضحه بعد ذلك — أن يوجد ، في العالم كما هو الآن ، حكم بالرضا ، وجميع الحكومات تقوم تقريبا على الاغتصاب والقهر : « ان المجتمع لا يتكون ، ولن يتكون في وقت من الأوقات الا على أساس من القهر فالمجتمع قد وجد ، ونما ، وتزايد ، ولم يكن هناك عقد اجتماعي ، بالمعنى الدقيق المحدد للفظ « اجتماعي » .

وتلتقى نظريات العقد الاجتماعي كلها في أن تاريخ الانسان ينقسم الى قسمين : قسم سابق على وجود الحكومة والسلطة (وهى فترة البداية أو الفطرة أو الطبيعة) ، وقسم آخر لاحق لها (وهى الفترة التى أعقبت وجود العقد وقيام المجتمع المدنى) .

١ — حالة الطبيعة : عاشها الأفراد في فجر الانسانية ، وتصف النظريات تلك الحالة بأنها كانت سائدة قبل فترة التكوين السياسى للمجتمع وقبل انشاء القانون المدنى . وكان الانسان في حالته الطبيعية هذه غير مقيد بقوانين وضعية من البشر ، ولا خاضع لغير أحكام القانون الطبيعى المنبث في نفس كل انسان بمقتضى الفطرة . ويصور أغلب المفكرين حالة الانسان خلال فترة الفطرة هذه على أساس أنها كانت حالة من الوحشية ، حيث كانت القوة هى الحق الأوحد ، ويصورها البعض الآخر على أساس أنها كانت حالة من عدم الاطمئنان .

٢ — حالة العقد : وعندما لمس الأفراد عدم كفاية الحياة الفطرية لتحقيق رغباتهم ، اجتمعوا وقرروا تكوين جماعة منظمة يتعايشون فيها دون عدوان ، وفي ظل هذا التصوير يكون التراضى أساسا لانشأة الجماعة ، وتكون السلطة السياسية وليدة التعاقد ، ومرددا الى ارادة الأمة ، أى أنهم تعاقدوا عن ارادة وروية على انشاء « دولة » أبدا القانون الطبيعى فيها بقوانين بشرية وأصبح على الأفراد واجبات للمجتمع ولهم حقوق قبله . وهكذا ، فحينما فقد الفرد الحرية الطبيعية التى كان يتمتع بها في حالة الطبيعة السابقة ، فانه اكتسب بالمقابل الأمن والحماية من قبل الدولة ، والتى ضمنها له كل رملاءه الآخرون . .

أما كون واضعى النظرية أرادوا بهذا البيان اثبات وقوع التعاقد بالفعل بين بنى الانسان ، أو أرادوه على سبيل المجاز تصويرا لحالة وجدت في الواقع فذلك ما لم يجهر به أحد منهم •

ويحاول بعض الكتاب أن يفرق بين العقد الاجتماعى الذى أنشأ الجماعة السياسية نفسها ، (أى الدولة) ، والعقد السياسى الذى أنشأ السلطة التى تتولى الحكم • ويرفض « روسو » هذه التفرقة التى يذهب إليها « بوفندورف » الذى يقول انه يحسن بنا قبل أن نبحث فى كيفية اختيار الشعب لنفسه ملكا أن نعرف أولا كيف صار الشعب شعبا باعتبار أن هذا العمل الأخير هو الأساس الصحيح للجماعة ، ويصر « روسو » ومعه غالبية الكتاب على أن هناك عقدا واحدا ، لا عقدين ، وهو العقد الاجتماعى • والحق أن التفرقة لا مبرر لها ، اذ الملاحظ أن عقد واحدا هو الذى ينشئ الدولة والسلطة فيها ويتم ذلك فى آن واحد •

ويقول السير « ارنست باركر » (٧٩) فى مقدمته القيمة لكتاب « العقد الاجتماعى » للوك . هيوم ، روسو : الواقع أن فكرة العقد الاجتماعى مكونة من فكرتين يجب التمييز بينهما ، رغم اتصالهما الوثيق • فهناك فكرة عقد الحكم الذى يطلق عليه بالفرنسية (pacte de Gouvernement) وهناك فكرة عقد المجتمع الذى يطلق عليه بالفرنسية (Pacte de Gouvernement)

ونظرية عقد الحكم : نظرية تذهب الى أن الدولة بمعنى الحكومة ، تقوم على عقد بين الحاكم والرعايا • ونظرية عقد الحكم تفترض فى الحقيقة شرطا سابقا ، هو نظرية عقد المجتمع فلا بد أن يكون هناك أولا شئ يماثل فى طبيعته الجماعة المنظمة قبل أن يكون هناك أى عقد بين الحاكم والرعايا • ومن ثم يجب أن نعترف أن هناك أيضا الى جانب عقد الحكم وقبل عقد الحكم ، عقد للمجتمع ، أى عقد اجتماعى ، كما يجب أن نخلص الى أن الدولة بمعنى الجماعة السياسية وباعتبارها مجتمعاً منظماً ، تقوم على عقد اجتماعى — أو على الأصح على عدد كبير من مثل

هذه العقود — بين جميع أعضاء هذا المجتمع أو هذه الجماعة وبين كل عضو وآخر • ومن ثم سنقول ان عقد الحاكم يوجد سلطة (Potestas) ولكن لا يوجد شيئا آخر غير السلطة ، وسنقول ان عقد المجتمع يوجد المجتمع نفسه ، وسندرك أن «المجتمع» أكبر من «السلطة» أو على أى الأحوال سابق على «السلطة» • • وقد انصب كل اهتمام «لوك» و «روسو» ، مثل «هوبز» ، على عقد المجتمع ، ولنا أن نقول انه ليس بين الثلاثة من اهتم بعقد الحكم (وان كانت نظرية «هوبز» تتضمن بعض السمات التى تتطلب شيئا من التحفظ) •

ويقول «ارنست باركر» بعد ذلك : «والواقع أنه لمن الواضح أننا بينما لا نستطيع أن نقر عقد الحكم دون أن نقر عقد المجتمع ، ولو ضمنا على أى الأحوال ، نستطيع أن نقر الثانى دون أن نقر بالأول • فالمجتمع متى تكون بواسطة عقد المجتمع قد يحكم نفسه بنفسه دون أية تفرقة بين حكام ورعايا ، ومن ثم لا يكون هناك احتمال لعقد بين هؤلاء وأولئك وقد كانت هذه هى نظرية «روسو» وقد يعين المجتمع أيضا — متى تكون — هيئة أو حكومة من «الأوصياء» لا يعقد معها أى اتفاق ، ولكن له أن يعزلها بسبب نقضها لشروط «الوصاية» على حسب تفسيره هو وحده لطبيعة «الوصاية» • وقد كانت هذه نظرية «لوك» • وأخيرا قد يتنازل المجتمع ، بعد أن يتكون ، عن كل حقوقه وعن كل سيادة له ويسلمها لعملاق (Leviathan) صاحب سيادة مطلقة ، ولا يعقد هذا «العملاق» أى اتفاق مع المجتمع ، وبذلك لا يخضع لأى من الحدود التى يفرضها عقد الحكم • ولنا أن نقول أن هذه كانت نظرية «هوبز» (٨٠) •

ثم يختم سير «ارنست باركر» حديثه عن الدلالة الحالية والقيمة المعاصرة لفكرة العقد بقوله : «ان المجتمع لا يتكون ، ولم يتكون فى وقت من الأوقات على أى أساس من عقد • فالمجتمع اتحاد شامل الغرض » فى

(٨٠) مقدمة سير «ارنست باركر» لكتاب «العقد الاجتماعى» ص ١٢.

العلم كله •• وفى الفن كله •• وفى الفضيلة كلها والكمال كله • وهو اتحاد يتعدى نطاق فكرة القانون ، وقد وجد ونما بذاته ، ولم يكن هناك أبدا عقد اجتماعى ••

ولا تدعو الحاجة فى عصرنا الى الالتجاء أو الى تطبيق فكرة « عقد حكم » يتفق بمقتضاه قسم من الدولة ، اسمه الحاكم أو الحكام ، مع قسم آخر اسمه الرعايا • فالعقد السياسى الوحيد — الذى يوحدنا جميعا (حكاما ورعايا على السواء) على أساس الدستور ، وفى ظله ، تبعا لصفة كل منا كما يحددها الدستور — كاف وهو العقد الوحيد » (٨١) •

ونخلص الى القول ان فكرة العقد ظهرت فى صور متعددة •

١ — أحيانا كان الكاتب السياسى يقرر وجود عقد بين الله والشعب للمحافظة على العقيدة الحقّة •

٢ — أحيانا كان بعض الكتاب السياسيين يظهر هذه الفكرة فى صورة عقد بين الأفراد وبعضهم لتكوين المجتمع •

٣ — من الكتاب السياسيين أيضا من يبرز هذه الفكرة فى صورة عقد بين الحاكم والمحكومين لتفسير سلطة الحاكم وتحديدها (٨٢) • ولا يمكننا القول فيما لو أن اتمام العقد المذكور حدث فى فترة ، معينة من التاريخ ، أم أنه مجرد تفسير لطبيعة الرباط الاجتماعى •

هذا هو أساس النظرية ، ولكن صاغها كل كاتب فى القالب الذى يطابق هواه تأييدا للمذهب الذى أراد الدفاع عنه • ومن أهم الباحثين فى هذه النظرية : « هوبز » (Hume) ، « ولوك » (Locke) « وهيوم » (Hume) ، « وروسو » (Rousseau) •

(٨١) المصدر السابق ص ١٣ — ١٤ •

(٨٢) المدخل فى علم السياسة للدكتورين بطرس غالى ومحمود خيرى (الطبعة الاولى ١٩٥٩) ص ٢٣٨ •

توماس هوبز (١٥٨٨ — ١٦٧٩)

يُعتبر « هوبز » من أعظم الفلاسفة الانجليز في القرن السابع عشر ، وقد اشتهر بأفكاره الفلسفية والأخلاقية والسياسية ، ويعتبر كتابه (التنين : (Leviathan) (٨٣) مثالا حيا لنظريته في العقد الاجتماعي ، وقد وضع « هوبز » الكتاب المذكور عام ١٦٥١ م ، وقد تعرض فيه لدراسة المجتمع السياسي والديني ، من أجل بيان مادته وصورته وقوته ، وقد قصد هوبز ، حقا ، في هذا الكتاب الممتاز ، أن يصور السلطة المطلقة بلفظه التنين Leviathan بوصفها ذلك : « الحيوان الضخم الذي يرهبه الجميع ، ولا يكاد يشبهه أى مخلوق آخر على سطح الأرض » . والدولة عند هوبز شيء خيالي من ابتداع الانسان ، ومع ذلك فقد تعدت قوة مصورها وخالقها .

ويقول هوبز في مقدمة كتابه التنين Leviathan « ان فن الانسان يستطيع أن يصنع حيوانا صناعيا . . ، بل ان الفن يستطيع أن يذهب الى أبعد من ذلك فيقلد الانسان ذاته ، ذلك بأن هذا الكائن الخيالي الهائل (Leviathan) الذي نسميه الدولة Commonwealth والذي هو من خلق الفن لا يعدو أن يكون انسانا صناعيا وان كان أعظم حجما وأشد بأسا من الانسان الطبيعي ، لقد صور هوبز الانسان وابتدعه ليحميه ويؤمنه . . . »

يتحدث هوبز في الباب الثاني من كتابه « Leviathan » عن الدولة ، بوصفها مجتمعا سياسيا ، مبينا لنا كما أن الطبيعة تتكون من ذرات

(٨٣) ويقسم « هوبز » كتابه (التنين) الى أربعة أبوابا برئيسية ، تحدث في الباب الاول منها عن « الانسان » ، ثم انتقل بعد ذلك الى الحديث عن « الدولة » بوصفها مجتمعا سياسيا (في الباب الثاني) ، وأعقب هذه الدراسة بفصل ثالث في « الدولة » بوصفها مجتمعا مسيحيا ، وبعد ذلك يتحدث هوبز في الفصل الرابع والآخر عن « ملكوت الظلام » .

مادية تتراكم وتتلاحق فتكون الأجسام ، كذلك الدولة هي في صميمها مجرد جسم سياسى تألف من تراكم بعض الجزئيات البشرية • وعنده أن أقوى دافع يحرك الانسان ، وهو في حالة الطبيعة State of nature أى قبل وجود أى حكومة ، هو الرغبة في الحفاظ على الذات • وهذه الرغبة تتولد عن رغبتين : هما الرغبة في التمتع بالحرية ، والرغبة في السيطرة على الآخرين ، وهذه الرغبات والدوافع جميعها ، اذا تمكنت من كل انسان الهبت شرارة الحروب الدائمة بين من يعيشون في مجتمع واحد أو على أرض واحدة • وهذه الحروب تجعل حياة الانسان ، على حد قوله : (قذرة ، وحشية ، قصيرة) (٨٤) •

ففي هذه الحالة الطبيعية أو حالة الفطرة ، التي سبقت تكون الحياة الاجتماعية ، نجد الانسانية في حالة عراك متصل عنيف ، حيث يختلف الأفراد في الرغبات والمصالح والأهواء ، وكل فرد في خشية من أن يقضى عليه الآخر • في هذه الحالة يجد الانسان نفسه في ترقب وتوجس ، حيث لاحق في هذه الحالة أو باطل ، لا عدالة ولا ظلم ، لا خير ولا شر ، وانما قوة وعنف ، وكل انسان يتربص بأخيه الدوائر ، دون أن يكون ثمة « سلم » بأي صورة من الصور • ومن حيث القوة الجسدية مثلاً ، يملك الأضعف ما يستطيع به قتل الأقوى اما بالالتجاء الى الخديعة ، واما بالتعاون مع غيره من المهددين بنفس الخطر • ان ثمة مساواة ، في القدرة تتساوى معها آمال الأفراد في بلوغ غاياتهم ، مما يدفع كل واحد الى أن يجد في القضاء على غيره أو قهره •

ويذهب « كوتيلانساناكيا » وهو مفكر سياسى براهمى ، كان وزيراً للإمبراطور « تشاندر اجويتا » الذى أقام دعائم امبراطوريته على أنقاض السلطان المقدونى حوالى عام ٣٢٠ ق م — الى أن الانسان كائن جشع أنانى يميل بطبيعته الى اذلال أخيه الضعيف وتسخيره لخدماته • ولذلك

(٨٤) راجع : الفصل الذى كتبه برتراند رسل والخاص بهوبز في كتابه :

History of Western philosophy .

كان قيام الحاكم ضرورة اجتماعية للحد من طغيان المصالح الخاصة وحجب الأثرة والقضاء على المشاحنات المغرضة التي تقوم بين أفراد المجتمع الواحد • ولعله سبق بهذا التحليل لطبيعة الحياة الاجتماعية ونشأة السلطة ما ذهب اليه الفيلسوف الانجليزي «توماس هوبز» ابان القرن السابع عشر الميلادي بصدد تبريره لقيام الحكم المطلق (٨٥) •

وكما تقدم ، فان هذا هو ما نجده عند هوبز ، في حالة الطبيعة ، فكل فرد يريد لنفسه كل شيء ، وكل فرد يرغب في تملك كل شيء على حساب الآخرين • انها الحرب الدائمة بين «الفرد والفرد» وبين «الكل والكل» وهي حرب من قبل «الجميع ضد الجميع» ، حرب لا هوادة فيها ولا رحمة وهي حرب لا في معنى حدث القتال وحده ، وانما هي الرغبة الملحة في القتال ، وطالما تقوم هذه الرغبة فثمة حرب لا سلام • الانسان ذئب لأخيه الانسان • وان حربا كهذه تحول دون صناعة أو تجارة أو زراعة أو ملاحه ما ، ودون العلم والأدب والرفاهية ، وبالتالي تنتفى الحياة في المجتمع ، فالكل يحيا في خوف مستمر وجزع دائم • ولو شئنا التساؤل «لن كتب النصر في حالة الصراع الطبيعي هذه ؟» لكان الجواب بطبيعة الحال ، وحسب ما ذكرنا ، أن «النصر كتب للأقوى» • ولما كانت الفضيلتان الرئيسيتان في حالة الحرب هما القوة والخديعة ، فليس بدعا أن تنعدم في حالة الفطرة الأولى مفاهيم القوانين ، والعدالة ، والملكية ، والصواب والخطأ والقوة المشتركة •

ويقول هوبز : « لا يوجد في هذه الحالة (الحالة الطبيعية) تمييز بين ما هو صحيح وبين ما ليس كذلك • فالدوافع التي يطيعها الناس هي دوافع عاطفية خالصة ، وليس ثمة معيار يتيح الحكم بقيمة أخلاقية على الانفعالات والعواطف • ولا بد من أجل ذلك أن تكون هنالك قاعدة ثابتة تحترمها جميع الأفراد • مثل هذه القاعدة أو القانون تتطلب أن يكون هنالك من قبل تشريع ، وهذا التشريع لا يمكن تحقيقه الا عقب

(٨٥) النظريات والمذاهب السياسية للدكتور مصطفى الخشاب ص ٢٢ •

اتفاق بين الأفراد ، وهذا الاتفاق يضع من ذاته حدا لحالة الطبيعة » (٨٦) ونحن نجد أيضا ، أنه حيث لا تقوم سلطة عامة يطيعها الناس ، لا توجد عدالة ، ولا يوجد ظلم . ان فكرة العدالة لا وجود لها بالفعل قبل تشكيل المجتمع (٨٧) .

والذى يتضح لنا ، من الحالة الفطرية الأولى ، أن القوى يستطيع أن يلحق الأذى بالضعيف ، دون أن يكون في وسع هذا الضعيف أن يتمرد ، أو أن يعد ذلك الأذى ضربا من « الظلم » . والا فباسم أى قانون كان لهذا الضعيف أن يعترض أو يتمرد أو يثور ؟ « أليس من حقنا أن نسأله » : لم تشكو ؟ وهل أنا ملزم باتباع هواك بدلا من اتباع هواي ؟ اننى لا أمنعك من التصرف وفقا لما تقتضى به ارادتك ، ما دامت ارادتى لا تصلح لأن تكون قاعدة لك فى تصرفك ؟

وهذا نص (من الفصل الثالث عشر — الباب الثانى) حيث يتحدث هوبز عن حالة الفطرة الأولى فيقول : « انه لمن الواضح أن الناس حين يعيشون دون قوة مشتركة تلقى فى نفوسهم الرعب ، فانهم يكونون فى تلك الحالة التى نسميها باسم حالة الحرب ، وهى حرب يشنها كل انسان ضد كل انسان . والواقع أن الحرب لا يعنى القتال أو فعل العراك ، بل هى تشير الى تلك الفترة الزمنية الممتدة التى تسود فيها ارادة التنازع عن طريق العراك المستمر . وتبعا لذلك ، فاننا لابد من أن نفهم « الزمن » بالنسبة الى طبيعة الحرب ، على نحو ما نفهمه بالنسبة الى طبيعة « الجو » فكما أن طبيعة الجو الرديء لا تتمثل فى نزول المطر مرة أو مرتين ، بل فى استمرار أكفهار الجو لعدة أيام متواليات ، كذلك لا تنحصر طبيعة الحرب فى قيام معركة فعلية ، بل فى استمرار الروح العدائية التى تقتضى على كل ثقة فى امكان قيام حالة سلمية . وأما كل ما عدا ذلك ، فهو فى صميمه ضرب من « السلم » . وفى مثل هذه الظروف (ظروف الحرب) ،

(٨٦) راجع T. Hobbes : Leviathan Chxll

(٨٧) المصدر السابق Ch xlll

لا يكون ثمة موضع لأية صناعة ، ما دامت ثمار الانتاج ستكون بالضرورة معرضة للخطر ، وبالتالي لن يكون ثمة فلاحه للأرض أو ملاحه أو استخدام لسلع تستورد عن طريق البحر ، أو اهتمام بتشييد أبنية ملائمة ، أو آلات لتحريك الأشياء الثقيلة من مكان الى آخر ، أو معرفة بالحالة الجغرافية لسطح الأرض . أو حساب للزمن أو فنون ، أو آداب ، أو حياة اجتماعية . والأدهى من ذلك كله ، أن الخوف يصبح ظاهرة عامة مستمرة ، فيخشى الناس خطر الموت العنيف ، وتصبح حياة الانسان حياة انعزالية ، فقيرة ، كريهة ، وحشية ، قصيرة ، الأمد .

وقد يعجب البعض ممن لم يحسن النظر الى الأمور حين يرانا نقرر أن الطبيعة قد باعدت بين الناس ، وأنها قد جعلتهم يميلون الى الاعتداء بعضهم على البعض ، أو التحرش بعضهم بالبعض . ولكن ، فإرجع كل منا الى نفسه ، وليعمد الى ملاحظة سلوكه . الا يحدث عندما يعترم أحدنا القيام برحلة ، أن يسلح نفسه ، ويخرج مزودا بصحبة كافية ؟ ألسنا نلاحظ أننا عندما ندخل الى مخدعنا ، نحكم اغلاق أبوابنا ، بل حتى عندما نكون بمنزلنا ، فإننا قد نغلق بالمفاتيح أدرجنا . في حين أننا نعلم تمام العلم أن ثمة قوانين وضباطا عموميين ، مزودين بالسلاح ، ومستعدين للانتقام لشتى الأضرار التي قد تلحق بنا ؟ ولكن أى ظن هذا الذى نخلنه بأشباهنا من الناس حينما نمضى مسلحين ، أو بأقراننا من المواطنين حينما نغلق على أنفسنا باب مخدعنا ، أو بأطفالنا وخدمنا حينما نغلق بالمفاتيح أدرجنا ؟ أليس فى هذا المسلك اتهام للبشرية ؟ اتهام بالأفعال قد لا يقل خطورة عن اتهامى لهم بالأقوال ؟ ولكننا فى الحقيقة لا ننتهم بذلك طبيعة الانسان : فان رغبات الانسان وأهواءه الأخرى ليست فى حد ذاتها خطيئة . كذلك لا تعد الأفعال الصادرة عن تلك الأهواء بمثابة آثار ، اللهم الا اذا ظهر قانون يحرمها وينهى عنها . .

ويعيب هوبز ، وهو الذى يرى أن الخوف هو الذى ألف الاجتماع وليس الا الخوف هو الذى يحفظه ، نقول يعيب هوبز بحدة على أرسطو (م ١٦ — الماوردى)

أنه قرر أن الانسان حيوان اجتماعى : « كل دولة هى بالبدئية اجتماع ، وكل اجتماع لا يتألف الا لخير ما دام الناس أيا كان لا يعملون أبدا شيئا الا وهم يقصدون الى ما يظهر لهم أنه خير ، فبين اذن أن كل الاجتماعات ترمى الى خير من نوع ما ، وأن أهم الخيرات كلها يجب أن يكون موضوع أهم الاجتماعات ذلك الذى يشمل الآخر كلها ، وهذا هو الذى يسمى بالضبط الدولة أو الاجتماع السياسى » (٨٨) •

وقد علمنا من قبل أن الماوردى يذهب أيضا مذهب أرسطو فى أن الانسان اجتماعى بالطبع ، ومواطن بطبعه ، أنه حيوان سياسى ، ومن ثم فقيام المجتمع السياسى حدث طبيعى •

ومذهب اسبينوزا فى المجتمع هو أيضا محصل مذهب هوبز تماما ، ولو أنه يصدر عن مبادئ ميتافيزيقية مخالفة على الاطلاق ، فان اسبينوزا لا ينكر الحرية • فى البسيكولوجيا ولم يك يجدها فى الدولة • • حال الفطرة هى على رأيه أيضا حالة حرب ، والصورة التى يتخذها من الانسان فى هذه الدرجة الأولى الحقية بشعة ولو أنها صورة خيالية محضة • وانسان اسبينوزا الطبيعى هو نوع من الوحش لا يميز الخير من الشر لا عقل ولا أدب له • أكثر من ذلك أن انسان اسبينوزا مع ارتقائه الى الحياة المدنية يظل منحط ميت الوعى فى المجتمع كما هو فى حال الفطرة ، تقوم السلطة العامة عوضا عنه بما يجب عليه هو أن يفعله أو الا يفعله ، وتقرر على جهة السيادة ما هو العادل وما هو غير العادل ، لأن العقل للمواطن لا يستطيع هو وحده أن يعرفه وبهجة أن الفرد عاجز تلقاء الجماعة يقدمه اسبينوزا ، بلا قيد أو رحمه ، قربانا للسلطان الذى لا يدبر أمر الرعايا الا بالترغيب والترهيب » (٨٩) •

(٨٨) السياسة (الكتاب الاول) لارسطو طاليس ترجمة الاستاذ أحمد لطفى السيد .

(٨٩) مقدمة بارتمى سانتهيلير لكتاب السياسة لارسطو طاليس ص

وهكذا يتضح لنا أن « القوة » أو بالأحرى « حق الأقوى » ، هو الحق الطبيعى الواقعى الذى يمكن اعتباره فى حالة الفطرة بمثابة المبدأ الأوحد لسائر الحقوق • ولكن هذه الحالة الطبيعية التى تجعل الناس يتخبطون فى الأنانية والحقد لابد أن يهجرها الانسان والا تعرض للفناء ، وليس من سبيل الى خلاصه وسلامه الا بالخروج منها • والانسان يملك مقومات الخروج من حالة الشقاء هذه فبعقله الحسابى الذى يختار من بين النتائج أنفعها له ، وبغريزة حب البقاء التى دعت فى حالة الطبيعة الى تلك الحرب الوحشية استطاع الانسان أن يدرك أنه لابد من الخلاص من تلك الحالة فى سبيل سلامة وأمنه واستقراره الاجتماعى • ومن هنا فقد فطن الناس الى أن أعظم خير يمكن أن يحصلوا عليه فى هذه الحياة الدنيا هو أن ينعموا بضرب من « السلام » الذى يمكن أن يكفل لهم حياة آمنه مطمئنة • ولكن الناس لم ينظروا الى « السلم » على أنه واجب أخلاقى ، بل هم قد وجدوا فى مسالة الآخرين مجرد واسطة أو وسيلة يمكنهم عن طريقها بلوغ غايتهم الطبيعية القصوى الا وهى « السعادة » •

فالمساواة فى الحقوق الطبيعية لجميع الناس تجعل من حالة الطبيعة حالة حرب كامنة تزعزع احترام الحياة البشرية ، فليس ثمة وعد بحفظ هذه الحياة • ولما كان السبب الوحيد للعمل بارتباط معين هو اعتبار المنفعة المباشرة لهذا العمل ، فلا بد من قيام سلطة عليا متأهبة للتدخل من أجل انزال العقوبة بمن ينقض هذا الارتباط (٩) •

والغريزة الاجتماعية التى يرى بعض الفلاسفة أنها بمثابة الأساس لفكرة الدولة ليست واقعة نهائية • فالعقل يبين أن الغريزة الاجتماعية لها سبب أبعد من ذلك ، أعنى غريزة حب البقاء • ولا مفر من الصراعات والمنازعات التى لا تنقطع ما دام الناس يعيشون فى حالة طبيعية • ويدل العقل على أن السلطة الجماعية هى وحدها القادرة على

- أن تجمع في ارادة واحدة متسركة مجموع اراداته في حالة حرب
- فالدولة هي من ثم شخصية فريدة تعمل من أجل صالح الجماعة^(٩١) •

ومعنى ذلك أن الجميع قد أدرك أنه لابد من شيء عام يزود بساطة
قادرة على تحطيم كل مقاومة فردية ، لابد من انسان عام « حناعى »
يعلو الأفراد ، فكانت الدولة • وكيف قام هذا الشخص الصناعى ؟ ان
الأفراد هم الذين كونوه بميثاق أبرموه فيما بينهم بمحض ارادتهم
ليخرجوا من حالة الطبيعة (بشرورها) الموحشة من أجل الخلاص
والسلام • ومن هنا فقد كان على كل فرد أن يتنازل عن حقه المطلق في
سائر الأشياء • ولم يكن من الممكن أن يتنازل الفرد عن هذا الحق المطلق ،
الا اذا ضمن فى الوقت نفسه أن يكون هذا التنازل متبادلا بينه وبين
الآخرين • وقد تم هذا التنازل — كما يرى هوبز — فى هذه الصيغة التى
يثبتها فى كتابه « العملاق » وهى : « أنتنازل لهذا الفرد أو هذه الجماعة
عن كافة حقوقى وسلطاتى التى أملكها لحكم نفسى ، على أن تتنازل أنت
بدورك عن نفس الحقوق لنفس الفرد » • وهذا التبادل الذى بين
الحقوق ، انما هو ما يعنيه هوبز بكلمة « العقد » Contract •

ومعنى هذا أن التعاقد الذى يتم بين الأفراد حينما يتعهد كل منهم
باحترام حقوق الآخرين فى مقابل احترام الآخرين لحقوقه انما هو أساس
الاجتماع أو العمران البشرى ولا قيام لحالة السلم ان لم يتعهد الأفراد
فى الوقت نفسه بأن يحترم كل منهم هذا العقد الاجتماعى •

واذا كان التحالف أو التعاقد بين الناس ليست له صورة متحققة
بالفعل فان هذا لا يغير من واقع الأمر فى شيء • فحيثما كان هنالك مجتمع
منظم لزم أن نستنتج استنتاجا صحيحا صائبا ضرورة قيام هذا التعاقد
ذلك لأنه لم يكن هنالك مجتمع منظم مالم يجمع بين أفراد هذا النمط
من التفاهم المشترك •

فأصل الدولة عند هوبز ، أصل ذلك الكائن الصناعى الضخم
 Leviathan ، ذلك الاله المخلوق الذى يكفل لنا السلام
 والطمأنينة بفضل تلك القوة الكامنة فيه من جراء ما نشأ له بمقتضى العقد
 من حق تمثيل كل عضو من أعضاء المجتمع — نقول ان أصل الدولة ، أن
 عقدا أبرم بين الأفراد جميعا نقل الحق الطبيعى المطلق الذى كان لكل فرد
 على كل شئ ، الى شخص ليس طرفا فى العقد ، وبالتالي فارادة هذا
 الأخير وحدها تحل محل ارادة الجميع وتمثلهم • ولأن هذا الشخص لم
 يكن طرفا فى العقد الذى ارتبط به الجميع لصالحه فليس ثمة التزام
 يلتزم به كآثر لهذا العقد • لقد اتفق الأفراد فيما بينهم على أن ينزلوا جميعا
 لهذا السيد عن كل حق أو حرية تضر بالسلام والأمن ، ومن ثم فهم
 مرتبطون بينما لم يرتبط من سوده • ولا يتصور استنادا الى عقد هوبز
 هذا الا أن يكون صاحب السيادة مطلقا لا يمثل الأمر ولا يقيد بقيد، ذلك بأنه
 تلقى من العقد حقوقا لا تقابلها التزامات ، فهذا الشخص اذن ، حر فيما
 يفعل لاراد لمشيئته ولا معقب على ارادته ، سلطاته مطلقة لا يتنازل عنها
 ولا يسلبه اياها أحد وكل من يثور عليه ناكث لعهد ، وخارج على نظام
 الجماعة ، فليس من حقه أن يستعيد ما سبق أن تنازل عنه • (ذلك بأن
 السيادة تنطوى على امتناع تام عن كل مقاومة أو تدخل من جانب
 المواطنين) • ويضع « هوبز » جميع المساطات فى يد الحاكم • • « فالحاكم
 فوق القوانين ، ذلك لأنه هو الذى يضعها ، وهو ليس ملزما بها ، اذ فى
 وسعه أن يتخلص منها بقوانين أخرى » (٩٢) •

ولم يكن « الظلم » ممكنا قبل قيام العقد الاجتماعى : فاننى لست
 ملزما — قبل أن أعد شخصا بأمر ما — أن أحقق له هذا الأمر • ولكن ،
 هب أننى وعدت شخصا بأمر ما ثم لم ألبث أن تحققت من أن مصلحتى
 العليا تقتضى على ألا أنفذ ما قطعت على نفسى عهدا بتنفيذه ، فهل يكون
 من مصلحتى أن اراجع عن وعدى السابق ؟ هذا ما يجيب عليه هوبز
 بالنفى ، فان من واجبنى أن أنفذ ما قطعت عهدا على نفسى بعمله ، اذا كنت

ألتمس السلم حقا • أما اذا قيل : « وما العمل اذا كنت قد تخليت عن طلب السلم ؟ » كان رد هوبز على هذا التساؤل : « اذن ، فأنت تعود بنفسك الى حالة الحرب ، وعندئذ سوف تجد الآخرين أيضا في حالة صراع مستمر معك • ولما كان الراغبون في السلم أكثر عددا من الراغبين في الحرب ، فإنهم سيكونون بالطبع أشد بأسا وأعظم قوة » •

والعلاج الناجع ، عند هوبز ، لحالة التعدى التى يخرق فيها الفرد عقدا اجتماعيا ، فيعود بالمجتمع الى حالة الحرب ، يقتضى أن نضع القوة في خدمة العقود ، بحيث لا يجرؤ أحد على الاخلال بالتزاماته أو خرق عهوده ، خشية أن يقع تحت طائلة تلك القوة العقابية الكبرى • وسبيل حماية القانون الطبيعى هو خضوع جميع أفراد المجتمع لقوة مدنية مشتركة تكون هى حامية القانون وراعية العقود • ولكى يتحقق ذلك يجب أن تكون سلطة الحكومة غير مشروطة ، لأنها اذا كانت كذلك فان كل انسان يكون من حقه الحكم على ما اذا كانت الحكومة قد أوفت بشروط السيادة المخولة لها ، ومن ثم على ما كان من حقه الامتناع عن تأييدها أو مساعدتها في القيام بمهمتها • وهذا بالطبع يؤدى الى اضعاف قدرة الحكومة على تأدية واجباتها ، نحو أفراد المجتمع • وهذا هو ما يعبر عنه هوبز بقوله ، ان العهود بدون السيف (القوة) ليست الا كلمات لا قدرة لها قط على المحافظة على حياة الانسان ، والكلمات أضعف من أن تستطيع رد طموح الأفراد ، أو طمعهم ، أو غضبهم ، أو انفعالاتهم الأخرى الا اذا اقترنت بقوة تؤيدها ، أو بسلطة تثبت الخوف في نفوسهم » (٩٣) •

زومن واجبات صاحب السيادة نحو الرعية ، عند هوبز ، العمل على تحقيق غاية الدولة في الأمن والسلام العام ، ذلك أن الأفراد اجتمعوا بارادتهم في جماعة سياسية يعيشون في ظلها في أمن يكونون به أسعد حالا مما كانوا عليه في حالة الفطرة أو الطبيعة • وحرية الرعايا بالتالى هى جواز عمل كل مالا يحرمه القانون • وصاحب السيادة عند هوبز عليه

واجب تحقيق المساواة لرعاياه أمام القانون وازاء الأعباء العامة ، وعلى
الا تتغلب الأنانية فيحتكر البعض الثروات ويحرم الآخرون • وهكذا
نرى من هذه الناحية ذلك الوحش الخيالى Leviathan وقد أضحى
على غير ما كان يتوقع منه حر النزعة خيرا • وعلى « الأمير » عند هوبز
أن يعمل على أن يكون دائما قويا ناجحا • وفى مقابل حماية الحكومة
للنظام عند هوبز ، يقابل ذلك الطاعة والرضوخ من قبل المواطنين ، وهذا
الحق هو واجب على المواطنين يرتب لهم حقا مقابلا هو حماية الحكومة
لهم من اعتداءات الآخرين • ولكن هوبز يتخطى هذا الى القول — كما
سبق ذكر ذلك — بالموافقة غير المشروطة من قبل المواطنين ، فحينما يتم
تشكيل الحكومة بموافقة المواطنين ، يفقد المواطنون كل حق لهم قبلها ،
لأنه بعد الموافقة الأولى تصبح الحكومة مخولة بكافة الصلاحيات التى
تبيح لها التصرف من تلقاء نفسها ، وبغير قيود أو شروط (٩٢) •

ذلك لأن العقد السياسى ، عند هوبز ، ليس سوى تنازل الأفراد
عن سائر اراداتهم الفردية لارادة واحدة مشتركة مطلقة : وهى ارادة
الحاكم • وهذا العقد يربط بين الأفراد جميعا فيما بينهم وبين الحاكم ،
دون أن يكون ثمة التزام من قبل الحاكم نحوهم ، ما دام أن الحاكم
لا يدين لأحد بشىء •

وسيادة الحاكم ، على حسب هذا المنطق الهبزى ، سيادة مطلقة
لا يحدّها حد ، مادام الحاكم هو الدولة نفسها ، ومن هنا كانت تسمية
هوبز للحاكم باسم (التنين) حيث أن الحاكم فى نظره هو « الاله
الأرضى » الذى يكفل للمجتمع أسباب السلم والاستقرار ، فهو الذى
يضع القوانين وينظم العلاقات بين المواطنين ، ويقر السلام ويعلن الحرب ،
ويختار الوزراء ويعين الموظفين ، ولا يقر هوبز بمبدأ توزيع السلطات بين
الملك والبرلمان (الشعب) ، بل هو يقرر على العكس — أن « السيادة
المنقسمة » هى تناقض فى الحدود • وان أخطر ما يؤدى بالدولة الى

(٩١) راجع كتاب : « تاريخ الفلسفة الغربية » لبراتراندى رسل .

التهلكة هو أن يأفل نجم السلطة المطلقة المتماسكة فيها ، وأن السماح للأفراد بمجادلة صاحب السيادة في سلطاته ، وكذلك القول بالحكومة المختلطة واخضاع صاحب السيادة للقانون ، كل هذه أمور تعود بالأفراد الى حالة الطبيعة الأولى وبالتالي تنهار الدولة • والارادات الفردية ، بحسب منطق هوبز ، ارادات هزيلة متخاذلة ، بينما ارادة الحاكم المطلق ارادة فعالة ، وبهذا يضع هوبز بين يدي الحاكم جميع السلطات ، وتصبح ارادته بهذا هي القوة بعينها • فالحاكم فوق القوانين ، ذاك لأنه هو الذى يضعها ، وهو ليس ملزماً بها ، اذ في وسعه أن يتخلص منها بقوانين أخرى » (٩٤) وأشكال « الكومنولت » في نظره يحددها معيار واحد ، هو عدد الأشخاص الذين يمارسون السلطة • فاذا اجتمعت السلطات كلها في يد حاكم واحد ، كانت الدولة ديمقراطية ، واذا كان المجلس يتألف من عدد محدود من الأفراد كانت الارستقراطية » (٩٦) •

وقد جعل هوبز « الكنيسة » نفسها خادمة الدولة ، حيث أن الكنيسة تستمد سلطاتها من الدولة ، فالعقيدة ليست من عمل العقل وانما هي من صناعة السلطة • وفي حالة الطبيعة يصبح من حق كل مسيحي أن يفسر قوانين الكتاب المقدس وفق ما يهديه اليه عقله ، ومن هنا تتعدد القوانين المسيحية بقدر تعدد مفسريها ، وهو ما يسبب تضارباً خطيراً في التفسير في حالة الطبيعة الأولى • وبمقتضى العقد السياسى عند هوبز فقد انتقل

Hobbes : Leviathan ch . XVIII (٩٥) راجع :

Hobbes : Leviathan ch XIX (٩٦) راجع وتمنح قوانين (مانو)

الملوك سلطة دكتاتورية من طبيعة ثيوقراطية لانها مستمدة من سلطة الاله الاكبر (براهما) الذى لا يغلب على امره (قوانين مانو : تعتبر دستور التقدم ديانة هندية) • وصورت بعض النصوص الملوك في صورة وزراء الاله ينفذون اوامره ، ويسهررون على تطبيق احكامه ، ويستمدون من طبيعته القدسية ما يراولونه من اعمال السيادة المطلقة « فهم انصاف الالهة في الثواب انسانية . ويجب احترامهم الى درجة العبادة وينطوى هذا التصوير على تقرير السسمى مظاهر التالية المطلق للملوك Une spotheose absolue نقلا عن النظريات والمذاهب السياسية للدكتور مصطفى الخشاب • طبعة ثانية ١٩٥٨ ص ١٧ .

حق كل فرد في ذلك التفسير ، مع غيره من الحقوق الأخرى الى الشخص الصناعي (الدولة) ، وهكذا لا يصبح صاحب السيادة بمقتضى عقد هوبز ارادة الدولة فحسب ، وانما ارادة الكنيسة كذلك . وهكذا تنتقل مملكة السماء بفضل العقد السياسى مملكة مدنية فلا يصبح لهيئة روحية ما أن تدعى لنفسها سلطة ما الى جانب صاحب السيادة . وصفوة القول أن الدولة هي مصدر الدين والأخلاق والسياسة ، فلا مجال لفصل الكنيسة عن الدولة ، ما دامت الكنيسة لا تملك حق التشريع أو الاشراف الاجتماعى أو التوجيه الخلقى .

ونحن نجد أن نظرية هوبز ، بعد هذا العرض الموجز ، تقر صراحة هي وتعاليمه السياسية ، الديكتاتورية والاستبداد وتعتبرهما من ضرورات المجتمع والحياة ، وهو بهذا يجعل من الفرد عبدا لا ارادة له ولا حقوق الا ما يتفضل به صاحب السيادة الذى تجمعت له السلطات والحقوق . وقد غدت الدولة عند هوبز أشبه بجهاز آلى يديره صاحب السيادة المطلقة أى الحاكم . ونظرية هوبز لا تعطى الشعب الحق في تغيير الملك مهما كان السبب ، كما أنه لم يفرق بين شخصية الدولة وسيادتها السياسية وشخصية الملك المنفردة . ويجب أن نلاحظ أن هوبز عندما بنى عقده الاجتماعى على تنازل الانسان عن كل حقوقه الطبيعية الى ملك مطلق ، فلقد كان لهذا الأمر علاقة بالظروف التاريخية التى كانت تمر بها إنجلترا آنذاك ، وكانت فلسفته السياسية بمثابة رد على الاضطراب السياسى الاجتماعى الذى تعانيه بلاده عقب ثورة « كرمول » التى حاولت أن تطيح بعرش عائلة ستيوارت في إنجلترا حينذاك والتى كان هوبز من أقرب المقربين اليها .

جون لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤)

عرض لوك لنظريته السياسية عن الدولة في مؤلفه « الحكومة المدنية » ، وإذا كان هوبز من أنصار السلطة المطلقة ، فان لوك ينادى بضرورة تقييد

هذه السلطة ، بل انه كان يحقد أشد الحقد على الحكم المطلق ، ويحرق عطشا (يحترق تعطشا) الى نظام تركز فيه السلطة الى رضا الشعب • ومن هنا كان دفاعه عن ثورة ١٦٨٨ دفاعا مجيدا على أساس أن جيمس الثاني أدخل بشروط العقد الاجتماعي ، ومن ثم فانه يحق للشعب الثورة عليه وعزله • ولم يقتصر أثر نظرية لوك السياسية على انجلترا فحسب ، بل انها دخلت فرنسا ، وانتقلت عن طريق روسو الى الثورة الفرنسية ، كما دخلت مستعمرات أمريكا الشمالية وانتقلت عن طريق « صموئيل آدامز » و « توماس جفرسون » الى اعلان الاستقلال الأمريكى •

وقد علم (لوك) أن هناك (قانونا طبيعيا) متأصل الجذور فى طبيعة الانسان العاقلة ، وأن هناك « حقوقا طبيعية » وجدت بفضل هذا القانون ، وأن هناك خطة طبيعية للحكم تعد بمقتضاها كل السلطة السياسية أمانه لصالح الناس « لضمان أن يعيشوا على هدى القانون الطبيعى متمتعين بالحقوق الطبيعية » ؟ والناس أنفسهم منشئوا هذه الامانة المنتفعون بها فى نفس الوقت (٩٧) •

ويعتقد « لوك » أيضا فى « حالة الطبيعة » وفى أن هذه الحالة سابقة لأى نظام حكومى ، ولكنه لم يصور هذه الحالة بالصورة القائمة التى وضعها هوبز ، فهذه الحالة الطبيعية عند هوبز « حالة حرب خروس يشنها الكل ضد الكل ، وتكون حياة الانسان فى ظلها « قذرة وحشية قصيرة ، وحالة الطبيعة التى يقول بها « لوك » بما تنطوى عليه من حقوق معترف بها ، هى فعلا مجتمع سياسى • فما هو ؟ اذن ، التصور الذى يتصور به لوك حالة الفطرة الطبيعية الأولى ؟

يصور لوك حالة الطبيعة على أنها خاضعة للعقل ، وأن الناس خلقوا أحرارا متساوين ، والقانون الطبيعى هو قانون الحرية والمساواة • ويستمد الانسان من هذا القانون حقوقه الفطرية وتمثل هذه الحقوق

(٩٧) من مقدمة سيرارنست باركر لكتاب العقد الاجتماعى ص ١٦ •

الأساسية للحياة الانسانية في ثلاث : حق الحرية ، وحق الملكية ، وحق الحياة • وليست « الحرية الكاملة » ، وكذلك المساواة — في حالة الطبيعة — رخصة مطلقة لا قيد عليها ، وانما العقل الطبيعي ذاته يعلم الناس أنهم جميعا متساوون مستقلون الواحد عن الآخر ، فليس لواحد أن يضر بغيره في حياته ، أو صحته ، أو ماله • فحالة الطبيعة عند لوك هي اذن حياة بهيجة ومطمئنة الى حد معقول •

ويقول جون لوك عن حالة الطبيعة هذه : « هي حالة مساواة تكون فيها القوة كلها والاختصاص متماثلين لدى الجميع وليس لأحد منها أكثر مما لغيره ، لأنه ما من شيء أكثر وضوحا من أن المخلوقات التي تنتمي الى نفس النوع والمرتبة والذين يولدون وقد هيئت لهم جميعا بلا تمييز نفس المزايا الطبيعية ونفس القدرات ، يجب أن يكونوا متساوين ، الواحد منهم مثل الآخر بلا خضوع ولا تبعية ، الا اذا كان ربهم وسيدهم جميعا قد جعل ، باعلان صريح لارادته ، واحدا منهم فوق الآخر ومنحه بصورة محدودة واضحة حقا لا ينازع في السيطرة والسيادة » (٩٨) •

ثم يقول لوك : « ولكن رغم أن هذه الحالة هي حالة حرية، فانها مع ذلك ليست حالة فوضى مطلقة : فعلى الرغم من أن الانسان في هذه الحالة يتمتع بحرية لا حدود لها في التصرف في شخصه وفي ممتلكاته فانه لا يملك مع ذلك حرية تدمير نفسه ، أو تدمير أى مخلوق في حياته ، الا اذا كان هناك غرض أنبل من مجرد المحافظة على نفسه يتطلب تدميرها • فحالة الطبيعة لها قانون طبيعى يحكمها ، وهو ملزم لكل واحد ، والعقل — وهو ذلك القانون الذى يعلم الجنس البشرى كله ، اذا لجأ الناس اليه ، أنهم لما كانوا جميعا متساوين ومستقلين فانه ينبغى الا يضر أى واحد منهم الآخر في حياته أو صحته أو حريته أو ممتلكاته » (٩٩) •

(٩٨) الرسالة الثانية في الحكم المدنى من كتاب العقد الاجتماعى لجون لوك . هيوم . روسو ترجمة عبد الكريم احمد (الالف كتاب) ص ٢٤٦ .
(٩٩) المصدر السابق ص ٢٤٧ •

والطبيعة عند لوك لا تجيز التسر والتشدي على حقوق الآخرين ، لأن قانونها يرخص لكل انسان أن يحمي الضعيف من القوى المعتدى ، وأن يقتص له منه حتى يسود السلام : « وحتى يمكن كبح جماح جميع الناس من الاعتداء على حقوق الآخرين ومن إلحاق الضرر الواحد منهم بالآخر ، ولضمان مراعاة قانون الطبيعة الذى يرمى الى السلام والمحافظة على الجنس البشرى كله ، وضع تنفيذ قانون الطبيعة ، فى تلك الحالة ، فى يد كل انسان ، بحيث ان كل شخص له حق فى معاقبة المعتدين على هذا القانون الى درجة تحول دون خرقه • لأن قانون الطبيعة ، مثل كل القوانين الأخرى التى تتصل بالآدميين فى هذه الدنيا ، يكون عديم الجدوى اذا لم يكن فى حالة الطبيعة من ادية القوة لتنفيذ هذا القانون ، وبذلك يحافظ على الأبرياء ويكبح جماح المعتدين » (١٠٠) •

غير أن هناك عدة نواحى من النقص فى حالة الطبيعة هذه ، فحالة السلام غير مضمونة ضمانا تاما ، حيث ان عبث رغبات النفوس يعرض السلام للأخطار ، كما أن كل انسان فى نزاع هو طرف فيه ، بمعنى أنه هو الخصم والحكم فى وقت واحد ، أو هو القاضى والجلاد ، لأن عليه أن يعتمد على نفسه اعتمادا كليا فى الحفاظ على حياته : « فعندما يكون الناس هم القضاة فى قضاياهم ، كما هو الأمر فى حالة الطبيعة ، ينجم عن ذلك ثلاث نواحى من النقص — تكون الأحكام متحيزة ، وتكون قوة تنفيذ الأحكام غير ملائمة ، وتختلف الأحكام التى يصدرها الأشخاص المختلفون فى القضايا المماثلة • ومن ثم فإن الأمر يتطلب ثلاثة أشياء لعلاج هذا النقص أولها قاض يطبق القانون بلا تحيز ، وثانيها قوة تنفيذية تفرض أحكام القاضى ، وثالثها جهاز تشريعى يفرض قواعد محددة لاصدار الأحكام بمقتضاها • ولكى يمكن تحقيق هذا العلاج يتنازل الناس كل منهم عن سلطته فى العقاب كفرد (وليس كل سلطاتهم كما يقول « هوبز » وخصوصا كل سلطاتهم على ما يمكن) وتصبح ممارسة هذه السلطة

قاصرة على من يعين من بينهم (أى الجهاز التنفيذى) على أساس تلك القواعد التى يتفق عليها أفراد المجتمع أو من ينيونهم عنهم لهذا الغرض (أى جهاز تشريعى يتكون اما من الناس أنفسهم أو من ممثليهم) « (١٠١) •

ويعبر لوك عن ذلك بقوله : « اذا كان الانسان يتمتع ، كما قلنا ، فى حالة الطبيعة بكل هذه الحرية ، واذا كان هو السيد المطلق على شخصه وممتلكاته ، مساويا الأعظم الناس ولا يخضع لأحد ، فلماذا اذن يتنازل عن حريته ؟ لماذا يسلم فى هذه السيادة ويخضع نفسه ، لسيطرة أى سلطة أخرى واشرافها ؟ والجواب الواضح على ذلك ، أنه رغم كونه يتمتع فى حالة الطبيعة بمثل هذا الحق ، فان تمتعه به غير مؤكد ومعرض باستمرار لاعتداء الآخرين ، لأنه لما كان الجميع ملوكا مثله وكل انسان مساو له وهم فى الغالب لا يراعون بدقة حقوق المساواة والعدالة ، فان تمتعه بممتلكاته فى هذه الحالة يكون غير مأمون وغير مستقر الى حد بعيد جدا •

ويجعله ذلك مستعدا لهجر هذا الوضع الملىء بالمخاوف والأخطار المستمرة ، مهما كانت الحرية التى يتمتع بها فيه ، وهناك من الأسباب ما يدعو المرء أن يسعى ويريد الانضمام الى مجتمع مع آخرين متحدين فعلا ، أو يفكرون فى الاتحاد ، من أجل المحافظة المتبادلة على حياتهم وحياتهم وممتلكاتهم • • فالهدف الرئيسى الأكبر من اتحاد الناس فى مجتمعات منظمة ووضعهم أنفسهم تحت حكم ما ، هو اذن المحافظة على « ملكيتهم » (١٠٢) •

(١٠١) راجع : مقدمة سيرارنست باركر لكتاب العقد الاجتماعى ص ٢١

(١٠٢) الحكم المدنى لجون لوك هون كتاب العقد الاجتماعى ص ٣٢٧

ومن هنا يرى الناس ضرورة الخروج عن الحالة الطبيعية والخضوع الى أحكام المجتمع وسلطته المحايدة التي تكفل الحقوق التي يخولها القانون الطبيعى للانسان ضمانات دستورية ، وهذا هو السبب الرئيسى فى قيام السلطة العليا • ومن ثم تعاقد الأشخاص فيما بينهم على حصر السلطة فى شخص واحد أو بضعة أشخاص يمثلون المجتمع كله « وهكذا نستطيع أن نرى الى أى حد يغلب أن الناس الذين كانوا أحرارا بالطبيعة خضعوا برضاهم اما لحكم أبيهم أو اتخذوا ، من عدة عائلات مختلفة ، مكونين حكومة ، يعهدون بالحكم عادة الى رجل واحد ويفضلون أن يخضعوا لقيادة شخص واحد دون أن يضعوا صراحة أية شروط تحدد سلطته أو تنظمها اذ اعتبروها — لأمانته وحكمته — فى مأمن • • » (١٣)

فالمجتمع السياسى ، اذن ، يتولد عند لوك ، عن رضا الأفراد ، حيث يتنازل الأفراد عن بعض حقوقهم — لا عن جميع حقوقهم كما يذهب الى ذلك هوبز — بقدر ما يكفى لايجاد السلطة العامة ويكون الملك أحد طرفى العقد ولا يحق له البقاء على عرسته الا ما دام موفيا لشروط العقد محافظا على حقوق الأفراد ، ما دام الملك (أو رئيس الدولة) محترما لنصوص ميثاق التعاقد مع أفراد الشعب ، ساهرا على تنفيذها بدقة ، فان الأفراد هنا ملتزمون له بالطاعة فى مقابل ذلك واذا قصر أحد الطرفين فى التنفيذ ، أصبح الطرف الآخر فى حل من التزاماته • « وكل انسان بقبوله مع الآخرين تكوين جسد سياسى واحد فى ظل حكومة واحدة ، رتب على نفسه التزاما قبل كل شخص فى هذا المجتمع بأن يخضع لقرار الأغلبية وبأن يشملته هذا القرار ، والا كان الاتفاق الأسمى الذى بمقتضاه يندمج هو والآخرين بلا معنى • • » (١٤)

فالدولة — عند لوك — جهاز نشكله بارادتنا سعيًا لخيرنا • ومن هنا نرى أن الرضا وحده هو أصل كل سلطة سياسية شرعية ، والرضا هنا

(١٠٣) المصدر السابق ص ٣١٩ •

(١٠٤) المصدر السابق ص ٣٠٩ •

وحده — وليس الفتح الذى يعتبره بعض فقهاء الحكم المطلق أصل السيادة الشرعية — هو أصل وأساس الدولة عند لوك ، فليس من المستطاع البتة اقامة أى شكل من أشكال الحكومات من غير رضا الشعب ، ومن هنا يتعذر عقلا تصور قبول الناس للحكومة المطلقة أو الرضا بها مختارين •

ويعبر جون لوك عن ذلك تفصيلا بقوله : « لما كان الناس ، بالطبيعة جميعا أحرارا ومتساوين ومستقلين ، فلا يمكن انتزاع أى شخص من حالته واخضاعه للسلطة السياسية لشخص آخر الا برضاه ، ويتم ذلك باتفاقه مع أشخاص آخرين على أن ينضموا الى بعضهم البعض ويتحدوا فى مجتمع لراحتهم وسلامتهم وعيشهم فى سلام ، كل واحد منهم قريب للآخرين ، يتمتع بما يملك مطمئنا وبقدر أكبر من الأمن ضد أى اعتداء من الخارج • وأى عدد من الناس يستطيع أن يفعل ذلك ، لأنه لا ينطوى على اضرار بحرية الباقين ، فهم يتركون كما كانوا فى حرية حالة الطبيعة • وعندما يقبل أى عدد من الناس فيما بينهم أن يكونوا مجتمعا أو حكومة واحدة فانهم يصبحون مندمجين ويكونون جسدا سياسيا للأغلبية فيه حق التصرف بما يشمل الباقين ••• وعندما يكون أى عدد من الناس مجتمعا ، بموافقة كل فرد منهم ، فأنهم بذلك جعلوا هذا المجتمع جسدا سياسيا لديه سلطة التصرف باعتباره جسدا واحدا ، ولا يكون ذلك الا بإرادة الأغلبية وقرارها » (١٠٥) •

« وهكذا فان ما يبدأ أى مجتمع سياسى ، وما يكون هذا المجتمع فعلا ، ليس سوى اتفاق عدد من الناس الأحرار ، الذين يمكن أن تقوم بينهم أغلبية ، على الاتحاد والاندماج فى مثل هذا المجتمع • وهذا هو — وهو وحده — الذى قامت عليه بداعة ، أو يمكن أن تقوم عليه ، أى حكومة شرعية فى العالم » (١٠٦) •

(١٠٥) الحكم المدنى لجون لوك ضمن كتاب العقد الاجتماعى ص ٣٠٨ •

(١٠٦) المصدر السابق ص ٣١٠ •

وإذا لم يخضع الناس لما تتخذه الأكثرية من قرارات ، اضطراب جهاز الدولة وتعذر الحسم في شئونها وسادت الفوضى ، وتعطلت أجهزة الدولة عن تحقيق غايتها : « ان ما يصنع المجتمع ويلم شعث الناس من حالة الطبيعة المتفككة ويضمهم في مجتمع سياسى ، هو اتفاق كل واحد منهم مع الباقيين على الاندماج والعمل بوصفهم جسدا واحدا ، وبذلك يصبحون مجتمعا منظما متميزا » (١٠٧) •

فالسلطة السياسية عند لوك هي اذن تراض مشترك وعقد ارادى ، لأن رضاء المجتمع ، عند لوك ، متساوون عقلا وحرية ، والغرض من العقد الاجتماعى صيانة الحقوق الطبيعية ، وليس محوها لمصلحة الملك كما يذهب هوبز ، ويفسر لوك معنى القبول والرضا تفسيرا طريفا ، فهو ليس رضى وبالمعنى الحديث نتيجة للاستفتاء العام ، بل هو يرى أن مجرد وجود مواطن داخل حدود دولة من الدول يعنى رضاه عن هذه الدولة •

ولكن ما هو موقف الشعب من السلطة الحاكمة اذا قصرت في أداء واجباتها أو خرجت على تعهدات الميثاق وأخلت بشروطه ؟

ونكرر القول ان غاية لوك من العقد الاجتماعى ، اقتضت أن يكون الجميع أطرافا فيه بما فى ذلك أعضاء الهيئة الحاكمة ليلتزموا به جميعا ، أن الناس لم ينزلوا عن حرياتهم وحقوقهم الطبيعية جمعاء ، وانما عن ذلك الجزء اللازم منها لحماية مصالحهم والمحافظة على ممتلكاتهم ، فالأفراد لا يتنازلون عن حقوقهم الا بالقدر الذى يتيح للسلطة العامة أن تقوم بواجباتها في حدود التعاقد المبرم : « ان السلطة السياسية هي تلك السلطة التى كان يملكها كل شخص في حالة الطبيعة ثم سلمها الى المجتمع ، ومن ثم الى الحكام الذين نصبهم المجتمع على نفسه بشرط صريح أو ضمنى هو أن تستعمل هذه السلطة لمصلحة أفرادها وللمحافظة

على ممتلكاتهم» (١٠٨) * فإذا أخلت الهيئة الحاكمة بالتزاماتها ، وعجزت عن توفير الحرية للشعب وتحقيق خيره العام ، فللشعب الحق أن يقاوم السلطة الحاكمة ويخلعها أو يسند الحكم الى غير القائمين به ، « وعندما يأخذ شخص أو أكثر ، على عاتقه أن يضع قوانينا ، بدون تكليف من الشعب ، فانه يسن قوانينا لا سلطة له في سنها ، ومن ثم فالناس لا يكونون ملزمين بطاعتها ، وبهذه الطريقة يخلعون عنهم الخضوع مرة أخرى . ولهم أن يقيموا لأنفسهم مشرعا جديدا كما يتراءى لهم » (١٠٩) *

وهنا نجد أن لوك يحتفظ للشعب بحق تغيير الحكومة ، وحق الثورة عليها ، اذا قصرت في أداء مسؤولياتها قبل الشعب بما في ذلك حماية حرية الأفراد وحقوقهم الطبيعية ، أو اذا استبدت وجنحت الى الحكم المطلق ، وذلك لأن الشعب دائما هو صاحب الكلمة العليا : « ولكن يجب أن يكون ذلك على هذا الأساس : أن يدافع عن نفسه فقط ، لا أن يهاجم أميره » *

ويؤكد هذه المعانى السابقة عدة نصوص لجون لوك وفيها يقول :
« ان السلطة التحكيمية المطلقة ، أو الحكم بدون قوانين مستقرة قائمة ، لا يمكن أن يتفق أى منهما مع أهداف المجتمع والحكم اللذين ما كان الناس ليهجروا حرية حالة الطبيعة من أجلها ويقيدوا أنفسهم في ظلها الا للمحافظة على حياتهم وحياتهم وثرواتهم *** فلا يمكن افتراض أن الناس يقصدون أن يعطوا ، حتى لو كان ذلك في سلطتهم ، شخص ما أو عدة أشخاص سلطة تحكيمية مطلقة على أشخاصهم وممتلكاتهم ، وأن يضعوا في يد الحاكم قوة لينفذوا بها ارادته التحكيمية غير المحدودة عليهم ، أن ذلك يكون بمثابة نقلهم لأنفسهم الى حالة الطبيعة التي كان لهم فيها حرية الدفاع عن حقهم ضد اعتداءات الآخرين *** » (١١٠) *

(١٠٨) الحكم المدني لجون لوك ضمن كتاب العقد الاجتماعي ص ٣٦١

(١٠٩) المصدر السابق ص ٣٨٨ .

(١١٠) المصدر السابق ص ٣٧٧ .

« ومن هنا كان من الخطأ الاعتقاد بأن السلطة العليا أو التشريعية في أى مجتمع تستطيع أن تفعل ما تشاء وتتصرف في ممتلكات الرعايا تحكما ، أو تأخذ أى جزء منها عندما تشاء » (١١١) •

« والشعب وقد أقام مشرعا بقصد أن يمارس سلطة سن القوانين ، يكون له حق استعمال القوة في إزالة العقبة التي تحول دون قيام المشرع بما هو ضرورى للمجتمع وما يتكون منه سلامة الناس وبقائهم فالعلاج الحقيقي للقوة غير المشروعة هو ، في جميع الحالات والظروف ، معارضتها بالقوة » (١١٢) •

« أما اذا كان أولئك الذين يذهبون الى أن ذلك ييذر بذور التمرد يعنون أنه قد يكون سببا في حروب أهلية واضطرابات داخلية أن نقول للناس أنهم يتحللون من التزام الطاعة عندما تحدث محاولات غير قانونية للاعتداء على حرياتهم أو ممتلكاتهم ، وأن لهم أن يقاوموا العنف غير المشروع من جانب أولئك الذين كانوا حكامهم عندما يعتدون على ممتلكاتهم بما يتناقض والأمانة التي عهد بها اليهم •• فان من يذهبون الى ذلك يكونون كمن يقولون انه ليس للأشراف أن يعارضوا قطاع الطرق أو القراصنة لأن ذلك قد يؤدي الى اختلال النظام وسفك الدماء •• » (١١٣)

« ولكن اذا سأل أى شخص : هل يجب على الناس اذن أن يتركوا أنفسهم بلا دفاع لجور الطغيان وقسوته ••• ولا يحركوا ساكنا ؟ هل يجب أن يحرم البشر وحدهم من حق المقاومة الذي تسمح به الطبيعة بكل كرم لجميع المخلوقات للمحافظة على أنفسها من الأذى ؟ أجيب على ذلك : أن الدفاع عن النفس جزء من قانون الطبيعة ، ولا يمكن أن ينكر على

(١١١) نفس المصدر ص ٣٨٨ •

(١١٢) نفس المصدر ص ٣٤٧ •

(١١٣) الحكم المدنى للوك ضمن كتاب العقد الاجتماعى ص ٣٩٨ •

المجتمع حق ضد ملكه نفسه ... ويجب أن يكون ذلك على هذا الأساس :
أن يدافع عن نفسه فقط ، لا أن يهاجم أميره » (١١٤) •

ونحن نجد هنا أن حق المقاومة وشرعية الثورة على هذا النحو
نتيجة حتمية لعقد لوك لأن جميع أفراد المجتمع أطراف فيه بما في ذلك
الذين يتولون السلطة العامة ، كما نجد أيضا أن تحليل لوك للعقد
الاجتماعي على هذه الصورة فيه تأكيد لسيادة الشعب واعلاء كلمته
وخضوع الحكام لارادته ، وبجعل العقد الاجتماعي ملزما للحكومة
يكون « لوك » قد خطا خطوة موفقة على الطريق الى الديمقراطية
السليمة •

دافيد هيوم (١٧١١ — ١٧٧٦)

دافيد هيوم صاحب عقلية تاريخية ، وقد لمع اسمه في تاريخ الفكر
السياسي بنقده لنظرية العقد الاجتماعي وتحليله لها • وقد دفعه عقله
المتشكك الى تناول نظرية الحق الالهي للملوك ، وقد أنكر عليهم أن يكون
لهم أي صفة من صفات القداسة •

قيام الحكم على الجبر والقوة :

يعترف هيوم بأن الحكم « اذا تتبعناه الى أصله الأول في الغابات
والصحراوات، وجدنا الناس هم مصدر كل سلطة واختصاص ، وأنهم
تنازلوا طواعية عن حريتهم المتأصلة، وتلقوا القوانين من أئدادهم وزملائهم

(١١٤) المصدر السابق ص ٢٣٣ (الرسالة الثانية في : انحكم المدني :
مقالة في النشأة الحقيقية للحكم المدني ومداه وهدفه — لجون لوك ضمن كتاب
العقد الاجتماعي لجون لوك • هيوم • روسو ترجمة عبد الكريم أحمد (مجموعة :
الاف كتاب) •

من أجل السلام والنظام» (١١٥) • فالحكم في حالة الطبيعة قام عند هيوم على الرضا ، بيد أنه ينكر بنفس التأكيد أنه يوجد في العالم كما هو الآن حكم بالرضا ، فالعقد الأصلي نسخته من عهد بعيد آلاف التغيرات في الحكم وهذه النظرية لا سند لها عند هيوم ، وهى تلوح باطلة من وجهة النظر التاريخية بطلانها من وجهة النظر المنطقية ، وذلك لأن جميع الحكومات القائمة الآن تقوم على الاغتصاب أو الغزو أو كليهما معا •

واننا لنبحث في أعماق التاريخ ودون ما جدوى عن عقد أبرمناه بحرياتنا : فلم نكتب هذا العقد على رق أو على أوراق الأشجار أو لحاها ، فقد سبق هذا العقد استعمال الكتابه وكل فنون الحياة المتمدينة الأخرى • ولكننا نكشف هذا العقد بوضوح في طبيعة الانسان ، والمساواة — أو ما يقرب من المساواة — التى نجدها في أفراد النوع الانسانى : فالقوة التى تسود الآن ، والتى تقوم على الأساطيل والجيش ، واضح أنها سياسية مستمدة من السلطة ، وهى نتاج الحكم القائم • فقوة الانسان الطبيعية تتكون من قوة جسمه وثبات شجاعته فقط ، ولم تكن هذه القوة وحدها لتستطيع أبدا أن تخضع الجماهير لأمر شخص واحد • ان رضا الجماعة وأحاساسها بميزات السلام والنظام يمكن أن يكون ذلك وحده هو الارتباط بين الأفراد (١١٦) •

ولكننا نجد أن رضا الناس في صورة اجماع لا يقع على صورة دقيقة محكمة بحال أبدا ، كما أن هذا الرضا لا يتوقف عليه قيام الحكومات ، وحالة الطبيعة عند هيوم لا تغدو أن تكون وهما فلسفيا • وأقصى ما يمكن قبوله هو أن رضا الشعب ليس سوى أساس عادل واحد للحكم ، ولكنه « نادرا جدا ما حدث بدرجة ما ولم يحدث أبدا تقريبا بصورة كاملة » •

(١١٥) عن العقد الاصلى لدافيد هيوم ضمن كتاب العقد الاجتماعى للوك • هيوم • روسو • ص ٥٤ •

(١١٦) المصدر السابق ص ٥٤ •

وتكاد تكون جميع الحكومات القائمة في الوقت الحاضر ، أو تلك التي بقى عنها أى سجل في التاريخ ، قد تأسست في الأصل على الاغتصاب أو على الغزو أو عليهما معا ، دون أى تظاهر بالحصول على رضا الناس أو خضوعهم الاختياري . • فعندما يوضع رجل جرىء ماهر على رأس جيش أو فريق ، كثيرا ما يكون من اليسير أن يفرض سيطرته ، بالعنف أحيانا وبالأدعاء الكاذب أحيانا ، على شعب يزيد في تعدادة مائة مرة على عدد أنصاره . • فلا يسمح بأن تتسرب علنا أى معلومات تجعل في وسع أعدائه أن يعرفوا عددهم أو قوتهم . بالتأكيد . • ولا يسمح لهم بالوقت الكافي ليتجمعوا في هيئة واحدة ليقاوموه . • بل قد يكون جميع أولئك الذين استعملهم أدوات في اغتصابه ممن يريدون سقوطه . • ولكن جهلهم بحقيقة نوايا بعضهم البعض يجعلهم في خوف ، وهو السبب الوحيد في سلامته . • وقد تأسست عدة حكومات بواسطة مثل هذه الوسائل ، وليس لديها أى « عقد أصلي » آخر تفخر به (١١٧) •

فالتعاقد هنا إنما يقوم في شكل قوة قاهرة متسلطة تفرض سلطانها على الناس بيد رجل جرىء ماهر ، قوى وذكى ، استطاع بقوته وذهائه أن يفرض سلطانه على المجتمع ، والحكومة بهذا المعنى إنما تنشأ نتيجة الغزو أو الاغتصاب ، وبعبارة أكثر تحديدا ان أصل الحكومة هو القوة •

يقول هيوم : « وليس هناك جدوى من القول بأن كل الحكومات قامت ، أو يجب أن تقوم في أول الأمر على الرضا العام بقدر ما يسمح به ضرورات أحوال البشر • ان ذلك يؤيد وجهة نظرى تماما • لأننى ذهبت الى أن أحوال البشر لا تسمح أبدا بهذا الرضا ، ولا حتى الظاهر الا فيما ندر ، ولكن الغزو أو الاغتصاب ، وبعبارة أوضح القوة هى أصل الحكومات الجديدة التى انشئت في العالم بعد قضائها على الحكومات القديمة • وأقول انه في الحالات القليلة التى قد يبدو أنها تمت بالرضا ، كان الرضا

فيها عادة شيئاً شاذاً وغير محدود ولازمه الغش والعنف ، الى حد لا يمكن معه أن يكون للرضا أى أثر كبير بوصفه سنداً » (١٨) •

وافترض أن كل الحكومات تقوم على الرضا هو بمثابة افتراض « أن كل الناس يتمتعون بذلك الكمال في الفهم الذي يجعلهم يدركون مصالحتهم الخاصة دائماً » — ولكن هذا الرضا يقتضى عند الناس تقديراً صائباً لمنافعهم البشرية • وكذلك الشأن في حالة القول بأن هناك على أى الأحوال ، رضا ضمنياً يعلن عنه المواطن بموافقته على البقاء في البلد وهو يستطيع مغادرتها اذا شاء ، والرد على ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك أى نوع من الرضا الا اذا كانت هناك حرية في الاختيار ، وفي الواقع ليس هناك مثل هذه الحرية • انك لن تستطيع حتى أن تهاجر الى بلد آخر دون اذن اذا رأى الملك ذلك •

يقول هيوم : « ولو أن الناس جميعاً كانوا يحترمون العدالة باصرار بحيث يمتنعوا تماماً من تلقاء أنفسهم عن الاعتداء على مال الآخرين ، لبقوا أبد الأبد في حالة من الحرية المطلقة لا يخضعون لحاكم Magestrate أو لمجتمع سياسى بيد أن مثل هذه الحالة تكون كمالات لا تعجز الطبيعة البشرية حقاً على بلوغه • وأيضا لو أن الناس جميعاً كانوا يتمتعون بفهم كامل بحيث يستطيعون دائماً أن يعرفوا مصالحتهم ، لما خضعوا لأية صورة من صور الحكم سوى تلك التي تقوم على الرضا ولتلمس كل فرد من أفراد المجتمع السبل لتحقيقها ، بيد أن هذه الحالة من الكمال أيضا أسمى من الطبيعة البشرية • ان العقل والتاريخ والتجربة تدلنا على أن كل المجتمعات السياسية ترجع الى أصول أقل دقة وانتظاما من ذلك ، ولو أن المرء أراد أن يختار الفترة التي كان فيها رضا الناس أقل ما يكون اعتبارا في الشئون العامة ، لكانت هذه الفترة هي بالذات التي جرى فيها انشاء حكم جديد • فاتجاهات الناس كثيرا ما توضع

(١٨) العقد الاصلى لدافيد هيوم ضمن كتاب العقد الاجتماعى ص ٦٠ .

موضع الاعتبار فى الدساتير المقررة ، ولكن ابان هياج الثورات والغزو والانتفاضات العامة ، تكون القوة العسكرية أو الحيل السياسية عادة هى الفيصل فى تقرير الأمور » (١١٩) •

ونحن نلاحظ أن هيوم يجعل للزمن آثارا واضحة فى التمكين للواقع من نفوس الناس وفى تغيير صورته من كراهية وتبرم الى رضا وتسليم • وسرعان ما يتحول الحكم الذى يبدأ عنده مستندا على القوة والغزو الى ألف وموادعة ، وتصير الطاعة أو الخضوع مألوفين الى حد أن معظم الناس لا يفكرون مطلقا فى أصلهما أو سببهما ، أكثر مما يفكرون فى مبادئ الجاذبية أو المقاومة أو أى قانون من قوانين الطبيعة التى لا جدل فيها • وتخالف نظرة هيوم هنا بواقعيته النظرة الشاعرية لكل من روسو ولوك : « ولو أنك ذهبت تدعوى معظم أنحاء العالم بأن روابط الطاعة السياسية تقوم كلها على الرضا الاختيارى أو التعهد المتبادل ، فسرعان ما يقبض عليك وتودع السجون باعتبارك مثيرا للفتن ومخربا لروابط الطاعة ، هذا اذا لم يكن أصدقائك قد حبسوك قبل ذلك باعتبارك مصابا بالهذيان لانك تدعو الى مثل هذه السخافات » (١٢٠) •

ويقول هيوم أيضا : « وعندما يقوم حكم جديد ، أيا كانت الوسائل التى قام بها ، لا يرضى الناس عنه عادة ، ويطيعونه خوفا وللضرورة أكثر مما يطيعونه على أساس من فكرة الولاء أو الالتزام الأخلاقى • أما الأمير المحاكم — فيكون على خذر ، وفى حال من الغيرة • ويزيل مضى الزمن هذه المضاعب بالتدريج • وتتعود الأمة أن تعتبر حكامها شرعيين أو وطنيين بعد أن كانت تنظر اليهم فى أول الأمر بوصفهم أسرة غاصبة أو غازية أو أجنبية • وهم — أى العامة — لا ياجأون فى تكوين هذا الرأى الى أية فكرة عن الرضا الاختيارى ، أو التعهد ، وهم يعرفون أن الرضا أو التعهد فى حالتهم لم يسع اليه أحد أبدا ، ولم يتوقع مطلقا •

(١١٩) المصدر السابق ص ٦٠ — ٦١ •

(١٢٠) المصدر السابق ص ٥٦ •

فالتأسيس الأول تم بالنعف ، وخضع الناس له بحكم الضرورة ، وإدارة شئون البلاد بعد ذلك تدعمها أيضا القوة ويخضع لها الناس باعتبار الأمر الزاما لا اختيارا ، وهم لا يفكرون في أن رضاهم يضمن على أميرهم حقا : ولكنهم يقبلون طواعية لأنهم يعتقدون أنه اكتسب بمضى الزمن حقا مستقلا عن اختيارهم أو رغبتهم « (١٢١) » .

ونصل من ذلك الى أن الحكم عند هيوم وفي صورته تلك ، متجاهلا إرادة الرعية وحققهم في الاختيار ، هو خير للناس وأفضل لوجودهم مما لو تركوا وشأنهم بلا حكم ، وأن سلطة الحاكم سرعان ما تنهار وتصبح موضع احتقار اذا لم تحظ بطاعة مطلقة ، فالناس لا يستطيعون العيش مطلقا في مجتمع ، دون قوانين وقضاة وحكام يحولون دون اعتداء القوى على الضعيف ، اعتداء العنف على العدالة والحق .

إنكار هيوم للحق الالهي المنسوب للحاكم :

وإذا كان البعض يحاول أن يبرر الطغيان والاستبداد بقوله ان فكرة الحكومة نابعة من أصل الهى ، فان دافيد هيوم يجتهد دائما لى ينحى كل غرض ينتج الى ربط المسائل الانسانية بالارادة الالهية ، وان كان لم يصرح بذلك علانية . ومن البديهي أن الحكومة التى تؤدى واجباتها قبل الأمة وتتفانى فى عملها من أجل رعاية مصالح الشعب والدفاع عنه تنعم برضا المخلوق الأعلى . ومن هنا لا يقبل أى حاكم الزعم بأنه ظل الله وممثله على الأرض ، ومن ثم فان « أى ضابط شرطة فى قرية انما يعمل بمقتضى تكليف الهى مثل الملك تماما » .

ويشن هيوم هجوما عنيفا على كل نظرية تنسب للحكومة أصلا الهيا ، مؤكدا بذلك إنكاره الحق الالهي المنسوب للحاكم . ويحرص هيوم على عدم

(١٢١) العقد الاصلى لدافيد هيوم ضمن كتاب العقد الاجتماعى لنوك .

هيوم . وروسو ص ٦١ .

المساس بالروح الدينى للشعب وذلك فى مهاجمته لهذه النظرية ، وخاصة عندما تزعم البرهنة على أن الحاكم ممثل الله على الأرض ويستمد سلطاته ومصدر قوته من الله ، وسرعان ما تنهار هذه النظرية التى تختص الحاكم وحده بذلك التأييد الالهى خاصة ونحن نعلم أننا جميعا ، ودون تفرقة بين حاكم ومحكوم ، مخلوقات الله سبحانه وتعالى نستمد منه العون والتأييد فى تأدية أعمالنا .

ويرجع الى هيوم الفصل فى التمييز بين نوعين من العقد : العقد الأسمى ، والذى يمكن أن نطلق عليه عقد المجتمع ، ويطلق عليه بالفرنسية (Paete d'association) ، والعقد الثانوى والذى يمكن أن نطلق عليه أيضا عقد الحكم ويسمى بالفرنسية (Paete de Gouvernement) ، وقد وضح هذا التمييز أثناء تنفيذ هيوم لنظرية العقد . والعقد الأسمى هو الذى يوجد المجتمع لنفسه ، وهو الوحيد الذى يحق لنا أن ندعوه عقدا اجتماعيا لمساهمته فى التوحيد بين الأفراد فى مجتمع واحد . والعقد الثانوى يوجد السلطة (الحكومة) حيث يتم بين المواطنين والملك . والواقع أنه لمن الواضح أننا لا نستطيع أن نقرر عقد الحكم (العقد الثانوى) دون أن نقرر عقد المجتمع (العقد الأسمى) ؟ فالمجتمع متى تكون بوساطة عقد المجتمع قد يحكم نفسه بنفسه دون أية تفرقة بين حكام ورعايا . وعلى ذلك يجب علينا أن نعترف أن هناك أيضا الى جانب عقد الحكم (العقد الثانوى) وقبل عقد الحكم ، عقدا للمجتمع (العقد الأسمى) أى عقد اجتماعى . وفى الحالة الأولى (العقد الأسمى) يمكن أن تكون لفكرة العقد قيمة بالمعنى الذى أوضحناه : فالارتباطات البدائية بين الناس تشكلت بفضل رضى مشترك ، ما دام كل فرد لا يملك المقدرة الكافية فيفرض على الآخرين طاعته . ولكن لم يكن هنالك أبدا عقد شكلى . ويوضح لنا هيوم أن الفائدة التى يجنيها الفرد فى صدر المجتمع ، هى فى نهاية المطاف ، السبب فى خضوع الفرد المطلق للسلطة

المدنية • والمنفعة في هذا كله ، هي الدافع المتغلب ، ومن هنا وجب تنحية نظرية العقد جانبا لانعدام الأساس المنطقي والقاعدة التاريخية فيها •

جان جاك روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨)

يعتبر الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) من أشهر فلاسفة التعاقد الاجتماعي وكان لكتابه « العقد الاجتماعي » Le Contrat social ، ومؤلفاته الأخرى أكبر تأثير في زمن الثورة الفرنسية • وقد نادى بنظرية « العقد الاجتماعي » مؤيدا حق الشعوب في الحرية ، وهذا على الرغم من أن روسو ليس أول القائلين بنظرية « العقد الاجتماعي » ، إذ سبقه الى ذلك كثيرون من الفلاسفة ورجال الفكر والدين • وسفر روسو السياسي الأكبر « العقد الاجتماعي » نشر في ابريل ١٧٦٢ معنونا :

Du Contrat Social ou Principes du Droit Politique, par J.J. Rousseau Citoyen de Geneve.

والعقد الاجتماعي شطر من مصنف ضخم كان روسو قد بدأه أثناء اقامته بفنيسيا ١٧٤٣ هو Les institutions politiques . ولكنه لم ينهه • ويعد كتاب « العقد الاجتماعي » لروسو من أضخم آثاره السياسية ويتميز فيه بأسلوبه المجرد الفلسفي •

ويستبعد روسو منذ البداية قيام المجتمعات على أساس القوة والعنف وذلك لأن الأساس الذي تنهض عليه العلاقات بين الناس عنده هو القبول والتراضي ، والمجتمع هو ثمرة الارادة المشتركة لأفراد الجماعة Volonté collective de société ، ومعنى ذلك أن الدولة وجدت نتيجة عقد أبرمته الجماعة • وقد عرفنا أن « هوبز » و « لوك » قد سبقا « روسو » في القول بفكرة العقد الاجتماعي كأساس لنشأة الدولة ، ولكنهم اختلفوا في بيان حالة الانسان السابقة على وجود العقد ، كما اختلفوا في تحديد طرفي هذا العقد •

ويؤمن « روسو » بحقيقة وجود الحياة الفطرية الأولى إيماناً أشد وأعماق من إيمان لوك وهوبز بهذه الحياة • وحالة الطبيعة الأولى ، عند روسو ، كانت أسعد حالات الإنسان وأكثرها تحقيقاً لغرائزه الفطرية ، وهى ليست حالة خوف وفوضى وارهاب كما قال هوبز ، وليست حياة طبيعية فيها الحرية والمساواة فحسب كما قال لوك • والإنسان ، عند روسو ، كان فى حالة الطبيعة الأولى ممتعاً بكل حريته وقواه • فلما كثر بنو الإنسان واشتبهت المصالح وكثرت المشاكل وفسدت الاخلاق الفطرية البريئة اضطرب الإنسان الى مغادرة هذه الحالة والانضمام الى المجموع ، ومن ثم نشأت ضرورة التعاقد لتنظيم شئون الحياة واستعادة السعادة التى فقدوها الأفراد منذ عهد الفطرة ، وينتقل الفرد بمقتضى العقد وبكل حريته وحقوقه الطبيعية الى ذلك المجموع ، دون قيد أو شرط ومنكراً بذلك كل مطالبة الخاصة — مقابل تمتعه بالحرية المدنية وتعهده المجموع بصيانة هذه الحقوق ، وبذلك تزول الأنانية ويسوى القانون العام بين الجميع •

ويقول روسو فى ذلك : « ولد الإنسان حراً ، ولكنه فى كل مكان مكبل بالأغلال ! • • • وعلينا بعد ذلك أن نقرأ عدة صفحات لنجد فى نهاية الفقرة الأولى من الفصل الثامن أنه • ينبغي على الإنسان أن يحمّد دواماً تلك اللحظة السعيدة ، لحظة « العقد الاجتماعى » التى انتشلته الى الأبد من حالة الطبيعة التى ولد فيها ، والتى حولت ذلك الحيوان الغبى المحدود الأفق الى كائن ذكى وإنسان » • وعلى هذا نجد أن الدفعة تتحول بسرعة • • • فالمجتمع الذى ينهض على العقد الاجتماعى هو مجتمع يستبدل الغريزة بالعدالة ، وهو مجتمع يأخذ بيد الإنسان فيرتقى به من مجرد حيوان غبى محدود الافق الى إنسان ذكى نافذ البصيرة وسر عظمة الإنسان وإنسانيته تنبع ، بذلك من طبعه الاجتماعى الذى يأبى عليه أن يعيش داخل نفسه •

ويترتب على تنازل الأفراد — عند روسو — عن كافة حقوقهم للقوة الجمعية التى تمثلهم كثيراً من التضحيات ، حيث يفقد الإنسان حريته غير المحدودة ويقول فى ذلك : « ان ما يفقده الإنسان نتيجة للعقد الاجتماعى

هو حريته الطبيعية وحقه غير المحدود في الاستيلاء على ما يريد وما يستطيع الحصول عليه ، أما ما يكسبه فهو الحرية المدنية وملكية كل ما فى حيازته *** ويمكننا أن نضيف الى ما تقدم من مزايا الحالة المدنية ، الحرية المعنوية ، التى هى وحدها ما يجعل الانسان سيد نفسه حقا • اذ أن الخضوع للشهوة عبودية بينما طاعة ما نضعه لأنفسنا من قوانين هى الحرية « (١٢٢) •

ولكن على الرغم من هذا الذى يفقده المرء بتعاقده مع الجماعة الا أننا نجد أن الأمل الوحيد لقيام مجتمع متطور مزدهر يتمثل فى التضامن والتكامل ومن ثم يتحقق للأفراد جميعا السعادة والرفاهية •

يقول روسو : « ان الميثاق الأسمى الأبعد ما يكون عن القضاء على المساواة الطبيعية ، بل على النقيض من ذلك ، انه يحل مساواة قانونية ومعنوية محلها ، مقابل ما قد تكون الطبيعة قد خلقتة من عدم مساواة جثمانية بين الناس ، وبذلك يصيرون جميعا متساوين قانونا واتفاقا ، وان كان بينهم تفاوت فى القوة والذكاء (١٢٣) •

ويقول أيضا : « ان وضع الأفراد بمقتضى العقد يكون أفضل مما كان عليه من قبل ، وبدلا من أن يتنازلا فانهم لا يقومون الا بمبادلة رابحة : اذ يحصلون على حياة أفضل وأكثر استقرارا بدلا من حياة قلقة غير مستقرة ، وعلى الحرية بدلا من الاستقلال الطبيعى ، وعلى سلامتهم الشخصية بدلا من سلطتهم فى اضرار الغير ، وعلى حق يجعل الاتحاد الاجتماعى منبعا بدلا من قوتهم الخاصة التى يستطيع الآخرون التغلب عليها • بل ان حياتهم نفسها ، التى يكرسونها للدولة ، تصبح فى حماية الدولة نفسها « (١٢٤) •

(١٢٢) العقد الاجتماعى لروسو ضمن كتاب « العقد الاجتماعى للوك .

وهيوم • وروسو • « ص ٩٧ — ٩٨ •

(١٢٣) المصدر السابق ص ١٠١ — ١٠٢

(١٢٤) نفس المصدر ص ١١٢ — ١١٣ •

وكان من نتيجة التعاقد عند روسو — وهو التعاقد الذى ينزل كل مشترك فيه نزولا كليا عن شخصه وجميع حقوقه للجماعة كلها ، وكلما كان النزول كليا من غير تحفظ كلما كان الاتحاد أكمل — نقول كان من نتيجة التعاقد ايجاد ارادة عامة (Volonté générale)
هى ارادة المجموع أو ارادة الأمة صاحبة السلطة على الجميع • والارادة العامة هى المظهر الوحيد للسيادة التى لا تكون الا للشعب فى مجموعه ، والارادة العامة عند روسو تمثل المصالح المشتركة لجميع الأفراد فى الدولة ، والقوانين لا تكون صحيحة الا اذا صدرت عن طريق الارادة العامة ويجب أن تعبر القوانين عن المصالح العامة للشعب •

ويقول روسو : « وبمجرد أن يتم عقد الاتحاد هذا يتولد عنه جسد معنوى وجماعى ، بدلا من الأشخاص المستقلين لكل من المتعاقدين » (١٢٥) والجسد السياسى عند روسو هو حصيلة التقاء الارادات المختلفة فى أفراد المجتمع على غاية واحدة ، واجتماعها على مصلحة مشتركة •

والواقع أن لكل فرد من أفراد المجتمع ارادته وحرية الخاصة ، وحيث أن الناس يختلفون فى شخصياتهم ، أدى ذلك الى تناقض الارادات واختلاف التصرفات ، ولكنهم رغم ذلك يلتقون عند أمر واحد ، وهو رغبتهم فى أن يحكموا حكما عادلا ، ولا يمكن أن يكون الحكم عادلا نزيها ، الا اذا كان وليد ارادة المجموع • والارادة العامة هى بذلك تعبير صادق عن صوالح الأفراد ، كما أن الارادة العامة ليست ارادة تنفيذ بقدر ما هى ارادة توجيه • ويقول روسو فى ذلك :

« ان الارادة العامة على صواب دائما وتهدف الى النفع العام باستمرار » (١٢٦) •

(١٢٥) المصدر السابق ص ٣ •

(١٢٦) العقد الاجتماعى لروسو ضمن كتاب (العقد الاجتماعى للوك •

هيوم • روسو) ص ٩٣

ويجب على الأقلية عند روسو أن تفهم أنها تكون مخطئة إذا عارضت الأغلبية ، ويرجع هذا الخطأ الى الجهل ، وبمجرد زوال الجهل فانهم يفهمون أن ارادتهم لا تختلف عن ارادة الأغلبية ، ذلك لأن ارادة الأغلبية تمثل دائما الارادة العامة . ويصل روسو من كل ذلك الى أن اكراه الأقلية على الخضوع للارادة العامة يجعلهم أكثر حرية مما لو استقلوا برأيهم : « والواقع أن لكل فرد ، بوصفه انسانا ، ارادة خاصة مختلفة عن ، أو متناقضة مع ، الارادة العامة التي يسهم فيها باعتباره مواطنا . إذ أن مصلحته الخاصة قد تملئ عليه تصرفات غير تلك التي تقتضيها مصلحة المجموع تماما . . . »

« ولكي لا يصير الميثاق الاجتماعي ، اذن مجرد صيغ جوفاء ، فإنه يشتمل ضمنا على ذلك العهد الذي يستطيع وحده أن يضيف على المجموع قوة ، وهو « أن كل من يرفض طاعة الارادة العامة ، لا بد أن يقوم المجموع باكراهه على الخضوع » ولايعنى ذلك أكثر من أنه سيرغم على الحرية — حيث ن الحرية هي ذلك الوضع الذي يجعل كل مواطن جزءا من وطنه وبذلك يحميه من كل خضوع شخصي ، وهو أيضا الأساس الذي يقوم عليه كل جهاز سياسى ويمده بالقوة اللازمة له . » (١٢٧)

وإذا كان « روسو » يتفق مع « هوبز » في أن الانسان يسلم نفسه كاملا في لحظة العقد ، الا أن هناك اختلافا في هذا التسليم ، فعند « هوبز » يتنازل الانسان كاملا عن كل حقوقه لانسان أى لارادة الشخص الحاكم الممثل لهم ، ولكن عند « روسو » لا يسلم نفسه لانسان ، بل يتنازل عن نفسه وكل حقوقه للجماعة كلها وهي معقد السيادة (الكتاب الأول — الفصل السادس) . كما أننا نلمس اختلافا آخر أيضا بين (عملاق) هوبز ، وعملاق ، روسو . (فعلاق) هوبز شخص واحد تتوحد فيه كل السلطات ، فهو في نفس الوقت مشرع ،

ومنفذ ، أما (عملاق) روسو ، فهو مجتمع من الأشخاص ، وهذا المجتمع الذى يتكون منه (عملاق) روسو مهمته تشريعية بحتة • أما القيام بأعمال معينة بذاتها من أعمال السلطة ، فإن المجتمع ينشئ (حكومة) ، وهى هيئة متوسطة مكلفة بتنفيذ القوانين التى يسنها ويقوم أيضا بحفظ الحرية مدنية كانت أو سياسية ، وتقوم الحكومة كأداة للاتصال بين الرعايا وصاحب السيادة • (الكتاب الثالث — الفصل الأول) •

وتتمثل السيادة عند روسو فى الارادة العامة للمجموعة البشرية ، وأن القانون هو التعبير عن هذه الارادة ، وبمعنى آخر ان السيادة هى ممارسة الارادة العامة للحكم • ولا يمكن أن تكون السيادة لفرد أو جماعة ، وانما تتمثل فى الأمة كلها ، كما تنصب عناية السيادة على المنفعة المشتركة المتصلة بالمواطنين جميعا دون الاقتصار على أشخاص معينين أو أشياء معينة •

والسيادة عند روسو ، لا يمكن تقسيمها أو تجزئتها ، ذلك أن السيادة لا يجوز البتة أن تكون محلا للتصرف لأنها ليست الا مزاولة للارادة العامة ، وصاحب السيادة — وهو كائن جماعى — لا يمكن أن يمثل الا بذاته • ان السلطة يجوز أن تنتقل ولكن ذلك ليس من طبيعة السيادة • ويقول روسو : « ان السيادة لا تتجزأ • • لأن السيادة اما أن تكون عامة واما الا تكون كذلك : فهى اما ارادة الشعب فى مجموعه ، واما ارادة جزء منه فقط • وفى الحالة الأولى تكون هذه الارادة المعلنة عمل من أعمال السيادة ولها أن تسن القوانين ، وفى الحالة الثانية ليست سوى ارادة خاصة ، أو عمل من أعمال الارادة ، ولا تكون الا مرسوما على أكثر تقدير • » (١٢٨)

ولما كانت سيادة الأمة من الحقوق التى لا يمكن التنازل عنها فإن صاحب هذه السيادة لا يستطيع اذن أن ينيب عنه ممثلين أو نوابا ،

(١٢٨) العقد الاجتماعى لروسو (الكتاب الثانى — الفصل الثانى)
نسن كتاب العقد الاجتماعى للوك • هيوم • وروسو ص ١٠٥

ولذلك ذهب — روسو — الى أن ممثلى الأمة هم مجرد تابعين للشعب أو وسطاء « Commissionaires » بينه وبين الهيئة العامة التى اصطالحوا على تكوينها بمقتضى الميثاق ، ووظيفتهم الرئيسية العمل وفق مشيئة الناخبين وتنفيذ رغباتهم ويؤكد روسو ذلك بقوله : « لا يمكن أن يكون هناك تمثيل فى السيادة ، لنفس السبب الذى يجعلها غير قابلة للتنازل ، فهى تتكون أساسا من الارادة العامة ، والارادة لا تمثل مطلقا : فهى اما أن تكون هى نفسها ، أو تكون شيئاً آخر ، وليس هناك حل وسط . ومن ثم فإن نواب الشعب ليسوا ممثلين ولا يستطيعون أن يكونوا ممثلين ، انهم ليسوا سوى وكلاء مكلفين ، فلا يستطيعون البت فى شىء بصورة نهائية . وكل قانون لم يصدق عليه الشعب بشخصه باطلاً ، وهو لا يكون قانونا بالمرّة » (١٢٩) .

تقدير النظرية :

ويخلق روسو بعقده الاجتماعى دولة صاحب السيادة فيها غير مسئول بقدر ما هو مطلق . ويقع الأفراد عند روسو تحت نير طغيان الكل حيث لا مسئول ولا مسئولية ، وذلك لأن الارادة العامة — كما أوضحنا — تنتج عند روسو عن اندماج المنافع الفردية وذوبانها فى المنفعة العامة . وروسو اذ آمن المواطن فى دولته من استبداد الحاكمين تركه فى ظل حكومته المثالية (الديمقراطية المباشرة) يئن تحت نير طغيان « الكل » ذلك الطاغية المتهور الذى لا يملك احساسا ما بالمسئولية ، بينما مع الفرد المطلق ، المسئولية واضحة المعالم . فالانفراد بالسلطة ذاته تحديد للمسئولية ، ويندر أن يجيز الحاكم المنفرد لنفسه أن يطغى لأنه واحد متميز معروف لا سبيل أمامه الا أن يتحمل وحده مسئولية عمله ، بينما يجيز « الكل » لنفسه كل شىء فهو جمع لا تلتصق فيه المسئولية بشخص ما بذاته « وكما رأينا الأغلبية تخطئ وتستبد أنشع

(١٢٩) المصدر السابق (الكتاب الثالث — الفصل الخامس عشر) ضمن

كتاب العقيد الاجتماعى للوك . هيوم . وروسو ص ١٨٧

استبداد ، حتى في أقدم الأمور وهي العقيدة الدينية ، فتتكر تلك العقائد المتواضعة التي اعتبرها روسو أساسية • فهو اذ يستبعد من حال الطبيعة الخير والشر والحق والواجب ، ويقدم ارادة الأغلبية ويطلبنا بالادعان لها كأنها الارادة الالهية ، يقيم ضربا من الاستبداد هو شر ألف مرة من استبداد الفرد الذي لا يعتمد على حق » • (١٣٠)

وعلى الرغم من كل ذلك فقد ذاع صيت نظرية العقد الاجتماعي لروسو ، وكان لها أثرها البالغ في ثورة ١٧٧٦ الأمريكية ووثائق اعلان الاستقلال ودساتير الولايات ، وقد غدا كتاب روسو « العقد الاجتماعي » انجيلا للثورة الفرنسية ، ودعاه آخرون دستور الثورة ، وقد تضمنت وثائق الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ عبارات نقلت بعينها من ذلك الكتاب : ان الناس أحرار • • متساون في الحقوق • • ان السيادة كامنة في الأمة • • وان القانون هو المعبر عن الارادة العامة وهكذا •

وقد وجهت الى نظريات التعاقد الاجتماعي سهام النقد ، فقد وصفها البعض بأنها فكرة خيالية لا تستند الى حقيقة تاريخية فلم يعهد في الاجتماع البشري ، ولم يرو لنا التاريخ أن بنى الانسان اجتماعا يوما وكونوا لهم نظاما اجتماعيا لم يكن موجودا • وفكرة العقد — أيضا — غير متصورة لعدم امكان الحصول على رضا جميع الأفراد ، وهو ركن أساسي في العقد • ويضاف الى ذلك تناقض في مضمون النظرية ، اذا تقول ان الجماعة نشأت نتيجة عقد فاذا كان الأمر كذلك فمن أبرم ذلك العقد • وهناك خطأ واضح أيضا حيث تفترض النظرية ان الفرد كان يعيش في عزلة عن غيره قبل نشوء الجماعة السياسية مع أن الحقيقة خلاف ذلك حيث نشأت الحياة الاجتماعية تلقائيا • والانسان كائن اجتماعي بفطرته لا يمكن أن يعيش الا في مجتمع • ولكن لا يسعنا مع كل ذلك الا أن نقرر الأثر الكبير الذي تركته نظريات التعاقد في التفكير السياسي في الغرب ، وبخاصة انجلترا ، والولايات المتحدة وفرنسا ،

(١٣٠) تاريخ الفلسفة الحديثة للأستاذ يوسف كرم ص ٢٠٦
(م ١٨ — الماوردى)

إذا كان لها هناك شأن كبير ذي الثورات التي قامت في هذه الأمم ، كما كان لها أيضا أثرها العميق ذي تطور النظم الديمقراطية في هذه البلاد .

نتيجة هامة :

وبعد ، فإن لنا هنا أن نقرر بأن ما توصل إليه الماوردي بأفكاره الأصلية عن العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، وأن هذه العلاقة ما هي إلا عقد عرفي متبادل ، قد سبق ، وبقرن ، أقطاب الديمقراطية الحديثة وخاصة لوك وروسو .

وهذا الذي نقرره من أسبقية الماوردي في تقريره أن مصدر السيادة في الدولة هو إرادة الأمة التي تعمل في نطاق الشريعة الغراء ، وأن القاعدة الشعبية لها وحدها حق اختيار الحاكم ، وأن عملية اختيار الحاكم هذه ينبغي أن تكون حرة غير مقيدة بقيد ، لا يشوبها إكراه ولا الزام وذلك « لأنها عقد مرضاء واختيار ، لا يداخله إكراه ولا إجبار » ، نقول أن هذا الذي نسجله هنا للماوردي بأسبقيته لأقطاب الديمقراطية الحديثة بفكره الديمقراطي الأصل ، يؤكد عالم جليل هو الأستاذ الدكتور السنهوري بطريق غير مباشر :

« بحث علماء الفقه الإسلامي موضع الإمامة بحثا مستفيضًا وقرروا أنها (أى الإمامة) تعتبر عقدا • ويتناول الأستاذ الدكتور السنهوري بحث طبيعة هذا العقد ، وأنهى الى القول بأنه عقد حقيقى مستوف لجميع الشروط القانونية ، وأنه مبنى على الرضا ، وأن الغاية من هذا العقد أن يكون هو المصدر الذى يستمد منه الامام سلطته • فالإمامة ما هى الا عقد طرفاه الأمة (ممثله فى أهل الحل والعقد) والامام • والأمة كطرف فى هذا العقد تظهر كوحدة متضامنة ذات ذاتية مستقلة ، والإمام (الخليفة) يعتبر نائبًا عنها فى ادارة شئون الدولة ، ويستمد سلطانه منها • اذ أن الأمة هى مصدر السلطات ، وصاحبة الارادة العليا فى كل ما يتعلق بأمور الدولة •

وقد أشار الدكتور السنهوري في مؤلفه عن (الخلافة) إلى أن علماء الإسلام ومفكره أدركوا جوهر نظرية روسو (نظرية العقد الاجتماعي) كما عرفوا نظرية السيادة وعرضوا لها جيبهما عبر عنها روسو فيما بعد،

ويعتبر ما أشار إليه الدكتور السنهوري — وأقام عليه الدليل — ذا أهمية كبرى ، وذلك لأن روسو يعتبر في نظر الأوروبيين أبا الديمقراطية الحديثة ، وكان كتابه «العقد الاجتماعي» بمثابة الانجيل لدى زعماء الثورة الفرنسية ، فعلماء المسلمين وصلوا إلى نظرية العقد الاجتماعي قبل أن تعرفها أوروبا بقرون عديدة ، وهكذا نجح الفكر السياسي في الإسلام قد سبق أفكار روسو وأتباعه مع فارق جوهرى بين الجاهليين ، ذلك أن العقد الذى يتكلم عنه روسو كان مجرد اقتراض (أخ أقامه على) أساس حالة تصور وجودها في العصور السحيقة ولم يؤيدها التاريخ ، في حين أن نظرية العقد الإسلامية تستند إلى ماض تاريخى ثابت ، وهو تجربة الأمة في خلال العصر الذهبى للإسلام ، وهو عصر الخلفاء الراشدين الذى كان يقوم نظام الحكم فيه على أساسين : أن الدين يبرر ، والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء التى تبين أساس السيادة في الدولة ومشروعيتها وترد ذلك إلى إرادة الأمة — عرفت وطبقت في الدولة الإسلامية قبل أن تظهر فى أوروبا ، والنظرية فى الفقه الإسلامى حقيقة واقعة سجلها التاريخ فى حين أنها فى أوروبا قامت على أساس الافتراض كما ذكر أصحابها وأنصارها من الفلاسفة وغيرهم من المفكرين (١٢١) » .

وهذا الذى يذهب إليه الدكتور السنهوري ، من ادراك علماء الإسلام ومفكره جوهر نظرية «روسو» فى «العقد الاجتماعى» ومعرفتهم انظرية السيادة وعرضهم لها على حسب ما عبر عنها روسو

ففيما بعد ، يؤكد ما سبق أن قررناه من سمو المنزلة التي يشغلها الماوردي في ميدان الفقه الاسلامي ، وسبقه بقرون عديدة لكثير من أعلام الفكر الديمقراطي الحديث وخاصة جون لوك وجان جاك روسو في تقريره لفكرة العقد • فعقد الامامة — كما تقدم ذكر ذلك عند الماوردي — «عقد حقيقي» من حيث أنه مستوف للشرائط ، من وجهة النظر القانونية ، وهو عقد مبني على الرضا ، وأن العاية منه أن يكون هو المصدر الذي يستمد منه الامام سلطته ، وهو تعاقد بين الامام وبين الأمة ممثلة في أولى الاختيار •

بل لقد ذهب البعض الى أن العقد الاجتماعي الذي وضعه « جان جاك روسو » ما هو الا نقل واخراج جديد لفكرة البيعة في الاسلام : لقد ثبت تاريخيا أن العقد الاجتماعي الذي وضعه « جان جاك روسو » لم يكن الا نقلا واخراجا في صورة أخرى لفكرة • البيعة « في الاسلام » (١٣٢) وروسو ، كما هو معروف ، يعتبر بحق أبو الديمقراطية الحديثة « في نظر أهل أوربا وكتابه Lecontrat Social » يعد بمثابة انجيل مقدس لدى زعماء « الثورة الفرنسية » ، وكل هذا ان دل فانما يدل على مدى ما وصل اليه الفكر الاسلامي من الدقة ، والسمو والأصالة الفكرية ، وكل هذا قبل مجيء « روسو » وأتباعه بقرون عديدة •



الفصل الرابع

الوزارة

أنواعها وشروط كل منها

- ١ - منصب الوزارة في الاسلام .
- ٢ - أنواع الوزارة .
 - وزارة التفويض .
 - وزارة التنفيذ .
- ٣ - أوجه الاختلاف بين وزارتي التفويض والتنفيذ .
- ٤ - أوجه الالتقاء بين وزارتي التفويض والتنفيذ .
- ٥ - وصايا ونصائح للوزير .

منصب الوزارة في الاسلام :

جاء منصب الوزارة في الاسلام نظرا لصعوبة قيام الامام بجميع شئون الأمة الدينية منها ، أو الدنيوية ، ومن هنا كان لابد من الانابة : أى لالامام من أعوان وعمال يعينونه ، كما يعهد اليهم بتأدية الوظائف المتعددة التي أقيمت الدولة من أجل أن تؤدي ، فمنصب الوزارة اذن لتأدية الوظائف المختلفة ، وهذا ما يعنيه الماوردي بقوله : « لأن ما وكل الى الامام من تدبير الأمة لا يقدر على مباشرة جميعه ، الا باستنابة ونيابة الوزير المشارك له في التدبير أصح في تنفيذ الأمور من تفرده بها ليستظهر به على نفسه وبها يكون أبعد من الزلل وأمنع من الخلل » (١) .

ولقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يستشير أصحابه ويخص منهم — فيمن يستشير — أبا بكر وعمر وعثمان وعلى . وكان العرب يصفون أبا بكر بأنه وزير الرسول ، وكان يوصف أيضا بمثل هذا الوصف عمر بالنسبة الى الخليفة أبى بكر ، كما كان يوصف به على وعثمان بالنسبة الى الخليفة عمر .

يقول الجهشيارى ، صاحب كتاب « الوزراء والكتاب » : « كان الخليفة في أول الأمر يشرف على كل شئون الدولة بنفسه ، وان استشار بعض المقربين اليه . ولكن فيما بعد لم يتمسك الخلفاء كثيرا بهذا الاشراف المباشر لاتساع رقعة الاسلام ، بحيث أن الخلفاء كانوا يختارون من يساعدهم في تصريف شئون دولتهم ، وبخاصة الادارية منها ، وذلك بين كبار موظفيهم ، الذين يطلق عليهم لفظة الكاتب » (٢) . ونظرا لأهميته وخطورة هذه الوظيفة فإن الخلفاء كانوا لا يستوزرون ، كما يقول المسعودى (٣) « الا الكامل من كتابها ، والأمين العفيف من خاصتها ،

(١) الأحكام السلطانية لـ الماوردي ص ١٨

(٢) كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى حققه الاساتذة مصطفى السقا والابيارى وشلبى . الطبعة الاولى القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٨ ص ١٥

(٣) النبيه والاشراف ص ٢٩٤

والناصح الصدوق من رجالها ، ومن تأمنه على أسرارها وأموالها ، وتتق بحزمه وفضل رأيه ، وصحة تدبيره في أمورها » •

وتاريخيا ، (٤) فمن المعلوم أنه عند قيام الدولة الأموية اشتدت الحاجة الى من يشغل هذا المنصب بسبب اتساع المملكة والاهتمام بتنظيم شئونها ، ثم لسبب آخر قوي وهو أن الخليفة لم يعد يختار من بين الأكفاء ، وانما أصبحت الخلافة وراثية وقد يكون الخليفة قليل التجارب فاحتاج الى وزير يقف بجانبه يرشده وينصحه •

غير أن الأمويين كانوا عربا في تفكيرهم ، فلم يريدوا أن يدخلوا في نظمهم شيئا فارسيا وأنفوا أن يقلد الحاكم المحكوم ، ومن هنا وجد من يعمل عمل الوزير وان لم يأخذ اسمه •

والفرق في هذا بين عهد الخلفاء الراشدين وعهد الأمويين أن المستشار أو الناصح كان شخصا معروفا تقريبا في عهد الأمويين كرجاء بين حيوة لسليمان بن عبد الملك ومزاحم لعمر بن عبد العزيز ، أما في عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين فلم يكن معينا ، وانما كان يستشار من يوجد من كبار الصحابة •

وقامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس وعلى حساب سيوفهم ، ولم يكن العباسيون يعارضون ثقافة الفرس بل كانوا يحبونها ويميلون اليها ، وقد اقتبسوا كثيرا من عادات الفرس ونظمهم ، ومن النظم التي اقتبسوها الوزارة • وقد أخذوا عملها ولفظها من الفرس ، وأصبحت كلمة الوزير مستعملة في الادارة الاسلامية منذ ذلك الوقت •

بل أكثر من ذلك لقد اختار الخلفاء العباسيون وزراءهم من الفرس ،

(٤) اعتمدنا في ذلك على كتاب السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي للدكتور أحمد شلبي ص ١٢٣ وما بعدها .

وعلى هذا فقد أخذت الفكرة واللفظ والشخص من فارس في العهد العباسي الاول •

وقد استطاع هؤلاء الفرس الذين شغلوا منصب الوزارة أن يؤثروا تأثيرا كبيرا في الحياة الاسلامية وأن ينقلوا الى النظم الاسلامية كثيرا من عادات الفرس ونظمهم •

غير أن قوة الخلفاء في العصر العباسي الأول كانت تحد من سلطة الوزراء ، وكان الوزير عرضة للموت اذا حاول أن يظهر سلطانه أو يتخطى الحدود المرسومة له ، وكثير من وزراء هذا العهد قتلوا بأيدي الخلفاء لأنهم أخطأوا أو تجاوزوا حدودهم ، ومن هؤلاء أبو سلمة الخلال ومعاوية ابن يسار وجعفر البرمكي ، حتى قال الشاعر :

أسوأ العالمين حالا لديهم من تسمى بكاتب أو وزير

فقد كانت هذه الوظيفة مصدر خطر على من يشغلها إذ كان الخليفة لا يحتمل أن يشاركه أحد في سلطانه •

وبعد العصر العباسي الأول ضعف شأن الخلفاء ، ولكن شأن الوزراء لم يقو ، لأن المماليك والبويهيين والسلاجقة أخذوا السلطة من الخلفاء ، وظل الوزراء معهم كما كانوا مع الخلفاء •

وكلمة استنابة التي تحدث عنها الماوردي « لأن ما وكل الى الامام من تدبير الأمة لا يقدر على مباشرة جميعه الا باستنابة » يقابلها ويؤدى معناها فى اللغة الانجليزية *delegation of authority* ويؤكد الماوردي ذلك فى مخطوطته « نصيحة الملوك » بقوله أن الأعمال لا تستطاع الا بالوزراء والأعوان ، وذلك ما أراده ابن خلدون ^(٥) حيث يقول : « اعلم أن السلطان فى نفسه ضعيف يحمل أمرا ثقيلا ، فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه • واذا كان يستعين بهم فى ضرورة معاشه

(٥) المقدمة تحقبق على عبد الواحد واني ج ٢ ص ٧٧١

وسائر مهنة فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلفه وعباده .
وهو محتاج الى حماية الكافة من عدوهم بالمداخلة عنهم ، والى كف عدوان
بعضهم على بعض في أنفسهم بامضاء الأحكام الوازنة فيهم ، وكف العدوان
عليهم في أموالهم باصلاح سابلتهم — (السابلة : الجماعة المختلفة
في الطرقات في حوائجهم • المصباح) — والى حملهم على مصالحهم ،
وما تعمهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من نقد المعاش والمكاييل
والموازين حذرا من التطفيف ، والى النظر في السكة بحفظ النقود التي
يتعاملون بها من الغش ، والى سياستهم بما يريد من الانقياد
له والرضا بمقاصده منهم وانفراده بالمجد دونهم » •

والوزارة عبد ابن خلدون : (٦) « أم الخطط السلطانية والرتب
الملوكية ، لأن اسمها يدل على مطلق الاعانة ، فطبيعة عمل الوزير أن
يعاون الخليفة في شتى الأمور كالنظر في الجند والسلاح وسائر أمور
المال والادارة وغيرها ، وهي بهذا الشمول تفوق المناصب الأخرى
التي تخصصت كل منها لعمل معين كالكتابة والحجابة والجباية • وقد
ورد عن الرسول قوله : اذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق ،
ان نسي ذكره ، وان ذكر أعانه ، واذا أراد الله غير ذلك جعل له وزير
سوء ان نسي لم يذكره ، وان ذكر لم يعنه • (رواه أبو داود والنسائي) •
وبعد أن يبين ابن خلدون مختلف الأعباء الملقاة على عاتق الوزير ، يوضح
أن كل تلك الأعمال تحتاج الى تخصص ودراية ، وهي مختلفة الأنواع ،
فلا بد من توزيعها ، ولا بد من رجال أكفاء ، يستطيعون النهوض بها على
الوجه الأكمل ، وجميع هذه الوظائف تندرج عند ابن خلدون تحت الخلافة
لاشتمال الخلافة على الدين والدنيا معا •

ويشارك الماوردي بالرأى في ضرورة الاستنابة ، أي أن ينيب الامام
عنه أعوانا وعمالا يعهد اليهم بتأدية الوظائف العديدة كثير من العلماء
نحصر منهم بالذكر امام الحرمين « الجويني » الذي يقول : وليس من

(٦) المصدر السابق .

الممكن أن يتعاطى الامام مهمات المسلمين فى الخطة وقد اتسعت اكتافها وانتشرت أطرافها ولا تجد بدا من أن يستنيب فى أحكامها (٧) . ويقول الثعالبى : (ولن يصل الملك الى ما يريد من أحكام التدبير وضبط الأمور الا بحسن معونة الوزراء والأعوان التى تجرى على أيديهم الأعمال » (٨) . وهذا هو ما يذهب اليه أيضا : « ابن أبى الربيع » مقررًا أن « لابد لمن تقلد الخلافة والملك من وزير على نظم الأمور ومعين على حوادث الدهور يكشف له صواب التدبير » (٩) . ويؤكد هذا أيضا أبو سالم الوزير بقوله : « ويكون النظر فى التفصيل والقيام بجزئيات الأمور والأعمال مفوضا الى من أقامه السلطان وولاه واستنابه فيما هو أهل لما تولاه . . وعلى السلطان أن يجهد رأيه ويعمل فكره فى اختبار من يفوض اليه شيئا من أعمال مملكته ويستخدمه فى بعض أحوال دولته ويوليه أمرا من أمور رعيته فان أفعالهم اليه منسوبة وأعمالهم عليه محسوبة » (١٠) فقدر السلطان يعلو وذكره يحسن بالوزير الصالح المعادل الكفاء . ، والنبي صلوات الله وسلامه عليه مع جلالة قدره وفصاحته وعظم درجته أمره الله تعالى بمشاورة أصحابه العقلاء فقال تعالى : « وشاورهم فى الأمر » .

وتحتل الوزارة كولاية مكانة هامة فى الدولة فى الترتيب بعد منصب « الامامة » بل هى تساويه فى الوجهة العملية ، وقد قيل فى ذلك : « ان أشرف منازل الآدميين الرسالة ثم النبوة ثم الخلافة ثم السلطنة ثم الوزارة » (١١) . وقال الثعالبى فى يواقيت الواقيت « الوزارة اسم

(٧) غياث الأمم للجوينى ص ٧٦

(٨) تحفة الوزراء للثعالبى — مخطوط — وجه ص ١٢

(٩) سلوك المالك فى تدبير الممالك ، طبع حجر ، لابن أبى الربيع ص ١٢٢

(١٠) العقد الفريد للملك السعيد لأبى سالم الوزير ص ١٤٣

(١١) النفع الغزير فى صلاح السلطان والوزير لأحمد الدمنهورى —

مخطوط — ص ١٠

جامع للمجد والشرف والمروءة وهى تورث الملك والامارة والرتب العليا والدرجة الكبرى » (١٢) •

ومعروف أن منصب الوزارة فى حد ذاته أقدم من الاسلام •• وقد أقر الاسلام هذا المنصب ووضع له شروطا خاصة •• ففى القرآن الكريم على لسان موسى : « واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى » • وفى حديث السقيفة : « نحن الأمراء وأنتم الوزراء » • وفى طبقات ابن سعد « ان أبا بكر كان وزيرا للنبي صلى الله عليه وسلم » • وفى طبقات الشعراء لابن قتيبة : « أن أبا ذؤيب الهذلى — وهو شاعر جاهلى اسلامى — خان فى امرأة ابن عم له ، ثم خان خالد ابن زهير فيها ، فقال خالد يخاطب أبا ذؤيب :

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها وأول راض سنة من يسيرها

وكنت اماما للعشيرة تنتهى اليك اذا ضاقت بأمر صدورها

ألم تنتقذها من ابن عويمر وأنت صفى نفسه ووزيرها

ويقول صاحب الفخرى : « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون فى طبعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة •• والأمانة والصدق رأس ماله ، قيل اذا خان السفير بطل التدبير ، والكفاءة والشهامة من مهماته ، والفظنة والתיقظ والدهاء من ضرورياته ، ولا يستغنى أن يكون مفضالا مطعاما ليستميل بذلك الأعناق وليكون مشكورا بكل لسان » • والوزارة لم تتمهد قواعدها ، وتقرر قوانينها الا فى دولة بنى العباس ، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننه القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فاذا حدث أمر استشارى بذوى الحجا والآراء الصائبة فكل منهم يجرى مجرى الوزير ، فلما ملك بنو العباس

(١٢) حسن السلوك فى آداب الملوك للشيخ احمد الفيومى — مخطوط

تقررت قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً » (١٣) •

• ويؤكد الماوردي رأيه في ضرورة استعانة الحاكم بوزراء بقوله أيضاً :

« ليس يمتنع جواز هذه الوزارة » وقد استند الماوردي في رأيه هذا على دعامتين :

الأولى : ما جاء في القرآن الكريم من أن موسى عليه السلام طلب وزيرا يساعده : « واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى ، أشدد به أزرى واشركه فى أمرى » فإذا كان ذلك قد جاز بالنسبة للنسبة النبوة . يكون فى الإمامة أجوز • ويشرح الطرطوشى هذه الآية السابقة شرحا وافيا يقول : « لو كان السلطان يستغنى عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران • ثم ذكر حكمة الوزراء فقال : أشدد به أزرى واشركه فى أمرى • دلت الآية على أن موضع الوزارة أن تشد قواعد المملكة وأن يقضى اليه السلطان بعجزه وبجره إذا استكملت فيه خلال المحمود • ثم قال كى نسبك كثيرا • دلت هذه الكلمة على أن بصحة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة تنتظم أمور الدنيا وأمور الآخرة • وأول ما يظهر نبيل السلطان وقوة تمييزه وجودة عقله فى استنخاب الوزراء • • • وعظم الأشياء ضررا على الناس عامة وعلى الولاة خاصة أن يخرموا صالح الوزراء والأعوان فتكون أعوانهم غير ذى جدوى وغناء ويحذر الملك أن يولى الوزراء غير المتبحرين كى لا تضيع الأمور » (١٤) •

والدعامة الثانية : أن الصالح العام يتطلب وجود وزير أو وزراء للحاكم ، فان الامام محمل بمسئوليات تقتضى أعمالا كثيرة ، ولا يستطيع أن يقوم بكل هذه الأعمال بدون انتداب ومشاركة ، وهذا ما يعبر عنه

(١٣) كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبأ ص ١٣٥ — ١٣٦.

(١٤) سراج المنوك للطرطوشى ص ٦٩ — ٧٠.

المأوردى بقوله: « ونيابة الوزير المشارك له في التدبير أصبح في تنفيذ الأمور من تفرده بها ، ليستظهر به على نفسه ، وبها ، يكون أبعد من الزلل ، وأمنع من الخلل » • وبهذا يتضح لنا أهمية استوزار الحاكم وزراء له من أجل معاونته في إدارة شئون الدولة ، فالوزارة أمر لا زَم للحاكم ، كما يتضح لنا أيضا أن الوزارة وظيفة قديمة كانت للأنبياء فما من نبي الا وكان له وزير ، فالوزير الصالح سر الملك ومدير أمره وبه عمارة الولايات والمدائن •

ومن حيث معرفة الاشتقاق اللغوي لاسم الوزارة ، يذهب المأوردى الى أن اسم الوزارة مختلف في اشتقاقه على ثلاثة أوجه : أحدها : أنه مأخوذ من الوزر وهو الثقل لأنه يحمل عن الملك أثقاله • ومنه قوله تعالى : « ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم » أى أثقالا من أمتعتهم وحليهم • والثانى : أنه مأخوذ من الوزر وهو الملجأ ومنه قوله تعالى : « كلا لا وزر » أى لا ملجأ فسمى بذلك لأن الملك يلجأ اليه مستعينا برأيه ومشورته •

والثالث : أنه مأخوذ من الأزر وهو الظهر ، لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر (١٥) • والأظهر أنه من المساعدة والمعونة • روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق أن نسي ذكره ، وان اراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ان نسي لم يذكره وان ذكر لم يعنه •

ويذكر ابن خلدون ان اسم الوزارة يدل على مطلق الاعانة ، فان الوزارة مأخوذة اما من الموازرة وهى المعاونة ، أو من الوزر وهو الثقل • • وهو راجع الى المعاونة المطلقة « (١٦) • والحقيقة أن الموازرة التى وردت

(١٥) راجع الأحكام السلطانية للمأوردى ص ٢٠ ، والعقد الفريد للملك السعيد لأبى سالم الوزير ص ١٤٤ ، وتحفة الوزراء لأبى منصور الثعالبى — مخطوط — وجه ورقة ٢

(١٦) المقدمة ٧٧١/٢

هنا ترجع بدورها الى القول بالاشتقاق من الأزر أى الظهر ، وهو أحد الأوجه الثلاثة الأولى * ويقول الفخرى فى كتابه (الفخرى فى الآداب السلطانية) : قال أهل اللغة الوزر : الملجأ والمعتصم ، والوزر : الثقل ، فالوزير اما مأخوذ من الوزر فيكون المعنى أنه يرجع اليه ويلجأ الى رأيه وتدبيره ، وأما مأخوذ من الوزر فيكون معناه أنه يحمل الثقل والعبء عن الخليفة أو معه •

أنواع الوزارة (وزارة التفويض ، ووزارة التنفيذ) :

ويفرق الماوردى بين نوعين من الوزارة ، وهذا ناتج أصلا من تفريقه بين نوعين من الانابة : الأولى انابة « التفويض » ، والثانية انابة « التنفيذ » ، وفى الأحكام السلطانية للماوردى نجد أن « عمال التنفيذ نياب ، وعمال التفويض ولاية » ، ذلك أن التفويض ولاية لا تمنح الا بعقد ، أما التنفيذ فمجرد انتداب ، ولا يحتاج الى تقليد ، بل يكفى فيه الاذن ، ومن هنا كان تمييز الماوردى بين نوعين من الوزارة : وزارة التفويض ، ووزارة التنفيذ • ووزارة التفويض معناها تفويض شئون الخلافة الى وزير يدبرها برأيه ، ولا يستشير فيها الخليفة ، أى أن الخليفة يملك الوزارة المطلقة وهى عنده « أكمل الولايات وأتمها لاشتغالها على النظر ولا يحكم *Régner sans gouverner* » ويسمى « الثعالبى » فى أمور المملكة وهى لا تحتل الشركة لأنها وزارة تامة عامة فالشركة تنقصها • أما وزارة التنفيذ فمعناها أن الوزير ينفذ أمر الخليفة الذى يشرف على جميع تصرفاته ، وكما يقول الثعالبى « فانها تحتل الاشتراك اذ لا تنقص ولا يتغير نظامها بذلك اذ أنها وزارة مقيدة خاصة ، ووزارة التفويض عند الماوردى أكثر عملا وعمومية — كما تقدم — أما وزارة التنفيذ فحكمها أضعف وشروطها أقل ، وهى أكثر نقلا وخصوصية » (١٧) •

ونتكلم هنا بشئ من التفصيل عن وزارتى التفويض والتنفيذ :

كما أوضح ذلك الماوردي في كتابه « الاحكام السلطانية » ، ومخطوطته
« قوانين الوزارة » •

وزارة التفويض :

وزارة التفويض عند الماوردي تجمع بين كفايتي السيف والقلم ،
وهي أعظم نظرا وأنفذ أمرا وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
قال : « خلق الله الدنيا للسيف والقلم وجعل السيف تحت القلم » •
ووزارة التفويض هذه هي استيلاء على التدبير والعقد والحل والتقليد
والعزل ، فاذا كانت وزارة التفويض هي وزارة السيف أى يتولاها
رجال الحرب ، أرباب السيوف ، ومن هنا أيضا كانت تسميتها وزارة
السيف ، ومن غير الممكن أن يتولى وزارة التفويض غير المسلم ، وذلك
لسيطرتها على شئون الأمة الاسلامية الادارية والحربية والدينية •

ويعرف الماوردي وزارة التفويض بأنها هي « أن يستوزر الامام من
يفوض اليه تدبير الأمور برأيه وامضاءها على اجتهاده » (١٨) فوزير
التفويض هنا يقوم مقام الامام ، وهو ليس واسطة مثل وزير التنفيذ ، ذلك
أن وزارة التفويض هي وزارة عامة تامة : « ويستفاد بهذه الولاية
ببسط اليد ونفاذ الحكم في أمور المملكة والتصرف في أحوال الدولة بما
يقتضيه نظره واجتهاده من تولية وعزل واطلاق وبذل واستخدام وقطع
واعطاء ... وتسلب على كل ما للسلطان فعله من أمور المملكة الا على شيئين
فإنه ليس له فعلهما : أحدهما اقامة ولى العهد ، والثانى : عزل من ولاه
السلطان وأقامه فان فعل ذلك وأقدم عليه فإنه لا ينفذ ولا يعتبر شرعا •
وعليه أن يطلع السلطان بما أمضاه من عمل وما أنفذه من ولاية
وتقليد وعلى السلطان أن يتأمل أعمال الوزير وما قد أصدره عن الرأي
والتدبير ويتفقد ذلك فما وجدته على وفق الصواب قرره وتركه وما رآه على
خلاف ذلك رده واستدراكه » (١٩) •

(١٨) الاحكام السلطانية للماوردي ص ١٨

(١٩) العقد الفريد للملك السعيد الابى سالم محمد الوزير ص ١٤٦ •

ووزارة التفويض ، اذن ، على جانب خطير من الأهمية ، لأن الوزير يكون فيها مفوضا في تدبير الأمور برأيه واجتهاده ، وولايته عامة في كل الأمور ، وكافة الأعمال ، وللوزير هنا أن ينظر في المظالم ويستنيب فيها ، ويجوز أن يتولى الجهاد بنفسه وأن يقلد من يتولاه ، ويجوز أن يباشر تنفيذ الأمور التي دبرها وأن يستنيب في تنفيذها فالقاعدة عند الماوردي أن « كل ما صحح من الامام صحح من الوزير » *

وشروط وزارة التفويض هي نفسها شروط « الامامة » ، وهي العدالة ، والعلم ، وسلامة الحواس وسلامة الأعضاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة ، المؤدية الى حماية البيضة وجهاد العدو ، الا النسب وحده وهو المعروف بشرط القرشية *

يقول الماوردي : « ويعتبر في تقليد هذه الوزارة شروط الامامة ، الا النسب وحده ، لأنه ممضى الآراء ومنفذ الاجتهاد ، فاقضى أن يكون على صفات المجتهدين * ويحتاج فيها الى شرط زائد على شروط الامامة وهو أن يكون من أهل الكفاية فيما وكل اليه من أمرى الحرب والمخراج خبرة بهما ومعرفة بتفصيلهما فانه مباشر لهما تارة ، ومستنيب فيها أخرى فلا يصل الى استنابة الكفاة الا أن يكون منهم كما لا يقدر على المباشرة اذا قصر عنهم وعلى هذا الشرط مدار الوزارة وبه تنظيم السياسة » (٢٠) *

وقد سبق لنا القول ان شرط النسب القرشي هو نفسه محل خلاف بين المسلمين حتى بالنسبة للامام ، وهو يعنى العصبية والشوكة وأن يكون مؤيدا من الكثرة ، وقد أصبح هذا الشرط غير ذي بال منذ وقت طويل ، وبهذا تتطابق تقريبا شرائط الامامة ووزارة التفويض * وقد اتضح لنا أيضا زيادة شرط لوزارة التفويض على شروط الامامة : وهو أن يكون المرشح من أهل الكفاية فيما وكل اليه من أمرى الحرب والمخراج ، أى من حيث معرفة ودراية الامام بتفاصيل الشؤون الحربية والادارية *

(٢٠) الاحكام للماوردي ص ١٨ ، وانظر : غياث الامم للجويني ص ٧٢ (م ١٩ — الماوردي)

« حكى أن المأمون رضى الله عنه كتب في اختيار وزير أنى التمسست
لأمورى رجلا جامعا لخصال الخير ، ذا عفة في خلائقه ، واستقامة
فى طرائقه ، قد هذبته الآداب ، واحكمته التجارب ، ان أوتمن على
الأسرار قام بها ، وان قلاد مهمات الأمور نهض فيها • يسكنه الجلم ،
وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة ، وتغنيه اللحظة • له صولة الأمراء ، وأناة
الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء • ان احسن اليه شكر ،
وان ابتلى بالاساءة صبر لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب
الرجال بخلاصة لسانه وحسن بيانه » وقد جمع بعض الشعراء هذه
الأوصاف فأوجزها ووصف بعض وزراء الدولة العباسية بها فقال :
بديهته وفكرته سواء اذا اشتبهت على الناس الأمور
وأجزم ما يكون الدهر يوما اذا أعيى المشاور والمشير
وضد رفيه للهم اتساع اذا ضاقت من الهم الصدور

فهذه الأوصاف اذا كملت فى الزعيم المدبر ، وقل ما تكمل ، فالصلاح
ينظره عام ، وما يناط برأيه وتدبيره تام ، وان اختلفت فالصلاح بحسبها
يختل والتدبير على قدرها يعتل ولئن لم يكن هذا من الشروط الدينية
المحضة فهو من الشروط السياسية الممازجة لشروط الدين لما يتعلق
بها من مصالح الأمة واستقامة الملة » (٢١) •

وهذه الصفات التى يشترط الماوردى ضرورة ثوابها فى الوزير
(وزير التفويض) يتفق معه عليها كثيرون منهم « أبو منصور الثعالبي »
حيث يقول : والخصال التى ينبغى أن تجتمع فى هذا الوزير ،
هى الاسلام والبلوغ ، والعقل والعدالة ، ويحتاج أن يكون موصوفا
بزرانة العقل وجودة الآراء والمعرفة بالسياسة ، لا تبهره الأمور وان
عظمت ، ولا تدهشه الآراء والأعمال اذا تكاثرت » (٢٢) واشترط

(٢١) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٨

(٢٢) تحفة الوزراء لأبى منصور الثعالبي — مخطوط — ظهر ورقة ٨

« الطرطوشى » فى كتابه « سراج الملوك » أن يكون الوزير مكنى بالرحمة
للخلق ، وأن يكون نقى الجيب لا يقبل دقيقه ، وأن يكون معتدلاً ،
وموقع الوزير من الملك موقع الملك من العامة ، وكما أن السلطان إذا صلح
صلحت الرعية ، وإذا فسد فسدوا ، كذلك الوزراء إذا فسدوا فسد الملك ،
وإذا صلحوا صلح الملك . (٢٣) .

والأهمية منصب الوزير فى الدولة نجد أن الفقهاء ، وعلى رأسهم
الماوردى ، تشددوا فى اشتراط شروط معينة فيمن ينبغى أن يشغل
هذا المنصب ، وذلك لأنه إذا صلح الوزير صلح السلطان لأن فى يده
زمام الحل والعقد والقبول والرد والنهى والأمر والاثبات ، ومن هنا كان
القول المأثور لا تسأل عن السلطان وسئل عن وزيره . ويقول الأهمام
موسى بن يوسف بن زيان فى هذا المقام « ينبغى للوزير أن يكون أحسن
فطنة وسياسة من الملك ، لأن الملك يسوس من دونه من رعيته ، وأما
الوزير فإنه يسوس من فوقه وهو الملك ومن دونه وهم الرعية فيحتاج
الى أفضل سياسة ، وخسن فطنة وعقل ، ومثل السلطان كمثل الطبيب
والرعية كالعليل ، والوزير كالسفير بين الطبيب والعليل » (٢٤) .

وتشبيه بهذا ما يذهب اليه ميكافلى صاحب كتاب « الأمير » الذى
يقول : « انتخاب وزراء الأمير أمر ذو صعوبة كبرى فاما يكون السوزراء
صالحين لعملهم واما غير ذلك . وأول حكم يصدره الناظر على عقل الأمير
ينبه على صفات الرجال الذين حولهم فان كانوا أكفاء وأمناء ثبت عقل

(٢٣) انظر : سراج الملوك ، للطرطوشى ص ٧١ — ٧٢ .

(٢٤) كتاب فوائده السلوك فى سياسة الملوك للإمام موسى بن يوسف
ابن زيان ص ١٠٤ ، وراجع أيضاً ، سلوك الملك فى تدبير الملك لابن أبي
الربيع ص ١٢٣ ، وكتاب الوزراء والكتائب للجهشيارى ص ١٠ ، وتحفة
الوزراء للشهابى — مخطوط : ظهر ص ٣ ، ٤ ، ووجه ص ٦ ، والعقد
الفريد للملك السعيد لابی سالم ابن طلحة الوزير ص ١٤٣ — ١٤٤ ، والمنهج
السلوك فى سياسة الملوك لعبد الرحمن بن نصر الشيرازى ص ٢٠ — ٢١ .

الأمير وحكمته ، وان كانوا عكس ذلك كان الضد. لأن أول خطأ ارتكبه هو اختياره السيئ » (٢٥) •

ونظرا للأهمية التي تتميز بها وزارة التفويض ، والشروط الدقيقة التي يشترط لها فان ولايتها لا تصح الا بعقد وصيغة معينة ، ولا يكفي لها مجرد الاذن ، ويجب أن تكون صيغة التولية لها صحيحة « لأن العقود لا تصح الا بالقول الصريح » والإمام حين يعقد عقد التفويض فانما يعقده بالنيابة عن الأمة ، لا عن نفسه ، وبالتالي فان سلطة وزارة التفويض التي تمنح بمقتضى هذا العقد تكون سلطه استقلالية ، وكل المقلدين للمناصب بعقود تفويض ، ومنها وزارة التفويض يقفون مع الإمام على قدم المساواة ، وأنهم جميعا « ولاية » طالما أنهم جميعا يؤدون حقوق الأمة ، والذي يشترط في صيغة التولية لوزارة التفويض شرطان : الأول ، أن تشتمل على عموم النظر ، والثاني ، على النيابة • فان اقتصر على عموم النظر دون النيابة ، أو العكس لم تنعقد بذلك الوزارة • ومثال صيغة التولية القانونية أن يقول الخليفة : « قد قلدتك ما الى ، نيابة عني » ، أو أن يقول : « قد فوضنا اليك الوزارة » • أما أن قال — مثلا — « أنظر فيما الى » — فقط ، أو قال « قد قلدتك وزارتي » أو الوزارة ، فان وزارة التفويض لا تنعقد بهذه الصيغة. وتعبير الموردي عن ذلك كالآتي :

« فاذا كملت شروط هذه الوزارة فيمن هو أهل لها فصحة التقليد فيها معتبرة بلفظ الخليفة المستورز لأنها ولاية تفتقر الى عقد والعقود لا تصح الا بالقول الصريح فان وقع له بالنظر وأذن لم يتم له التقليد • ولكن لو قال قد استنبتت فيما الى انعقدت به الوزارة لأنه عدل عن مجرد الاذن الى ألفاظ العقود ، وان يقول قد استورزتكم تعويلا على نيابتكم فتعقد به هذه الوزارة ، ولو قال قد فوضنا اليك الوزارة صح لأن ولاية الأمور يكونون عن أنفسهم بلفظ الجمع ويعظمون عن اضافة الشيء

اليهم فيرسلونه فيقوم قوله قد غوضنا إليك مقام قوله فوضت إليك وقوله الوزارة مقام وزارتي وهذا أفخم قول عقدت به وزارة التفويض وأوجزه» (٢٦) •

ويقول «أبو منصور الثعالبي» في صحة التقليد لوزارة «التفويض» «الأظهر أنها إنما تنعقد باللفظ بقول الخليفة الامام أو الملك لمن يندبه لذلك قلدتك وزارتي والنيابة عنى في جميع ما الى من ولاية الرعية فيقول قبلت وتقلدت وان سكت وباشر فهو كالقبول» (٢٧) •

الفرق بين الامامة ووزارة التفويض :

علمنا أن وزير التفويض يجوز له أن يحكم بنفسه وأن يقلد الحكام كما يجوز ذلك للامام ، كما يجوز لوزير التفويض أن ينظر في المظالم ويستتنب فيها لأن شروط المظالم فيه معتبرة ، كما يجوز له أن يتولى الجهاد بنفسه وأن يقلد من يتولاه ، ويجوز أن يباشر تنفيذ الأمور التي دبرها ، وأن يستتنب في تنفيذها لأن شروط الرأي والتدبير فيه معتبرة ، ومعنى كل ذلك أن وزير التفويض يقوم مقام الامام طالما ان الاختصاصات بينهما متشابهة الى حد كبير ، ولكن لا يعنى هذا أن وجوده يلغى سلطة الامام أو يعطلها كلية • وقد اشترط لصحة ولايته أن يكون ذلك مقعدا بأمرين هامين : أحدهما ، وهو يختص بالوزير — أن يطالع الامام بما أمضاه من تدبير ، وأنفذه من ولاية وتقليد ، لئلا يضير بالاستبداد كالامام • والثانى ، وهو مختص بالامام — أن يتصفح أحوال الوزير وتدبيره الأمور ليقر فيها ما وافق الصواب ويستدرك ما خالفه ، لأن تدبير الأمة اليه موكل وعلى اجتهاده محمول (٢٨) •

ويجوز التفويض للوزير في جميع الأمور ، ويختص الامام عنه بثلاثة

(٢٦) الاحكام السلطانية للماوردي — ص ١٩

(٢٧) تحفة الوزراء للثعالبي وجه ورقة ٨

(٢٨) الاحكام للماوردي ص ٢٠

أشياء» «وكل ما صح من الامام صح من الوزير الا ثلاثة أشياء :
أحدها ، ولاية العهد ، فان للامام أن يعهد الى من يرى وليس ذلك
لوزير ، الثاني ، أن للامام أن يستعفى الأمة من الامامة وليس للوزير ،
والثالث ، فحكم التفويض اليه يقتضى جواز فعله وصحة نفوذه منه » (٢٩)

وحدة وتعدد الوزارة :

وكما لا يجوز التعدد في الامامة ، فكذلك لا يجوز أيضا في ولاية وزارة
التفويض ، حيث يقوم الوزير مقام الامام . ولو فرض أن قلاد الامام
وزيرى تفويض ، وجعل لكل واحد منهما عموم النظر ، فان ذلك لا يصح ،
فان كان تقليدهما معا في وقت واحد بطل تقليدهما معا ، وان سبق أحدهما
الآخر ضح تقليد المسبوق . واذا كانت الحالة أن يشرك الامام بين وزيرى
التفويض في النظر ، على اجتماعهما فيه ولا يجعل الى واحد منهما أن يفرد
به فهذا يصح ، وتكون الوزارة بينهما لا في واحد منهما (وهذا شبيه بما
هو معروف اليوم بالاشتراك أو التضامن الوزارى ، وهو أساس « مجلس
الوزراء » في العصر الحديث) — ولهما تنفيذ ما اتفق رأيهما عليه وليس
تنفيذ ما اختلفا فيه ، وتعتبر هذه الوزارة قاصرة في الحقيقة عن وزارة
التفويض المطلقة . وفي حالة عدم الاشتراك بينهما في النظر ، وانما يفرد
كل واحد منهما بما ليس فيه للآخر نظر ، كأن يختص كل واحد منهما
بعمل (ناحية أو إقليم) مثل أن يتولى أحدهما وزارة بلاد المشرق ،
والآخر وزارة بلاد المغرب ، أو يخص الامام كل واحد منهما بنظر في
جميع أنحاء الدولة وذلك كأن يستوزر أحدهما على الحرب والآخبر
على الخراج ، والتقليد يصح في كلا الوجهين من حيث الحكم الفقهي
لهذه الحالة . وكما تقدم ، لا يعد هذان وزيرى تفويض بالمعنى المطلق ،
وانما يكونان واليين على عملين مختلفين « لأن وزارة التفويض ما عمت ،
ونفذ أمر الوزيرين بها في كل عمل وفي كل نظر » .

ويعبر الماوردي عن ذلك بقوله :

« ولا يجوز أن يقلد وزيرى تفويض على الاجتماع لعموم ولايتهما ، كما لا يجوز تقليد امامين لأنهما ربما تعارضا فى العقد والحل والتقليد والعزل وقد قال الله تعالى : (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) فان قلد وزيرى تفويض لم يخل حال تقليده لهما من ثلاثة أقسام :

أحدها : أن يفوض الى كل واحد منهما عموم النظر •• وينظر فى تقليدهما ، فان كان فى وقت واحد بطل تقليدهما معا ، وان سبق أحدهما الآخر صح تقليد السابق وبطل تقليد المسبوق •

القسم الثانى : أن يشرك بينهما فى النظر على اجتماعهما فيه ، ولا يجعل الى واحد منهما أن ينفرد به فهذا يصح وتكون الوزارة بينهما لا فى واحد منهما ، ولهما تنفيذ ما اتفق رأيهما عليه وليس تنفيذ ما اختلفا فيه •

والقسم الثالث : أن لا يشرك بينهما فى النظر ويفرد لكل واحد منهما بما ليس فيه الآخر نظر • وهذا يكون على أحد وجهين ، أما أن يخص كل واحد منهما بعمل يكون فيه عام النظر خاص العمل ، مثل أن يرد الى أحدهما وزارة بلاد المشرق والى الآخر وزارة بلاد المغرب ، وأما أن يخص كل واحد منهما بنظر يكون فيه عام العمل خاص النظر مثل أن يستوزر أحدهما على الحرب والآخر على الخراج ، فيصح التقليد على كلا الوجهين ، غير أنهما لا يكونان وزيرى تفويض ، ويكونان واليين على عملين مختلفين » (٣٠)

واذا كان التعدد غير جائز فى وزارة التفويض فانه يجوز فى وزارة التنفيذ ، كما أنه يجوز للخليفة أن يقلد وزيرين وزير تفويض ووزير تنفيذ ، فيكون وزير التفويض مطلق التصرف ، ووزير التنفيذ مقصورا على تنفيذ ما وردت به أوامر الخليفة •

وزارة التنفيذ :

ووزارة التنفيذ ، لا يتمتع فيها الوزير بالاستقلال الذاتي ، وهو مكلف فقط بتنفيذ الأمور ، وهي أكثر خصوصية من وزارة التفويض لقصورها عما اشتملت عليه وزارة التفويض . ويتعين على وزير التنفيذ أن لا ينجيب عن موضع الامام لأنه يحتاج الى مشورته ومراجعته في أكثر الأمور والحوادث ، فالرأى والاجتهاد يبقى للامام ، ومهمة وزير التنفيذ أن يبلغ ، أو يباشر تنفيذ ما يرد اليه من أوامر ، ويمضى ما يصدر عن الامام من أحكام ، لأنه يعتبر بمثابة وسيط بين الرعايا وبين الولاية — وان لم يكن أن يستقل بذلك ، وان لم يشارك فيه كان باسم الوساطة والسفارة أشبه ولأن هذا من قوانينها ، فمنصبه في هذه الحالة أشبه بالسفارة أو الوساطة وينطبق هذا أيضا على الوزراء المفوضين والسفراء في عصرنا الحديث .

وكما تقدم فان وزير التنفيذ معين في تنفيذ الأمور ، وليس بوال عليها أو مقلدا لها ، ومعنى هذا أنه ليس له حق الولاية المحضة أى حق التقليد أو أن يعين أحدا استثناء ، كما أنه ليس لوزير التنفيذ حق النظر المستقل الاجتهادى ، واذا كان ذلك كذلك فقد صارت شروط هذه الوزارة أقل من الشروط التى ينبغى توفرها فى وزارة التفويض . ولعل قول الماوردى الآتى يوضح لنا كل ما سبق :

« وأما وزارة التنفيذ فحكمها أضعف وشروطها أقل لأن النظر فيها مقصور على رأى الامام وتديره . وهذا الوزير وسط بينه وبين الرعايا والولاية ، يؤدى عنه ما أمر وينفذ عنه ما ذكر ويمضى ما حكم ويخبر بتقليد الولاية وتجهيز الجيوش ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدد من حدث ملم ليعمل فيه ما يؤمر به فهو معين فى تنفيذ الأمور وليس بوال عليها ولا متقلدا لها ، فان شورك فى الرأى كان باسم

الوزارة أخص وان لم يشارك فيه كان باسم الواسطة والسفارة
أشبهه « (٣١) » .

ومن اختصاصات وزير التنفيذ أيضا أن يتصفح أحوال العمال
لتلافى الأخطاء واستدراك الخلل . وعليه أن يصغى الى ظلمات الرعية
فيمضى ما تيسر له ، كما أن عليه أيضا مشاركة الأعمال والتدقيق فى
اختيار العمال . ومن اختصاصاته أيضا أن يمد الملك برأيه ومشورته ،
فان الملك مع جزالة رأيه وصحة رويته محجوب الشخص عن مباشرة
الأمر فصار محجوب الرأى عن الخبرة بها . وعلى وزير التنفيذ أن
يكون عينا للملك ناظرة وأذنا سامعة لأنه مندوب للمصالح كما أن
عليه أيضا واجب توضيح حقائق الأمور للملك . ويكفى فى صحة تقليد
وزير التنفيذ مجرد اذن ، فان التعيين فيها لا يفتقر الى تقليد ، أى بعقد
وصيغة خاصة .

ويوضح « الثعالبى » وظائف وزير التنفيذ ، أو وزير التقيد كما
يسميه ، بأنه ينظر فى جميع الدواوين ويستعرض أعمالهم ويقوم
معوجهم ويصلح فاسدهم ولا يعزل الولاية ولا يصرف من كان على رعوس
الدواوين والأعمال الجليلة ألا بأمر الملك لأنه كالواسطة بين الملك والرعية ،
ولهذا قيل ان هذا الوزير لا يحتاج الى ولاية تقليد لأنه مأثور فى كل
قضية « (٣٢) » .

شرائط وزير التنفيذ :

ومن هنا لا يشترط فى المؤهل لهذه الوزارة شرط العلم بالأحكام
الشرعية ، أو القدرة على الاجتهاد ، وذلك لأن وزير التنفيذ ليس له أن
يحكم أو ينفرد بولاية وتقليد ، وكذلك لا تشترط الحرية ، ومعنى هذا
أنه يجوز أن يكون هذا الوزير عبدا غير معتق وهذا تكريم من الاسلام

(٣١) الاحكام السلطانية لهماوردى ص ٢١ .

(٣٢) تحفة الوزراء للثعالبى ظهر ورقة ٩ .

لائقانة الرقيق فى وقت حتمت فيه الضرورات وجود نظام الرق فيهما
مضى من العصور عند كل الأمم ، هذا مع علمنا باصرار الاسلام على
توافر شرطى العلم والحرية لمن تكون له ولاية على غيره • ويقول
الثعالبي : « لا يعتبر فى وزير التنفيذ (التقييد) ما يعتبر فى الأول »
« وزير التفويض » من العدالة والحرية والعلوم بل يعتبر فيه الأمانة
والصدق فانه سفير بين الملك وأهل المملكة •• وينظر فى أمر الرعية
ويسمع شكواهم ويرفع رقاعهم » (٣٣) •

جواز أن يكون وزير التنفيذ ذميا :

« والذمة فى اللغة العهد والأمان والضمان ، وأهل الذمة هم
المستوطنون فى بلاد الاسلام من غير المسلمين ، وسموا بهذا الاسم
لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم • فان
تقاليد الاسلام كانت تقضى بأنه اذا أراد المسلمون غزو اقليم وجب
عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الاسلام ، فمن استجاب منهم طبقت
عليه أحكام المسلمين ، ومن امتنع فرضت عليه الجزية ، كقوله تعالى
(الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله
ولا يدينون دين الحق ومن الذين أوتوا الكتاب حتى يغطوا الجزية
عن يدهم صاغرون) ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى أتباع الملل
المعترف بها وهى : المسيحية واليهودية ، والمجوسية ، والصابئية ،
والصابئة » (٣٤) •

ويذهب الماوردى الى أن الاسلام ليس شرطا لمن يتولى وزارة
التنفيذ ، وبذلك يجوز أن يكون وزير التنفيذ مسيحيا أو يهوديا ،
وهذا بخلاف وزير التفويض • ويفسر الماوردى ذلك بقوله ان وزير
التفويض يولى ويعزل ويباشر الحكم ويسير الجيوش ويتصرف فى بيت

(٣٣) تحفة الوزراء ظهر ورقة ٩ •

(٣٤) العرب والحضارة للدكتور على حسنى الخربوطلى ص ١٠٢

المال بخلاف وزير التنفيذ ، وهذا ان دل على شئ فانما يدل على قاطعة على تسامح الاسلام ورحابة صدره . وتقتضينا الأمانة العلمية أن نسجل هنا أن بعض الدول الأوروبية وغيرها تخرم حتى يومنا هذا أن يتبوأ منصب الوزارة فيها ويصل اليه من هو مخالف لهم في الدين ، بل لمن يخالفهم في فرع من المذهب فلا تسمح الدول الأوروبية التي يدين بالمذهب البروتستانتي أن يلي المناصب الهامة فيها من يدين بالمذهب الكاثوليكي . في حين أباح فقهاء الاسلام ومشرعوه وعلى رأسهم الماوردي منذ أقرون عديدة أن يلي الوزارة والمناصب الهامة في الدولة الإسلامية رجل على غير الدين لا المذهب .

والحق ان حضارة الاسلام كما يقول مؤرخ عربى مسيحي معاصر (هو الدكتور فيليب حتى) حضارة عامة شاملة تنتظم كل من يعيش تحت سمائها في حرية وصفاء ، ويعيش غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة وتربطهم بروابط المحبة والأخوة . ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه متشددا في دعوته الى حسن معاملة أهل الذمة ، وما عهد الرسول لأمر (أيله المسيحي) الا بشئ واحد صدق على ما نقول فقد جاء فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم) وهذه أمثلة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنه بن رؤية وأهل أيله ، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أخذ منهم حثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن أخذه من الناس وانه لا يخل أن يمنعوا ماء يردونه ولا حريقا يريده من بر أو بحر » (٣٥) .

ويقول الاستاذ عباس العقاد ان « المشهور عن نظام الحكومة الإسلامية أن للذميين والمعادين لهم ما للمسلمين وعليهم ، وأن الدولة تقاثل عنهم ، كما تقاثل عن جميع رعاياها ، وأنها لا تستبج عقوبتهم بالحدود الإسلامية فيما لا يجرمونه ولا يعاقبون أنفسهم عليه ،

وأنهم لا يدعون الى القضاء فى أيام أعيادهم ، لقوله عليه السلام : « أنتم يهود عليكم خاصة ألا تعدوا فى السبت » • ولكن الأمر لا ينتهى عند نصوص الشرع والقانون ولا يزال الحاكم المسلم مطالباً بالمعاملة وحسن المعاملة فى غير ما بينته النصوص وفصلته العهود ، فيقول النبى عليه السلام : « من قذف ذمياً خد له يوم القيامة بسياط من نار » ، ويقول أيضاً : « من آذى ذمياً فقد آذانى » ويقول فى موضع آخر : « من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقتة فأنا خصمه يوم القيامة » ، ولا ينسى الخليفة هذه الأحاديث وهو يكتب وصاياهم الى ولاته ، فيذكر الفاروق بها عمرو بن العاص ويقول له فى كتاب منه اليه : « ان معك أهل الذمة والعهد •• فاحذر يا عمرو أن يكون رسول الله خصمك » •

قال البلاذرى ان عمر لما ذهب الى الشام « عند مقدمة الجابية من أرض دمشق مر بقوم مجذومين من النصارى فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت •

ورأى شيخاً يهودياً يتكفف فأمر له برزق يجريه عليه من بيت المال وقال له : ما أنصفك يا هذا • أخذنا منك الجزية فتى وأضعناك شيخاً • •

وقد أبيع لأهل الذمة بنساء الكنائس والبيع واقامة المشيخات فى ديارهم ، فلا يمنعون منها الا ما يعطل شعائر الاسلام ويجور عليها ، ولا يكلفون العزلة الا دفعا للشبهة التى تبيع الحكومات الحديثة ما هو أشد من العزل والتمييز فى الحبل والسفر » (٣٦) •

ونصل الى ذكر الشروط التى يشترطها الماوردى لوزارة التنفيذ وهى ما يأتى : (٣٧) •

(٣٦) الديمقراطية فى الاسلام للاستاذ عباس محمود العقاد ص ١٢٠ — ١٢١ •

(٣٧) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٢٢ •

• أحدها : الأمانة : حتى لا يخون فيما قد أوتمن عليه ولا يغش فيما قد استنصح فيه •

الثانى : صدق اللهجة : حتى يوثق بخبره فيما يؤديه ويعمل على قوله فيما ينهيه •

• الثالث : قلة الطمع : حتى لا يرتشى فيما يلى ولا ينخدع فيتساهل •

الرابع : أن يبسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء فان العداوة تصد عن التناصف وتمنع من التعاطف (أى أن يكون الوزير محايداً) •

الخامس : أن يكون ذكورا لما يؤديه الى الخليفة وعنه لأنه مشاهد له وعليه (حضور الذاكرة) •

السادس : الذكاء والفطنة : حتى لا تدلس عليه الأمور فتشتبه ولا تموت عليه فتلتبس فلا يصح مع اشتباها عزم ولا يصلح مع التباسها جزم • وقد أفصح بهذا الوصف وزير المأمون محمد بن يزداد حيث يقول :

أصابة معنى البرء روح كلامه فان أخطأ المعنى فذاك مسوات
إذا غاب قلب المرء عن حفظ لفظه فيقظته للعالمين سيات

والسابع : أن لا يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق الى الباطل ، ويتدلس عليه الحق من المبطل فان الهوى خادع الألباب وصارف له عن الصواب ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم حبك الشيء يعم ويصم •

فان كان هذا الوزير مشاركاً فى الرأى ، احتاج الى وصف ثامن ، وهو الحكمة والتجربة التى تؤديه الى صحة الرأى وصواب التدبير ، فان فى التجارة خبرة بعواقب الأمور •

• ويُجوز للخليفة أن يقلد وزيرى تنفيذ على اجتماع وانفراد فحسب بحسب ما تتطلبه الاعمال وتقتضيه الأحوال •

أوجه الاختلاف بين وزارتى التفويض والتنفيذ :

وهناك فوارق بين وزارتى التفويض والتنفيذ من جهة أصل التقليد ، ومن جهة الشروط ، وفروق أيضا من ناحية حقوق النظر أى الاختصاص •

تختلف الوزارتان فى أصل التقليد من ستة أوجه :

أحدها : أن الملك يقلد وزير التفويض فى حقوقه وحقوق رعيته ، ويقلد وزير التنفيذ بأوامر الملك وعن رأيه •

الثانى : أن وزارة التفويض تفتقر الى عقد يصبح به نفوذ أفعاله ، ووزارة التنفيذ لا تفتقر الى عقد لأنه فيها مأمور بتنفيذ ما صدر عن أمر الملك •

الثالث : أن وزير التفويض مأخوذ بتنفيذ ما أمضاه ، ووزير التنفيذ مأخوذ بتنفيذ ما أمر به الخليفة •

الرابع : أن وزير التفويض لا ينزل إلا بالقول أو ما فى معناه دون المشاركة ، لأنه قد ضلّك بها مباشرة الأمور ، ووزير التنفيذ ينزل بالمشاركة لأنه مأمور •

الخامس : أن وزير التفويض لا ينزل ان كف وترك حتى يستعفى الملك منها ، لأنه مستودع الأعمال فلزمه ردها الى مستحقها ، ووزير التنفيذ يجوز أن ينزل بعزل نفسه بالكف والمشاركة لأبنه لا شىء بيده •

السادس : أن وزارة التفويض تفتقر الى كفاية السيف والقلم المنهوض بهما أوجبها ، ووزارة التنفيذ غير مفتقرة اليهما لقصورها عنهما •

- ... فأما الفروق بين وزارتي التفويض والتنفيذ من جهة الشروط :
- ١ — الحرية معتبرة في وزارة التفويض ، وغير معتبرة في وزارة التنفيذ .
- ٢ — الإيصال معتبر في وزارة التفويض ، وغير معتبر في وزارة التنفيذ .
- ٣ — والعلم بالاحكام الشرعية (الاجتهاد) معتبر في وزارة التفويض ، وغير معتبر في وزارة التنفيذ .
- ٤ — المعرفة بأمرى الحرب والخارج معتبرة في وزارة التفويض ، وغير معتبرة في وزارة التنفيذ .
- وأما من ناحية حقوق النظر (الاختصاص) ، فتتضح الفوارق بين الوزارتين فيما يأتى :
- ١ — أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .
- ٢ — أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاة ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .
- ٣ — أنه يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .
- ٤ — أنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في أموال بيت المال بقبض ما يستحق له ويدفع ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التنفيذ .
- والى جانب هذه الفروق السابقة بين الوزارتين ، هناك أيضا عدة فوارق :
- منها أنه لا يجوز لوزير التنفيذ أن يولى معزولا ولا أن يعزل مولى ، ويجوز لوزير التفويض أن يولى المعزول ويعزل من ولاه ، ولا يعزل من ولاه الخليفة .

وليس لوزير التنفيذ أن يوقع عن نفسه ولا عن الخليفة إلا بأمره ،
ويجوز لوزير التفويض أن يوقع عن نفسه الى عماله وعمال الخليفة
ويلزمهم قبول توقيعاته •

واذا عزل الخليفة وزير التنفيذ لم ينزل به أحد من الولاة ، وإذا
عزل وزير التفويض انزل به عمال التنفيذ ولم ينزل به عمال التفويض ،
لان عمال التنفيذ نياب وعمال التفويض ولاة •

ويجوز لوزير التفويض أن يستخلف نائباً عنه ، ولا يجوز لوزير
التنفيذ أن يستخلف من ينوب عنه •

وبهذا يتضح لنا مما تقدم أن وزارة التفويض أدق وأكثر شروطاً ،
وفى نفس الوقت أكثر عملاً وعمومية ، فى حين أن وزارة التنفيذ أكثر
نقلاً وخصوصية ، ومن هنا كانت الشروط الواجب توافرها فى وزير
التنفيذ مخففة •

أوجه الالتقاء بين وزارتي التفويض والتنفيذ :

وبالرغم من كل ذلك هناك أوجه للالتقاء والاشتراك بين الوزارتين :

١ — أن يكون بأعيان الوزارة ناهضاً ، ومقدماً للصالح العام على
صالح نفسه •

٢ — أن يكون على الكد والتعب قادراً وفى السخط والرضى
صابراً ، وليتوصل الى راحته بالتعب والى دعوته بالنصب •

٣ — أن يخلص نيته فى طاعة الخليفة ، ويكون سره كعلائقه •

٤ — أن يستوفى للملك ولا يستوفى عليه ، ويتأول للملك ولا يتأول
عليه •

٥ — أن يجعل الوزير لله تعالى على سره رقيباً يلاحظه من زينة
فى حقه •

٦ — أن يقدم حق الله تعالى على حق الملك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق • وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أحب دينيأه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنيأه فأثروا ما يبقى على ما يغنى •

٧ — أن يكون الوزير خبيرا بأحوال الرعية ، وأن يشارف بنفسه الأعمال ، وعليه أن لا يكل الى غيره ما يختص بمباشرته طلبا للدعة والراحة •

وبعد أن قمنا باستعراض أحكام الوزارة وأنواعها ، كما وردت عند الماوردي ، نود أن نرى مدى التشابه والتطابق مع نظم الوزارة المعمول بها في الوقت الحاضر • ونحن نجد أن منصب وزير التفويض ، يكاد ينطبق على منصب « الوزير الأول » أو « رئيس الوزراء » كما تعرفه الأمم الحديثة الآن ، وأوضح الأدلة على ذلك أنه لا يجوز أن يتعدد • وهذا الوزير مطلق التصرف ، ويقوم مقام رئيس الدولة ، وهو عام الولاية والنظر • ويقول « هارولد لاسكي » في هذا الصدد : « من البين أن نوعا من الصدارة يختص به رئيس الوزراء (أو الوزير الأول) فهو زعيم الحزب ، وزعيم المجلس التشريعي على السواء ، وهو أكثر من أي فرد سواه يختص بالمسؤولية • ان عليه أن يقود فريقا وأن يقنع زملاء متنافرين بالانسجام •• وان أنجح الوزارات ما فتئت هي تلك التي مكن فيها لرئيس الوزراء أن يفرض ارادته على زملائه بسلطان لا يستطيع غضب سواه أن يدعيه لنفسه •• ونود أن نؤكد هنا أنه ليس معنى هذا أن رئيس الوزراء يحق له أن يتخطى زملاءه ••• فان ذلك يفضي الى تركيز السلطة مما يعنى دوما أن القرارات تصدر عن جهالة » (٣٨) • ويقول « لاسكي » أيضا : « الوزير الأول يشغل مركزا ملحوظ السلطة بين أقرانه ••• وعليه أن يوالى الاطلاع على الخطوط العريضة للأحداث التي تجري في شتى ادارات الدولة » (٣٩) •

(٣٨) اصول السياسة لهارولد لاسكي ٨٨/٣ •

(٣٩) المصدر السابق ٩٠/٣ •

ونسجل هنا أن منصب رئيس الوزراء ، أو نظام الوزراء هذا ، لم يعرف في الأمم الغربية ولم يهتد الى فكرته رجال الفكر الدستوري في الغرب. الا في القرن السابع عشر ، ثم لم تحدد مهمته تماما الا بعد ذلك . وعلى ذلك يحق لنا هنا أيضا أن نسجل للماوردى ، ولرجال الفقه الاسلامى الآخر ، المدى الذى وصل اليه تفكيرهم فى المسائل الدستورية والمنظم الادارية فقد توصل الماوردى بفكره العميق ، ونظره انصائب الى تصور هذا المنصب الكبير الأثر ، وحدده بأوصافه وشروطه ، كما حدد الماوردى أوضاع وسلطات واختصاصات الوزراء الآخرين ، وذلك قبل الأنظمة والدساتير الحديثة بقرون عديدة .

وهناك بعض الاختلاف بين رئيس الوزراء الحالى ووزير التفويض وهو أن رئيس الوزراء الحالى أو « الوزير الأول » مقيد فى تفويضه وفى أمور كثيرة برأى مجلس الوزراء . وهذا أيضا واضح فى الفقه الاسلامى ، وهى أن يجعل الوزيران أو الوزراء مشركين فى النظر على اجتماعهما أو اجتماعهم فيه ولا يجعل الى واحد منهما أن ينفرد به . (٤٠) وهذه الوزارة صحيحة . وقد أقر الفقه الاسلامى الاحتكام الى رأى الاغلبية عند حدوث أى اختلاف أو تباين فى الآراء ، ويعتبر بقية الوزراء الحاليين « وزراء تنفيذ » من مهامهم تنفيذ قرارات مجلس الوزراء ، وامضاء الاحكام ، واتخاذ القرارات ، ويختص كل واحد من وزراء التنفيذ بالنظر فى ناحية خاصة : فهذه المالية ، وهذا للتعليم ، وهذا للدفاع ، وذلك للعدل . الخ ويعتبرون حينئذ « ولاية على أعمال مختلفة ، وهو نوع من التفويض المخصص ، ومن حيث اشتراكهم فى النظر فى مجلس الوزراء ، فانهم وزراء مفوضون على الاجتماع لا على الانفراد . وبمعنى آخر نقول ان وزير التنفيذ يشابه مركزه مركز الوزير فى النظام الأمريكى الرئاسى حيث يعد بمثابة سكرتير لرئيس الدولة مهمته تنفيذ ارادة الرئيس وسياسته . وهذا

(٤٠) راجع : الاحكام السلطانية للماوردى ص ٢٣ .

بخلاف وزير التفويض حيث يشابه مركزه مركز زميله فى النظام البرلمانى حيث يشترك الوزير مع رئيس الدولة فى الحكم وحيث نجد أن الوزارة هى التى ترسم فى الواقع سياسة الحكم ، ومما هو معروف فى الاسلام أن الوزراء والأئمة يسيرون فى أعمالهم وفقا لقواعد وأحكام الشريعة الاسلامية ، وهى مصدر التشريع الحقيقى •

وصايا ونصائح للوزير :

ولما كان الوزير عند الموردي ، وكما جاء ذلك أيضا فى القاموس ولسان العرب ، حبا الملك^(٤١) الذى يحمل ثقله ويعينه برأيه وتديره ، فان الموردي اهتم به اهتماما كبيرا ووجه اليه مجموعة من الوصايا والنصائح الهامة مما يعينه على حسن تأدية أعماله ، ويبقى أن الهدف منها أولا وأخيرا منفعة المحكومين • ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى أمثال هذه النصائح^(٤٢) : « والنصائح التى من هذا القبيل لها نظائر فى الدساتير الحديثة حيث يقول فقهاء السياسة : « ان الملك لا يخطئ » ويعنون بذلك وظيفة الملك لا شخصا بعينه يوصف بالعصمة وهى مستحيلة فى الناس • الا أن المبدأ فى ذاته سليم من حيث يقوم على مطالبة الحاكم بالصفات التى تنفع المحكومين على أحسن مثال ، ولا تخولهم الأمر والنهى الا بما فيه صلاح للمأمورين والمتهمين ، ولو كان الحكم حقا للحاكم ومصلحته الشخصية لما لزمته هذه الصفات ، الا أن يكون الكمال مطلوباً لكل انسان من الحاكمين أو المحكومين •

وعلى الجملة تقوم النصائح والوصايا فى هذه الكتب جميعا على قاعدة واحدة : وهى الحكم لمصلحة المحكومين •

وعلى عكس مكيافللى الذى يضع الأمير فوق الدين والأخلاق مجهضا بذلك كل صلة بين السياسة والأخلاق ، نجد الموردي يهتم

(٤١) حبا الملك : جليس الملك وخاصته •

(٤٢) الديمقراطية فى الاسلام ص ١٧٣ •

دفعني هدم النصائح والوصايا بأن يلتزم الوزير أصول الشريعة الخيرة ومبادئ الأخلاق الفاضلة ، وهو بذلك يحرص على وضع الدين والأخلاق فوق الوزير وليس العكس كما فعل مكيافللي .

وقد وردت نصائح ووصايا الماوردي للوزير في مخطوطته المؤسسة « بقوانين الوزارة » أو « دستور الوزراء » وهي أشبه ما تكون بدستور مكتوب للوزير ، ويوجه الماوردي نصائحه للوزير قائلا :

« أنت أيها الوزير نعمة أمرك الله بتوحيقه . في منصب مختلف الأطراف ، تدبر غيرك من الرعايا وتتدبر غيرك من الملوك ، فأنت سائنس مسوس ، تقوم بسياسة رعيتك وتنقاد لطاعة سلطانك ، فتجتمع بين سطوة مطاع وانقياد مطيع ، فشطرك فكرك جاذب لمن تسوسه ، وشطره مجذوب لمن تطيعه وهو أثقل الأقسام الثلاثة محملا ، وأضعفها مركبا ، لأن الناس بين سائنس ، ومسوس ، وجامع بينهما . ولك هذه الرتبة الجامعة . فأنت تجمع ما يختلف من أحكامها ، وتشتكك ما تتباين من أقسامها ، وببيدك تدبير مملكة صلاحها مستحق عليك ، وفسادها منسوب إليك . تؤاخذ بالاساءة ولا يعتد لك بالاحسان ، فلأن لك المبادئ بالارغاب ، وتشد عليك الغايات بالاعتاب ، مستظهرا تستكفي اعتداد الاحسان اليك ، وتسلم من غيب المؤاخذة لك ، ويلزمك فسدها في حق سلطانك أن لا يعتدى عليه بصلاح ملكه ، لأنك للصلاح مندوب ، ولا تعتذر اليه من اختلاله ، لأن الاختلال اليك منسوب . واجعل اعتذارك سعيك واجتهادك ، فليسان الفعال انطق من لسان المقال ، لظهور ثوابه . »

.....

« اعلم أيها الوزير أنك مباشر لتدبير ملك له رأس . هو الدين المشروع ، ونظام هو الحق المتبوع فاجعل الدين قائدا ، والحق رائدا ، يذل لك كل صعب ، ويتسهل عليك كل خطيب ، لأن للدين أنصارا ، وللحق أعوانا ، ان قعدت عنك أجسادهم ، لم تقعد عنك قلوبهم وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من رجل من

المسلمين أعظم أجرا من وزير صالح مع امام يطيعه ويأمره بذات الله تعالى» •••

«واجعل لله تعالى عليك في خلواتك رقيبى رغب ورهب ، تقودك الرغبة الى طاعته ، وتصدك الرهبة عن معصيته ، ليسلم باطنك من العيوب ، ويخلص سرك من الذنوب • وقد نفسك الى العدل ، ينقد الناس به الى طاعتك ، ويكفروا به عن معصيتك ، ويقتصروا عليه فى مطالبتك ، فان من جازف فى الأخذ جوزف فى الطلب ، ومن يانصف نوصف •• وقال السيد المسيح : بالمكيال الذى تكيلون يكال لكم وتزادون » •

«واعلم أنك لن تستغزر موادك الا بالعدل والاحسان ، ولن تستندرها بمثل الجور والاساءة ، لأن العدل استثمار دائم ، والجور استثمار منقطع ••• » •

«وليس يختص العدل بالأموال دون الأقوال والأفعال • فعد لك بالأموال أن تؤخذ بحققها وتدفع الى مستحقها ، لأنك فى الحقوق سفير مؤتمن ، وكفيل مرتهن ، عليك غرمها ، ولغيرك غنمها •

وعدلك فى الأقوال أن لا تخاطب الفاضل بخطاب المفضول ، ولا العالم بخطاب الجهول ، وتقف فى الحمد والذم على حسب الاجسان والاساءة ، ليكون ارغابك وارهابك على وفق أسبابها من غير سرف ولا تقصير ، فلسانك ميزانك فاحفظه من رجعان أو نقصان •

وعدلك فى الأفعال أن لا تعاقب الا على ذنب ، ولا تغفو الا عن اثم • ولا يبعثك السخط على اطراح المحاسن ، ولا يحملك الرضا على العفو عن المساوى • حكى عن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه قال : أعطيت ما أعطى الناس وما لم يعطوا ، وعلمت ما علم الناس وما لم يعلموا • فلم أعط شيئا أفضل من الحق فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وخشيت الله فى السر والعلانية •

« وليكن وفاؤك بالوعد حتما ، وبالوعيد حزما ، لأن الوعد حق عليك والوعيد حق لك على غيرك ، فكنت فيه على خيارك ، فمن أجل ذلك لم يجز اخلاف الوعد ، وان جاز اخلاف الوعيد . . . لكن ينبغي أن يقترن بخلاف الوعيد عذر حتى لا يهون وعيدك ليكون نظام الهيبة به محفوظا ، وقانون السياسة فيه مضبوطا . . . »

« وليكن فعلك أكثر من قولك ، فان زيادة القول على الفعل دناءة وشين ، وزيادة الفعل على القول مكرمة وزين » .

« ولا تجعل لغضبك سلطانا على نفسك ، يخرج من الاعتدال الى الاختلاف ، فلن يسلم بالغضب رأى من زال ، وكلام من خطل . . . وليكن غضبك تغاضبا ، تملك به عزمك ، وتقوم به خصمك . فتسلم من جور غضبك ، وتتقف على اعتدال تغاضبك » .

« واعلم أن الجد والهزل ضدان متنافران ، لأن الجد من قواعد الحق الباعث على الإصلاح . والهزل من مزج الباطل الداعى الى الفساد ، فصار فرق ما بين الجد والهزل ، هو فرق ما بين الحق والباطل ، وتنافر الأضداد يمنع من الجمع بينهما . فاذا انفردت بأحدهما كنت للأخر تاركا والهيبة أس السلطنة . وحكى عمرو بن مرة أن رجلا من قرينش قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : لن لنا فقد ملأت قلوبنا هيبة ، فقال أفى ذلك ظلم ؟ قال . لا . قال : فزادنى الله فى قلوبكم مهابة » .

وربما استكد الجد خاطر المجد ، فاستروح ببعض الهزل ليستعين به على مصابرة الجد . فقد قيل فى منشور الحكم : الهم قيد الحواس وحكى عن أبى الدرداء أنه قال : انى لاستجيم نفسى بالشئ من الباطل ، ليكون أقوى لها على الحق » .

« وكما تنافر الجد والهزل ، كذلك تنافر الصدق والكذب ، ضدان متنافران تختلف عليهما ، وتفترق نتائجهما . فالصدق من لوازم العقل ،

وهو أس الدين ، وقوام الحق • والكذب من غرائز الجهل ، وهو زور
يقترن بغرور ، ان القبست أوائله انتهكت أو اخره ، وان جر التباسه نفعا ،
عاد انتهاكه ضررا ، فلم يسلم من معرفة زور ، ومضرة غرور • وقد روى
عقبه بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعظم الخطايا
اللسان الكذوب » ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لأن يضيعنى
الصدق وقلمما يفعل — أحب الى من أن يرفعنى الكذب — وقلمما يفعل » •

« ولا تستكفين — أيها الوزير — عاجزا فيضيع العمل ، ولا شرها
فيضرك باحتجانه •• ولا تعنى بمن لا يحافظ على المروءة •• ولأن يكون
العمل خاليا فينصرف اليه فكرك ، أولى من أن يباشره عاجزا وخائئ
فيقبح بهما أثرك ، فاحذر العاجز فانه مضيع ، وتوق الخائن فانه يكدر
لنفسه » •

« اقتصر من الأعوان بحسب حاجتك اليهم ، ولا تستكثر منهم
لتنكثر بهم ، فلن يخلو الاستكثر من تنافر يقع به الخل ، أو ارتفاق
يتشاكل به العمل ، وليكن أعوانك وفق عملك ، فانه أنظم للشمل ، وأجمع
للعمل ، وأبلغ للاجتهاد ، وأبعث على النصح » •

« رض نفسك بمشارفة الأعمال ، يرهبك جميع عمالك ، وتتنظم
به جميع أعمالك ، ولا تكل الى غيرك ما يختص بمباشرتك لطلبا للدعة ،
فتعزل عنه نفسك ، وتؤثر به غيرك » •

« اجعل زمان فراغك مصروفها الى حالتين : احدهما : راحة
جسدك واجمام خاطرك ، ليكونا عوننا لك على نظرك • والحالة الثانية :
أن تفكر بعد راحة جسدك واجمام خاطرك فيما قدمته من أفعالك ،
وتصرفت فيه من أعمالك ، هل وافقت الصواب فيها فتجعله مثالا تتخذه ،
أو نالك فيها زال فتستدرك منه ما أمكن وتنتهى عن مثله فى المستقبل » •

« لا تعول على التهم والمظنون ، واطرح الشك باليقين •• واختبر
من اشتبهت حاله عليك ، لتعلم معتقده فيك ، فتدرى تصنعه منك » •

شاور في أمورك من تثق منه بثلاث خصال • صواب الرأي •
وخلوص النية ، وكتمان السر • فلا عار عليك أن تستشير من هو دونك ،
إذا كان بالشورى خبيرا • فان لكل عقل ذخيرة من الرأي وحظا من
الصواب ، فتزداد برأى غيرك وان كان رأيك جزلا كما يزداد البحر
بمواده من الأنهار وان كان غزيرا • • واعدل عن اشارة من قصد موافقتك
متابعة لهواك ، واعتمد مخالفتك انحرافا عنك ، وعول على من توخى
الحق لك وعليك » •

احذر قبول المدح من المتملقين ، فان النفاق مركز في طباعهم ،
ومداجاتك هين عليهم ، فان نغقوا عليك غششت نفسك ، وداهنت
حسك ، وصح فيك ما قيل في منثور الحكم : سوق النفاق دائمة
النفاق » •

« واعلم أنك مرصد لحوائج الناس لأن بيدك أزمة الأمور ، واليك
غاية الطلب ، فكن عليها صبوراً تكن بقضائها شكوراً • • •

« احذر دعوة المظلوم وتوقها ، ورق لها ان واجهك بها • ولا تبعثك
العزة على البطش فتزداد ببطشك ظلماً » وبغزتك بغيا • •

« كن للشهوات عزوفا تنفك من أسرها ، فان من قهرته الشهوة
كان عبدا لها ، ومن استبعدته الشهوة ذل بها • •

« اجعل — أيها الوزير — لله تعالى على شرك رقيبا يلاحظك من
زيغ في حقه ، واجعل لسلطانك على خلوتك رقيبا يكفك عن تقصير في
امره ليسلم دينك في حقوق الله تعالى وتسلم دنياك في حقوق
سلطانك ، فتسعد في عاجلتك وآجلتك فان تنافى اجتماعهما لك فقد دم
حق الله تعالى على حق الملك ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » •

« حق عليك أيها الوزير أن تكون بالرعية خبيرا ، والى أحوالهم
متطلعا وبهم على نفسك وعليهم مستظهرا لأنك من بين من تسبوسه

أو تستعين به لتعلم ما فيه من فضل ونقص ، وعلم وجهل وخير وشر ،
وتتحرز من غرور المنتسبه وتدلس المتصنع فتعطي كل واحد حقه ، ولا
تقصر بذى فضل ، ولا تعتمد على ذى جهل . *
« اجعل صلاح عملك ذخرا لك عند ربك ، وجفيل سيرتك أثرا
مشكورا فى الناس بعدل لتقتدى بك الأخيار ، ويزجر بك الأشرار ،
تكن بالثواب حقيقا ، وبالحمد جذيرا » . *

يتضح لنا مما تقدم خرض الماوردى على تقدير قيمة العمل والجهد ،
وتحذيره وزيره من الانسياق الى كثرة الأداء بالأقوال والوعود
الجوفاء قائلا له : ليكن فعلك أكثر من قولك ، فان زيادة القول على الفعل
دناءة وشين . * ويطالب الماوردى وزيره بالتدقيق فى اختيار معاونيه فى
الوزارة من الرجال الأكفاء ، راجح العقول ، سديدى الرأى ، دون
استكثار منهم حتى لا يكون هناك ارهاق لميزانية الدولة أو اضطراب
وتناثر فى الأعمال ، مع اخذ نظر الوزير الى ضرورة مباشرته أغلب
الأعمال بنفسه ، دون اتكال فى ذلك على معاونيه ضمانا لحسن تأدية
الأعمال وعلى الوزير أن يكون عادلا تقيا ، وأن يعدل فى جميع تصرفاته
وأفعاله حتى يسهل انقياد الناس اليه ، ومن الواجب عليه أيضا ، أن يراقب
ربه فى السر والعلانية ويحاسب نفسه قبل أن تحاسب ، فصلاح الأعمال
ذخر للانسان عند ربه . * وعلى الوزير أن يحرص دائما على الوفاء
بعهوده ، وتجنب الانغماس فى الشهوات حتى لا يصرفه ذلك عن جليل
الأعمال ، وأن يكون شعاره الاعتدال فى كل شئ . * والحق ان كل هذه
الوصايا والنصائح التى يقدمها الماوردى هى أشبه ما تكون بدستور
مكتوب للوزراء . *

وينهى الماوردى نصائحه ووصاياه للوزير قائلا : « وسأختم
تحذيرك وانذارك ، واتبع بتبصيرك وافكارك . بما أنذر به الرسول صلى
الله عليه وسلم فهو أوعظ نذير ، وأبلغ تخويف وتحذير . * روى عبد الله
بن عبيد عن عمير الليثى عن حذيفة بن اليمان قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : « ان من اشراط الساعة اذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة وأضاعوا الأمانة ، واحلوا الربى ، واستخفوا بالدماء ، وباعوا الدين بالدنيا وشربت الخمر ، وعطلت الحدود ، واتخذوا القرآن مزامير ، واتخذت الأمانة مغنما ؟ والزكاة مغرما ، وكان الحلم ضعفا ، والولد غيظا ، وغاض الكرام غيضا ، وفاض اللئام فيضا ، وكان الأمراء فجرة ، والوزراء كذبة ، والأمناء خونة ، والقراء فسقة ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ، وكذب الصادق ، وصدق الكاذب ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فيلتوقعوا نزول البلاء منهم » .

الفصل الخامس

الامارة

أقسامها ، وأنواعها

- ١ — الامارة على البلاد : عامة ، وخاصة :
- ٢ — الامارة العامة نوعان : امارة الاستكفاء : (شروطها — وواجبات أميرها)
- امارة الاستيلاء : (شروط وواجبات أميرها)
- الامارة الخاصة
- ٣ — أنواع الامارة على البلاد :
- ١ — الامارة على الجهاد :
- ٢ — الولاية على حروب المصالح (قتال أهل الردة — قتال أهل البغي — قتال المحاربين وقطاع الطرق)
- ٣ — ولاية القضاء :
- ٤ — ولاية المظالم :
- ٥ — ولاية الحسبة :

الامارة على البلاد :

من المتعذر على الخليفة أن يباشر وحده أعمال الحكم والادارة جميعا ، ومن هنا كان لابد من الاستعانة — فضلا عن الوزراء بولاية لحكم الأقاليم ، أو البلاد كما يسميها الماوردي ، لا سيما بعد أن امتدت الفتوحات الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية * ومعنى هذا أنه كان من الضروري بعد اتساع مساحة الدولة حتى شملت أقاليم متعددة ، أن ينوب الامام عنه في كل أو بعض الأقاليم من يتولى أمورها ، لأنه من غير المستطاع ، كما أوضحنا ، على الامام أو الحاكم أن يدبر كل أمور الدولة ويباشر شئونها بنفسه * وقد تناول الماوردي بالحديث المفصل طبيعة هذه الولاية (الامارة على البلاد) ووضع لها الأحكام بدقة متناهية * وهذه الأحكام تعد اليوم من صميم المناهج السياسية *
والخلاصة :
« أن يكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا »

والخليفة هو صاحب السلطة التنفيذية ، وتصدر عنه السلطات التنفيذية ، وهي الولايات ، وهذه الولايات أو السلطات متعددة متنوعة ، وهي أما عامة أو خاصة * وجميع هذه الولايات أو الامارات مقصودها أن يكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا *
والخلاصة :
« أن يكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا »

ويقول ابن تيمية في هذا الصدد : « جميع هذه الولايات هي في الأصل ولاية شرعية ومناصب دينية فان من عدل في ولاية من هذه الولايات فساسها بعلم وعدل وأطاع الله ورسوله بحسب الامكان فهو من الأبرار الصالحين * وان من ظلم وعمل فيها بجهل فهو من الفجار الظالمين وإنما الضابط قوله تعالى : « أن الأبرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم » (١) وعلى العموم فان ذكر الامارة والأمراء كان معروفا مشهورا من قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم *
والخلاصة :
« أن يكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا »

(١) الحسبة في الاسلام لابن تيمية ص ٨٠ .

وقد قسم الماوردي الولايات التي تصدر عن الامام الى أربعة أقسام :

القسم الأول : من تكون ولايته عامة في الأعمال العامة ، وهم الوزراء ، لأنهم يستنبون في جميع الأمور من غير تخصيص . ويقصد بالأعمال العامة هنا الولايات أي الأقاليم المكونة للدولة .

والقسم الثاني : من تكون ولايته عامة في أعمال (أقاليم) خاصة ، وهم أمراء الأقاليم والبلدان ، لأن النظر فيما خصوا به من الأعمال عام في جميع الأمور .

والقسم الثالث : من تكون ولايته خاصة في الأعمال العامة ، وهم كقاضي القضاة ، ونقيب الجيوش ، وحامي الثغور ، ومستوفي الخراج ، وجابي الصدقات ، لأن كل واحد منهم مقصور على نظر خاص في جميع الأعمال .

والقسم الرابع : من تكون ولايته خاصة في الأعمال الخاصة ، وهم كقاضي بلد أو اقليم ، أو مستوفي خراجه ، أو جابي صدقاته ، أو حامي ثغره ، أو نقيب جنده ، لأن كل واحد منهم خاص النظر بخصوص العمل (٢) .

« ولكل واحد من هؤلاء الولاة شروط تنعقد بها ولايته ، ويصح معها نظره » .

ويجب أن يضاف الى هذه الولايات ، وهي على وجه التحديد ، الوزارة ، والامارة على البلاد ، وولاية القضاء ، وامارة الجهاد ، والولاية على الأموال ، ثم مناصب القضاء والدفاع والمسال في كل اقليم . نقول يجب أن يضاف الى الولايات أو المناصب السابقة هذه جميع الوظائف المتنوعة الأخرى التي تقتضيها مصالح الدولة العامة .

حسن اختيار الولاية مع الاشراف عليهم :

ونود هنا أن نشير الى مبدأ هام من مبادئ نظام الحكم فى الاسلام وهو حسن اختيار رئيس الدولة لمن يعاونونه على ادارة شئون الدولة ، ولأنه كما وضح لنا ليس من الممكن أن يتولى الخليفة أو الحاكم كل أمر من أمور الدولة بمفرده ، بل من الضرورى أن يكون له نواب وحكام وولاية وقواد للجيش وقضاة الى غير هؤلاء جميعا ، ممن يكون له عوننا على ادارة أمور الدولة •

ومن هنا كان واجبا على الخليفة أن يحسن اختيار هؤلاء المعاونين ، وأن يستعمل الأمثل فالأفضل من الصالحين للولاية وادارة شئون الأمة ، وألا يدخل فى الاختيار عامل القربى أو المودة أو الصداقة مثلا ، بل يكون معيار الاختيار هو الكفاءة وحدها ، « فيجب أن يولى على الأعمال أهل الحزم والكفاية والصدق والأمانة وتكون التولية للغناء لا لا للهوى وملاك الولايات وأساسها أن لا يولى الأعمال طالب لها ولا راغب فيها » (٣) • وبعد أن يدقق الحاكم فى اختيار معاونيه ، يبقى عليه واجب الاشراف على هؤلاء الولاية ، ولأن ذلك من صميم واجبات الخليفة ويتضح هذا خاصة عندما يتحدث الماوردى عن الواجبين التاسع والعاشر من واجبات الخليفة :

التاسع : استكفاء الامناء وتقليد النصحاء فيما يفوض اليهم من الأعمال ويكله اليهم من الأموال ، لتكون الأعمال بالكفاية مضبوطة ، والأموال بالامناء محفوظة •

والعاشر : أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة ، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلادة أو عبادة ، فقد يخون الأمين ويغش الناصح •

(٣) سراج الملوك للطرطوشى ص ١٤١ .

ويقول ابن تيمية : (يجب على دولتي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين ، أصلح من يجده لذلك العمل ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : من ولي من أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا ، وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله) وفي رواية : « من قلد رجلا عملا على عصابة (الجماعة من الناس) — وهو يجد في تلك العصابة أرحى منه ، فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين » رواه الحاكم في صحيحه . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسله والمسلمين » وهذا واجب عليه (٤) .

ومن هنا يذكر ابن تيمية أن من الواجب على الإمام البحث عن المستحقين للولايات من نوابه على الأمصار ، والقضاة ، وأهراء الأجناد ، ومقدمي العسكار الصغار والكبار ، والوزراء والكتاب ، والسعاة على الخراج والصدقات وغير ذلك من الأموال . وعلى كل واحد من هؤلاء أن يستنيب ويستعمل أصلح من يجده . . الخ .

وقد دلت سنة الرسول صلى الله عليه وسلم على أن الولاية أمانة ، يجب على القيام بها على خير وجه ممكن ، ويحذر الرسول (ص) من استعمال غير ذوى الكفاية فى أمر من أمور المسلمين ، مبينا أن عقاب من يفعل ذلك من الولاية حرمانه من دخول الجنة ، وذلك لما يترتب على ذلك كله من سوء عاقبة على الأمة كلها ، « روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا ضيعت الأمانة ، انتظر الساعة » قيل يا رسول الله ، وما أضاعتها قال : إذا وسد الأمر — وسد الأمر إلى فلان : أسند إليه القيام بتصرفه — إلى غير أهله فانتظر الساعة » (٥) .

(٤) السياسة الشرعية فى إصلاح الرعايا والرعية لفتى الدين ابن تيمية .
مراجعة وتحقيق د . على سامى النشار وأحمد زكى عطية . الطبعة الثانية ١٩٥١ ص ٤ .

(٥) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٩ .

وعلى الخليفة الى جانب تدقيقه فى اختيار عماله وولائه على أعمال الدولة ، أن يحاسبهم ليتبين مدى أدائهم الأمانات فيما وكله الى كل منهم ، والمثال على ذلك واضح من تاريخ الخليفة عمر بن الخطاب ، حيث كان دائم الحساب لولائه وعماله ، وكان يشاطر بعضهم فى ماله عندما تدعو الضرورة لذلك •

وعلى الخليفة أن يتأكد من توافر الصفات الضرورية فى ولاته ، وهى التى تؤهلهم لولاية أعمال المسلمين وجماع هذه الصفات أمران القوة والأمانة • يقول تعالى : « ان خير من استأجرت القوى الأمين » (الآية ٢٦ من سورة القصص) • وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام : « انك اليوم لدينا دكين أمين » (الآية ٥٤ من سورة يوسف) • ونفصد بالقوة هنا القدرة على القيام بما يتطلبه العمل ، حتى تتحقق مصلحة الأمة • ونعنى بالأمانة أن تكون عن طبع وخشية من الله تعالى ، لا أن تكون تكلفا وخوفا من عقاب الامام • ويقول الله تعالى فى صفة جبريل : « انه لقول رسول كريم • ذى قوة عند ذى العرش مكين • مطاع ثم أمين » (الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ من سورة الانفطار) • وقد نزلت هذه الآيات صفة لجبريل أو محمد عليهما الصلاة والسلام ، فهى تصفه بالقوة على ما يطلب منه ، وبالأمانة فايما يوكل اليه » (٦) •

ويجب على الخليفة أن يراعى فى كل ولاية الأصلح بحسبها من القوة والأمانة ، لأن اجتماع القوة والأمانة فى الناس قليل • فيقدم فى اماره الحروب الرجل القوى الشجاع على الضعيف الأمين ، وفى أمر المال يقدم الأمين ، ويجب ملاحظة الأمانة قبل القوة • ويذكر ابن تيمية : « أن الامام أحمد بن حنبل سئل عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو ، وأحدهما قوى فاجر ، والآخر صالح ضعيف ، مع أيهما يغزى ؟ فقال : أما الفاجر القوى ، فقوته للمسلمين ، وفجوره على نفسه ، أما

(٦) راجع القرطبي ٢٣٨/١٩ •

الصالح المضعيف ، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين ، فيغزى مع القوي الفاجر وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » ^(٧) • وهكذا دواليك فى سائر الولايات الأخرى بما تتطلبه من صفات خاصة بكل منها •

ولقد كان الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحرص أشد الحرص على اختيار أفاضل الرجال من ذوى السمعة الطيبة • يذكر عنه أنه قال يوما لأصحابه : « أشيروا على ودلوني على رجل استعمله فى أمر قد دهمنى ، فانى أريد رجلا اذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، واذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم » ^(٨) •

نعود ، ونقول ان الماوردى قسم الامارة على البلاد الى نوعين عامة وخاصة •

والامارة أو الولاية العامة ، يكون الأمير فيها مفوضا من قبل الخليفة فى حكم بلد أو إقليم للنظر فى جميع شئونه بما فى ذلك النظر فى تدبير الجيوش ، وتعيين القضاة ، وجباية الخراج ، وقبض الصدقات واقامة الحدود ، واختيار عمال الدولة • الخ فهى : « ولاية على جميع أهله ونظرا فى المعهود من سائر أعماله ، فيصير عام النظر فيما كان محدودا من عمل ومعهودا من نظر » والولاية عامة سلطة ملزمة ، ويمكن لنا أن نقول أن الولاية العامة ، حسب الاصطلاح الفقهي الحديث : هى القيام بعمل من أعمال احدى السلطات الثلاث : التشريعية والقضائية والتنفيذية • ^(٩) وهذه الامارة العامة أوسع نفوذا ، ولذلك يراعى فيمن

(٧) .السياسة التشريعية لابن تيمية ص ١٤ •

(٨) الإدارة الاسلامية فى عز العرب (طبعة ١٩٣٤ ص ٢٤) للاستاذ محمد كرد على وزير معارف سوريا السابق •

(٩) راجع : مبادئ نظام الحكم فى الاسلام للدكتور عبد الحميد متونى ص ٨٥٥ — ٨٥٦ •

ينبى هذه الامارة نفس الشروط الدقيقة التى تراعى فى وزارة التفويض « لأن الفرق بينهما خصوص الولاية فى الأمانة ، وعمومها فى الوزارة » •

والامارة العامة ، يعود الماوردى فيقسمها الى قسمين : امانة استكفاء :
بعقد عن اختيار ، وامانة استيلاء : بعقد عن اضطرار (١٠) •

امانة الاستكفاء :

فأما امانة الاستكفاء التى تنعقد عن اختيار ، فيعقدنها الامام باختياره للنسب الذى يكون كفؤا لهذه الولاية ، والمتوفرة فيه شروطها • وقد باشر الخلفاء الأول امانة الاستكفاء والاختيار هذه ، وذلك لشمولها لجميع الاختصاصات الكبيرة • كما حدث لدى تولية عمر أو عثمان — رضى الله عنهما — على إقليم مصر أو اليمن أو الشام أو العراق ، وكذلك خلفاء الدولة الأموية أو العباسية فى عصرها الأول فكل هؤلاء الولاة كانت تنطبق عليهم أحكام هذه الامانة •

شروط امانة الاستكفاء :

والشروط التى تشترط فى « امانة الاستكفاء » هى الشروط المعتبرة فى وزارة التفويض ، فكلتاها تفويض من الامام ونياية عنه و « الفرق بينهما خصوص الولاية فى الامانة وعمومها فى الوزارة وليس بين عموم الولاية وخصوصها فرق فى الشروط المعتبرة فيها » (١١) ومعنى ذلك أنه ليس هناك فرق فى نوع الولاية ، بل الفرق فى عموم المكان أو خصوصه ، وامانة « الاستكفاء » ، ووزارة « التفويض » تعقد عن اختيار الامام وتقليده لمن تتوفر فيه الشروط ، وتتشابه الشروط وتتحد فى كلتا الولايتين • ويكفى أن يقول الخليفة ، عندما يعقد اختيارا لأحد الولاة. لامانة « الاستكفاء » قد أقررتك على ولايتك ، ويحتاج فى ابتداء

(١٠) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٢٤ •

(١١) المصدر السابق ص ٢٥ •

المعتقد أن يقول قد قلذتك ناحية كذا أمانة على أهلها ونظرا على منا يتعلق بها * ونحن نلاحظ فيما سبق أن تعبير الماوردي هو عن عموم وخصوص الولاية ، أى المكان لا النظر ، كما أوضحنا ، عام * وحديث الماوردي أن هذه الولاية عامة ، وأن الأمير حين يقلده الخليفة على باد أو إقليم تصير له الولاية على جميع أهله ، « ويصير عام النظر » *

ويجوز لهذا الأمير أن يستوزر لنفسه وزيرا بأمر الخليفة وبغير أمره ، ولا يجوز له أن يستوزر وزير تفويض الأتاتن الخليفة وأمره ، وذلك لأن وزير التنفيذ معين ووزير التفويض مستبداء » (١٢) *

والشروط التى تشترط فى امانة « الاستكفاء » هى بعينها شروط وزارة التفويض ونحن نعلم أن الشروط التى يشترطها الماوردي تكاد تكون واحدة : فى الامام ، ووزارة التفويض ، والأمير : الوالى العام على اقليم * ومن هذه الشروط أن يكون الأمير عاقلا ، تقيا شجاعا ، ذا تجارب ومعرفة تامة وتدريب ، صالحا لله ولرسوله والسلطان والمسلمين *

واجبات أمير الاستكفاء :

• وواجبات أمير « الاستكفاء » أو الوالى العام هى :

أولا : النظر فى تدبير الجيوش وترتيبهم فى النواحي وتقدير أرزاقهم الا أن يكون الخليفة قدرها فيذرهما عليهم *

ثانيا : النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام *

ثالثا : جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منهما *

رابعا : حماية الدين والذب عن الحرم ومراعاة الذين من تغيير أو تبديل *

خامسا : اقامة الحدود فى حق الله وحقوق الآدميين •

سادسا : الامامة فى الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها •

سابعا : تفسير الحجيج من عمله ومن غيره حتى يتوجهوا معانين لفصلهم •

ثامنا : (فاذا كان هذا الاقليم شغرا متاخما للعدو) جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم فى المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس (١٣) • وهذه الواجبات تشابه الى حد كبير واجبات الامام ، وهى متنوعة وعامة تشمل النواحى الحربية والمالية والدينية والقانونية •

امارة الاستيلاء :

وهى الامارة التى تعقد عن اضطرار ، وهى خروج عن عرف التقليد المطلق ، وامارة « الاستيلاء » هى أن يستولى الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة امارتها ويفوض اليه تدبيرها وسياستها ، فيكون الأمير باستيلائه مستبدا بالسياسة والتدبير — والخليفة منفذا لأحكام الدين « (١٤) •

وقد نشأت امارة « الاستيلاء » عن حكم الضرورة ، أو الواقع ، فمنذ بدء النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، أخذت تنتشر ظاهرة استيلاء بعض الولاة على أقاليم أو بلد معين ، ثم يستبد الأمير بالأمر فى الأقليم أو البلد المعين ، عن رغبة الخليفة ، ورغما عنه • ومن هنا نشأت الدويلات الإقليمية فى المشرق وفى المغرب الى جانب الخلافة ، ومن هنا أيضا وجد الفقهاء ومنهم الماوردى أن من الواجب أن لا يحكموا ببطلانها

(١٣) المصدر السابق ص ٢٤ — ٢٥ •

(١٤) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٢٨ •

كلية ، وخاصة بعد أن سادت هذه الظاهرة فى القرن الرابع الهجرى
ثم فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى • والمأوردى الذى عاش
فى هذا العصر لم يثنأ أن يتجاهل الواقع ، بل أشار الى هذا الوضع ،
وهو يتكلم على أحكامه فقال : « وإذا فوض الخليفة تدبير الأقاليم الى
ولايتها ، ووكل النظر فيها الى المسؤولين عليها : كالذى عليه أهل زماننا (١٤) •
وهذا ان دل على شئء فانما يدل على مرونة الفقه الاسلامى التى تساهل
المواقع دائما ، ولا تريد الالتزام بنظام واحد للدولة ، وهو نظام الخلافة
المركزى •

شروط وواجبات أمير الاستيلاء :

والشروط التى تشترط للاعتراف بصحة ولاية الاستيلاء ، هى بتعبير
آخر ، الواجبات التى تجب على الوالى المستولى نظير اقرار ولايته كأمر
واقع • وبعض هذه الواجبات تلزم الخليفة نفسه ، لأن تحقيقها يكون
بالاشتراك والتعاون •

وهذه الشروط أو الواجبات كما يتحدث عنها المأوردى هى : (١٦)

أحدها : حفظ منصب الامامة فى خلافة النبوة وتدبير أمور الملة :
ليكون ما أوجبه الشرع (ما اقامتها) محفوظا ، وما تفرع عنها من الحقوق
محروسا •

الثانى : ظهور الطاعة الدينية التى يزول معها حكم العناد فيه وينتفى
بها اثم المباينة له •

الثالث : اجتماع الكلمة على الألفة والتناصر ليكون للمسلمين يد على
سواهم •

(١٥) نفس المصدر السابق •

(١٦) المصدر السابق ص ٢٨ •

الرابع : أن تكون عقود الولايات الدينية جائزة ، والأحكام والأقضية فيها نافذة ، لا تبطل بفساد عقودها ولا تسقط بخلل عهودها •

الخامس : أن يكون استيفاء الأموال الشرعية بحق تبرأ به ذمة مؤديها ويستباح أخذها •

السادس : أن تكون الحدود مستوفاة بحق وقائمة على مستحق ، شان جنب المؤمن حمى الا من حقوق الله وحدوده •

السابع : أن يكون الأمير قائما في حفظ الدين ، ورعا عن محارم الله ، يأمر بحقه ان أطيع ويدعو الى طاعته ان عصى •

فهذه هي القواعد الشرعية التي يترتب عليها حفظ حقوق الامامة وأحكام الأمة ، ومن هنا وجب تقليد المستولى •

ويقول الماوردي : « فان كملت فيه (في أمير الاستيلاء) شروط الاختيار كان تقليده حتما » ، استدعاء لطاعته ودفعاً لمشاقته ومخالفته وصار بالاذن له نافذ التصرف في حقوق الملة وأحكام الأمة وجرى على من استوزره واستنابه أحكام من استوزره الخليفة واستنابه •

فان لم يكمن في المستولى شروط الاختيار جاز للخليفة أظهر تقليده استدعاء لطاعته وحسما لمخالفته ومعاندته وكان نفوذ تصرفه في الأحكام والحقق موقوفا على أن يستناب له الخليفة فيها من تكاملت فيه شروطها ليكون كمال الشروط فيمن أضيف الى نيابته جبرا لمن أعوز من شروطها في نفسه فيصير التقليد للمستولى والتنفيذ من المستناب » (١٧) •

فاذا كان المستولى مستكملا للشروط من نفسه ، وهي الشروط التي

توجد فى حالة الاختيار ، وجب على الخليفة تقليده حتما ، حيث لا ينحصر الفرق اذن الا فى مسألة الاضطرار والاختيار • وفى حالة عدم استكمال المستولى لشروط الاختيار لم يتحتم على الخليفة تقليده ، وفى هذه الحالة يكون تصرفه فى الأحكام والحقوق موقوفا — كما تقدم — على أن يستتيب له الخليفة فيها من تكاملت فيه شروطها • فيكون التنفيذ من المستتاب ، والداعى الى ذلك حكم الضرورة وحرصا على مصالح الأمة من الضياع ،

ويوضح الماوردى أيضا الفرق ما بين امارة الاستيلاء التى تعقد تن اضطرار ، وامارة الاستكفاء التى تعقد عن اختيار فيقول : (١٨) « اذا صحت امارة الاستيلاء كان الفرق بينهما وبين امارة الاستكفاء من أربعة أوجه :

أحدهما : أن امارة الاستيلاء متعينة فى المستولى ، وامارة الاستكفاء مقصورة على اختيار المستكفى •

الثانى : ان امارة الاستيلاء مشتملة على البلاد التى غلب عليها المستولى ، وامارة الاستكفاء مقصورة على البلاد التى تضمنها عهد المستكفى •

الثالث : ان امارة الاستيلاء تشتمل على معهود النظر ونادره : وامارة الاستكفاء مقصورة على معهود النظر دون نادره •

الرابع : ان وزارة التفويض تصح فى امارة الاستيلاء ، ولا تصح فى امارة الاستكفاء ، لوقوع الفرق بين المستولى ووزيره فى النظر لأن نظر الوزير مقصور على المعهود والمستولى أن ينظر فى النادر والمعهود ، وامارة الاستكفاء مقصورة على النظر المعهود فلم تصح معها وزارة تشتمل على مثلها من النظر المعهود لاشتباه حال الوزير بالمستوزر » •

وبذلك يتضح لنا أن امارة الاستيلاء تتعين فى شخص المستولى .

أو المتغلب بالقوة على أقليم أو بلد معين ، رغما عن الخليفة ، ويجب على الخليفة حينئذ ، تقليده ، استدعاء لطاعته ، ودفعاً لمشاقته ، فى حين يجد أن أماره الاستكفاء ، يعقدها الخليفة للأمير باختياره للشخص الذى يكون كفؤاً لهذه الولاية ، وذلك لتوفر شروطها فيه . كما أن أماره الاستيلاء تشتمل على الأقاليم التى تغلب عليها الأمير بالقوة ، وأماره الاستكفاء تقتصر على البلاد (الأقاليم) التى عقد الخليفة فيها برضاه للأمير من أجل حكمها وإدارتها ، وفى كل ذلك نجد أن أمير الاستيلاء يتمتع بالاستقلال فى تصرفاته ، أما أمير الاختيار فإن له علاقات بالخليفة ، ووزير التفويض . وتشتمل أماره الاستيلاء على النظر فى جميع الأمور ، معهودها ونادرها ، على حين يقتصر نظر أماره الاختيار (الاستكفاء) على الأمور المألوفة ، دون نادرها . ومن الفوارق التى وضحت أيضاً ما بين الامارتين ، أن أمير الاستيلاء يصح له أن يعين وزير تفويض ووزير تنفيذ أو أكثر ، فى الوقت الذى يمتنع فيه على أمير الاختيار أن يعين وزير تفويض إلا باذن الخليفة ، بل كل ماجوز له فقط أن يعين وزير تنفيذ . ونذكر هنا أيضاً بعض الأحكام المتعلقة بهذا الموضوع . منها أن الخليفة إذا كان قد ولى أمير الاستكفاء كان لوزير التفويض عليه حق المراجعة والتصفح ، ولكن أم يكن له عزله ولا نقله من أقليم أو غيره . ولو عزل هذا الوزير لم ينعزل الأمير . وهذا هو الحال أيضاً فى حالة ما إذا كان الوزير ولاءه ، ولكن باذن الخليفة وعن أمره . والمضرب الثانى إذا كان الوزير قد قلده عن نفسه ابتداءً ، فهو نائب عنه ، فيجوز له عزله والاستبدال به بحسب ما يؤديه الاجتهاد اليه من النظر فى الأولى والاصلاح ، ومتى انعزل الوزير انعزل هذا الأمير ، إلا أن يقره الخليفة على امارته فيكون ذلك بمثابة تجديد ولاية واستئناف تقليد (١٩) .

ومن الأحكام المتعلقة بموضوعنا هذا أيضاً ، أنه إذا كان تقايد أمير الاستكفاء من قبل الخليفة أم ينعزل بموت الخليفة ، وان كان من قبل

الوزير — وزير التفويض — انعزل بموت الوزير ، لأن تقليد الخليفة نيابة عن المسلمين وتقليد الوزير نيابة عن نفسه ، وينعزل الوزير بموت الخليفة وان لم ينعزل به الأمير ، وذلك راجع الى الفرق الواضح بينهما وهو أن الوزارة نيابة عن الخليفة ، أما الامارة فنيابة عن المسلمين (٢٠) .

أما الأمانة الخاصة ، فهي أقل نفوذا من الأمانة العامة وهي محدودة يقتصر الأمير فيها على « تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة والذب عن الحريم وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام ولجباية الخراج والصدقات » (٢١) ومعنى ذلك أن الولاية الخاصة هي بمثابة السلطة التي يملك صاحبها حق التصرف في شأن من الشؤون الخاصة بالغير . فأما اقامة الحدود المختلف عليها بين الفقهاء فليس له التعرض لاقامتها لأنها من الأحكام الخارجة عن خصوص امارته . وأما نظره في المظالم فان كان مما نفذت فيه الأحكام وأمضاه القضاء والحكام جاز له النظر في استيفائه ، وذلك لأن من مهامه وواجباته المنع من التظالم ونشر العدل بين الرعية . ويدخل في جملة اختصاصاته تسيير الحجيج — كما أن عليه في حالة هجوم الأعداء عليه حماية ولايته ودفع الأعداء عنها ، ولأن دفعهم من حقوق الحماسة ، ومقتضى الذب عن الحريم .

والشروط التي يشترط توافرها في الأمانة الخاصة هي نفسها الشروط المعتبرة في وزارة التنفيذ ، بزيادة شرطين عليها هما : الاسلام والحرية لما تضمنتها من الولاية على أمور دينية لا تصح مع الكفر والرق ، ولا يعتبر فيها العلم والفقه وان كان فزيادة فضل . (٢٢) وتقتصر شروط الامارة الخاصة عن شروط الامارة العامة بشرط واحد هو العلم ، لأن لمن عمت أمارته أن يحكم ، وليس ذلك لمن خصت امارته .

(٢٠) المصدر السابق ص ٢٦ .

(٢١) الاحكام للماوردي ص ٢٧ .

(٢٢) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٢٧ .

الفصل السادس

أنواع الامارة على البلاد

١ — الامارة على الجهاد :

- ١ — قسما الامارة على الجهاد ، وتعريف الجهاد لغويا *
- ٢ — واجبات أمير الجيش نحو جنده وجيشه *
- ٣ — واجبات المحاربين تجاه الله عز وجل ، وتجاه قائدهم *
- ٤ — آداب الحرب في الاسلام كما يذكرها الماوردي *

٢ — الولاية على حروب المصالح :

يقسم الماوردي هذه الولاية الى ثلاثة أقسام :

(أقسام هذه الولاية)

- ١ — قتال أهل الردة *
 - ٢ — قتال أهل البغي *
 - ٣ — قتال المحاربين *
- قواعد وأصول كل منها

الإمارة على الجهاد

الإمارة على الجهاد ، عند الماوردي ، مختصة بقتال المشركين •
وهي على ضربين :

أحدهما : أن تكون مقصورة على سياسة الجيش وتدبير الحرب .
فيعتبر فيها شروط الإمارة الخاصة •

والضرب الثاني : أن يفوض الى الأمير فيها جميع أحكامها من تقسم
الغنائم وعقد الصلح ، فيعتبر فيها شروط الإمارة العامة ، وهي أكبر
الولايات الخاصة أحكاما • وأوفرها فصولا وأقساما ، وحكمها اذا خصت
داخل في حكمها اذا عمت ^(١) •

وقبل أن نتكلم عن أحكام إمارة الجيش ، والصفات الواجب توافرها
في أمير الجيش ، وواجبات المحاربين تجاه الله سبحانه وتعالى ، وتجاه
قائدهم ، وآداب الحرب التي يذكرها الماوردي ، نبين لأنفسنا القول
بأن الحروب في الفقه الاسلامي تنقسم الى أربعة أقسام :

١ — جهاد المشركين (غير المسلمين) •

٢ — قتال أهل الردة •

٣ — قتال أهل البغي •

٤ — قتال المحاربين أو قطاع الطريق •

ونبدأ حديثنا بإمارة الجهاد ، وهو جهاد المشركين ، غير المسلمين •

الجهاد في اللغة :

الجهاد والحرب في أصل اللغة العربية ، لها مدلول واحد وهو

(١) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٢٩ •

القتال مع العدو ، (٢) ثم تفترق الكلمتان بعد ذلك من حيث الاصطلاح الشرعى .

ويقول « الباجورى » : الجهاد أى القتال فى سبيل الله مأخوذ من المجاهدة وهى المقاتلة لاقامة الدين ، وهذا هو الجهاد الأصغر ، وأما الجهاد الأكبر فهو مجاهدة النفس ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا رجع من الجهاد : رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر (٣) .

وكلمة « الجهاد » مشتقة من الفعل « الجهد » ، ويعنى بذل الجهد وهو الوسع والطاقة فى العمل ضد الشر . والجهاد مصدر جاهدت العدو جهادا اذا قاتلته قتالا ، أو بذل كل منهما جهده أى طاقته فى دفع صاحبه ، فهى صيغة مشاركة من الجهد وهو الطاقة والمشقة ، كما أن القتال مشاركة فى القتال . والباعث على الجهاد فى الاسلام هو رد العدوان ، ومنع الظلم ، ودفع الشر والفساد ، وحفظ الكرامة . وتأمين الحرية . فالجهاد شرع اذن لنصرة الاسلام ، بخلاف الحرب التى قد تكون للعدوان ، ومن هنا كان تفضيل الاسلام لكلمة « جهاد » عن كلمة « حرب » . ومن هنا كان حديث الماوردى ، عن « امارة الجهاد » وتبينه أن من أهم واجبات الحاكم وهو القائد الأعلى للجيش جهاد من عائد الاسلام ، وحماية البيضة ، والذب عن الحريم . أما ما يشاع عن الاسلام ، من أن الجهاد فيه شرع لقتال غير المسلمين ، لاكراههم على الدخول فى الاسلام ، فهذا هو الافتراء بعينه ، وهو أيضا تلفيق وكذب على الاسلام ، الذى شرع الجهاد فيه أصلا لرد العدوان .

(٢) راجع : تاج اللغة للجوهري ٤٢/١ ، ٢٢٠ ، والقاموس المحيط ٣٣٧/١ ، ٤٢٩/٤ .

(٣) حاشية الباجورى على ابن قاسم ٢٦٨/٢ .

واجبات أمير الجيش نحو جنده وجيشه (٤) :

يوجب الماوردي على أمير الجيش (قائده) واجبات متعددة يأتي في مقدمتها تنظيم الجيش في مصاف الحرب ، والاعتماد في ذلك على الكفاءات القيادية المتمرسية بشئون القتال ، ومعالجة شتى ألوان الخلل والنقص في صفوف الجيش « ترتيب الجيش في مصاف الحرب ، والتعويض في كل جهة على من يراه كفؤا لها ، ويتفقد الصفوف من الخلل فيها » • ويتصل بهذا الاعداد ضرورة توفير المؤن والحاجات الضرورية لأفراد الجيش من سلاح وغيره ، فعليه أن يتفقد الخيل التي يجاهد عليها المجاهدون : « فلا يدخل في خيل الجهاد ضخما كبيرا ولا ضرا صغيرا ولا حطما كسيرا ولا أعجف هزيلا ••• ويخرج منها ما لا يقدر على السير » • قال الله تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، وكل ذلك حتى يكون الجيش أقدر على الحرب ، وأوفر وأقدر على منازلة وملاقاة العدو والانتصار عليه • « ومن دخل أرض العدو فلا يكثر من الزاد والماء وان لم يحتاج اليه فانه على غرر من عدم حصول شيء منه ، وقد يضطر الى المقام والتوغل فيها » (٥) •

ويوصي الماوردي أمير الجيش باتخاذ الاحتياطات اللازمة للمحافظة على سلامة الجيش وعدم تعريضه للكمين ، أو مؤامرة من جانب العدو وذلك — بحراستهم من غرة يظفر بها العدو منهم بتتبع الكمين وتحويطهم بحرس يأمنون به على نفوسهم وقت الدعة ووقت المحاربة » • ويقول « الحسن العباسي » ان عليه أن « يتحرز من قرب المواضع التي يتوقع منها خروج الكمين الا بعد البحث والكشف ، فان الكمين وان قل عدده اذا خرج على عسكر كثير بدده ، يجب عليه قبل الحرب الفحص عن الأرض ومكامنها وحفائرها وطرقها ومنازلها ومعاطشها ليكون على بصيرة

(٤) راجع في ذلك : الاحكام السلطانية للماوردي ص ٢٩ — ٣٠ ، ص ٣٥ — ٣٦ وأيضا : مخطوط الماوردي : نصيحة الملوك أوراق ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ •
(٥) آثار الاول في ترتيب الدول للحسن العباسي ص ١٧١ •

بمن معه وان كانت الكرة له أو عليه ، وإذا دخل أرض العدو فليتحفظ من المضايق»^(٦) وهذا ما يتطلبه الماوردي أيضا من أمير الجيش حيث يجب عليه التدقيق في اختيار أفضل الأماكن والمواقع التي يستطيع منها الجيش محاربة العدو : « ليكون أعون لهم على المنازلة وأقوى لهم على المراقبة » *

ويجب على قائد الجيش أن يسعى للحصول على أخبار عدوه أولا بأول ، فذلك كفيلا بتمكينه من التغلب عليه ، ويعبر الماوردي عن ذلك بقوله : « أن يعرف أخبار عدوه حتى يقف عليها ويتصفح أحواله حتى يخبرها فيسلم من مكره ويلتمس الغرة في الهجوم عليه » ويتصل بذلك الواجب عند الماوردي أيضا واجب تحصين قائد الجيش لأسرار جيشه ، وكل ما يتعلق به من معلومات من أن يقف عليها العدو ، فانه لا شيء أبلغ في تنفيذ الحيل وأعون على بلوغ الفرص من كتمان السر * ويقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك : « استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان » *

وعلى أمير الجيش أن يعمل ، بكافة السبل ، على تقوية الروح المعنوية عند أفراد جيشه ، بما يشعرهم من الظفر ويخيل اليهم من أسباب النصر ليقل العدو في أعينهم ، فيكون عليه أجراً ، وبالجملة يتسهل الظفر * وعليه في ذلك أن يخرج من صفوف الجيش مثبتى الهمم ومضعفى النفوس أى من : « كان فيه تخذيل للمجاهدين ، وارجاف للمسلمين أو عينا عليهم للمشركين » ويمكن أن نعد اللقاء الكلمات الحماسية من ضمن طرق ووسائل تقوية الروح المعنوية لدى أفراد الجيش مما حدا ببعضهم^(٧) الى القول : « بأنه ينبغي للملك أن ينصب لأهل الحرب قصاصا وخطباء يذكرونهم الحرب والوقائع الماضية والغزوات السالفة ومواقع الشجعان ومصارع الفرسان وما وعد الله الشهداء والمجاهدين من الثواب

(٦) المصدر السابق ص ١٧٠ .

(٧) أنار الاول في ترتيب الدول للحسن العباسي ص ١٦٩ .

مى دار النعيم ، وأن أمكن الموالى أن يفعل ذلك بنفسه فلا بأس فانه مما يؤلف الهمم ويقوى العزائم ويشد نفوس أهل الحرب • قال الله تعالى : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال » وقلما كان عليه السلام يعزم على حرب الا ويخطب أصحابه وكذلك الصحابة والتابعون • ولعل هذا هو بعض ما تقوم به اليوم ادارات التوعية والتوجيه المعنوى بالجيش المعاصرة •

وعلى قائد الجيش أن يكون دائما على علم بأحوال جنده ومشاكلهم وما هم فى حاجة اليه وذلك بأن يعرف العرفاء ، وينقب النقباء ليعرف منهم أحوال الجيش ومتطلباته أولا بأول ودون تأخير • ويجب أن يكون لكل سلاح من أسلحة الجيش علاماته المتميزة ، وأن يكون له شعاره المبدال عليه والمميز له عن غيره « بأن يجعل لكل طائفة شعارا يتداعون به ليصيروا به متميزين » •

ويجب على قائد الجيش أن يتجنب دائما الانفراد باتخاذ القرارات ، وخاصة فى الأمور المصيرية ، بل عليه أن يشاور فى ذلك أهل الرأى والحزم والخبرة ، وهو ما يمكن أن نسميه « مجلس الحرب » أو « مجلس الدفاع القومى » وذلك لكى « يأمن الخطأ ويسلم من الزلل فيكون من الظفر أقرب ، قال الله تعالى : « وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله » •

ثم ان أمير الجيش مكلف بمراقبة جنوده ونهيه عن الفساد ، عملا بالحديث الشريف الذى استشهد به الماوردى : « انهو جيوشكم عن الفساد فانه ما فسد جيش قط الا قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وانهو جيوشكم عن الغلول فانه ما غل جيش قط الا سلط الله عليهم الرحلة ، وانهو جيوشكم عن الزنا فانه ما زنا جيش قط الا سلط الله عليهم الموتان » (٨) •

ومن أهم الواجبات الواجبة على قائد الجيش ، عند الماوردى ،

(٨) الرحلة جمع قلة لرجل ، والموتان موت يقع فى الماشية .

أن لا يمكن أحدا من أفراد جيشه بالاستغفال بأى أعمال أخرى خارجية بعيدة عن مهنة القتال ، وشاغلة لهم عنها ، كالاغتفال بالتجارة أو الزراعة . . . الخ يعبر الماوردي عن ذلك بقوله : « أن لا يمكن أحدا من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة لصرفه الاهتمام بها من مصايرة العدو وصدق الجهاد » روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثت مرغمة ومرحمة ولم أبعث تاجرا ولا زارعا وإن شرد هذه الأمة المتجار الزراع . . . وغزا نبي من أنبياء الله تعالى فقال لا يغزون معي رجب بنى بناء لم يكمله ، ولا رجل تزوج بامرأة لم يدخل بها ، ولا رجل زرع زرع لم يحصده » ، وهذا يتطابق مع ما يشترطه « ميكافلي »^(٩) من واجبات على أمير الجيش حيث يقول : « لا ينبغي للأمير أن يكون له مقصد أو فكر أو معنى بدرس أمر سوى الحرب ونظامها وترتيبها لأنها الصنعة الوحيدة الضرورية للذى يأمر وينهى » .

ويذهب « ابن أبي الربيع » إلى أنه ينبغي على الملك الفاضل فى سياسة الحرب ما يأتى : (١٠)

- ١ — أن يعلم حال العدو فى كل ساعة بالجواسيس ولا يغفل أمره .
- ٢ — وينبغي أن يخفى أخباره عن عدوه بكل ممكن ويستترها عن يخاف سريره .
- ٣ — وينبغي أن يبذل المال العظيم فى مخادعته ومخادغة أصدائه واستمالتهم .
- ٤ — أن لا يثق بمستأمن من جهة العدو الا بعد خبرة حاله وصفاء نيته .

(٩) كتاب الأمير لميكافلي ترجمة محمد لطفى جمعة ص ١٣٦

(١٠) سلوك الملك فى تدبير الممالك لابن أبي الربيع — طبع حجر — ص ١٠٧ ، وراجع أيضا : كتاب فى السياسة للوزير المغربى ص ٧١ ومن ص ٧٩ — ٨٢ ، وسراج الملوك للطرطوشى ص ١٧٤ .

٥ — واذا قوى عدوه واستظهر فالصواب أن يستكثر ويلقاه بنفسه
بعد احكام أمره *

٦ — وان كان دونه فليخرج اليه من يثق ببأسه وشجاعته ونجدته
ونجابتة *

٧ — وينبغي أن يجعل نفي مقدم عسكره من الأمور المزعجة ما يذهل
أصحاب العدو *

٨ — وليحتل في ايقاع العذاب بهم اما بقطع المياه عنهم أو القناطر
أو بالنار *

٩ — ويجب أن يجعل على كل عدة معلومة من عسكره رئيسا من
شجعانهم ومجربيههم *

١٠ — وينبغي أن يتخذ كميناً ولا يهمل خبره ويحذر مع ذلك كمين
الأعداء *

١١ — يجب أن لا يستصغر عدوه ويقابله بما يقابل الأمر العظيم
اذ لا معول على ريب الزمان *

١٢ — وليجعل المحاربة آخر حيلة فان النفقة فيها من النفوس وفي
غيرها من المال ، فان أفادت الحيلة ربح ماله وحقق دماء جيشه وان أعيت
حارب بعد ذلك *

١٣ — واذا تمكن من العدو فليناد في الناس بنشر العدل والأمان
من القتل *

١٤ — وليقسم الغنائم على أصحابه ويرضيهم بقدر الامكان *

ويوجب المأوردى أيضا على قائد الجيش عند ملاقاته العدو المصابرة
والثبات والصمود وأن لا يتراجع أو يولى عند العدو وفيه قوة على الجهاد
وخاصة اذا طال زمان المعركة ، ويقول الله سبحانه وتعالى في ذلك :
« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم

تفلقحون-» ه ويفعل الأمير ذلك حتى يطلب الأعداء الأمان والمهادنة ،
أو يسلموا أنفسهم ويقرروا بهزيمتهم •

وبعد ذلك يذكر الماوردي ما على المحاربين من واجبات تجاه الله
سبحانه وتعالى ، وتجاه قائدهم •

أما واجبات المحاربين تجاه الله عز وجل فيقول الماوردي : « إن
اللازم لهم في حق الله تعالى أربعة أشياء » (١١)

١ — مصابرة العدو عند التقاء الجمعين بأن لا ينهزم عنه من مثليه
فما دونه • وقد كان الله تعالى فرض في أول الإسلام على كل مسلم
أن يقاتل عشرة من المشركين فقال : « يا أيها النبي حرّض المؤمنين
على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم
مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » • ثم خفف الله
عز وجل عنهم عند قوة الإسلام وكثرة أهله فأوجب على كل مسلم
لاقى العدو أن يقاتل رجلين منهم فقال : « الآن خفف الله عنكم
وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرون يغلبوا مائتين
وان يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين •

٢ — أن يقصد بقتاله نصره دين الله تعالى وإبطال ما خالفه من
الاديان ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون •

٣ — (ومن حقوق الله تعالى) أن يؤدي الأمانة فيما حازه من
الغنائم ولا يغفل أحد منهم شيئا حتى يقسم بين جميع الغانمين ممن شهد
الموقعة وكان على العدو يدا لأن لكل واحد فيها حقا •

٤ — أن لا يميل من المشركين ذا قرى ولا يجابى في نصره دين الله
ذا مودة فان حق الله أوجب ونصره دينه ألزم • قال الله تعالى :

(١١) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٣٦ وما بعدها .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلحقون باليهيم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » . *

ثم تكلم المياوردي عن الواجبات التي تجب على المحاربين تجاه قائدهم ، فيقول ، « أما ما يلزمهم في حق الأمير عليهم فأربعة أشياء (١٢) . *

١ — التزام طاعته والدخول في ولايته ، لأن ولايته عليهم اشترطت وطاعته بالولاية وجبت ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . *

٢ — أن يفوضوا الأمر الى رأيه ويكلوه الى تدبيره حتى لا تختلف آراؤهم فتختلف كلمتهم ويفترق جمعهم . *

٣ — أن ييساروا الى امثال الأمر والوقوف عن نهيه وزجره لأنها من لوازم طاعته فان توقفوا عما أمرهم به وأقدموا على ما نهاهم عنه فله تأديبهم على المخالفة بحسب أحوالهم ولا يغلظ ، فقد قال الله تعالى : « فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ العقاب لانفضوا من حولك » . *

٤ — أن لا ينازعه في الغنائم اذا قسمها ، ويرضوا منه بتعديل القسمة عليهم فقد سوى الله تعالى فيها بين الشريف والمشروف ، ومائل بين القوى والضعيف . *

آداب الحرب في الاسلام : (١٣) . *

منع قتل الشيوخ والرهبان :

ينهى المياوردي عن قتل الشيوخ والرهبان من سكان الصوامع .

(١٢) الاحكام السلطانية للمياوردي ص ٣٩ — ٤٠ .

(١٣) راجع في ذلك : الاحكام للمياوردي ص ٣٤ ، ٢٦ — ٤٤ ، وأيضا : الخراج لابن يوسف ص ١٢٠ — ١٢١ ، ورسالة أرسطوطاليس للاشكتري في السياسة ترجمة يوحنا البطريق ص ٦٠ وما بعدها .

والأديرة طالما أنهم لا يشتركون في القتال ، لأنهم في هذه الحالة موادعون كالذراري • وإن كان هناك رأى آخر يذهب الى أنه يجب قتلهم ، لأنهم ربما أشاروا برأى هو أنكى للمسلمين من القتال ، ففي هذه الحالة يجب قتلهم طالما ثبت اشتراكهم في الحرب بالقول أو بالرأى والفعل • وقد قتل دريد بن الصمة في حرب هوازن وهو يوم حنين وقد جاوز مائة سنة من عمره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يراه فلم ينكر قتله • وقد قسم أبو بكر رضى الله عنه الرجال الذين يتسربلون بسربال الدين الى قسمين : أحدهما ، العاكفون على دور العبادة ولا يقتلون ولا يقاتلون ، وتشغلهم عبادتهم عن مجرد ابداء الرأى في القتال أو التدبير له ، فهؤلاء لا يقتلون باتفاق جمهور الفقهاء • والقسم الثانى : المتظاهرون بأنهم من رجال الدين ويتسربلون بسرباله وقد وصفهم الصديق بأنهم حلقوا أوساط رؤوسهم وتركوا من شعورهم ما يشبه العصائب ، وقد قرر أبو بكر قتل هؤلاء ، وذلك لأنهم كانوا يحرضون على المؤمنين •

منع قتل النساء والأطفال والعمال :

ولا يجيز الماوردى قتل النساء والولدان في حرب ولا في غيرها ما لم يقاتلوا ، لنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتلهم ولأنهم ضعفاء لا يقاتلون ولا رأى لهم في قتال ، فإن اشترك النساء والذراري في القتال مع قومهم بالفعل أو بالرأى جاز قتلهم في أثناء القتال وبعد الأسر باتفاق الأئمة • وينهى الماوردى عن قتل العمال الذين لا يحاربون ولا يساهمون في الحرب بالرأى أو بالعمل ، فهؤلاء أيضا لا يقاتلون ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل العسفاء والوصفاء ، والعسفاء هم العمال والمستخدمون ، والوصفاء هم المماليك ، ولأن هؤلاء هم بناء العمران ، ولم توجد الحرب في الاسلام لازالة العمران وإنما هي لدفع قوى الشر والفساد •

ونص كلام الماوردى في ذلك كما يلى : « لا يجوز قتل النساء والولدان في حرب ولا في غيرها ما لم يقاتلوا لنهى رسول الله صلى الله

عليه وسلم عن قتلهم ، ونهى رسول الله ﷺ عن قتل العسفاء والوصفاء — العسفاء — المستخدمون ، والوصفاء — المماليك ، فإن قاتل النساء والوالدان قوتلوا وقتلوا مقبلين ولا يقتلون مدبرين ، وإذا تترسبوا في الحرب بنسائهم وأطفالهم عند قتلهم يتوقى النساء والأطفال ، فإن لم يوصل إلى قتلهم إلا بقتل النساء والأطفال جاز ، ولو تترسبوا بأسارى المسلمين ولم يوصل إلى قتلهم إلا بقتل الأسارى لم يجز قتلهم فإن أفغنى الكف عنهم إلى الاحاطة بالمسلمين توصلوا إلى الخلاص منهم كيف أمكنهم وتحرزوا أن يعمد قتل مسلم في أيديهم » (١٤) .

ويراعى الماوردى شئ كل ما ينادى به من أفكار قواعد ومبادئ شريعة الاسلام السمحة الانسانية . ففي وصية للنبي صلى الله عليه وسلم قوله لجيش أرسله : « انطلقوا باسم الله ، وبالله ، وعلى بركة رسول الله ، لا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا صغيرا ، ولا امرأة ، ولا تغلوا ، وضعوا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » . وروى الامام أحمد في مسنده عن يحيى ابن سعيد ، أن أبا بكر بعث الجيوش إلى الشام ، وبعث يزيد ابن أبي سفيان أميرا ، وقد أوصاه بعشر وصايا فقال له : « انك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما زعموا ، وستجد قوما قد فحسوا أو ساط رؤسهم من الشعر ، وتركوا منها أمثال العصائب . فاضربوا ما فحسوا بالسيف ، وإنى موصيك بعشر ، لا تقتلن امرأة ، ولا صبيا ، ولا كبيرا ، ولا يقطعن شجرا مثمرا ، ولا نخلا ولا تحرقها ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بقرة إلا لمأكله ، ولا تجبن ولا تغل » .

منع التخريب :

يتضح لنا من وصية أبي بكر السابقة نهيه الصريح عن التخريب مثل قطع الشجر والنخيل وحرقه . الخ . وقد اختلف الفقهاء في جواز

قطع الشجر واحراق النخل ، والذي يذهب اليه الماوردى انه لا يجوز
لأمير الجيش قطع نخيل الأعداء وأشجارهم اذا لم يكن هناك ضرورة
تجيز ذلك ، أما اذا كانت هناك ضرورة حربية من وراء ذلك كأن
يستتر الأعداء وراء الأشجار الكثيفة أو يكمنون فيها للمسلمين فانه فى
هذه الحالة يباح قطعها ليظفر المسلمون بهم عنوة ، ويدخلوا فى السلم
صلحا ، وقد قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم كروم الطائف .
فكان سببا لاسلامهم * كما أنه يجوز أن يغور عليهم المياه ويقطعها :
عنهم ^(١٥) ولأن ذلك من أقوى أسباب ضعفهم والظفر بهم عنوة وصلحا .
كما أنه يجوز لأمير الجيش أن يهدم عليهم منازلهم ويضع عليهم
البيات والتحريق وذلك للضرورات الحربية الملحة ، على أن لا يعتمد
فى ذلك صبى ولا امرأة ولا شيخ كبير *

حسن معاملة الأسرى :

ولا يجيز الماوردى لقائد الجيش تعذيب أسرى الأعداء ، حتى لو
كان الأعداء يعذبون أسرى المسلمين بالجوع والعطش ووسائل التعذيب
البدنية الأخرى * وينهى الماوردى عن تعذيب الأسرى بأى لون من ألوان
التعذيب النفسى والبدنى « ولا يجوز أن يحرق بالنار منهم حيا ولا ميتا
وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تعذبوا عباد
الله بعذاب الله » ^(١٦) وبمعنى آخر يتعين على قائد الجيش الاحسان
الى الأسرى والشفقة عليهم * وهذا كله من وحى تعاليم الاسلام
الذى بالغ فى اكرام الأسرى ، بل اعتبر اطعام الأسرى من اكرام الأبرار
ويذكر صفة من صفات المؤمنين فيقول سبحانه فى صفات المؤمنين
الأبرار : « ويطمعون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » * ولا يجوز
بحال من الأحوال قتل الأسرى « فقد نقض الروم عهدهم زمن معاوية
وفى يده رهائن فامتنع المسلمون جميعا من قتلهم وخلوا سبيلهم ، وقاؤوا

(١٥) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٤٢ — ٤٣ ..

(١٦) المصدر السابق ص ٤٣ .

وفاء بغدر خير من غدر بغدر • وقال النبي صلى الله عليه وسلم :
أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك « (١٧) • وقد أثر على
النبي معاملته للأسرى معاملة تفيض بالبر والرحمة والاحسان ، ولم يعرف
غنه أنه قتل أسيرا الا للضرورة كأن تكون هناك جريمة يستحق عليها
القصاص •

وقد حملت المعاملة الطيبة التي كان يتعامل بها قواد المسلمين مع
أسرى الصليبيين في العصر الحديث بالمقارنة مع ما كان يقدم عليه أمراء
الجند في الحروب الصليبية من قتل أسرى المسلمين ، بل وقتل الرسل
الذين يفدون اليهم ، نقول حملت هذه المعاملة الطيبة ودفعت كتاب أوربا
الى الاعتراف بأن للحروب قانونا شاملا في الاسلام • وقد اعترف
« جوستاف لوبون » في كتابه « حضارة العرب » بذلك معلنا أن العالم
لم يعرف فاتحا أرحم من المسلمين • وبصدد تناول « جوستاف لوبون
لموضوع قتل أسرى المسلمين في الحروب الصليبية يقول : (١٨) »

« كان أول ما بدأ به ريكاردوس قلب الأسد الانجليزي ، أنه قتل
أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم اليه بعد أن قطع
على نفسه العهد بحققن دمائهم ، ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل
والسلب مما أثار صلاح الدين الأيوبي النبيل الذي رحم نصارى القدس
فلم يسهم بأذى ، والذي أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية
والأزواد أثناء مرضهما • » ، ويختم المؤلف قوله بأن « الهوة سحيقة
بين تفكير الرجل المقدس وعواطفه — يقصد صلاح الدين — وبين تفكير
الرجل المتوحش ونزواته » • وقد اتضح لنا من كلام الموردي ، أن
المسلمين لم يكونوا يقابلون معاملة أعدائهم الوحشية لهم بمثلها بل كانوا
يقولون دائما وفاء بغدر خير من غدر بغدر ، فمهما غدر الأعداء فلا يجب

(١٧) المصدر السابق ص ٤٢ •

(١٨) انظر : حضارة العرب لجوساف لوبون ترجمة عائِل زعتر

علينا أن نقابل غدرهم بغدر بل نقابل هذا الغدر بالوفاء لعهودنا ومثلنا ومبادئ شريعتنا .

وقد تطرقت القواعد التي ذكرها الماوردي ، والتي يصح لنا أن نسميها بقانون الحرب ، وهي القواعد التي تضمنتها أصلاً شريعة الاسلام النبيلة بما تتميز به من وجود نظام شامل للحرب يتسم بالرحمة والعدل وحسن المعاملة ، نقول تطرقت قواعد الماوردي الى القانون الدولي العام ، وليس ذلك بمستغرب خاصة اذا علمنا أن أغلب مؤلفات الماوردي السياسية قد ترجمت الى اللغات الأوروبية منذ مدة ، كما أن مؤلفاته موجودة بوفرة في مكتبات الدول الأجنبية وعلى سبيل المثال فرنسا وأسبانيا وألمانيا والهند . ومما هو معروف أن القواعد المنظمة للحرب قد بدأت في القانون الدولي الأوربي منذ ثلاثة قرون أخذاً عن الشريعة الاسلامية ، وظلت ادى أوربا قواعد عرفية بحثة حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حيث بدأت الدول في تدوينها في معاهدات (١٩) .

وقد ذكر البارون « ميشيل دي توب » أستاذ القانون الدولي بلاهاي في مجموعة دراساته ، جزء أول سنة ١٩٢٦ ، في أكاديمية القانون الدولي العام عن نفوذ الاسلام وتطرقه الى القانون الدولي ص ٢٩١ ، أن اعلان الحرب مبدأ اسلامي ، وأن الرحمة بالمحاربين ، وتجنيد غير المحاربين ويلات الحرب من النساء والزراع والشيوخ والأطفال وعدم تخريب أملاك العدو كل هذه قواعد اسلامية أثرت في القانون الدولي (٢٠) .

(١٩) راجع : كتاب الشريعة الاسلامية والقانون الدولي العام للهيستشار على منصور ص ٣٠١ .

(٢٠) انظر : كتاب علم الدولة لاحمد وفيق ص ٤٣٦ — ٤٣٩ وص ٤٦٨ .

الولاية على حروب المصالح

يقسم الماوردى الولاية على حروب المصالح الى ثلاثة أقسام (٢١) :
١ — قتال أهل الردة ، ٢ — و قتال أهل البغى ، ٣ — قتال
المحاربين وقطاع الطريق •

١ — قتال أهل الردة :

وأهل الردة هم المسلمون الذين ارتدوا عن دين الاسلام ، وسواء
فى ذلك ولدوا على فطرة الاسلام أو أسلموا عن كفر • وهؤلاء المرتدون
المبدلون لدينهم الى أى دين آخر سواء أكان ديناً سماوياً كاليهودية
والنصرانية أو ديناً وضعياً كالوثنية ، هؤلاء المرتدون لا يجب اقرارهم
على ردتهم بل يجب قتلهم • فإذا كانت ردتهم لشبهة وأمور غمضت
عليهم فى الدين ، فمن الواجب امهالهم لفترة زمنية (عدة أيام) ،
وتوضيح ما انتبه عليهم وما تعذر عليهم فهمه فى الدين حتى يتضح لهم
الحق من الباطل ، وفى هذه الحالة يجب على الخليفة قبول توبتهم ، وبهذا
يعودون الى حكم الاسلام كما كانوا أصلاً • وأما من أصر على رדתه ولم
يطلب التوبة وجب فى هذه الحالة قتله رجلاً كان أو امرأة • وإن كان
هناك خلاف فى المرتدة ، فأوجب بعضهم قتلها وبعضهم حبسها واجبارها
على الدين (٢٢) • ويقول : « الطرابلسى » فى ذلك : « أما المرتدة فلا
يجب قتلها ، ولكنها تحبس وتجبر على الاسلام • قال الحسن واجبارها
على الاسلام أن تحبس ثم يخرجها فى كل يوم فيعرض عليها الاسلام فان
أبت ضربها أسواطاً ثم يحبسها ، هكذا يفعل أبداً » (٢٣) • ولا يجوز اقرار
المرتد على رדתه بجزية ولا عهد ، ولا تؤكل ذبيحته ، ولا تنكح منه

(٢١) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٤١ •

(٢٢) نصيحة الملوك للماوردى — مخطوط — ورقة ٧٧ •

(٢٣) معين الحكم للطرابلسى ص ٢١٨ : والخراج لآبى يوسف ص ١١٠

امرأة • والشيوخ والرهبان وأصحاب الصوامع يقتلون بعد الردة
ولا يقتلون في الكفر الأصلي •

ويقول « السرخسي » في « المبسوط » : « قال صلى الله عليه وسلم من بدل دينه فاقتلوه • وهذا لأن المرتد بمنزلة مشركي العرب ، أو أغلظ منهم جنائية ، فانهم قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن نزل بلغتهم ، ولم يراعوا حق ذلك حين أشركوا ، وهذا المرتد كان من أهل دين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف محاسن شريعته ، ولم يراع ذلك حين ارتد • فكما لا يقبل من مشركي العرب الا السيف أو الاسلام فكذلك من المرتدين ، الا أنه اذا طلب التأجيل أجل ثلاثة أيام لأن الظاهر أنه دخل عليه شبهة ارتد لأجلها ، فعليها ازالة تلك الشبهة ، أو هو يحتاج الى التفكير ليتبين له الحق فلا يكون ذلك الا بمهلة ، فان استمهل كان على الامام أن يمهل ، ومدة النظر مقدرة بثلاثة أيام في الشرع ، فلهذا يمهل ثلاثة أيام لا يزيد على ذلك ، وان لم يطلب التأجيل يقتل من ساعته » (٢٤) وذلك لأن « المجنانية بالردة أغلظ من الجنانية بالكفر الأصلي ، فان الانكار بعد الاقرار أغلظ من الاصرار في الابتداء على الانكار في سائر الحقوق » (٢٥)

وعند الماوردي ، أن المرتد عن دين الاسلام اذا قتل لم يغسل ، ولم يصل عليه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين ، ويعتبر ماله في بيت مال المسلمين (٢٦) • وقتال أهل الردة ، يكون بعد انذارهم واعذارهم مقبلين ومدبرين • وليس على الرجال من أهل الردة ، ولا من عبدة الأوثان سبى ولا جزية ، وانما هو القتل أو الاسلام • ويعتبر في حكم أهل الردة

(٢٤) المبسوط ، للسرخسي ٩٨/١٠ ، وراجع ايضا : الخراج لابي يوسف ص ١١٠ .

(٢٥) المبسوط ١٠٩/١٠ .

(٢٦) الاحكام السلطانية لـ الماوردي ص ٥

الممتنعون عن أداء الزكاة لسلام العادل ، فى هذه الحالة يجرى عليهم حكم أهل الردة (٣٧) .

ولدار أهل الردة حكم تفارق به دار الاسلام ودار الحرب (٣٨) .

فأما ما تفارق به دار الردة دار الحرب فمن أربعة أوجه أحدها : أنه لا يجوز أن يهادنوا على المهادنة فى ديارهم ، ويجوز أن يهادن أهل الحرب .

الثانى : أنه لا يجوز أن يصلحوا على مال يقرون به على ردتهم ، ويجوز أن يصلح أهل الحرب .

والثالث : أنه لا يجوز استرقاقهم ولا سبى نسائهم ، ويجوز أن يسترق أهل الحرب وتسبى نساؤهم .

والرابع : أنه لا يملك الغنمون أموالهم ، ويملكون ما غنموه من مال أهل الحرب .

وأما ما تفارق به دار الردة ، دار الاسلام فمن أربعة أوجه

١ — وجوب قتالهم مقبلين ومدبرين كالمشركين .

٢ — أباحة دمائهم أسرى وممتنعين .

٣ — تصير أموالهم فيئا لكافة المسلمين .

٤ — بطلان مناكرتهم بمضى المدة .

٢ — قتال أهل البغى :

أهل البغى من المسلمين هم المخالفون لرأى الجماعة ، المبتدعون لمذهب ينفردون به ، وبعبارة أخرى ، الباغون هم « الذين يخرجون

(٣٧) المصدر السابق ص ٤٧ .

(٣٨) نفس المصدر السابق ص ٤٦ — ٤٧ .

عاهى المسلمين والأئمة العادلين متغلبين أو متأولين من أهه الملة » (٢٩) •
والبغاة جمع باغ والبغى فى اللغة الطلب ، بغيت كذا أى طلبته • والباغى
فى عرف الفقهاء الخارج على أمام الحق • وفى القاموس فئة باغية
خارجة عن طاعة الامام العادل (٣٠) •

وهناك عدة مواقف يجب اتخاذها بشأن أهل البغى (٣١) • فإذا
لم يخرج البغاة ، المخالفون فى رأيهم لرأى الجماعة ، على طاعة الامام
واعلنوا المعصية عليه ، ولم ينعزلوا فى مكان معين (أى تحيزوا بدار
واعترضوا فيها) وكانوا دائما فى متناول السلطة الحاكمة ، وفى هذه
الحالة يجب تركهم وشأنهم طالما أنهم لا يحدثون فتنة ، أو يثيرون
بليلة فى المجتمع ، وتجرى عليهم ، فى هذه الحالة ، أحكام العدل
فيما يجب عليهم من الحقوق والحدود • وقد روى عن النبى صلى الله
عليه وسلم أنه قال : « لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث : كفر
بعد ايمان ، أو زنا بعد احصان ، أو قتل نفس بغير نفس » •

ولو حدث واعتزلت هذه الفئة الباغية أهل العدل واختارت لها
مكانا معيننا تميزت فيه عن مخالطة الجماعة ، فينظر فى هذه الحالة فى
أمر هذه الفئة الباغية ، فإن وجد أنها لم تخرج عن طاعة الامام
ولم تعص له أمرا وأدت كل ما عليها من التزامات قبل الخليفة والمجتمع ،
عندئذ يجب عدم الاقدام على محاربتها « ما أةاموا على الطاعة وتأدية
الحقوق » • وقد اعتزلت طائفة من الخوارج عليا عليه السلام بالنهروان
فولى عليهم عاملا أقاموا على طاعته زمانا وهولهم مواع الى أن قتلوه ،
فأنفذ اليهم أن سلموا الى قاتله ، فأبوا وقالوا كلنا قتله ، قال
فاسئتسلموا الى أقتل منكم ، وسار اليهم فقتل أكثرهم » •

(٢٩) نصيحة الملوك للماوردى ورقة ٧٦ •

(٣٠) رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ٤٢٦/٣ •

(٣١) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٤٧ — ٤٨ •

واذا خرجت هذه الفئة الباغية على طاعة الامام، وأعلنت، العصيان عليه: ما نعين ما عليهم من الحقوق ومستقلين بجباية، لأموال وتنفيذ الأحكام، فان فعلوا ذلك، كما يقول الماوردي، ولم يقيموا لأنفسهم اماما، ولا قدموا عليهم زعيما، كان كل ما اجتنبوه من الأموال غصبا، وما نفذوه من الأحكام باطلا شرعا، لا يثبت به حق * وان فعلوا ذلك وقد نصبوا لأنفسهم اماما ينفذون الأحكام بأمره ويجتنبون بقوله الأموال، ففي كلتا الحالتين السابقتين يجب محاربتهم لينزعوا عن المباينة ويفيئوا الى الطاعة والى أمر الله * قال الله تعالى: « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل، وأقسطوا ان الله يجب المقسطين » *

ويقول « السرخسي » (٣٢) : « ينبغى لأهل العدل اذا لقوا أهل البغى يدعوهم الى العدل وهكذا روى عن علي رضي الله عنه أنه بعث ابن عباس رضي الله عنهما الى أهل حروراء حتى ناظرهم ودعاهم الى التوبة، ولأن المقصود ربما يحصل من غير قتال بالوعظ والانذار، فالأحسن أن يقدم ذلك على القتال * * وان لم يفعلوا فلا شيء عليهم لأنهم قد عملوا ما يقاتلون عليه » *

ويجب على الخليفة أو من يوليه الخليفة أميرا على قتال الممتنعين من أهل البغى قبل اقدامه على قتال الممتنعين من أهل البغى انذارهم وأن يدعوهم الى الرجوع الى الحق ويناظرهم فيما أدى بهم الى البغى مع اعطائهم مهلة يحتكمون فيها الى عقولهم، واذا أصرروا على البغى وجب قتالهم *

ويخالف قتال أهل البعى قتال المشركين والمرتدين من ثمانية أوجه (٣٣) :

١ — أن يقصد بالقتال ردعهم ولا يعتمد به قتلهم ، ويجوز أن يعتمد قتل المشركين والمرتدين •

٢ — أن يقاتلهم مقبلين ويكف عنهم مدبرين ، ويجوز قتال أهل الردة والحرب مقبلين ومدبرين •

٣ — أن لا يجهز على جريحهم ، وان جاز الاجهاز على جرحى المشركين والمرتدين •

٤ — أن لا يقتل أسراهم ، وان قتل أسرى المشركين والمرتدين •

٥ — أن لا يغنم أموالهم ولا يسبى ذراريهم • روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال منعت دار الاسلام ما فيها ، وأباح دار الشرك ما فيها •

٦ — أن لا يستعان لقتالهم بمشرك معاهد ولا ذمى ، وان جاز أن يستعان بهم على قتال أهل الحرب والردة •

٧ — أن لا يهادنهم الى مدة ولا يوادعهم على مال ، فان هادنهم الى مدة لم يلزمه ، فان ضعف عن قتالهم انتظر بهم القوة عليهم ، وان وادعهم على مال بطلت المودعة ونظر فى المال ، فان كان من فيئهم ومن صدقاتهم لم يرده عليهم ، وصرف الصدقات فى أهلها والفىء فى مستحقيه ، وان كان من خالص أموالهم لم يجز أن يملكه عليهم ووجب رده اليهم •

أن لا ينصب عليهم العرادات ، ولا يحرق عليهم المساكن ، ولا يقطع عليهم النخيل والأشجار ولأنها دار اسلام تمنع ما فيها •• ولا يجوز

أن يستمتع بدوابهم ولا سلاحهم ، ولا يستعان به فى قتالهم ويرفع اليد عنه فى وقت القتال وبعده .

ويغسل قتلى أهلى البغى ويصلى عليهم ، ومنع أبو حنيفة الصلاة عليهم عقوبة لهم ، وليس على ميت فى الدنيا عقوبة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فرض على أمتى غسل موتاهم والمصلاة عليهم .

٣ - قتال قطاع الطريق :

وقطاع الطريق ومخيفوا السبيل هم طائفة محاربة فاسدة اجتمعت على أخذ أموال المسلمين ، وقتل النفوس ، ومنع السابلة وشهر السلاح تخويفا لهم . وقد قال الله تعالى فى شأن هذه الطائفة : « إنما جزاء الذين يجاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » . ويقول الامام « السرخسى » فى حكم هذه الآية : « يقطع الامام أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى من خلاف أو يصلبهم ان شاء ، وانما شرطنا أن يكونوا قوما لأن قطاع الطريق محاربون بالنص والمحاربة عادة من قوم لهم منعة وشوكة يدفعون عن أنفسهم ويقوون على غيرهم بقوتهم ولأن السبب هنا قطع الطريق ولا ينقطع الطريق الا بقوم لهم منعة » (٣٤) . ويقول « الطحاوى » رحمه الله ، الرجال والنساء فى حق قطاع الطريق سواء ، كما يستويان فى سائر الحدود (٣٥) .

ويقول الماوردى ، ان العلماء اختلفوا فى اقامة الحدود على طائفة قطاع الطريق هؤلاء ، وهم فى ذلك على ثلاثة مذاهب (٣٦) :

(٣٤) المبسوط للشرخسى ٩٥/٩ .

(٣٥) المصدر السابق ٩٧/٩ .

(٣٦) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٥٠ - ٥١ ، ونصيحة الملوك ورقة ٧٦ .

(م ٢٣ - الماوردى)

المذهب الأول : والمقاتلون بهذا المذهب سعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء وابراهيم النخعي ، وعندهم أن الامام مخير هو ومن اختاره من الولاة على قتالهم بين أن يقتل ولا يصلب ، وبين أن يقتل ويصلب ، وبين أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وبين أن ينقتلهم من الأرض .

والمذهب الثاني : قال به مالك بن أنس وطائفة من فقهاء المدينة ، واقامة الأحكام عندهم مرتبة باختلاف الصفات لا باختلاف الأفعال : فمن كان منهم ذا رأى وتدبير قتل الامام ولم يعف عنه ، ومن كان ذا بطش وقوة قطع يده ورجله من خلاف ، ومن لم يكن منهم ذا رأى ولا بطش عزره وحسبه .

والمذهب الثالث : قال به ابن عباس والحسن وقتادة والستدي ، وهو مذهب الشافعي رضى الله عنه ، واقامة الحدود عندهم مرتبة باختلاف أفعال قطاع الطريق لا باختلاف صفاتهم : فمن قتل وأخذ المال قتل وصلب ، ومن قتل ولم يأخذ المال قتل ولم يصلب ، ومن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف ، فعلى قدر الجناية تكون العقوبة اذن . وقال أبو حنيفة ان قتلوا وأخذوا المال ، فالامام بالخيار بين قتلهم ثم صلبهم ، وبين قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ثم قتله .

ويخالف قتال قطاع الطريق ومخيفوا السبيل قتال أهل البغى من خمسة أوجه (٣٧) :

١ - أنه يجوز قتالهم مقبلين ومدبرين لاستيفاء الحقوق منهم ، ولا يجوز اتباع من ولي من أهل البغى .

٢ - أنه يجوز أن يعتمد فى الحرب الى قتل من قتل منهم ، ولا يجوز أن يعتمد الى قتل أهل البغى .

٣ — أنهم يؤخذون بما استهلكوه من دم ومال فى الحرب وغيرها ،
بخلاف أهل البغى •

٤ — أنه يجوز حبس من أسر منهم لاستبراء حاله ، وإن لم يجر
حبس أحد من أهل البغى •

٥ — أن ما اجتنبوه من خراج وأخذوه من صدقات فهو كالأخذ
غصبا نهبا لا يسقط عن أهل الخراج والصدقات حقا فيكون عزمه عليهم
مستحقا •

ويجرى على المحاربين وقطاع الطريق فى الأمصار حكم قطاعه فى
الصحارى والأسفار ، وكما تقدم ذكره فإن العقوبة دائما تتوقف على
مقدار الجناية وحجمها •

* * *

الفصل السابع

ولاية القضاء

- ١ — التعريف بالقضاء •
- ٢ — وظيفة القاضي •
- ٣ — الشروط الواجب توافرها في القاضي •
- ٤ — تعيين القضاة وعزلهم •
- ٥ — اجتهاد القاضي •
- ٦ — قضاء المقلد بغير مذهبه •
- ٧ — آداب القضاء •

التعريف بالقضاء :

القضاء هو قطع الخصومة ، وهو قول ملزم صدر من ولاية عامة .
والقضاء بالحق من أقوى الفرائض بعد الإيمان بالله تعالى وهو أشرف
العبادات (١) ، وهو أفضل مظهر يتمثل به العدل . ويقول أرسطو
فى العدل : أن به قوام العالم . والقاضى اسم لكل من قضى بين اثنين ،
وحكم بينهما ، ويقال قضى القاضى أى ألزم الحق أهله ، والدليل على
ذلك قوله تعالى : « فاقض ما أنت قاض » أى ألزم بما ثبتت واصنع
ما بدا لك . وفى المدخل لابن طلحة الأندلسى : (٢) « القضاء معناه
الدخول بين الخلق والخالق ليؤدى فيهم أوامره وأحكامه بواسطة الكتاب
والسنة » . والحكم فى اللغة القضاء أيضا ، واستنقضى فلان جعل قاضيا
يجكم بين الناس ، ومن هنا أيضا يسمى الحاكم حاكما لمنعه الظالم
من ظلمه .

والقضاء فرض الأصل فيه قوله تعالى : « يا داود انا جعلناك
خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق » (الآية ٢٦ من سورة ص
رقم ٣٨) ، وقوله مخاطبا النبى صلى الله عليه وسلم « فاحكم بينهم
بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » (الآية ٤٨ من سورة
المائدة رقم ٥) ، وقول الرسول صلوات الله عليه : « اذا اجتهد الحاكم
فأصاب فله أجران واذا اجتهد وأخطأ فله أجره ، وما روته السنييدة
غائصة من أن الرسول قال : « هل تدرون من السابقون الى ذلك الله يوم
القيامة قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : الذين اذا أعطوا الحق قبلوه ،
واذا سئلوه بذلوه ، واذا حكموا للمسلمين حكموا لأنفسهم » .

(١) المبسوط للرخسى ٥٩/١٦ .

(٢) تبصرة الحكام لابن فرحون ٨/١ .

ترغيب السنة عن القضاء :

ولخطورة منصب القضاء ، ورفعة شأنه ، فقد احتوت السنة الشريفة على أحاديث ترغب وتحذر من الدخول في ولاية القضاء . وإذا تأملنا أغلب هذه الأحاديث لتأكد لنا أنها في حق قضاة الجنور العلماء أو الجهال وهم الذين لا يحسنون تطبيق الأحكام على الوقائع . ومن هذا ما روى من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : القضاء ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاضى في الجنة . قاض عمل بالحق في قضائه فهو في الجنة ، وقاض علم الحق فجار متعمدا فذلك في النار ، وقاض قضى بغير علم واستحيا أن يقول انى لا أعلم فهو في النار . وقال علي بن أبى طالب رضى الله عنه « ويل لقاضى الأرض من قاضى السماء حين يلقاه الا من عدل وقضى بالحق ، ولم يحكم بالهوى ، ولم يمل مع أقاربه ، ولم يبدل حكما بخوف أطمع ، لكن يجعل كتاب الله مرآته ونصب عينيه ويحكم بما فيه » (٣) .

ويقول « ابن فرحون » في « تبصرته » (٤) : « وأكثر المؤلفين دن أصحابنا وغيرهم بالغوا في التهريب والتحذير من الدخول في ولاية القضاء ، وشددوا في كراهية السعى فيها ، ورغبوا في الاعراض عنها والنفور والهرب منها ، حتى تقرر في أذهان كثير من الفقهاء والصلحاء ، أن من ولي القضاء فقد سهل عليه دينه وألقى بيده الى التهلكة ، ورغب عما هو الأفضل وساء اعتقادهم فيه ، وهذا غلط فاحش يجب الرجوع عنه والتوبة منه ، والواجب تعظيم هذا المنصب الشريف ، ومعرفة مكانته من الدين فيه بعثت الرسل ، وبالقيام به قامت السموات والأرض وجعله النبي صلى الله عليه وسلم من النعم التي يباح الحسد عليها . »

(٣) التبر المسبوك تلغزالي ص ١٢ .

(٤) التبصرة ٨/١ — ٩ .

.. وكثيرا ما امتنع الفقهاء والأئمة ، قديما عن تولي منصب القضاء ،
ونُخص منهم بالذكر أبى حنيفة ، والامام احمد بن حنبل . فيروى أن أبى
حنيفة لما أراده أبى هبيرة — والى العراق — من قبل بنى أمية — على
قضاء الكوفة رفض وأصر على رفضه رغم حبسه وضربه بالسوط حتى
تورم رأسه . ويرفض الامام احمد بن حنبل أيضا قضاء اليمن عندهما
غرض عليه ، على الرغم من فقره . ويروى ابن الجوزى فى المناقب ، أنه
(أى ابن حنبل) لما طلب منه شيخه الامام الشافعى أن يقبل قال له :
« يا أبى عبد الله ان سمعت منك هذا ثانية لم ترنى عندك » وأخذ عته
مريدوه هذا الاتجاه فامتنعوا عن القضاء ، ولعل هذا كان أحد أسباب
عدم ذيوع هذا المذهب وانتشاره (٥) .

ولعل هناك من الأسباب ما يمكن أن نرجع اليها رفض بعض الأئمة
لتولي منصب القضاء كالبعد عن سلطان الحاكم ، أو خشية الوقوع فى
ظلم أحد ، أو عدم القدرة على نصفه أحد . ومع كل ذلك فإن الأحاديث
النبوية الشريفة أوضحت فضل القضاء ، وأنه من النعم التى يباح
الحسد عليها . جاء فى حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال : « لا حسد الا فى اثنتين ، رجل أتاه الله ما لا فىسلطه
على هلكته فى الحق ، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعمل
بها » . وروى السيدة عائشة عن الرسول أنه قال : « هل تدرون من
السابقون الى ظل الله يوم القيامة قالوا : الله ورسوله أعلم . قال :
الذين اذا أعطوا الحق قبلوه ، واذا سئلوه بذلوه ، واذا حكموا للمسلمين
حكموا كحكمهم لأنفسهم ... » .

وفى الصدر الأول للإسلام اجتمع القضاء والولاية فى يد واحدة ،
أى أنه لم يكن هناك فاصل بين السلطتين التنفيذية والقضائية ، ويؤخذ

(٥) راجع : القضاء فى الاسلام للاستاذ محمد سلام مذكور ص ١١
وما بعدها .

هذا من قول على رضى الله عنه : « فان رضيتم فهو القضاء والا حجزت بعضكم عن بعض ... الخ » ويوضح لنا التاريخ أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أول قاض فى الاسلام ، وقد تولى القضاء بنفسه ، ولما انتشرت الدعوة الاسلامية عهد بها الى غيره من صحابته وذلك ضمن توليتهم الشئون العامة ، وكذلك كان شأن الخلفاء الراشدين من بعد الرسول ، فكان الخليفة يتولى سلطة القضاء ، وذلك لأن الخلافة نيابة عن صاحب الشرع فى الدعوة الى الدين وسياسة أمور الناس به ، ومن مقتضيات أمور الخلافة أن تكون له سلطة القضاء ، وفى بعض الأحيان كان الخليفة يعهد بمهمة القضاء الى غيره . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « القضاء من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس فى الخصومات حسما للتداعى وقطعا للتنازع ، الا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة ، فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجا فى عمومها . وكان الخلفاء فى صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجطأون القضاء الى من سواهم ^(٦) » .

ولكن مع اتساع أعمال المملكة الاسلامية ، وتشعب أعمال الولاية ، اضطر الخلفاء الأول الى أن يتنازلوا عن سلطاتهم القضائية الى قاض كان يشرف بنفسه على تطبيق القوانين المختلفة . ويعتبر الخليفة عمر بن الخطاب أول من فصل القضاء عن الولاية ، وعين للقضاء أشخاصا غير الولاية ، ففصل بذلك بين السلطتين التنفيذية والقضائية ، فولى أبا الدرداء معه قضاء المدينة ، وولى القاضى شريحا قضاء البصرة ، وأبا موسى الأشعري قضاء الكوفة ، وعثمان بن قيس بن أبى العاص بمصر ، ويروى أنه قال لواحد من قضاته : « رد عنى الناس فى الدرهم والدرهمين » . ومن هنا يتضح لنا أنه قد أصبح للقضاء ولاية يزاولونه ، ولا يزاولون غيره من أعمال الحكم والادارة .

(٦) راجع : القضاء فى الاسلام للاستاذ محمد سلام مذكور ض ٢٦ .

والقضاء عند الماوردى جزء من الولاية العامة ، وذلك لأن الولايات التى يستخلف الامام عليها ، وقد سبق ذكر ذلك : أربعة :

- ١ — من تكون ولايته عامة فى أعمال عامة وهم الوزراء •
- ٢ — ومن تكون ولايته عامة فى أعمال خاصة وهم أمراء الأقاليم والبلدان •
- ٣ — ومن تكون ولايته خاصة فى الأعمال العامة كقاضى القضاة ونقيب الجيش وجابى الصدقات لأن كل واحد منهم مقصور على نظر خاص فى جميع الأعمال •
- ٤ — من تكون ولايته خاصة فى الأعمال الخاصة كقاضى بلد أو اقليم •

ومن هنا فانه كان يحق لصاحب هذه الولاية أن يخصص القاضى ببعض أنواع القضايا دون غيرها ، ولذا فان ابن الخطاب حينما خصص أفرادا للقضاء جعل قضاءهم قاصرا على فصل الخصومات المالية ، أما الجنائيات ما يتعلق منها بالقصاص أو بالحدود فانها بقيت فى عهد الخلفاء فى يد الخليفة وولاية الأمصار (٧) •

وظيفة القاضى :

اقتصرت وظيفة القاضى — فى صدر الاسلام — على مهمة الفصل بين خصومات المتنازعين ، ثم اشتملت وظيفة القاضى بعد ذلك على مهام أخرى متعددة • ووظيفة القاضى عند الماوردى تشتمل على عشرة احكام (٨) :

(٧) راجع : القضاء فى الاسلام للاستاذ محمد سلام مذكور ص ٢٦ •

(٨) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٥٩ — ٥٩ ، وراجع أيضا : المقدمة لابن خلدون ٢ / ٧٤٠ — ٧٤١ ، وايضا : الطرق الحكيمة فى السياسة الشرعية لابن القيم الجوزية مطبعة الآداب بمصر ١٣١٧ هـ ص ٢١٩ •

- ١ — فصل المنازعات : وقطع ، المتشاجر والخصومات . *
- ٢ — استيفاء الحقوق ممن مظل بها وإيصالها إلى مستحقها بعد ثبوت استحقاقها من أحد وجهين اقرار أو بينة . *
- ٣ — ثبوت الولاية على من كان مملوكا للتصرف بجنون أو صغر ، والحجر على من يرى الحجر عليه لسلف أو فلس حفظا للأموال على مستحقها ، وتصحيحا لأحكام العقود فيها . *
- ٤ — النظر في الأوقاف بحفظ أصولها وتنمية فروعها والتبعض عليها وصرفها في سبيلها فان كان عليها مستحق للنظر فيها راعاه وان لم يكن تولاه . *
- ٥ — تنفيذ الوصايا على شروط الموصي فيما أباحه الشرع ، ولم يحظره . * * * * * فان كان فيها وصى راعاه ، وان لم يكن تولاه . *
- ٦ — تزويج الأيامي بالإكفاء اذا عد من الأولياء ، ودعين البسي البكاج ، ولا يجعلن أبو حنيفة رضى الله عنه من حقوق ولايته بتجويره بفرد الأيم بعقد النكاح . *
- ٧ — اقامة الحدود على مستحقينها فان كان من حقوق الله تعالى تفرد باستيفائه من غير طالب اذا ثبت باقرار أو بينة ، وان كان من حقوق الآدميين كان موقوفا على طلب مستحقه . * وقال أبو حنيفة لا يستوفيهما معا الا بخصم مطالب . *
- ٨ — النظر في مصالح عمله من الكف عن التعدي في الطرقات والأفنية وإخراج ما لا يستحق من الاجنحة والأبنية وله أن يفرد بالنظر فيها الا بحضور خصم مستعد . *
- ٩ — تصفح شهوده وأمنائه واختيار النائين عنه من خلفائه في أقرارهم والتعويل عليهم مع ظهور السلامة والاستقامة وصرفهم والاستبدال بهم مع ظهور الجرح والخيانة . *

١٠ — التنبؤية في الحكم بين القوى والضعيف، والعدل في القضاء بين المشروف والشريف ، ولا يتبع هواه في تقصير الحق أو ممايلة المبطل . قال الله تعالى : « يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب . »

الشروط الواجب توافرها في القاضي :

ولأهمية منصب القضاء في الاسلام ، وكونه من المراتب العظيمة الأهمية ، الوثيقة الصلة بالجمهور ، والتي لها مباس مباشر بخيرية الأشخاص وبأموالهم ، فقد اشترط الفقهاء فيمن يولى القضاء شروطا كثيرة ، فمن الفقهاء من قال انه يشترط خمسة عشر شرطا ، ومنهم من قال سبعة شروط ، ومنهم من قال انها ثلاثة (٩) . وعند الماوردي أنه لا يجوز أن يقلد القضاء الا من تكاملت فيه شروطه . والشروط التي يشترط توافرها في القاضي ، عند الماوردي ، سبعة (١٠) :

الشرط الأول : « أن يكون رجلا ، وهذا الشرط يجمع بين صفتين البلوغ والذكورية . فأما الباونغ ، فان غير البالغ لا يجري عليه قلم ، ولا يتعلق بقوله على نفسه حكم ، وكان أولى أن لا يتعلق به عابى غيره حكم . وأما المرأة فلنقص النساء عن رتب الولايات . . . وقال أبو حنيفة يجوز أن تقضى المرأة فيما تصح فيها شهادتها ، ولا يجوز أن تقضى فيما لا تصح فيه شهادتها . وشذ ابن جرير الطبري فجوز قضاءها في جميع الأحكام . »

(٩) الخطيب عنى أبى شجاع ج ٤ ص ٣٢٢ (اعتبرها خمسة عشر شرطا) وابن قدامة في المغنى ٣٩/٩ ، (اعتبرها سبعة شروط) ، وقد تناولها أيضا : النسموقى على الدردير ١٢٠/٤ ، والبدائع ج ٧ ص ٣ ، والفتاوى الهندية ٣٠٧/٣ . والعتد الفريد للملك السعيد في سائم محمد الوزير ص ١٦٦ — ١٦٧ ، وتبصرة احكام لابن فرحون ١٨/١ ، و ص ٢١ — ٢٢ .

(١٠) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٥٣ — ٥٤ .

ومعنى أن يكون القاضى رجلا ، هو أن النصبى لا يصح له أن يولى القضاء ، كما لا يصح قضاء المرأة عند الأئمة الثلاثة ، وخالف فى ذلك الحنفية وقالوا : يصح أن تكون المرأة قاضيا فى كل شئ تقبل فيه شهادتها ، كما تصح عندهم شهادة النساء فى كل شئ فيما عدا الحدود والقصاص • وفى الهداية والفتح والعناية^(١١) عليها :

« ويجوز قضاء المرأة فى كل شئ الا فى الحدود والقصاص اعتبارا بشهادتها فيهما • اذ حكم القضاء يستقضى من حكم الشهادة اذ كل منهما من باب الولاية ، وهى أهل للشهادة فى غير الحدود والقصاص » • وفى البدائع^(١٢) : « وأما الذكورة فليست من شرط جواز التقليد للقضاء فى الجملة ، لأن المرأة من أهل الشهادة فى الجملة ، الا أنها تقضى فى الحدود والقصاص لأنه لا شهادة لها فى ذلك ، وأهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة » • وفى « معين الحكام » للطرابلسي^(١٣) : « أن كل من تقبل شهادته فى أمر جاز أن يكون حكما فيه والمرأة تصلح حكما » • وكل من يصلح شاهدا يصلح قاضيا » •

الشرط الثانى : « لا يكتفى فيه بالعقل الذى يتعلق به التكليف من علمه بالمدركات الضرورية حتى يكون صحيح التمييز جيد الفطنة ، بعيدا عن السهو والغفلة ، يتوصل بذكائه الى إيضاح ما أشكل وفصل ما أعضل » •

وهنا نجد أنه لا يكفى أن يكون القاضى عاقلا ، بل يجب أن يضاف الى ذلك كون القاضى صحيح التمييز جيد الفطنة ، بعيدا عن السهو والغفلة ، يتوصل بذكائه الى إيضاح ما أشكل • ويقول الأستاذ « رانسون » : « ان الاستقلال فى التفكير والحرية فى الرأى وعدم

(١١) فتح التدبير ٥/٨٥ •

(١٢) ج ٧ ص ٣ •

(١٣) معين الحكام للطرابلسي ص ٢٧ •

التأثر بأى عامل نفسانى من شهوة أو هوى أو طمع ، تلك هى دعاية الأحكام التى يجب أن يطاطبها القاضى رأسه أمام عظمتها كما يطاطبها أمام أية عظمة مشروعة » (١٤) .

المشريط الثالث : « الحرية ، لأن نقص العبد عن ولاية نفسه يمنع من انعقاد ولايته على غيره ، ولأن الرق لما منع من قبول الشهادة كان أولى أن يمنع من نفوذ الحكم وانعقاد الولاية * ولا يمنعه الرق أن يفتى كما لا يمنعه الرق أن يروى لعدم ولايته فى الفتوى والرواية » .

أى أن الماوردى يشترط أن يكون القاضى حراً ، وذلك لأن العبد طالما أنه لا يملك الولاية على نفسه ، فمن باب أولى لا يملكها على غيره .

المشريط الرابع : « الاسلام ، لكونه شرطاً فى جواز الشهادة مع قول الله سبحانه « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » * ولا يجوز أن يقلد الكافر القضاء على المسلمين ولا على الكفار ، وقال أبو حنيفة يجوز تقليده القضاء بين أهل دينه ، وهذا وإن كان عرف الولاية بتقليده جارياً فهو تقليد زعامة ورئاسة وليس بتقليد حكم وقضاء وإنما يلزمهم حكمه لالتزامهم له لا للزومه لهم * * وإذا امتنعوا عن تحاكمهم إليه لم يجبروا عليه ، وكان حكم الاسلام عليهم أنفذ » .

فهنا يشترط الماوردى كون القاضى مسلماً لأنه لا يجوز لغير المسلم مطابقاً القضاء بين المسلمين لقوله تعالى « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » * ولكن الأحناف يذهبون الى أنه يجوز تقليد غير المسلم القضاء على غير المسلمين لأن أهلية القضاء بأهلية الشهادة ، والذمى أهل للشهادة على الذمى ، ولا خير فى هذا عندهم لأن القضاء يتخصص

(١٤) . فن القضاء للاستاذ ج ، رانسون ترجمة الاستاذ محمد رشدى طبعة

بالأقضية • وقد أجاز الحنابلة وشريح والنخعي والأوزاعي وابن مبيعود ، وأبو مؤننى والظاهرية والامامية ^(١٦) قبول شهادة غير المسلم في وصية المسلم حال السفر ، ولعلمهم في هذا لاحظوا الضرورة ، واستنبطوا حكمهم هذا من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذو عدل منكم ، أو آخران من غيركم أن أنتم ضربتم في الأرض فأصابنكم مصيبة الموت » • وقال ابن عباس (من غيركم) أي من أهل الكتاب عند الضرورة • وعلى ذلك كان جواز شهادة غير المسلم على المسلم في المسائل الدينية ونحوها ، ولكنها لم تجوز في مسائل الأحوال الشخصية كالطلاق ونحوه •

الشرط الخامس : « العدالة : وهي معتبرة في كل ولاية ، والعدالة أن يكون صادق اللهجة ، ظاهر الأمانة ، عفيفا عن المحارم ، متوقفا المآثم ، بعيدا عن الريب ، مأمونا في الرضا والغضب ، مستعملا لمروءة مثله في دينه ودنياه ، فإذا تكاملت فيه فهي العدالة التي تجوز بها شهادته وتصح معها ولايته ، وإن انخرم منها وصف منع من الشهادة والولاية فلم يسمع له قول ولم ينفذ له حكم » •

والعدل هو اعطاء كل ذي حق حقه • وهو مصدر بمعنى العدالة ، أي الاعتدال والاستقامة والميل إلى الحق • وقال عليه الصلاة والسلام من حكم بين اثنين تجاكما إليه وارتضياه فلم يقض بينهما بالحق فعليه لعنة الله ويقول « لاروش » : « أن أريسطو في كتابه ديموندو Demundo يريد أن يشرب القاضي الشاب منذ حداثة عهده جب العدل وأن يسلك سنبله » • (١٧) وذلك لأن القاضي العدل هو رجل ذو انسانية مع الحزم • فإذا جلس للقضاء امتنع عليه الإحتياج والغيط كما امتنع عليه الميل إلا في حالتين الخير والحق (١٨) •

(١٦) المغنى ١٨٣/٩ — ١٨٤ ، والمحلى لابن حزم ٤٠٥/٩ •

(١٧) من مقدمة المسيو ريهوند بونكارية لكتاب : فن القضاء للاستاذ

ج : رالفسون القاضي في محكمة التسين ترجمة لمستشار محمد رشدي ص ٧ •

(١٨) المصدر السابق ص ٨٧ •

وقيل يجوز أن يكون القاضى فاسقا ، والمراجع عند الأحناف أن قضاء الفاسق نافذ ما دام موافقا لأحكام الشرع ، والقوانين الموضوعية له ، حتى مع وجود من هو أصلح منه ، ولذا فإن الكاساني^(١٩) يقول ان المعدالة عندنا ليست بشرط لجواز التقليد ، ولكنها شرط للكمال ، فيجوز تقليد الفاسق وتنفيذ قضاياه اذا لم يجاوز فيها حد الشرع . والفاسق عند الشافعى لا يجوز أن يكون قاضيا ، وذلك لأن الفاسق عنده ليس من أهل الشهادة *

الشرط السادس : « السلامة فى السمع والبصر ، ليصح بهما اثبات الحقوق ويفرق بين الطالب والمطلوب ، ويميز المقر من المنكر ليميز له الحق من الباطل . . فان كان ضريرا كانت ولايته باطلة ، وجوزها مالك كما جوز شهادته . . فأما سلامة الأعضاء فغير معتبرة فيه ، وان كانت معتبرة فى الامامة فيجوز أن يقضى ، وان كانت السلامة من الآفات أهيب لذوى الولاية » *

فالشرط هنا واضح وهو سلامة حاستى السمع والبصر ، فالاصم لا يسمع كلام الخصمين ، والأعمى لا يميز أو يتكشف الخصوم . وقالوا :^(٢٠) انه يجب أن يكون سميعا ولو بصياح فى أذنه ، بصيرا لأن الأعمى لا يعرف الطالب من المطلوب ، ويجوز تولية الأعور ومن يبصر نهارا فقط ، وجوز بعض أصحاب الشافعى أن يكون القاضى ضريرا ، وقد جوز ذلك مالك أيضا ، كما سبق ذكر ذلك . أما سلامة باقى الأعضاء فليست بشرط ، فيجوز أن يتولى القضاء مقعدا أو مبتورا الذراع *

والشرط السابع : والأخير عند الماوردى ، : « أن يكون عالما بالأحكام الشرعية ، وعلمه بها يشتمل على علم أصولها والارتياض بفروعها . وأصول الأحكام فى الشرع أربعة : أحدها : علمه بكتاب الله

(١٩) البدائع ج ٧ ص ٣ .

(٢٠) المغنى لابن قدامة ٤٠/٩ ، والخطيب على أبى شجاع ٣٢٤/٤ .

(م ٢٤ — الماوردى)

عز وجل الذى تصح به معرفة ما تضمنه من الأحكام ناسخا ومنسوخا
قاهكها وميشابها وعموما وخصوصا ومجملا ومفسرا • والثانى : علمه
بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة من أقواله وأفعاله وطرق
مجيئها فى التواتر والآحاد والصحة والفساد وما كان على سبيل إن
طلاق • والثالث : علمه بتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه ، واختلفوا فيه
ليتبع الاجماع ، ويجتهد برأيه فى الاختلاف • والرابع : علمه بالقياس
الموجب لرد الفروع المسكوت عنها الى الأصول المنطوق بها والجميع
عليها • فاذا أحاط علمه بهذه الأصول الأربعة فى أحكام الشريعة صار
بها من أهل الاجتهاد فى للذين وجاهزة أن يفتى ويقضى • • وأن أخل
بها أو بشىء منها خرج من أن يكون من أهل الاجتهاد ، فلم يجوز أن
يفتى ولا أن يقضى • • وحور أبو حنيفة تقليد القضاء من ليس من أهل
الاجتهاد ليستفتى فى أحكامه وقضاياه والذى عليه جمهور الفقهاء أن
ولايتة باطلة وأحكامه مردودة » •

ويجوز عند الأحناف تولية المقلد لأحد المذاهب ولاية القضاء ،
وهذا خلافا لما يذهب اليه الماوردي وجمهور الفقهاء من بطلان ولايته •
وفى الهداية والعناية والفتح : « الصحيح أن أهلية الاجتهاد ليست
شروطا للولاية بل للألوية فأما تنصيب الجاهل فصحيح عندنا • • لأن
المقصود من القضاء هو أن يصل الحق الى المستحق ، وذلك كما يحصل
بالاجتهاد يحصل بالتقليد والقضاء بفتوى الغير » • ويقول الكاسانى :
« لو قلد السلطان فى القضاء جاهلا جاز عندنا لأنه يقدر على القضاء
بالحق بعلم غيره بالاستفتاء من الفقهاء (٢١) ، فالعدالة والاجتهاد كما
يرى الأحناف شرطاً كمال • ولكنه انتصح لنا من كلام الماوردي السابق
أنه يشترط فى القاضي أن يكون عارفا بأسرار التشريع ، وأن يكون
مجتهدا ، لا مقلدا غيره فى تفسير ولا تأويل •

(٢١) البدائع ج ٧ ص ٣ ومثل ذلك أيضا فى الفتاوى الهندية وسائر

كتب الأحناف •

ويقول الاستاذ « ج • رانسون » القاضى فى محكمة السين :
« ولكى يكون القاضى جديرا بأن يسمى قاضيا يجب أن تتوفر فيه الشروط
الآتية : النزاهة التامة ، والاستقلال المطلق ، وسعة الصدر ، وضبط
النفس والذكاء • وتلك مواهب طبيعية • وأن يكون متمكنا من العلوم
القانونية ومعرفة تطبيقاتها وأن يكون دائم النظر فى أحوال الانسان
وفى نفسه هو على وجه الخصوص • وأن يكون فيلسوفا اجتماعيا واسع
الاطلاع هادىء الفكر متواضعا • وتلك هى فضائل أخرى لازمة له • فاذا
أضيف إليها قدرته على مقاومة أهوائه وإصلاح ذات نفسه كان قمينا
بأن يسمى قاضيا » (٢٢) •

وعن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى قال : « اذا كان شئ
القاضى خمس خصال فقد كمل ، فقال قائل : ما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال :
علم بما كان قبله • ونزهة (من النزاهة) عن الطمع • وحلم على
الخصم • واستخفاف باللائمة • ومشاورة أولى الرأى » •

تعيين القضاة :

فرضت الشريعة الاسلامية تعيين القضاة للفصل بين الناس • وكان
الامام يتولى أمر السلطة القضائية فى أول الأمر الى جانب السلطة
التنفيذية • ولكن بعد اتساع رقعة الدولة الاسلامية ، أصبح من المتعذر
على الامام (الخليفة) أن يباشر بنفسه جميع السلطات فى الدولة ،
ومن هذه السلطات السلطة القضائية ، ومن هنا تحتم على الامام الانابة
فى ولاية القضاء ، وتولية قضاة عليها • والأصل أن يعين الخليفة
القضاة ، ويبين لهم مدى اختصاصهم ، وهنا نجد أن الامام كان تارة
يتولى حقه بنفسه ويعين رجال القضاء ، وتارة يكل هذا التعيين الى ولاية
الأمصار ، وخاصة عندما رغب الخليفة — كما سبق القول — فى التفرغ
لأمور البلاد السياسية والحربية • ويدل على هذا ما جاء فى عهد على

(٢٢) عن القضاء للاستاذ ج • رانسون ترجمة المستشار محمد رشدى

ابن ابى طالب الى الأشر النخعى حين ولاه مصر اذ يقول له : « تم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا يمحكه الخصوم » الى آخر ما جاء فيه (٢٣) . وأيا ما كان فانه لا بد من تولية الخليفة أو نائبه للقاضى ، فاذا اجتمع أهل بلدة وقلدوا القضاء لرجل بلا اذن الامام (أو نائبه) لا يجوز ولا يصير قاضيا (٢٤) ، وتبطل هذه التولية للقضاء أيضا اذا قام بها القاضى لنفسه . ولا يمنع نصب القضاة الخليفة أن ينظر بنفسه فى بعض الخصومات ، وذلك لأن الخليفة هو صاحب السلطة القضائية ، والقضاة انما يعملون بالنيابة عنه .

وتنعتقد ولاية القضاء ، عند الماوردى ، مشافهة باللفظ ، كما تنعتقد بالكتابة (٢٥) ، وهى اما عامة مطلقة تشمل الفصل فى جميع المنازعات ، أو خاصة تشمل الفصل فى بعض المنازعات ، والألفاظ التى تنعقد بها الولاية ضربان : صريح وكناية . والألفاظ الصريحة التى تنعقد بها الولاية أربعة : قلدتك ، ووليتك ، واستخلفتك ، واستنبتك . فاذا أتى بأحد هذه الألفاظ انعقدت ولاية القضاء ، وغيرها من الولايات .

وأما ألفاظ الكناية ، أو الألفاظ الضمنية ، فهى سبعة ألفاظ : قد اعتمدت عليك ، وعولت عليك ، ورددت اليك ، وجعلت اليك ، وفوضت اليك ، ووكلت اليك ، وأسندت اليك . ولا بد أن يقترن بهذه الألفاظ ما ينفى عنها الاحتمال فتصير مع ما يقترن بها فى حكم الصريح مثل قوله فانظر فيما وكلته اليك واحكم فيما اعتمدت فيه عليك ، فتصير الولاية منعقدة ثم تمامها موقوف على قبول المولى .

(٢٣) راجع : السياسة الشرعية للاستاذ عبد الوهاب خلاف ص ٤٩ .

(٢٤) كتاب سلف الملوك واحكام لابی عبد الله الكافيجى — مخطوط — ص ٣٤ . وأيضا الفتاوى الهندية ٣ / ٣١٥ .

(٢٥) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٥٦ — ٥٧ .

ولتمام ولاية القضاء ، عند الماوردى ، أن يقتترن بلفظ التقليد
أربعة شروط (٢٦) :

١ — معرفة المولى للمولى بأنه على الصفة التى يجوز أن يولى معها ،
فان لم يعلم أنه على الصفة التى تجوز معها تلك الولاية لم يصح
تقليده •

٢ — معرفة المولى بما عليه المولى من استحقاق تلك الولاية بصفاته
التى يجسر بها مستحقا لها وأنه قد تقادها وصار مستحقا للانابة فيها •

٣ — ذكر ما تضمنه التقليد من ولاية القضاء أو امارة البلاد أو
جباية الخراج لأن هذه شروط معتبرة فى كل تقليد فافتقرت الى تسمية
ما تضمنت ليعلم على أى نظر عقدت فان جهل فسدت •

٤ — ذكر تقليد البلد الذى عقدت الولاية عليه ليعرف به العمل
الذى يستحق النظر فيه ، ولا تصح الولاية مع الجهل به •

ويحتاج بعد ذلك الى شرط زائد على شروط العقد ، وهو اشاعة
تقليد المولى فى أهل عمله ليذعنوا بطاعته وينقادوا الى حكمه ، وهو
شرط فى لزوم الطاعة ، وليس بشرط فى نفوذ الحكم •

عزل القضاة :

عرفنا أن من حقوق الخليفة أن يولى لولاية القضاء من يستحقها ،
ومن تتوافر فيه شرائطها ، وعلى ذلك فان الخليفة الحق أيضا فى عزل
القاضى المولى من قبله اذا وقع منه ما يقتضى العزل ، ويحرم على الخليفة
عزل القضاة بغير عذر • وذهب البعض الى القول بأن العزل غير المسبب
لا ينفذ ، ويقول عنه الماوردى انه أحد الطلاقين ، فكما أنه لا يحسن
الطلاق بغير سبب ، كذلك لا يحسن العزل بغير سبب ، فمن باب أولى أن

المولى لا يعزل القاضى الا بعذر ، وأن لا يعزل المولى الا من عذر لما فى هذه الولاية من حقوق المسلمين . وقال الفقهاء : « أربع خصال اذا حل أحدها بالقاضى صار معزولا ، ذهاب البصر ، وذهاب السمع ، وذهاب العقل ، والمردة . ولكن اذا عمى ثم أبصر فهو على قضائه كما لو أسلم بعد الردة ، ولكن قضائه لا ينفذ فى حال عمائه وردته » (٢٧) .

ويذهب البعض الى أن للحاكم أن يعزل القاضى ، ويستبدل مكانه لربية وغير ربية ، وقيل أيضا (٢٨) يملك الخليفة أو الحاكم عزل القاضى دون أن تقع منه خيانة ، اما روى من أن عليا ولى أبا الأسود ثم عزله ، فقال لما عزلتنى وما خنت ولا جنيت ؟ فقال : أنى رأيته يعلو كلامك على الخصمين ، ولأن ولى الأمر يملك عزل أمرائه وولاته على البلدان فكذلك قضائه . واذا عزل القاضى ، عند الماوردى ، أو اعتزل وجب اظهار العزل لما يترتب على ذلك من صيانة حقوق الناس ، ولا ينعزل القاضى أيضا ، عند أبو يوسف ، حتى تقبل استقالته ، وهذا يتمشى مع ما عليه العمل الآن . وأحكام القاضى ، بعد معرفته لقرار عزل الامام له ، لا تكون نافذة ، ويصبح المتخاصمين فى حل من التقيد بها . (٢٩)

وينص الماوردى فى كتاب « الاحكام السلطانية » على مبدأ هام هو مبدأ استقلال القضاء ، فحرم عزل القضاة اذا مات الحاكم الذى عينهم « لو مات الامام لم تنعزل قضائه » ، (٣٠) ومعنى هذا أنه فى حالة موت السلطان ، فان القاضى لا ينعزل بذلك ، وهو فى ذلك لا يحتاج الى تجديد تعيين ، ولأن الامام انما يولى القضاء نيابة عن المسلمين ، والقاضى فى ذلك انما يستمد ولايته القضائية من الولاية العامة الحاصلة

(٢٧) تاريخ القضاء فى الاسلام لابن عرنوس ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢٨) المغنى لابن قدامة ١٠٣/٨ وراجع أيضا : الخطيب على أبى شجاع ٣٢٧/٤ ، وأيضا : رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين تكملة ج ١ ص ٥٠ .

(٢٩) راجع : الاحكام السلطانية للماوردى ص ٥٨ .

(٣٠) المصدر السابق ص ٦٣ .

لولى الأمر بتولية الأمر له • ومن ذلك قول الماوردى أيضا : « اذا كان تقليد الأمير من قبل الخليفة لم ينعزل بموت الخليفة ، وان كان من قبله الوزير انعزل بموت الوزير : لأن تقليد الخليفة نيابة عن المسلمين ، وتقليد الوزير نيابة عن نفسه » • (٣١) والقاضى هنا فى الحقيقة وكيل عن الأمة ويحكم باسمها وليس وكيلا عن السلطان (الخليفة) ذاته ، وهذا تأكيد لفكرة سياسية هامة وهى فكرة « استمرار الدولة » على الرغم من اختلاف أو زوال أشخاص الحاكمين ، فالدولة رغم كل ذلك لها ذاتية معنوية مستمرة •

دار القضاء :

يقول الماوردى : « ولو قلد القاضى الحكم فيمن ورد اليه فى داره أو فى مسجده صح ولم يجز أن يحكم فى غير داره ولا فى غير مسجده ، لأنه جعل ولايته مقصورة على من ورد الى داره أو مسجده ، وهم لا يتعينون الا بالورود اليهما فذلك صار حكمه فيهما شرطا • قال أبو عبد الله الزبيرى لم تزل الأمراء عندنا بالبصرة برهة من الدهر يستقضون قاضيا على المسجد الجامع يسمونه قاضى المسجد يحكم فى مائتى درهم وعشرين دينارا فما دونها ويفرض النفقات ولا يتعدى موضعه ولا ماقدر له • • » (٣٢)

ومعنى هذا أن الفقه الإسلامى قد عرف «فكرة المحكمة» منذ العصور الأولى ، وبحيث لا يعتبر حكم القاضى الا اذا صدر فى هذا المكان المعين من البلد ، أو الجهة التى يحضر فيها القاضى والمتقاضون ، وتقام الدعوى أمامه بحيث لا يتعداه ، وبهذا يعتبر حكم القاضى فى هذا المكان شرطا وتصبح ولايته القضائية مقصورة بهذا التخصص ، على من ورد اليه فى

(٣١) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٢٦ •

(٣٢) المصدر السابق ص ٦١ •

هذا المكان • ولعلنا نلاحظ أن هذا مطابق تماما لما هو معمول به الآن ،
من تعيين دار « المحكمة » ليقضى فيها القاضى •

وقد كره الشافعى أن يجلس القاضى فى المسجد الا أن يدخل
للصلاة فتجد خصومة فى المسجد • وفى وجيز الغزالى فى بيان آداب
القاضى (الرابع) أن يتخذ للقضاء مجلسا رفيعا فسيحا لا يتأذى فيه ببرد
ولا حر • ويكره أن يتخذ المسجد مجلسا للقضاء فترفع فيه الأصوات ،
ولا يكره فصل قضايا متجددة فى المسجد • وذكر أن عمر بن عبد العزيز
كتب الى القاضى بخيم ابن عبد الرحمن الا يقضى فى المسجد فأخذ بذلك
الشافعى • وقال أبو حنيفة لا كراهة فى ذلك لأن الرسول عليه السلام
قضى فى المسجد وكذلك خلفاؤه ، والقضاء من باب الأمر بالمعروف والنهى
عن المنكر والمساجد لا يكره فيها ذلك • (٣٣)

الاختصاص المكانى :

وقد أشار الماوردى إلى تقيد القاضى بالقضاء فى بلد معينة أو ناحية
منها ، وبذلك يقتصر عمله على هذا المكان المحدد دون أى مكان آخر ،
وبذلك تكون ولايته القضائية على سكان هذا المكان المقيمين فيه والطارئين
اليه • جاء فى الأحكام السلطانية للماوردى : « يقلد (القاضى) النظر
فى جميع الأحكام فى أحد جانبي البلد أو فى محلة منه فينفذ جميع
أحكامه فى الجانب الذى قلده والمحلة التى عينت له ينظر فيه بين ساكنيه
وبين الطارئین اليه لأنه الطارئ اليه كلساكن فيه » (٣٤) •

تخصيص القضاء بالزمان :

يقول الماوردى : « ولو قال (القاضى) قلدتك النظر بين الخصوم فى
كل يوم سبت جاز ، وكان مقصور النظر فيه ، فاذا خرج يوم السبت

(٣٣) راجع : تاريخ القضاء فى الاسلام لابن عرنوس ص ١٢٥ •

(٣٤) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٦٠ •

لم تزل ولايته لبقائها على أمثاله من الأيام ، وان كان ممنوعا من النظر فيما عداه من الأيام » • (٣٥)

وبذلك يتضح لنا من كلام الماوردي معرفة الفقه الاسلامي أيضا لفكرة تقييد القاضى بأيام خاصة محددة فى الأسبوع يقام فيها مجلس القضاء وتنظر الدعاوى ، وبحيث يكون القاضى ممنوعا من النظر فى أمر المنازعات بين الخصوم فى غير هذه الأيام ، وحتى يضمن كل واحد من المتنازعين حقه كاملا ، فإذا انقضت هذه الأيام من الأسبوع لم تزل ولاية القاضى ، لبقائها على أمثالها من أيام الأسابيع الأخرى •

الاختصاص النوعى :

وإذا قام ولى الامر (الخليفة أو نائبه) بتقليد قاضيين على بلدة واحدة ، فقد أجاز ذلك الماوردي ، ولكن على شرط أن يخصص أحدهما عند تقليده القضاء بنوع معين من القضاء ، ويخصص القاضى الآخر بنوع آخر من القضايا ، وبذلك لا يصح للواحد منهما أن ينظر فى نوع آخر غيره ، لا فى دائرة اختصاصه المكانى ولا فى غيره بالأحرى ، وزيادة فى التوضيح يقتصر عمل القاضى الآخر على تناول القضايا الجنائية أو المتعلقة بالأحوال التجارية وما شابه ذلك • جاء فى الأحكام السلطانية للماوردي :

« وإذا قلد (الامام) قاضيان على بلد ، يرد الى أحدهما نوع من الأحكام ، والى الآخر غيره كرد المدينات الى أحدهما والمناكح الى الآخر ، فيجوز ذلك ويقتصر كل واحد منهما على النظر فى ذلك الحكم الخاص فى البلد كله » (٣٦) •

(٣٥) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٦١ •

(٣٦) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٦١ •

ويورد الماوردى بعد ذلك مسألة خلاف الفقهاء فى حالة السماح لأكثر من قاض واحد بالنظر فى الدعوى الواحدة فى بعض أنواع القضايا ، وذلك على اعتبار أن القضاء استنابة كالوكالة ، وأن القاضى نائب الخليفة • فالأحناف والحنابلة وبعض الشافعية يجيزون ذلك خلافاً للمالكية وبعض الشافعية • والطائفة التى تمنع ذلك تعطل منعها بأن ذلك يؤدى الى تعطل الفصل فى الخصومات وتجاذب الخصوم لصعوبة اتفاقهما فى رأى وخشية الاختلاف فيه • ويقول الماوردى فى الأحكام السلطانية : (٣٧) « وإذا قلد (الخليفة) قاضيان على بلد يرد الى كل واحد منهما جميع الأحكام فى جميع البلد فقد اختلف أصحابنا فى جوازه فمنعت منه طائفة لما يفضى اليه أمرهما من التشاجر فى تجاذب الخصوم اليهما وتبطل ولايتهما ان اجتمعت • وأجازته طائفة أخرى وهم الأكثرون لأنها استنابة كالوكالة » •

ويقول ابن قدامة المقدسى :

« فان قلد ولى الأمر قاضيين أو أكثر عملاً واحداً فى مكان واحد ففيه وجهان : أحدهما ، لا يجوز ، وهو أحد وجهين لأصحاب الشافعى ، لأنه يؤدى الى إيقاف الحكم عند الاختلاف فى الاجتهاد ، والثانى ، يجوز وهو قول أصحاب أبى حنيفة وهو أصح ان شاء الله • لأن الغرض فصل الخصومات وايصال الحق الى مستحقه وهذا يحصل فأشبهه القاضى » •

اجتهاد القاضى :

أباح الماوردى للقاضى حق الاجتهاد فى الأحكام التى لم يرد فيها نص ولا اجماع ، وفى هذه الحالة فان حكمه ينفذ ، ولا يجوز لأحد نقضه • ويقول الآمدى فى ذاك (٣٨) « اتفاق الفقهاء على أن حكم الحاكم

(٣٧) المصدر السابق ص ٦١ •

(٣٨) الأحكام للآمدى ١ / ٢٧٣ •

لا يجوز نقضه فى المسائل الاجتهادية لمصلحة الحكم » ، وحتى لا يؤدى ذلك الى اضطراب الأحكام • ويشترط الماوردى على القاضى المجتهد العلم بأربع مصادر يعتمد عليها ويستقى منها أحكامه وهى : (٣٩)

— علمه بكتاب الله عز وجل ، والذي تصح به معرفة ما تضمنه من الأحكام ناسخا ومنسوخا ، ومحكما ومتشابهها ، وعموما وخصوصا ، ومجملا ومفسرا •

٢ — علمه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الثابتة من أقواله وأفعاله ، وطرق مجيئها فى التواتر والآحاد والصحة والفساد وما كان على سبب أو طلاق •

٣ — علمه بتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه واختلفوا فيه ليتبع الاجماع ويجتهد برأيه فى الاختلاف •

٤ — علمه بالقياس الموجب لرد الفروع المسكوت عنها الى الأصول المنطوق بها والمجمع عليها •

ومعنى ذلك ، أنه يجب أن يعتمد القاضى فى أحكامه ، اذن ، على •

١ — الكتاب الكريم ، وهو القرآن ، وذلك لأن النبى كان يرجع فى قضائه الى الكتاب الكريم وما يوحىه اليه ربه أو ما يراه بفطنته •

٢ — السنة الشريفة ، وهى أقوال السيد الرسول وأفعاله •

٣ — الاجماع ، وهو اتفاق مجتهدى الأمة بعد النبى فى عصر من العصور ، على أمر من الأمور •

٤ — القياس ، وهو حمل معلوم على معلوم ، أى إلحاقه به فى حكمه ، لمشابهة بينهما وهو انما يستنبط من الثلاثة الأولى •

أخرج البغوى عن ميمون بن مهران قال (٤٠) : كان أبو بكر اذا

(٣٩) الاحكام السطانية للماوردى ص ٥٤ •

(٤٠) نقلا عن السياسة الشرعية للاستاذ عبد الوهاب خلاف ص ٤٨ •

ورد عليه الحصوم نظر في كتاب الله فان وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به ، وان لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله في ذلك الأمر سنة قضى بها ، فان أعياه خرج فسأل المسلمين وقال : أتأني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله قضى في ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع عليه المنفر كلهم يذكر عن رسول الله فيه قضاء فيقول أبو بكر : الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا • فان أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله جمع رعوس الناس وخيارهم فاستشارهم فان أجمع رأيهم على أمر قضى به • وكان عمر يفعل ذلك •

والاجتهاد في اصطلاح الفقهاء : هو بذل الجهد في استنباط الأحكام من أدلتها بالنظر اليها ، وبمعنى آخر هو بذل المجهود في طلب المقصود ، وينبغي أن يكون المجتهد عالماً بالنصوص من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، ويحرم عليه تقليد غيره (٤١) •

اختبر رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً حين بعثه الى اليمن واليا وقال بم تحكم قال : بكتاب الله ، قال : فان لم تجد ، قال بسنة رسول الله قال : فان لم تجد ، قال اجتهد برأى • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله (٤٢) فالاجتهاد ، اذن ، من حق القاضي اذا لم يكن للمسألة حكم في الكتاب والسنة •

والى ذلك يذهب « شمس الدين السرخسى » حيث يقول : « وللقاضى أن يجتهد فيما لا نص فيه ، وأنه لا ينبغي أن لا يدع الاجتهاد في موضعه لخوف الخطأ ، فان ترك الاجتهاد في موضعه بمنزلة الاجتهاد في غير موضعه ، فكما لا ينبغي له أن يشتغل بالاجتهاد مع النص لا ينبغي له أن يدع الاجتهاد فيما لا نص فيه » (٤٣) •

(٤١) معين الأحكام للطرابلسي ص ٢٨ •

(٤٢) انظر : الأحكام السوردي ص ٥٥ •

(٤٣) المبسوط ٦٩/١٦ •

ويتضح أيضا من النص الآتي « للطرابلسي » أنه يتفق مع الماوردي في وجوب اجتهاد القاضى فى الأحكام التى لم يرد فيها نص ولا اجماع :

« ينبغى للقاضى أن يقضى بما فى كتاب الله تعالى من الأحكام التى لم تنسخ وان ورد عليه شئ لم يعرفه فى كتاب الله تعالى يقضى بما جاء فى السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم • قال الله تعالى : وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا • الآية • فان لم يجد نصا ، يقضى باجماع الصحابة فقال عليه السلام عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى • فان كان بينهم اختلاف ، فان كان القاضى من أهل التمييز والنظر ميز أقوالهم ، ورجح قول بعضهم ، ونظر الى أشبهها بالحق وأقربها الى الصواب وأحسنها عنده وقضى به لقوله عليه السلام أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم • فان كان شئ لم يأت فيه من الصحابة قول وكان فيه اجماع التابعين قضى به ، وان لم يجد شيئا من ذلك ، فان كان من أهل الاجتهاد قاسه على ما يشبهه من الأحكام واجتهد برأيه وتحرى الصواب ثم قضى برأيه » (٤٤) •

قضاء المقلد بغير مذهبه :

ولما كان الماوردي يوجب على القاضى أن يبلغ مرتبة النظر والترجيح، ويتميز بالاجتهاد فى أحكامه ، وعلى ذلك فانه لا يجوز للقاضى المقلد أن يقضى بغير مذهبه ، واذا قضى به فانه لا ينفذ وينقضه ، لأن هذا يأخذ حكم المجتهد الذى يأخذ باجتهاد غيره مخالفا اجتهاده لأنه قضى بما هو باطل فى رأيه (٤٥) ويقول الماوردي (٤٦) :

« لا يلزم القاضى أن يقلد فى النوازل والأحكام من اعترى — انتسب — الى مذهبه ، فاذا كان شافعيًا لم يلزمه المصير فى أحكامه الى

(٤٤) معين الحكام للطرابلسي ص ٢٨ •

(٤٥) البدائع ج ٧ ص ٥ •

(٤٦) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٥٥ •

أقاويل الشافعى حتى يؤديه اجتهاده اليها ، فان أداه اجتهاده الى الأخذ بقول أبى حنيفة عمل عليه وأخذ به * ، وقد منع بعض الفقهاء من اعتزى الى مذهب أن يحكم بغيره ، فمنع الشافعى أن يحكم بقول أبى حنيفة ، ومنع الحنفى أن يحكم بمذهب الشافعى اذا أداه اجتهاده اليه لما يتوجه اليه من التهمة والمحايلة فى القضايا والأحكام ، واذا حكم بمذهب لا يتعداه كان أنفى للتهمة وأرضى الخصوم ، وهذا ان كانت السياسة تقتضيه فأحكام الشرع لا توجيه لأن التقليد فيها محظور ، والاجتهاد فيها مستحق * ويقول « ابن عابدين » فى حاشيته : « ويشترط لصحة القضاء أن يكون موافقا لرأيه أى لمذهبه مجتهدا كان أو مقلدا ، فلو قضى بخلاف لا ينفذ » وعلى هذا يتضح لنا أن قضاء المقلد بغير مذهبه يعتبر قضاء بغير ما يراه *

تولية الحاكم للقاضى بشرط أن يحكم بمذهب أو رأى معين :

يذهب الماوردى الى أن تقليد الحاكم العام للقاضى واشتراطه عليه مقابل ذلك أن يحكم وفقا لمذهب الحاكم الذى يعتنقه شافعىا كان أم حنفىا ، فهذا الشرط والتقييد باطل ، ذلك لأن القاضى مأمور أن يحكم بالحق الذى يعتقده هو صحيحا ، سواء فى ذلك وصل الى هذا الاعتقاد عن طريق اجتهاده هو أو عن طريق الاقتناع برأى امام والعلم بمذهبه *

ويقول الماوردى : « نلوا شرط المولى وهو حنفى أو شافعى على من ولاه القضاء أن لا يحكم الا بمذهب الشافعى أو أبى حنيفة ، فهذا شرط باطل سواء كان موافقا لمذهب المولى أو مخالفا له * وأما صحة الولاية فان لم يجعله شرطا فيها ، أخرجه مخرج الأمر أو مخرج النهى وقال قد قلدتك القضاء فاحكم بمذهب الشافعى رحمه الله على وجه الأمر ، أو لا تحكم بمذهب أبى حنيفة على وجه النهى كانت الولاية صحيحة والشرط فاسدا سواء تضمن أمرا أو نهيا ، ويجوز أن يحكم بما أداه اجتهاده اليه سواء وافق شرطه أو خالفه * فان أخرج المولى ذلك مخرج الشرط فى عقد الولاية فقال قلدتك القضاء على أن لا تحكم فيه ألا

بمذهب الشافعى أو بقول أبى حنيفة كانت الولاية باطلة لأنه عقدها على شرط فاسد « (٢٧) ويتضح لنا أيضا مما تقدم بطلان عقد التولية اذا أشتراط فيه من قبل الحاكم على القاضى التقيد بمذهب أو رأى معين سواء أكان ذلك فى صيغة العقد أم كان متقدما عليه » •

ويتفق الفقهاء مع الماوردى فيما يذهب اليه من بطلان تقييد المولى (الحاكم العام) للقاضى على أن يحكم بمذهب معين • فنجد ابن قدامة الحنبلى يقول : (٢٨) « فان قلده على هذا الشرط بطل الشرط ، وفى فساد التولية وجهان بناء على الشروط الفاسدة فى البيع » • ويقول أيضا : « انه لا يجوز (للسلطان) أن يقلد القضاء لواحد على أن يحكم بمذهب بعينه عند أحمد والشافعى ولا أعلم لواحد خلافا فيه لأن الحق لا يتعين فى مذهب ، وهذا يشعر أيضا بالاطلاق بالنسبة للقاضى مجتهدا كان أو مقلدا ، هذا الاطلاق المستفاد من كلمة أن يقلد القضاء لواحد » (٢٩) • ويؤكد « ابن فرحون — فى تبصرته » ذلك بقوله : « أن جميع تلك التقييدات لا يجوز للامام اشتراطها لأنه اشتراط ما لا يجوز ، ومن كان لا يقضى الا بما أمره به من ولاء فليس بقاض على الحقيقة » • (٣٠) وقد تقدم أن من ضمن ما يشترط الماوردى توافره فى القاضى ، علمه بأصول الأحكام الشرعية وهى الكتاب والسنة والاجماع والقياس وذلك حتى يستطيع الاجتهاد فى الأحكام التى لم يرد فيها نص صريح •

هل يجوز للقاضى الرجوع فى حكمه :

لا يصح للقاضى نقض قضائه الأول حتى لو ظهر خطأه ، كى تبقى للأحكام القضائية مهابتها ، وعلة ذلك أن تبدل رأى كائنتمساخ النص لا يظهر أثره الا فى المستقبل • ولكن اذا قضى القاضى المجتهد فى قضية

(٢٧) المصدر السابق ص ٥٦ •

(٢٨) المغنى ١٠٦/٩ •

(٢٩) نفس المصدر السابق •

(٣٠) التبصرة لابن فرحون ١٧/١ وانظر أيضا ص ١٦ •

أو حادثة برأى أداه اليه اجتهاده ثم رفعت اليه قضية أو حادثة مماثلة لها وكان قد رأى غير الرأى الأول ، فإنه يقضى بالرأى الثانى وبما انتهى اليه أخيرا لأنه بنى على اجتهاد صحيح ، ولا يجوز للقاضى فى هذه الحالة أن يحكم بالاجتهاد الأول لأنه أصبح باطلا فى نظره ، فلا يمنعه ما قضى به من قبل عن القضاء بغيره ، لقول عمر بن الخطاب فى مثل هذا ، تلك على ما قضينا وهذه على ما نقضى ونص كلام الماوردى فى ذلك : « وإذا نفذ قضاؤه بحكم وتجدد مثله من بعد أعاد الاجتهاد فيه وقضى بما أداه اجتهاده اليه وإن خالف ما تقدم من حكمه فإن عمر رضى الله عنه قضى فى المشتركة بالتشريك فى عام وترك التشريك فى غيره فقليل له ما هكذا حكمت فى العام الماضى فقال تلك على ما قضينا وهذه على ما نقضى » (٥١) • وعلى القاضى ألا يصير مستقبلا على حكمه الأول إذا ما ظهر له وجه آخر غير ما قضى وحكم •

ويرى « ابن فرحون » (٥٢) أن للقاضى نقض أحكام نفسه ان ظهر له الخطأ ، وإن كان قد أصاب قول قائل ، وفى وثائق العطار : وللقاضى الرجوع عما حكم به بالاجتهاد ، إذا تبين له الوهم ما دام على خطئه فإن عزل أو مات بعد ما حكم به لم يكن لغيره فسخ شئ من أحكامه مما فيه اختلاف وإن كان وجهها ضعيفا • قال سحنون إذا قضى القاضى بقضية ، وكان الحكم مختلفا فيه له فيه رأى فحكم بغيره سهوا فله نقضه وليس لغيره ذلك ، وإن كان رأى فحكم رأيا سواه لم ينقضه ، ووافقه أصبغ على ذلك والا لما وثق بما يقضى به القاضى وذلك ضرر شديد • بل قالوا لو عزل القاضى ثم ولى مرة أخرى وأراد نقض ما حكم به فى قضاائه الأول والرجوع عنه الى ما هو أحسن لم يجز ، لكن ابن الماجشون روى عن مالك وغيره من فقهاء المدينة أن القاضى إذا قضى ثم رأى ما هو أحسن مما قضى به فله أن يرجع ما دام على ولايته التى

(٥١) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٥٥ — ٥٦ •

(٥٢) راجع : تبصرة الحكام لابن فرحون ٦٠/١ •

فيها قضى بما يريد الرجوع عنه ، اذا كان يصح نقضه من غيره ،
واستحسن ابن رشد ذلك * .

دستور القضاة :

ونورد هنا نص الكتاب المشهور الذى ذكره الماوردى فى كتابه
« الأحكام السلطانية » ^(٥٣) وهذا الكتاب أرسله عمر الى أبى موسى
الأشعرى ، ويعتبر بمثابة دستور للقضاة ، يسيرون على هديه فى
الأحكام ، كما أن هذا النص ، أو هذه اللائحة الداخلية التى يعمل بها
القضاة ، استوفى ضمن ما استوفى شروط القضاء وأحكام التقليد * .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ،
الى عبد الله بن قيس (وهو أسم أبى موسى الأشعرى) * .

سلام عليك ، أما بعد ، فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ،
فافهم اذا أدلى اليك (اذا رفع اليك الأمر) ، فانه لا ينفع تكلم
بحق لا نفاذ له ! وآس بين الناس (سو بينهم) فى وجهك وعدلك
ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك (الحيف : الظلم الجنور) ،
ولا ييأس ضعيف بين المسلمين ، الا صلحا أحل حراما ، أو حرم حلالا ،
ولا يمنعك قضاء قضيتته بالأمس فراجعت فيه اليوم عقلك ، وهديت
لرشدك ، أن ترجع الى الحق . فان الحق قديم (موجود قبل الباطل ، لأنه
المطابق للواقع) ومراجعة الحق خير من التماذى فى الباطل ، الفهم !
الفهم ! فيما تلجلج (التلجلج : التردد فى الكلام) فى صدرك ، مما ليس
فى كتابه ولا سنة نبيه ، ثم اعرف الأمثال والأشياء وقس الأمور بنظائرها ،
واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة ، أمدا ينتهى اليه فمن أحضر بينة
أخذت له بحقه ، والا استحللت القضية عليه ، فان ذلك أنفى للشك
وأجلى للعمى * المسلمون عدول بعضهم على بعض ، الا مجلودا فى حد

(٥٣) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٥٩ ، وأيضا نصيحة الملوك ورقة

٥٩ ، والمقدمة لابن خلدون ٧٣٨/٢ .

(م ٢٥ — الماوردى)

(أى المجلود فى حد القذف) ، أو مجريا عليه شهادة زور ، أو ظنينا (المتهم) فى ولاء أو نسب ، فان الله سبحانه عفا عن الايمان ، ودرأ بالبينات • واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم ، فان الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر والسلام •

آداب القضاء :

يجرم الماوردى على القاضى قبول الهدايا من الخصوم المتنازعين ، فان الهدايا للقضاة من الرشا • وقد كتب عمر بن الخطاب محذرا عماله من قبول الهدايا ، وكان عمر عندما ينهى الناس عن شىء جمع أهله وقال : انى نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم نظير الطير الى اللحم النيىء ، وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله الا أضعفت عليه العقوبة ، وقال ربيعة اياك والهدية فانها ذريعة الرشوة ، والأصل فى القضاء عند الماوردى هو التنزه عن طلب الحوائج أو قبول الهدايا (٥٤) • نسما لنازاهة القضاء وحرصا على صوالح المتنازعين •

وينهى الماوردى القاضى أن يحكم لمن لا يشهد له ، كأبيه وأولاده وزوجته ، ولا يجوز أن يحكم على من لا تقبل شهادته عليه لخصومة بينهما • وليس للقاضى أيضا تأخير الخصوم أو تعطيل قضاياهم وإطالة أمد التقاضى ، ومن أجل ذلك يقول مالك رضى الله عنه : « ولا أرى للموالى أن يلح على أحد الخصمين أو يعرض عن خصومته لأجل أن يصلح » •

(٥٤) وبشأن نهى الماوردى للقضاة عن قبول الهدايا والرشاوى ، ورد هذه الواقعة التى وقعت فى المجتمع الأمريكى فى أيامنا هذه ، وهى تؤكد سمو ما كان يهدف إليه دائما فقهاء الاسلام فقد طالعنا جريدة « الجمهورية المصرية » الصادرة فى ١٣/٥/١٩٦٩ بخبر مؤداه أن الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قد طلب من « فورتاس » القاضى ليهودى ، بالمحكمة العليا أن يستقيل وذلك بعد أن ثبه له من التحقيق أنذى أجرى معه قبوله لرشوة قدرها عشرين ألف دولار من إحدى المؤسسات فى الوقت الذى تجرى فيه الحكومة الأمريكية معها تحقيقا يتعلق بنشاطها •

ويجب عليه أن يبدأ بالسعى بين الخصوم • ويقول عمر بن الخطاب في ذلك : « ردوا القضاء بين ذوى الأرحام حتى يصطلحوا فان فصل القضاء يورث الضغائن » •

ويحذر الماوردى البعض من محاولتهم الوصول الى المناصب القضائية بتقديم المال الى ولاة الأمر ، لأن من أخذ القضاء برشوة لا يصير قاضيا ، ومن أشد الأمور كراهية الى النفوس تحصيل القضاء بالرشوة •

ونورد هنا بعضا مما قاله الماوردى لتوضيح ما تقدم :
« وليس لمن تقلد القضاء أن يقبل هدية من خصم ولا من أحد من أهل عمله وان لم يكن له خصم لأنه قد يستعديه فيما يليه • روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال هدايا الأمراء غلول فان قبلها وعجل المكافأة عليها ملكها وان لم يعجل المكافأة عليها كان بيت المال أحق بها ان تعذر ردها على المهدى لأنه أولى بها منه » •

وليس للقاضى تأخير الخصوم اذا تنازعوا اليه الا من عذر • ولا يجوز له أن يحتجب الا فى أوقات الاستراحة • وليس له أن يحكم لأحد من والدية ولا من أولاده لأجل التهمة ، ويحكم عليهم لارتفاعها • وكذلك لا يشهد لهم ويشهد عليهم ويشهد لعدوه ولا يشهد عليه ويحكم لعدوه ولا يحكم عليه لأن أسباب الحكم ظاهرة وأسباب الشهادة خافية فانتفت التهمة عنه فى الحكم وتوجهت اليه فى الشهادة •

« وأما بذل المال على طلب القضاء فمن المحظورات لأنها رشوة محرمة يصير البازل والقابل لها مجروحين • روى ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الراشى والمرتشى والرايش — والراشى — باذل الرشوة — والمرتشى — قابلهما — والرايش — المتوسط بينهما » (٥٥) •

ويتحدث أيضا « ابن فرحون » عن آداب القاضى والقضاء
فيقول : (٥٦)

ويلزم القاضى أمور منها : أنه لا يقبل الهدية وإن كافأ عليها أضعافها ،
وقال ربيعة أياك والهدية فإنها ذريعة الرشوة • كذلك الشهود لا يجوز
لهم قبول الهدية من أحد الخصمين ما دامت الخصومة بينهما •

وأما تحصيل القضاء بالرشوة (٥٧) فهو أشد كراهة • وقال
أبو العباس من تلامذة ابن سريج الشافعى فى كتابه أدب القضاء من تقبل
القضاء بقبالة وأعطى عليه الرشوة فولايته باطلة وقضاؤه مردود •

وينبغى للقاضى التتزه عن طلب الحوائج من ما عون أو دابة ، (٥٨)
ومنها أنه يجتنب المعارية والسلف والقراض والايقاع إلا أن لا يجد بدا
من ذلك •

ومنها أنه يكره له البيع والابتياح فى مجلس حكمه أو داره •
ولا ينبغى أن يكون له وكيل معروف على البيع والشراء ، لأنه يفعل مع
وكيله من المسامحة ما يفعل معه ، وربما امتنع الناس من خصامه •

وينبغى للقاضى أن يجتنب بطانة السوء لأن أكثر القضاة إنما يؤتى
عليهم من ذلك •

ولا ينبغى للقاضى أن يبيح للناس الركوب معه إلا فى حاجة أو رفع
مظلمة • ولا ينبغى له أن يكثر الدخال عليه ولا الركاب معه •

(٥٦) تبصرة الحكام لابن فرحون ٢٢/١ •

(٥٧) المصدر السابق ج ١ ص ١٠ •

(٥٨) راجع المصدر السابق ٢٣/١ — ٢٨ ، وأيضا انظر : المبسوط
للسرخسى ٦٦/١٦ وما بعدها • ومعين الحكام للطرابلسى ص ١٧ — ١٩ ،
والعقد الفريد للملك السعيد لأبى سالم محمد بن طلحة الوزير ص ١٦٨ •

ومنها أن لا يجلس القاضى على حال تشويش من جوع أو شبع أو غضب أو هم ، لأن الغضب يسرع مع الجوع ، والفهم ينطفىء مع الشبع والقلب يشتغل مع الهم ، فمهما عرض له ذلك لم يجلس للقضاء •

وينبغى للقاضى أن يتخذ لجلوسه وقتا معلوما لا يضر بالناس فى معاشهم •

ومنها أن لا يتضاحك ويلزم العبوس من غير غضب ، ويمنع من رفع الصوت عنده • وأن لا يتشاغل بالحديث فى مجالس قضائه ان أراد بذلك اجسام نفسه واذا وجد الفترة فليقم من مجلسه •

وعلى القاضى الا يكثر من القضاء جدا حتى يأخذه النعاس والضجر فربما أحدث ما لا يصلح •

وعليه أن يجعل للرجال مجلسا وللنساء مجلسا • • فاذا اجتمعت الرجال والنساء فى مجلس واحد لخصومة عرضت لهم أفرد لهم مجلسا •

ويجعل لأهل الذمة يوما أو وقتا بقدر كثرتهم وقلتهم ويجلس لهم فى غير المسجد • وذكر أن عمر بن عبد العزيز كتب الى القاضى تميم ابن عبد الرحمن أن لا يقضى فى المسجد وبذلك أخذ الشافعى رحمه الله واحتجوا بأن فيه تضيقا على الناس فمنهم الحائض والجنب وأهل الذمة •



ولاية المظالم

- ١ — تعريف بولاية النظر في المظالم — وأصلها تاريخيا •
- ٢ — شروط الناظر في المظالم •
- ٣ — اختصاصات قاضي المظالم •
- ٤ — الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاة •

تعريف نظر المظالم :

تعتبر ولاية « النظر فى المظالم » نوعا من القضاء العالى ، وسلطة الناظر فى المظالم أعلى من سلطة القاضى والمحتسب ، وهى تنظر من المنازعات ما لا ينظره القاضى ، بل هى تنظر ظلامة الناس منه ، وتمنع الظلم عن الرعية • ويقول الماوردى فى تعريف « ولاية المظالم » (١) •

« نظر المظالم هو قود المتظالمين الى التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة » •

ومظالم مفردتها مظلمة أو ظلامة بمعنى انتهاك حق فرد ، وهو تعبير اصطلاحى يدل على الظلم أو تعدى كبار أصحاب النفوذ فى المجتمع أو الولاة والجبابة والحكام على أفراد الشعب • وكان لبعض ما يختص بنظره والى المظالم ما لا يحتاج الى ظلامة متظلم ، بل يقوم بالنظر فيه من تلقاء نفسه • ومحكمة المظالم تشبه فى عملها بعض ما يختص بالنظر فيه مجلس الدولة الآن ، أو المحاكم التى تؤلف للنظر فى الشكاوى المتعلقة بأعمال رجال الادارة •

وكانت محكمة المظالم تعقد برياسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عن أحدهما من كبار رجال الدولة ، ويشترط فى ذلك صراحة تقليد الخليفة وتوليته لمن يجتمع فيه الشروط المطلوبة للنظر فى مظالم الناس • ويوضح هذا كلام الماوردى الآتى نصه :

« ••• فان كان ممن يملك الأمور العامة كالخلفاء أو ممن فوض اليه الخلفاء النظر فى الأمور العامة كالوزراء والأمراء لم يحتج النظر فيها الى

(١) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٦٤ •

تقليد وتولية ، وكان له بعموم ولاية النظر فيها ، وان كان ممن لم يفوض اليه عموم النظر احتاج الى تقليد وتولية اذا اجتمعت فيه الشروط المتقدمة ♦♦♦♦ « (٢) ♦

أصل النظر فى المظالم تاريخيا :

أول من مارس النظر فى المظالم ملوك الفرس الساسانيين ، وكانوا يعتبرون ولاية النظر فى المظالم من قواعد الملك وقوانين العدل ♦ وكان ملوك الفرس كما يقول النويرى فى نهاية الأرب : ينتصبون لذلك بأنفسهم فى أيام معلومة ، لا يمنع عنهم من يقصدهم فيها من ذوى الحاجات وأرباب الضرورات ♦

وقد عرف العرب فى الجاهلية ، وقبل ظهور الاسلام ، ولاية المظالم ، فقد عقدت قريش فى الجاهلية ، حلفا على رد المظالم ، وانصاف المظلوم من الظالم ♦ وكان سبب ذلك ما حكاه الزبير بن بكار أن رجلا من اليمن من بنى زبيد ، قدم مكة معتمرا ببضاعة ، فاشتراها منه رجل من بنى سهم ، وقيل انه العاص بن وائل ، فلوى الرجل بحقه ، فسأله ماله أو متاعه ، فامتنع عليه وما طله فى الدفع ، فلما عيل صبر الرجل ، جاهر بظلامته حول الكعبة بين رجال من قريش وقال شعرا رقيقا ، فقام أبو سفيان ، والعباس بن عبد المطلب ، فردا عليه ماله ، واجتمعت بطون قريش فتحالفوا فى دار عبد الله بن جدعان على رد المظالم بمكة ، وأن لا يظلم أحد الا منعه وأخذوا للمظالم حقه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ معهم قبل النبوة وهو ابن خمس وعشرين سنة ♦ فعقدوا حلف الفضول بدار عبد الله بن جدعان ♦ (٣) ♦

وقد نظر النبى صلى الله عليه وسلم المظالم بنفسه ، فنظر فى الشرب الذى تنازعه الزبير بن العوام رضى الله عنه ورجل من الأنصار (٤)

(٢) المصدر السابق ص ٦٤ ♦

(٣) الاحكام السلطانية لهماوردى ص ٦٥ — ٦٦ ♦

(٤) المصدر السابق ص ٦٤ ♦

فحضره بنفسه ففقد « روى أبو داود أن رجلا خاصم الزبير في شراح الحرة — وهو مسيل الماء من الحرة الى السهل — التي يسقون بها ، فقال الأنصارى شرح (أى أرسل) الماء يمر ، فأبى عليه الزبير ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم للزبير : اسق يا زبير ، ثم أرسل الى جارك ، قال فغضب الأنصارى فقال يا رسول الله ان كان ابن عمك ، فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : اسق ثم احبس الماء حتى يرجع الى الحد » (٥) .

ولم ينتدب للمظالم من الخلفاء الراشدين أحد ، لأن الناس كان يقدرونهم التناصف الى الحق .. ويزجرهم الوعظ عن الظلم ، وكان الناس اذا اشتبه عليهم أمر ، وضحه لهم حكم القضاء ، وقد نظر على فى المظالم ، وقضى فى ولد تنازعتهم امرأتان بما أدى الى فصل القضاء ، ولم يعين على رضى الله عنه لسماع المظالم يوما معينا .

وأول من أفرد للمظالمات يوما خاصا ، يتصفح فيه قصص المتظلمين ، عبد الملك ابن مروان (٦٥ — ٦٨ هـ ، = ٦٨٥ — ٧٠٥ م) وكان اذا أشكل عليه أمر رده الى قاضيه أبى أدريس الأودى فنفذ فيه أحكامه ، فكان أبو أدريس هو المباشر ، وعبد الملك هو الأمر . ثم جلس من بعده للنظر فى ولاية المظالم الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله (٩٩ — ١٠١ هـ = ٧١٧ — ٧٢٠ م) ، وكان قويا فى الحق ودفح الظلم عن المظلوم ، فرد مظالم بنى أمية على أهلها حتى قيل له وقد شدد عليهم عليها وأغلظ انا نخاف عليك من ردها العواقب فقال : كل يوم أتقيه وأخافه دون يوم القيامة لا وقيته (٦) .

ولقد حكى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله خرج ذات يوم ، فصادفه رجل ورد من اليمن متظلما من أن الوليد بن عبد الملك غصبه ضيعته ، فردها اليه بعد تأكده من أنه كان على حق .

(٥) أبو داود ص ١٥٦ .

(٦) الاحكام السلطانية للمأوردى ص ٦٥ .

وقد اقتفى بنو العباس أثر الدولة الأموية ، فكان أول من جلس لها الخليفة المهدي ثم الهادي ثم الرشيد ثم المأمون ، فأخر من جلس لها المهدي حتى عادت الأملاك الى مستحقيها (٧) .

وقد كتب أبو يوسف الى الخليفة هارون في رسالة الخراج : « يا أمير المؤمنين ، تقرب الى الله سبحانه وتعالى بالجلوس لمظالم رعيته ، تسمع من المظلوم وتنكر على الظالم ، ولعلك لا تجلس الا مجلسا أو مجلسين ، حتى تسير ذلك في الأمصار والمدن ، فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه ... » .

شروط الناظر في المظالم :

ويشترط الماوردي عدة شروط يجب أن تتوافر في الناظر في المظالم وهي : (٨) أن يكون جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيئة ، ظاهر العقلة ، قليل الطمع ، كثير الورع ، لأنه يحتاج في نظره الى سطوة الحماة ، وثبت القضاة . فاحتاج الى الجمع بين صفتي الفريقين وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر في الجهتين ، وكل ذلك حتى يتمكن من أن يوقف الفساد في الدولة ، ولذا كان أيضا كان يقوم بهذا القضاء العالي الخليفة أو نوابه من الولاة والوزراء وخاصة وزراء السيف (التفويض) .

يعين صاحب المظالم يوما يقصده فيه المتظلمون ، اذا كان من غير المتفرغين للنظر في المظالم وحتى يستطيع تأدية أعماله الأخرى ، أما اذا كان من المتفرغين لأعمال المظالم نظر فيها طوال الأسبوع ، وهذا ما يعنيه الماوردي بكلامه :

فاذا نظر في المظالم من انتدب لها جعل لنظره يوما معروفا يقصده فيه المتظلمون وراجعه فيه المتنازعون ليكون ما سواه من الأيام

(٧) الاحكام الماوردي ص ٦٥ ، ٦٩ .

(٨) الاحكام السلطانية الماوردي ص ٦٤ ، وراجع أيضا : آثار الاول

في ترتيب الدول ، لنحسن بن عبد الله العباسي ص ٧٥ .

موكول اليه من السياسة والتدبير ، الا أن يكون من اعمال المظالم المتفردين لها فيكون مندوبا للنظر فى جميع الأيام وليكن سهل الحجاب نزه الأصحاب » (٩) •

هيئة المحكمة :

وتتعدد محكمة المظالم فى المساجد ، كثيرها من المحاكم القضائية ، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات مختلفة ، لا ينتظم عقد جلساته الا بهم (١٠) ، وهذه الجماعات تعطى لوالى المظالم قدرة على التفهم وقوة على التنفيذ •

الأولى : الحماة والأعوان ، لجذب القوى وتقويم الجرىء ، وهذه الجماعة من القوة بحيث تستطيع التغلب على كل من يلجأ الى العنف أو يفكر فى الفرار أثناء القضاء •

الثانية : القضاة والحكام ، لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق ومعرفة ما يجرى فى مجالسهم بين الخصوم ، فمهمة هذه الجماعة تتلخص فى الاحاطة بالأحكام الصادرة لرد الحقوق الى أصحابها ، وهناك فائدة أخرى تعود على القضاة من حضورهم لهذه الجلسات حيث يستطيعون تطبيق الأحكام على القضايا التى تعرض عليهم فى جلساتهم •

الثالثة : الفقهاء ، ليرجع اليهم فيما أشكل ، ويسألهم عما أشتبه وأعزل ، فعندما يشكل على صاحب المظالم أى مسألة شرعية فمرجعه عندئذ الفقهاء ليستأنس برأيهم •

الرابعة : الكتاب ليثبتوا ما جرى بين الخصوم ، وما توجه لهم أو عليهم من الحقوق • أى أن مهمة الكتاب هى تدوين أقوال الخصوم أثناء انعقاد الجلسات •

(٩) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٦٦ •

(١٠) المصدر السابق ص ٦٧ •

الخامسة : الشهود ، ليشهدهم على ما أوجبه من حق وأمضاء من حكم ، ولما كانت مهمة الشهود تتلخص فى الشهادة على أن أحكام القاضى لا تنافى الحق والعدل فقد كانوا يختارون على أساس ما يتمتعون به من سمعة طيبة وتفقه فى الفقه •

اختصاصات قاضى المظالم :

وينظر قاضى المظالم فى قضايا : (١١) :

١ — تعدى الولاية على الأفراد والجماعات مستهدفاً فى ذلك انصافهم من ظلم الولاية وتحقيق العدل بين الجميع •

٢ — وعلى عمال الخراج اذا توسعوا فى جباية الضرائب منهم ، فان كان ما استزادوه رفعوه الى بيت المال ، أمر برده ، وأن أخذوه لأنفسهم استرجعه لأربابه ونظر فى أمرهم •

٣ — وعلى كتاب الدواوين فيتصفح أحوال ما وكل اليهم ، اذا أثبوا فى دفاترهم عمداً ، أو خطأ ما يخالف الحقيقة ، لأن كتاب الدواوين أمناء المسلمين على ثبوت أموالهم فيما يستوفونه له ويوفونه منهم •

٤ — وينظر قاضى المظالم فى تظلم المرتزقة من نقص أرزاقهم ، أو تأخر ميعاد دفعها لهم ، فيرجع الى ديوانه فى فرض العطاء العادل ، فيجريهم عليه وينظر فيما نقصوه أو منعه من قبل فان أخذه ولاية أمورهم استرجعه منهم ، وان لم يأخذوه قضاه من بيت المال •

٥ — ورد الغصوب وهى ضربان :

(أ) غصوب سلطانية تغلب عليها ولاية الجور وذوو النفوذ والبطش كالأملاك المقبوضة عن أربابها ، اما لرغبة ، وأما لتعد على أهلها •

(ب) غصوب تغلب عليها ذوو الأيدي القوية ، وتصرفوا فيها نصرف
الملاك بالقهر والغلبة •

٦ — النظر فى الوقوف وهى نوعان :

(أ) وقوف عامة ، فيبدأ بتصفحها ليجريها على سبيلها ، ويمضيها
على شروط واقفيها اذا عرفها •

(ب) وقوف خاصة ، وهذه تتوقف على تظلم أهلها •

٧ — تنفيذ أحكام القضاة التى استحال عليهم تنفيذها لعلو قدر
المحكوم عليه وقوة يده وعظم خطره فيكون ناظر المظالم أقوى يدا وأنفذ
أمرا فيوجه الحكم على من توجه اليه بانتزاع ما فى يده أو بالزامه
بالخروج مما فى ذمته •

٨ — النظر فيما يعجز عن نظره ولاية الحسبة فى المصالح العامة ،
كالمجاهرة بمنكر ضعف عن دفعه ، والتعدى فى طريق عجز عن منعه ،
والتحيف فى حق لم يقدر على رده ، فيأخذهم بحق الله فى جميعه ،
ويأمرهم بحملهم على موجه •

٩ — مراعاة اقامة العبادات الظاهرة كالجمع والأعياد والحج
والجهاد ، من تقصير فيها وإخلال بشروطها ، فان حقوق الله أولى أن
تستوفى وفروضه أحق أن تؤدى •

١٠ — النظر بين المتشاجرين والحكم بين المتنازعين ، فلا يخرج فى
النظر بينهم عن موجب الحق ومقتضاه ، ولا يسوغ أن يحكم بينهم
الا بما يحكم به الحكام والقضاة •

ويتضح لنا من كل هذه الاختصاصات التى يباشرها قاضى المظالم
أن أغلبها يتعلق بمقاضاه رجال السلطان ونوابهم ، وتظلم موظفى
الدولة من جور الرؤساء ، ولذا فهو أشبه ما يكون من الناحية الغالبة

على اختصاصاته بالقضاء الإداري عندنا الذى هو أحد قسمي مجلس الدولة ، كما أنه فى بعض اختصاصاته يشبه بوجه ما عمل النيابة الإدارية والمحاكم التأديبية (١٢) .

الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاة :

يقول الماوردي فى كتابه « الأحكام السلطانية » : « ان الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاة عشرة أوجه : (١٣)

١ — لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة فى كف الخصوم عن التجاهد ومنع الظلم .

٢ — لناظر فى المظالم أفسح مجالا وأوسع مقالا .

٣ — يستعمل من فضل الأرهاب وكشف الأسباب والامارات الدالة وشواهد الأحوال اللائحة ما يضيق على الحكام فيصل به الى ظهور الحق ومعرفة المبطل من الحق .

٤ — أن يقابل من ظهر ظلمه بالتأديب ويأخذ من باب عدوانه بالمتقويم والتهذيب .

٥ — اذا سأل أحد الخصمين فصل الحكم فلا يسوغ أن يؤخره الحاكم ، ويسوغ أن يؤخره والى المظالم عند اشتباه أمرهما ورغبته فى التأني .

٦ — له رد الخصوم اذا أغضلوا وساطة الأمناء ليفصلوا المتنازع بينهم صلحا عن تراض ، وليس للقاضى ذلك الا عن رضى الخصمين بالرد .

(١٢) راجع القضاء فى الاسلام للاستاذ سلام مذكور ص ١٤٢ .

(١٣) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٧٠ — ٧١ .

٧ — أن يفسح فى ملازمة الخصمين اذا وضحت امارات التجاحد ويأذن فى الزام الكفالة فيما يسوغ فيه التكفل لينقاد الخصوم الى التناصف ويعدلوا عن التجاحد والتكاذب .

٨ — أن يسمع من شهادات المستورين ما يخرج عن عرف القضاة دى شهادة المعدلين .

٩ — يجوز له احلاف الشهود عند ارتيابه بهم اذا أبدلوا أيمانهم طوعا ويستكثر من عددهم ليزول عنه الشك ، وينفى عنه الارتياب ، وليس ذلك للحاكم .

١٠ — يجوز أن يبتدىء باستدعاء الشهود ويسألهم عما عندهم فى تنازع الخصوم ، وعادة القضاة تكليف المدعى واحضار بينة ولا يسمعونها الا بعد مساءلته .

وهناك أشياء تقوى الدعوى عند الترافع فيها الى والى المظالم :

أن يظهر مع الدعوى كتاب فيه شهود معدلون حضور (للسهادة) .

وأن يكون مع المدعى خط المدعى عليه بما تضمنته الدعوى ، فنظر المظالم فيه يقتضى سؤال المدعى عليه عن الخط ، وأن يقال له أهذا خطك ، فان اعترف به يسأل بعد اعترافه عن صحة ما تضمنته فان اعترف بصحته صار مقرا وألزم حكم اقراره . ومن ولاية المظالم من يختبر الخط بخطوطه التى كتبها ويكلفه من كثرة الكتابة ما يمنع من التصنع فيها ، ثم يجمع بين الخطين فاذا تشابها حكم به عليه ، وترفع الشبهة ان كان الخط منافيا لخطه .

ومما يقوى الدعوى أيضا اظهار الحساب بما تضمنت الدعوى وهذا

يكون فى المعاملات .

(م ٢٦ — الماوردى)

فأما ان اعتدلت حال المتنازعين ، وتقابلت بينة المتشاجرين ،
ولم يترجح حجة أحدهما بامارة أو ظنة فينبغي أن يساوي بينهما
فى العظمة ، وهذا مما يتفق عليه القضاء وولاية المظالم ، ثم يختص
ولاية المظالم بعد العظة بالارهاب لهما معا لتساويهما ، ثم بالكشف
عن أصل الدعوى (١٤) .

ولاية الحسبة

- ١ - تعريف الحسبة .
- ٢ - شروط والى الحسبة .
- ٣ - علاقة الحسبة بأحكام القضاء .
- ٤ - علاقة الحسبة بأحكام المظالم .
- ٥ - أعمال المحتسب .

تعريف الحسبة :

الحسبة فى الاسلام ولاية دينية سياسية خاصتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مما ليس من خصائص الولاية والقضاة وأهل الديوان وغيرهم . ويقول « ابن القيم » فى كتاب « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » : وأما الحكم بين الناس فيما لا يتوقف على الدعوى فهو المسند بالحسبة والمتولى والى الحسبة .

ويعرف الماوردى الحسبة بأنها : (١) « أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، ونهى عن المنكر اذا ظهر فعله . قال الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . وكل بشر على وجه الأرض فلا بد له من أمر نهى ، ولا بد أن يأمر وينهى حتى لو أنه وحده . لكان يأمر نفسه وينهاها اما بمعروف واما بمنكر كما قال تعالى : « ان النفس لامارة بالسوء » .

والأصل فى ولاية الحسبة ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، من أنه وقف على طعام به عيب خفى ، فقال لصاحبه : أفلا أظهرت العيب حتى يعرفه الناس ؟ (وخطب قائلاً أيها الناس لا غش بين المسلمين ، من غش فليس منا) ولم يقصر النبى الحسبة على نفسه ، بل أشرك غيره فيها ، فقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية (وهو أحد الذين كتبوا المصحف فى زمن عثمان) بغداد الفتح على سوق مكة ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى

(١) الاحكام السلطانية للماوردى ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، وراجع ايضاً فى ولاية الحسبة : الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن القيم الجوزية المتوفى ٧٥١ هـ . مطبعة الآداب بمصر سنة ١٣١٧ هـ ص ٢١٩ — ٢٢٨ وفى التماموس : حسبه حسابنا وحسبا وحسابا وحسبة . والحسبة بالكسر الاجر واسم من الاحتساب وهو حسن الحسبة حسن التدبير ، واحتساب عليه انكر ومنه المحتسب .

الطائف خرج معه وبقيت الحسبة بعد وفاة النبي • وكان عمر بن الخطاب أول من وضع الحسبة ، وكان يقوم بعمل المحتسب • وقد رأى عمر يضرب جمالا ويقول له : « حملت جملك ما لا يطيق » • ومما يدل على اهتمام السلف بالحسبة ما قاله أبو الدرداء : « ولتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم » •

وقد اعتبر الفقهاء الحسبة أشبه ما تكون بخدمة اجتماعية واقتصادية لسكان المدن ، حيث نلمس فيها بذور النظام البلدي الحالي • ويذهب البعض الآخر ^(١) الى أن ولاية الحسبة فى الفقه الاسلامى تشبه فى الجملة دون التفاصيل النيابة العامة فى النظم الحالية ، والمحتسب من ناحية أصل الفكرة يقوم بعمله الآن بصفة عامة ، النائب العام ووكلاؤه • لأنهم قائمون على مراعاة الحقوق العامة المتعلقة بالمجتمع • فهناك بعض شبه من ناحية الاختصاص اذ وظيفة كل منهما تختص بالنظر فيما يتعلق بالنظام العام والآداب مما لا ينبغي لأحد مخالفته أو الخروج عليه • فالخدمات التى تقدمها ولاية الحسبة للجمهور ، اذن ، خدمات دينية واجتماعية واقتصادية ، وهذا ما سوف نوضحه تفصيلا عند حديثنا عن اختصاص والى الحسبة •

وللمحتسب أن ينيب عنه نوابا فى جميع أنحاء البلاد ، وللمحتسب سلطة تنفيذية مفوضة الى رأيه ، وهو ما عرف بالتعزير ، الذى هو نوع من العقاب لم يقرره القرآن ، بل اتفق عليه معظم الفقهاء • وكان القضاء والحسبة يسندان فى بعض الأحيان الى رجل واحد ، مع ما بين العملية من التباين : فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، أما عمل المحتسب فمبنى على الشدة والسرعة فى العمل •

(٢) راجع : القضاء فى الاسلام للاستاذ محمد سلام مذكور ص ١٥٣

وما بعدها •

شروط والى الحسنية :

ويشترط الماوردي^(١) فى الشخص ليكون أهلا لتولى هذه الوظيفة أن يكون خرا غدلا ذا رأى وصرامة وخشونة فى الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة ، وأن يكون عالما من أهل الاجتهاد فى الدين ليجتهد رأيه فيما اختلف فيه • ويجوز أن يكون المحتسب من غير أهل الاجتهاد اذا كان عارفا بالمنكرات المتفق عليها • كما ينبغى لأمر الحسبة أن يكون عارفا بأطوار الناس وطبقاتهم وخيارهم وشرارهم ، ويعرف أهل الحرف والصنائع ، ووجوه المكاسب والغشوش •

وينبغى أن يتطوع كل مسلم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا ما يذهب اليه جمهور الفقهاء من وجوب ذلك على كل مسلم قادر لقوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر » • الا أن قلة من الفقهاء ترى أن ولاية الحسبة لا تجب الا بتفويض من ولاية الأمر لما فيها من ولاية وأحكام •

ويقول الماوردي أن الحسبة وإن صحت من كل مسلم ، الا أن الفرق بين المتطوع والمحتسب تسعة أوجه : (٢)

١ — أن فرضه متعين على المحتسب بحكم الولاية ، وفرضه على غيره داخل فى فروض الكفاية •

٢ — أن قيام المحتسب به من حقوق نصرته الذى لا يجوز أن يتشاغل عنه ، وقيام المتطوع به من نوافل عمله الذى يجوز أن يتشاغل عنه بغيره •

(٣) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٢٠٩ ، وراجع : كتاب فى السياسة للوزير المغربى ص ٧٢ ، والعقد الفريد للملك التسعيد لابی سبالم محمد بن طلحة الوزير ص ١٧٩ وما بعدها •

(٤) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٢٠٨ — ٢٠٩ •

٣ — أنه منصوب للاستعداد اليه فيما يجب انكاره ، وليس المتطوع منصوبا للاستعداد .

٤ — أن على المحتسب اجابة من استعداه ، وليس على المتطوع اجابته .

٥ — أن عليه أن يبحث عن المنكرات الظاهرة ليصل الى انكارها ، ويفحص عما ترك من المعروف الظاهر ليأمر باقامته ، وليس على غيره من المتطوعة بحث ولا فحص .

٦ — ان له أن يتخذ على انكاره أعوانا لأنه عمل هو له منصوب واليه مندوب ليكون له أقهر وعليه أقدر ، وليس للمتطوع أن يندب لذلك أعوانا .

٧ — ان له أن يعزر^(٣) في المنكرات الظاهرة لا يتجاوز الى الحدود ، وليس للمتطوع أن يعزر على منكر .

٨ — ان له أن يرتزق على حسبته من بيت المال ، ولا يجوز للمتطوع أن يرتزق على أنكار منكر .

٩ — ان له اجتهاد رأيه فيما تعلق بالعرف دون الشرع كالمقاعد في الأسواق واخراج الأجنحة فيه فيقر وينكر من ذلك ما أداه اجتهاده اليه ، وليس هذا للمتطوع .

(٥) التعزير : التعزير عند الفقهاء هو ما عدا العقوبات المقررة في الحدود . فهو عقوبة يقدرها القاضي أو يقدرها القانون المتواضع عليه في صورة تتفاوت في شدتها حسب درجات الجريمة ومبلغ خطرها وحسب اختلاف المجرمين أنفسهم وما يكفى لردعهم ، ويكون بالحبس والجلد والنفى والتأنيب . . وما الى ذلك (راجع كتاب) : اثتعزيز في الاسلام للدكتور عبد العزيز عامر . وكتاب « حقوق الانسان في الاسلام » للدكتور على عبد الواحد وافى صفحات ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦) .

علاقة الحسبة بأحكام القضاء :

ووضع الحسبة أن تكون خادمة لمنصب القضاء ، كما تعتبر الحسبة أيضا واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم • وأحيانا كانت وظيفة المحتسب تسند الى القاضى على ما فى ذلك من تعارض بين الوظيفتين حيث أن عمل القاضى يغلب عليه الأناة والانتظار ، وعمل المحتسب يتطلب منه سرعة الفصل فيما يعرض عليه من أمور •

ويتحدث الماوردى عما بين الحسبة وبين القضاء فيقول إنها موافقة لأحكام القضاء من وجهتين ، ومقصورة عنه من وجهتين ، وزائده عليه من وجهتين :

والوجهان اللذان توافق الحسبة أحكام القضاء :

١ — جواز الاستعداد اليه وسماعه دعوى المستعدى على المستعدى عليه فى حقوق الآدميين فيما يتعلق ببخس وتطبيقات فى كيل أو وزن • وبغش أو تدليس فى مبيع أو ثمن ، وبمطل وتأخير لدين مستحق مع المكنة لأن موضوع الحسبة الزام الحقوق والمعونة على استيفائها •

٢ — ان له الزام المدعى عليه للخروج من الحق الذى عليه ، وهذا فى الحقوق التى جاز له سماع الدعوى فيها •

وتقتصر الحسبة عن أحكام القضاء من وجهين :

١ — قصورها عن سماع عموم الدعاوى الخارجة عن ظواهر المنكرات من الدعاوى فى العقود والمعاملات وسائر الحقوق والمطالبات فلا يجوز أن ينتدب لسماع الدعوى لها ولا أن يتعرض للحكم فيها •

٢ — أنها مقصورة على الحقوق المعترف بها ، فأما ما يتداخله التجاحد والتناكر فلا يجوز له النظر فيه ، لأن الحاكم فيها يقف على سماع بيئة واحلاف يمين ، ولا يجوز للمحتسب أن يسمع بيئة على اثبات

الحق ولا أن يحلف يميناً على نفى الحق والقضاة والحكام بسماع البينة
واحلاف الخصوم أحق *

وأما الوجهان اللذان تزيد فيهما الحسبة على أحكام القضاء فهما :

١ — أنه يجوز للناظر فيها أن يتعرض لتصفح ما يأمر به من المعروف
وينهى عنه من المنكر وإن لم يحضره خصم مستعد ، وليس للقاضي أن
يتعرض لذلك إلا بحضور خصم يجوز له سماع الدعوى منه فإن تعرض
القاضي لذلك خرج عن منصب ولايته وصار متجاوزاً في قاعدة نظره *

٢ — أن للناظر في الحسبة من سلطة السلطنة واستطالة الحماية فيما
تعلق بالمنكرات ما ليس للقضاة لأن الحسبة موضوعة للرهبنة ، والقضاء
موضوع للمناصفة * (١)

علاقة الحسبة بأحكام المظالم :

تشبه الحسبة المظالم من وجهين ، وتفترق عنها بعد ذلك في
وجين :

يجمع بين الحسبة والمظالم وجهان .

١ — موضوعهما مستقر على الرهبة المختصة بسلطة السلطنة وقوة
الصرامة *

٢ — تعرضها لأسباب المسالمة والمتطلع إلى إنكار العدوان
الظاهر *

ثم يفترقان بد ذلك من وجهين :

١ — النظر في المظالم موضوع لما عجز عنه القضاء ، والنظر في
الحسبة موضوع لما رفته عنه القضاء ، ولذلك كانت رتبة المظالم أعلى
ورتبة الحسبة أخفض *

(٦) الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢١٠ .

٢ — يجوز لوالى المظالم أن يحكم ، ولا يجوز لوالى الحسبة أن يحكم (٢) .

أعمال المحتسب :

تتلخص أعمال المحتسب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمحافظة على الآداب العامة ومراعاة الفضيلة والأمانة ، ومعاينة من يعيب بأحكام الشرع أو يرفع الأثمان ، ويمنع كل ما من شأنه المضايقة فى الطرقات العامة من بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور ، ويمنع الحمالين وأهل السفن من الاكثار من الحمل * ويكشف على الموازين والمكاييل تجنبا للتطيف * ويحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ، وازالة ما يتوقع منها من أضرار ، ويمنع التعدى على حدود الجيران وارتفاع مباني أهل الذمة على مباني المسلمين .

ويجمل ابن خلدون فى مقدمته (١) اختصاص والى الحسبة فى هذه العبارة فيقول : « ويبحث عن المنكرات ، ويعزر (يزجر) ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة : مثل المنع من المضايقة فى الطرقات ، ومنع الحمالين وأهل السفن من الاكثار فى الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ، وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المعلمين فى المكاتب وغيرها فى الابلاغ فى ضربهم للصبيان المتعلمين * ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد ، بل له النظر والحكم فيما يصل الى عمله من ذلك ويرفع اليه وليس له امضاء الحكم فى الدعاوى مطلقا فيما يتعلق بالغش والتدليس فى المعاش وغيرها ، وفى المكاييل أو الموازين وله أيضا حمل الماطلين على الانصاف ، وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ حكم * وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها وسهولة أغراضها ، فتدفع الى صاحب

(٧) المصدر السابق ص ٢١٠ .

(٨) المقدمة ٢/٧٤٦ .

هذه الوظيفة ليقوم بها ، فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء» •

وقد بين الماوردي اختصاصات والى الحسبة (أعمال المحتسب)
فى الأحكام السلطانية ^(٩) فقال انها تشتمل على فصلين : أحدهما :
الأمر بالمعروف ، والثانى : النهى عن المنكر •

فأما الأمر بالمعروف فينقسم الى ثلاثة أقسام : أحدها : ما يتعلق
بحقوق الله تعالى • والثانى : ما يتعلق بحقوق الآدميين ، والثالث :
ما يكون مشتركاً بينهما •

فأما المتعلق بحقوق الله عز وجل فضربان : أحدهما يلزم الأمر به
فى الجماعة دون الانفراد كترك الجمعة فى وطن مسكون • وأما أمرهم
بصلاة العيد فله أن يأمرهم بها • وإذا اجتمع أهل بلد أو محلة
على تعطيل الجماعة فى مساجدهم وترك الأذان فى أوقات صلواتهم كان
المحتسب مندوباً الى أمرهم بالأذان والجماعة فى الصلوات • فأما من ترك
صلاة الجمعة من آحاد الناس أو ترك الأذان والاقامة لصلاته فلا
اعتراض للمحتسب عليه اذا لم يجعله عادة وألغا لأنها من الذنب الذى
يسقط بالاعذار الا أن يجعله ألفاً وعادة ويخاف تعدى ذلك الى غيره
فى الاقتداء به فيراعى حكم المصلحة به فى زجره عما استهان به من
سنن عبادته • وأما ما يأمر به آحاد الناس (وأفرادهم فكتأخير الصلاة
حتى يخرج وقتها فيذكر بها ويأمر بفعلها •

وأما ما يتعلق بحق الآدميين من الأمر بالمعروف فضربان عام وخاص :
فأما العام : فكالمبالدا اذا تعطل شربه أو استهدهم سوره أو كان يطرقه
بنو السبيل من ذوى الحاجات فكفوا عن معونتهم فان كان فى بيت المال

(٩) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٢١١ — ٢٢٤ ، وراجع : الحسبة
فى الاسلام لابن تيمية ص ٩ وما بعدها ، والطرق الحكمية فى السياسة
الشرعية لابن القيم الجوزية ص ٢١٩ — ٢٢٣ وما بعدها •

ما لم يتوجه فيه ضرر أمر باصلاح شربهم وبناء سورهم وبمعرفة بنى السبيل فى الاجتياز بهم لأنها حقوق قد تلزم بيت المال دونهم وكذلك لو استهدمت مساجدهم وجوامعهم فأما اذا اعوز بيت المال كان الأمر ببناء سورهم واصلاح شربهم وعمارة مساجدهم وجوامعهم ومراعاة بنى السبيل فيهم متوجها الى كافة ذوى المكنة منهم ولا يتعين أحدهم فى الأمر به وان شرع ذوو المكنة منهم ولا يتعين احدهم فى الأمر به وان ذوو المكنة فى عمله وفى مراعاة بنى السبيل وباشروا القيام بها سقط عن المحتسب حق الأمر به ولم يلزمهم الاستئذان فى مراعاة بنى السبيل ولا فى بناء ما كان مهدوما *

وأما ان كان حقا خاصا كالحقوق اذا مطلّت والديون اذا أخرت فللمحتسب أن يأمر بالخروج منها مع المكنة اذا استعداه أصحابها ، وليس له أن يحبس بها لأن الحبس حكم *

أما الأمر بالمعروف المتعلق بالحقوق المشتركة بين الله تعالى والآدميين فكأخذ الأولياء بنكاح الأيامى من أكفائهن اذا طلبن ذلك ، والزام النساء العدة اذا فورقن * ويأخذ السادة بحقوق العبيد والاماء ، وأن لا يكلفون من الأعمال ما لا يطيقون ، كذلك أرباب البهائم يأخذهم بعلوفتها اذا قصرُوا فيها وأن لا يستعملوها فيما لا تطيق *

وفيما يتعلق بالنهى عن المنكرات فيقسمه الماوردى ثلاثة أقسام : أحدها ، ما كان من حقوق الله تعالى * والثانى ، ما كان من حقوق الآدميين * والثالث ، ما كان مشتركا من الحقين *

فأما النهى المتعلق بحقوق الله تعالى فعلى ثلاثة أقسام أحدها : ما يتعلق بالعبادات * والثانى : ما يتعلق بالمحظورات * والثالث : ما يتعلق بالمعاملات *

فأما المتعلق بالعبادات ، فكالقصد مخالفة هيأتها المشرعة وتغيير أوصافها المسنونة مثل من يقصد الجهر فى صلاة الاسرار ، والاسرار فى صلاة الجهر أو يزيد فى الصلاة أو فى الآذان فللمحتسب انكارها وتأديب

المعاند فيها • ومن يراه يأكل في شهر رمضان لم يقدم على تأديبه الا بعد سؤاله عن سبب أكله اذا التبتت أحواله فربما كان مريضا أو مسافرا ويلزمه السؤال اذا ظهرت منه امارات الريب • وان رأى رجلا يتعرض لمسألة الناس في طلب الصدقة وعلم أنه غنى اما بمال أو عمل أنكره عليه وأدبه فيه • واذا وجد من يتصدى لعلم الشرع وليس من أهله انكر عليه التصدى لما ليس هو من أهله • واذا تعرض بعض المفسرين لكتاب الله تعالى بتأويل عدل فيه عن ظاهر التنزيل الى باطن بدعة أو تفرد بعض الرواة بأحاديث مناكير تنفر منها النفوس أو يفسر بها التأويل كان على المحتسب انكار ذلك والمنع منه •

وأما ما تعلق بالمحظورات فهو أن يمنع الناس من مواقف الريب ومظان التهمة فلقد قال النبي صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك الى ما لا يريبك فيقدم الانكار • فاذا رأى وقفه رجل مع امرأة في طريق سابل لم تظهر منهما امارات الريب لم يعترض عليهما بزجر ولا انكار فما يجد الناس بدا من هذا ، وان كانت الوقفة في طريق خال فخلو المكان ريبة فينكرها ولا يعجل بالتأديب عليها حذرا من أن تكون ذات محرم • واذا جاهر رجل باظهار الخمر فان كان مسلما أراقها عليه وأدبه وان كان ذميا أدبه على اظهارها • وأما السكران اذا تظاهر بسكره أدبه على السكر • وأما ما لم يظهر من المحظورات فليس للمحتسب أن يتجسس عنها ولا أن يهتك الأستار حذرا من الاستتار بها •

وأما المعاملات المنكرة كالزنا والبيع الفاسدة وما منع الشرع منه فعلى والى الحسبة انكاره والمنع منه • ومما يتعلق بالمعاملات غش المبيعات وتدليس الأثمان فينكره ويمنع منه ويؤدب عليه بحسب الحال فيه • وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس منا من غش • ومما هو عمدة نظره المنع من التطفيف والبخس في المكايل والموازين والصنجات •

وأما ما ينكر من حقوق الآدميين المحضة فمثل أن يتعدى رجل حد جاره أو حريم داره أو في وضع أجذاع على جداره فلا اعتراض للمحتسب

فيه مالم يستعده الجار لأنه حق يخصه فيصح منه العفو عنه فان خاصمه فيه كان للمحتسب النظر فيه ان لم يكن بينهما تنازع وأخذ المتعدى بازالة تعديه وكان له تأديبه عليه بحسب شواهد الحال • واذا تعدى مستأجر على أجير فى نقصان أجر أو استزادة عمل كفه عن تعديه ، وكان الانكار عليه معتبرا بشواهد الحال •

وأما ما ينكر من الحقوق المشتركة بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين فكالمنع من الاشراف على منازل الناس ، ولا يلزم من علا بناءه أن يستتر سطحه وانما يلزم أن لا يشرف على غيره • واذا كان فى أئمة المساجد السابلة والجوامع الحفلة من يطيل الصلاة حتى يعجز عنها الضعفاء وينقطع بها ذوو الحاجات أنكر ذلك عليه • واذا كان فى القضاء من يحجب الخصوم اذا قصدوه ويمتنع من النظر بينهم اذا تحاكموا اليه حتى تنقف الأحكام ويستنصر الخصوم فللمحتسب أن يأخذه بما ندب له من النظر بين المتحاكمين وفصل القضاء بين المتنازعين • واذا كان فى أرباب المواشى من يستعملها فيما لا تطبق الدوام عليه أنكره المحتسب عليه ومنعه منه • وللمحتسب أن يمنع أرباب السفن من حمل ما لا تسعه ويخاف منه غرقها وكذلك يمنعهم من المسير عند اشتداد الريح • واذا كان فى الأسواق من يختص بمعاملة النساء راعى المحتسب سيرته وأمانته • وينظر الى الحسبة فى مقاعد الأسواق فيقرر منها ما لا ضرر فيه على المارة ويمنع ما استنضره المارة • ويجتهد المحتسب رأيه فيما ضر وما لم يضر لأنه من الاجتهاد العرفى دون الشرعى ، والفرق بين الاجتهادين أن الاجتهاد الشرعى ما روعى فيه أصل ثبت حكمه بالشرع ، والاجتهاد العرفى ما روعى فيه أصل ثبت حكمه بالعرف •

وقد مر بنا أن الحكام الأوائل فى الاسلام كانوا يباشرون ولاية الحسبة بأنفسهم لا يمانهم بجزيل ثوابها وخطورة مهامها : ولكن الحكام أهملوها على مر الأيام ، حتى « صارت عرضة للتكسب وقبول الرشاء ، فلان أمرها ، وهان على الناس خطرها » •

الفصل السادس

اتجاهات وأفكار اشتراكية

- ١ — تمهيد :
- ٢ — المال والعمل :
- ٣ — الزكاة :
- ٤ — الفئء والغنائم :
- ٥ — الجزية والخراج :
- ٦ — احياء الموات والاقطاع :
- ٧ — الحمى :
- ٨ — الملكية العامة لأدوات الانتاج (المنافع العامة) :
- ٩ — المنهى عن اساءة استعمال المال :

اتجاهات وأفكار اشتراكية :

نخصص هذا الفصل الحديث عن بعض اتجاهات الاسلام الاشتراكية كما عبر عنها الماوردي وضمنها كتابيه « الاحكام السلطانية » و « نصيحة الملك » . والحق ان أفكار الماوردي واتجاهاته الاشتراكية تقوم على أسس اسلامية ، ولا عجب في ذلك فقد استمد الماوردي هذه الافكار من تعاليم القرآن ، وتوجيهات السنة الحنيفة ، واجتهادات الصحابة رضي الله عنهم والسلف الصالح .

(تمهيد :) :

من المعلوم أن الاسلام عني عناية كبيرة بالأموال والمعاملات بين البشر ، ويعد نظامه الاقتصادي بمثابة تخطيط دقيق وتنظيم علمي متكامل . وتهدف تعاليم الاسلام الى تحقيق العدالة الاجتماعية وتوفير الرفاهية والسعادة لجميع الأفراد ومن هنا فانها تعمل ، ضمن ما تعمل ، على الحيلولة دون تكدس الثروة في أيدي فئة قليلة ، وتعمل ، أيضا ، على مقاومة الاستغلال ، ومحاربة الاحتكار والأنانية . ولا شك في أن نزعات الاستغلال والاحتكار تعد من أقوى الأسباب المعاكسة للعدالة الاجتماعية والديمقراطية السليمة .

ان هدف الفكر الاشتراكي ، على اختلاف صوره وتباين أشكاله ، هو منع الاستغلال ، والاثراء على حساب الجماهير الكادحة ، ومنع استغلال الانسان للانسان يعنى في الواقع تحريره واعتاقه من الأغلال على اختلاف أشكالها وصورها . ويدخل ضمن أهداف الفكر الاشتراكي ضمان اشراف التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع بحيث يقضى على فعالية الفرد الاقتصادية بما يتفق وحاجات الجماعة ، وتحقيق التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع بحيث يقضى على مظاهر المفاقة والعوز والتفاوت غير العادل في توزيع الثروات . وقريب من هذا تعريف

الفيلسوف الانجليزى « برتراند رسل » للاشتراكية بأنها : « هى الملكية الجماعية لرأس المال داخل اطار من الحكم الديمقراطى ، هى تعنى الانتاج الموجه لاشباع الحاجات لا لتحقيق الربح * * وتوزيع السلع بروح المساواة أى عدم اقرار التفاوت الذى لا تسوغه المصلحة العامة * * » (١) .

وكل هذه الأهداف تضمنها الاسلام . فقد جاء أصلا لاصلاح أحوال المجتمع ، ومنع الفساد ، والقضاء على أى أثر للفروق الاجتماعية وتحقيق العدالة بين الجماهير الكادحة * * * وعلى ذلك فان الاسلام هو دين الاشتراكية اذا كانت الاشتراكية تعنى تحقيق مثل العدالة والاخاء والتعاون والرفاهية الاجتماعية * وليس الاسلام بدين الرأسمالية ، ولا يمكن أن يكون كذلك اذا كانت الرأسمالية تسفر عن ظلم اجتماعى واستغلال (٢) .

وأوضح ما يميز شريعة الاسلام النزعة الجماعية ، فهى تجعل من المجتمع الحقيقة الأولى ، منه تنبعث شتى الحقوق الفردية وتمارس مقيدة بمصلحة : « والشريعة الاسلامية تغاير فى هذا الشريعة الرومانية القديمة الفردية النزعة ، فلقد كانت الشريعة ترى فى الملكية الفردية حقا مطلقا يخول لصاحبه أقصى سلطة يمكن تخويلها للانسان على الأشياء ، الأمر الذى جعلها تستجيب لنزعات البرجوازية النامية فى أوروبا * فى العصور الحديثة حتى اذا تم لها النصر فى عام ١٧٨٩ فى فرنسا أحييت تلك الشريعة الرومانية فجاءت مجموعة نابليون المدنية لتؤكد بأن الملكية الفردية « حق » يخول لصاحبه سلطة استعمال الشئ واستغلاله والتصرف فيه ، بمنأى عن كل رقابة من جانب المجتمع * ولقد شكل هذا المفهوم

(١) الاشتراكية بقلم جورج بورجان وبيير ريبير ترجمة الدكتور حسن صادق ص ٦٧ .

(٢) الاشتراكية المذهب والتطبيق ، للدكتور محمد يحيى عويس ، مطبعة الرسالة بالقاهرة ١٩٦٦ - ص ٤٨ .

القانونى للملكية الفردية ركيزة النظام الرأسمالى بملكيتة الفردية المنطلقة لأدوات الانتاج وما يرتبط بذلك من ضرورة امتناع الدولة عن التدخل: فى النشاط الاقتصادى لتركه للبرجوازيين لا يمثلون فى شأنه الا لقانون المنافسة الحرة ، وهو قانون يتمثل فى « قيمة » ابتدعها فكرهم من أجل صوالحهم •

ذلك بينما جاء الاسلام جماعى النزعة — وعلى نقيض تلك الشريعة تماما — فعلى مقتضاه تتراجع للجماعة على سلطات الفرد حقوق الى حد استنفاد بعض هذه السلطات أن اقتضت ذلك المصلحة العليا للمجتمع • أن أوسع سلطة تعطى على الأشياء ، وهى حق الملكية انما يتلقاها الفرد فى المجتمع الاسلامى من هذا المجتمع وليس له بمقتضاها على المال الا مالا حاجة للجماعة به • ذلك بأن المجتمع هو الحقيقة الأولى وهو مصدر الحق واليه مصيره • قال تعالى مخاطبا المالك : «كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تنفقوا فيه » ان هذه الآية الكريمة على ضوء قوله سبحانه « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » تفيد أن الأصل فى المال أنه لله ومن ثم فهو للجماعة التى تستخلف فيه للفرد بدورها على الا يطغى على ما للجماعة عليه •

ثم أن حقوق الجماعة تتراجع على سيطرة الفرد على ماله حتى تستنفده فى بعض الاحيان • وهى بذلك تسترد ما خولته للفرد على المال • قال تعالى مقررًا للجماعة حقوقًا على ما للفرد : « وفى أموالهم حق مغلوم للسائل والمحروم » و « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » و « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » أى حتى تنفقوا من مالكم فى سبيل اسعاد الجماعة : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » « ويسألونك ماذا تنفقون قل العفو » و « خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين » والعفو هو ما زاد عن حاجة صاحب المال •

ان الله سبحانه وتعالى يأمر الفرد المستخلف من الجماعة على ماله بأن يرد اليها ما يربو على حاجته لأنه مستخلف فى المال على هذا البطر ،

ثم ان للجماعة أن تذهب الى حد استرداد كل ما خولقته للفرد على المال كاملا تحقيقا لصالح مشترك « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون *

ذلك فضلا عن أن الله سبحانه وتعالى ، يكلف صاحب المال المستخلف فيه كما هو واضح من الآيات الكريمة المتقدمة بأداء حقوق الجماعة فيه تكليفا كحق لها ، ومن ثم لا تفضلا منه ، ان ما للجماعة على ما يربو عن حاجة الفرد « العفو » انما هو في الاسلام حق لها وليس تفضلا من جانب المستخلف فيه ^(١) * .

فالل مال في الاسلام ، اذن ، مال الله ، والانسان مستخلف فيه بشرط عدم الاضرار بالآخرين ، وفي حالة تحول المال في يد المالك الى أداة لايزاء الآخرين والنحكم في مصائرهم يتعين على ولى الأمر (الامام أو الحاكم) التدخل واعطاء المال لمن يحسن القيام عليه وافادة المجتمع منه * وتحرم الشريعة الاسلامية تحريما واضحا الربا والاستغلال ، وتقرر أن من حق ولى الأمر أخذ فضول أموال الاغنياء وردھا على الفقراء حتى لا يصير المال دولة بين الاغنياء محصورا في أيديهم دون غيرهم * .

وتتميز الاشتراكية الاسلامية بغلبة الطابع الانساني عليها . فقد قامت على أساس من العقيدة والدين والأخلاق ، وهى تجمع بين الحرية والاشتراكية ، وأول مبادئها تقرير المساواة بين الناس أمام الله وأمام القانون ، وأن المؤمنين اخوة يجب أن يظللهم ظل المحبة

(٣) الاشتراكية بين الفكر والتطبيق للدكتور / محمد طه بدوى والدكتور عبد المنعم فوزى ، المكتب المصرى التحديث للطباعة والنشر بالاسكندرية ١٩٦٨ ص ٦٥ — ٦٧ .

والتعاون وينسودهم التضامن • ويؤكد هذا كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول الشريفة - نورد منها على سبيل المثال قوله سبحانه وتعالى : « انما المؤمنون اخوة (٤) » وقوله : « فاضبطتم بتبعيته اخوانا (٥) » • وقوله سبحانه وتعالى : « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة (٦) » • والتفاضل بين بنى البشر انما يكون بالعمل الصالح وبالتقوى ، ويقول تعالى فى ذلك : « يا ايها الناس انا خالقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم (٧) » • ومن احاديث الرسول المؤكدة للمعاني الانسانية فى اشتراكية الاسلام قوله صلوات الله وسلامه عليه : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه » وقوله « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقوله : « ما آمن بى رجل باث سبعان وجارته جائع وهو يعلم » وقوله : « من كان له فضل زاد فليعد به على من لازاد له » وقوله : « أى رجل مات خياعا بين أغنياء فقد برىء منهم الله ورسوله » • وقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم يجعل تمام الايمان هنا متوقفا على محبة الخير للمؤمنين •

ومن المبادئ العامة لاشترائية الاسلام : العدل • والعدل اسم من أسماء الله تعالى ، وصفة من صفاته ، وآية من آياته • ومن معاني العدل القيام بالواجب والمساواة والتسوية والمعرفة • والحكم بالحق حكما عدلا لا يميل الى أحد الجهتين • روى ابن ماجة والبخاري واللفظ له عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « السلطان ظل الله فى الأرض يأوى اليه كل مظلوم من عباده فان عدل كان له الأجر ، وكان على الرعية الشكر ، وان جار أو خاف أو ظلم كان

(٤) الحجرات : ١٠ •

(٥) آل عمران : ١٠٣ •

(٦) انحر : ٩ •

(٧) الحجرات : ١٣ •

على السلطان الوزير وكان على على الرعية الصبر واذا جارت الولاة قحطت السماء ... » • والعدالة بهذا المعنى تقتضى أن لا يرتكب الحاكم أى ظلم : سواء كان متعلقا بالمال ، أو بالحرية ، أو العرض ، أو أى حق من الحقوق : وسواء أكان ظلما بقول أو فعل •

فالعدل هو حجر الأساس فى بناء المجتمع السليم ، والعدالة الاجتماعية بهذا المعنى هى : « العدل فى شتى نواحي الحياة • والعدالة الاجتماعية بمعناها القانونى هى قيام حقوق الأفراد فى جميع النواحي العامة والاجتماعية والاقتصادية ، ورعاية هذه الحقوق بوضع الضمانات التى تكفلها والوسائل التى تحميها ، وذلك مع مراعاة أن هذه الحقوق ليست مطلقة بل مقيدة بالحدود التى تملئها مستلزمات الصالح العام (٨) •

ويدل على المعانى السابقة للعدل قوله تعالى (٩) : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وأن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » وقوله : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون (١٠) » وقوله : « أن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعماء يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا (١١) » وقوله : « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكنموا الحق وانتم تعلمون (١٢) » وقوله : « ولا يجرمنكم شنآن قوم

(٨) العدالة الاجتماعية للمستشار عبد الرحمن نصير ، القاهرة ١٩٦١

ص ٥ •

(٩) النساء : ١٣٥ •

(١٠) المائدة : ٨ •

(١١) النساء : ٥٨ •

(١٢) البقرة : ٤٢ •

على الا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (١٣) وقوله : « والذين فشى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (١٤) وقوله : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتداولوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » (١٥) .

ويذهب البعض الى أن الاشتراكية هي فى الأساس من وضع الاسلام . فقد امتدح المستشرق (دوزى Dosis) ، وهو الراهب البلجيكي المتعصب ، المبادئ الاشتراكية التى نادى بها الاسلام قائلا :

«ان التعاليم الاشتراكية فى الأساس من وضع الاسلام . وانها لتعد وأيم الحق الناحية الحساسة جدا فى صميم قواعد الدين الاسلامى ولها وجهات تنطوى على نبالة فى القصد لازالة ضغط الحاجة الملحة عن الفريق الرقيق الحال فى مجتمعنا البشرى . ويخال الى كلما توغلت فى دراسة الأهداف الشريفة التى نص عليها قرآن المسلمين فيما يتعاق بالحياة الاشتراكية أننى أرى دموع محمد تنسكب على محياه المصوفى كلما ورد اسم الفقير على لسانه أو تحدث اليه متحدث عن فواجع الفقر واهاته ... » (١٦) .

وينتكم الفيلسوف الألمانى (كانت Kant) عن تازينخ الاشتراكية التى وضع الاسلام أركانها الشريفة فيقول (١٧) : أخذت مبادئ (المذاهب الحسية المادية) أى التنكرية أو العقوقية تتضمن فى بعض أرجاء أوروبا بعد ظهور المدنية العربية الاسلامية التى سطع اشراقها من راء جبال (البيرينيه) الى أواسط فرنسا . فتناول طلاب التجدد التعاليم الاجتماعية البارعة التى انبثقت عن الحضارة

(١٣) المائدة : ٨ .

(١٤) الماعارج : ٢٤ — ٢٥ .

(١٥) البقرة : ١٨٨ .

(١٦) الاشتراكية فى الاسلام للاستاذ طه المدور ص ٤ .

(١٧) المصدر السابق ص ٥ — ٦ .

العربية العظيمة وأخذوا فى تبينها فأيقظت فيهم رويدا رويدا شعور مكافحة التنكر والغرور واستبدالها بطلب التجدد وظلت هذه الميول تختمر فى الرعوس حتى ظهرت بوادى الثورة الفرنسية الثانية وأعقبها الثالثة • وماهلت طلائع القرن التاسع عشر حتى تسربت تعاليم الروح الاشتراكية الى المجتمع الاوربى • وكان ذلك أول تقليد شريف للعرب والاسلام تجلبت به أوربا لتخطو خطوتها الكبرى فى سبيل تنظيم حياة شعوبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية •

من ناحية أخرى يذهب البعض الآخر ^(١٨) الى ان لفظة اشتراكية ليست جديدة على المجتمع العربى « فقد أستعملت قبل الاسلام فى ذلك المجتمع القبلى الذى تربط بين أفرادهِ أواصر الدم والقربى والمصالح المشتركة ، والذى يتماسك تماسكا شديدا فى الحياة حتى لا تتخطفه القبائل الأخرى ، التى تتصارع واياه على الموارد الضئيلة للعيش فى بيئة صحراوية مجدبة يشح فيها الخير ويقل الغيث فى بيئة لا مجال فيها لبناء القصور والدور واقتناء الضياع ، وظهور الاقطاع ، وانما تقدر الثروات بعدد ما لدى الرجل من الابل والماشية • وهذه الثروات عرضة للزوال حين تبخل السماء ويشتد القحط والجذب ، أو تنفشى فيها الامراض ، أو يجتاحها الغزاة • ولذلك كانت هيئة عليهم ، يجودون بها كسبا لحسن الأحدوثة والذكر الحسن ، ويواسون بها الفقير واليتيم والجار والضعيف •

على مكثريهم رزق من يعثريهم وعند المقلين السماحة والبذل
فالمال كان عندهم وسيلة لا غاية ، يعلمون أنه الى زوال ، ولذلك حرصوا على كسب المحامد ما دام موجودا •

(١٨). الاشتراكية والاسلام للاستاذ عمر الدسوقي ، محاضرة القيت ضمن المحاضرات العامة لجامعة القاهرة لعام ١٩٦١ / ١٩٦٢ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٢ ص ٨٦ — ٨٧ •

كريم رأى الاقتار عارا فلم يزل أخا طلب للمال حتى تمولا
فلما أفاد المال عاد بفضلته على كل من يرجو جداه مؤملا

ويحدثنا التاريخ أن عروة بن الورد العبسي أوجد مجتمعا اشتراكيا صغيرا يجمع فيه الفقراء ويطعمهم من أفاء الله عليه حتى عرف بعروة الصعاليك وقد عابه بعضهم وعيره بأنه أصبح هزيلا فرد عليه عروة : بأن القيام بالحق أجهد ، حق الجار والفقير والعاجز ، وأن معيره هذا إذا كان سميئا فلانه يأكل وحده ، أما هو فيشترك في انائه مع غيره بل أحيانا يقدم ما لديه من الطعام لهؤلاء الصعاليك ويكتفى هو بالماء القراح حتى في الشتاء حين يحتاج الجسم الى الحرارة والأكل المدسم ويقول لمعيره :

أنهزأ منى أن سمنت وأن ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
وانى امرؤ عافى انائى تسرعة وأنت امرؤ عافى انائك واحد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد
فالعودة بفضول الأموال على المحتاجين ، واشراك الفقراء فى أموال الأغنياء كانت السمة الغالبة على هذا المجتمع القبلى *

المال والعمل

(المال) من المعلوم أن الاقتصاد ، أيا كان لونه ، يقوم على دعامتين اثنتين هما المال والعمل • وقد اهتم الماوردى اهتماما كبيرا بتوضيح أهمية المال والدور الذى يلعبه فى الحياة • ويشمل المال كل ما سخره الله لنا من خير فى البر والبحر فى ظاهر الأرض وفى باطنها ولا عجب ، اذا ، أن يكون للمال عند الماوردى قيمة كبيرة ، ومكان مرموق •

يقول الماوردى فى كتابه « نصيحة الملوك » (١٩) ، وهو مخطوط نادر :

« جعل الله تعالى الأموال قواماً للأبدان ، وتلوا للأنفس ، وسببالبقاء الاجسام وحياة للبشر ، وآلة لطلب المعالى ، وأداة لنيل الأمانى وزينة للحياة الدنيا ، وطريقا الى النجاة فى الآخرة والأولى وأكد فيها الأحكام ، وبين فيها الحلال من المحرام ، وجعل فيها من التعبد حظا وافرا وقسطا كاملا ، فقد قال فى تعظيم منزلته واعلاء درجته وبيان حاجة الجميع اليه وانتفاعهم به : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » وقال : « وانه لحب الخير لشديد » وقال : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » وقال : « لتبذلون فى أموالكم وأنفسكم » •

ويقول فقيه الاسلام المرحوم الشيخ محمود شلتوت فى ذلك (٢٠) :
« ليس من ريب فى أن كل ما تتوقف عليه الحياة فى أصلها وكمالها ، وسعادتها وعزها ، من عام وصحة وقوة ، واتساع عمران وسلطان ، لا سبيل اليه الا بالمال •

وقد نظر القرآن الكريم الى الأموال هذه النظرة الواقعية فوصفها بأنها زينة الحياة ، وسوى فى ذلك بينها وبين الأبناء ووصفها بأنها قوام للناس ، وقوام الشئ ما به يحفظ ويستقيم ، وهى — كما نرى — قوام المعاش والمصالح الخاصة والعامة » •

وتقرر عقيدة الاسلام أن المال بكل صوره وأشكاله ملك لله تعالى ، خالقه وخالق السموات والأرض وما بينهما ، وأن الانسان فيما لديه من المال مستخلف فيه (فالعملية عملية استخلاف) ، والملكية ملكية بالانابة لا ملكية بالاصالة ، ويوضح ذلك كثير من آيات القرآن الكريم نذكر منها قوله تعالى :

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا (٢١) » •

(٢٠) الاسلام عقيدة وشريعة ص ٢٢١ •

(٢١) البقرة : ٢٩ •

- « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم (٢٢) »
- « وآمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (٢٣)
- « لله ملك السموات والأرض وما بينهما (٢٤) »
- « ذلکم الله ربکم لا إله إلا هو خالق كل شيء (٢٥) »
- « قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون (٢٦) »
- « قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فأنى تسخرون (٢٧) »
- « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين (٢٨) »
- ويقول فقيد الاسلام الشيخ محمود نسلتوت رحمه الله (٢٩) :
- « واذا كان المال مال الله . وكان الناس جميعا عباد الله ، وكانت الحياة التى يعملون فيها ويعمرونها بمال الله ، هى لله . . . كان من الضرورى أن يكون المال - وان ربط باسم شخص معين - لجميع عباد الله ، يحافظ عليه الجميع ، وينتفع به الجميع ، وقد أرشد الى ذلك قسوله تعالى : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) . ومن هنا أضاف القرآن الأموال الى الجماعة وجعلها قواما لمعيشتهم (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) (ولا توتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) .

(٢٢) النور : ٣٣ .

(٢٣) الحديد : ٧ .

(٢٤) المائدة : ١٧ .

(٢٥) الانعام : ١٠٢ .

(٢٦) المؤمنون : ٨٨ .

(٢٧) المؤمنون : ٨٨ .

(٢٨) الاعراف : ١٢٨ .

(٢٩) منهج القرآن فى بناء المجتمع ص ٨٩ .

ويقول الشيخ شلتوت فى تفسير الآية الأخيرة (٣٠) « ولنفق عند قوله تعالى : (ولا تؤتوا المسفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) لنعلم ما يوحى به من تكافل الأمة ومسئولية بعضها عن بعض ، ومن أن المال الذى فى يد بعض الأفراد « قوام للجميع » ، ينتفعون به فى المشروعات العامة ، ويفرجون به أزماتهم وضائقتهم الخاصة عن طريق الزكاة ، وعن طريق التعاون وتبادل المنافع .. وهذا هو الوضع المالى فى نظر الشريعة الاسلامية ، فليس لأحد أن يقول : مالى مالى ، هو مالى وحدى ينتفع به سوى .. ليس لأحد أن يقول هذا أو ذاك ، فالمال مال الجميع ، ينتفع به الجميع عن الطريق الذى شرعه الله فى سد الحاجات ورفع الملهمات وهو ملك لصاحبه يتصرف فيه لا كما يشاء ويهوى ، بل كما رسم الله وبين فى كتابه ، حتى اذا ما أخل بذلك فأسرف وبذر أو ضن وقتل حجر عليه ، أو أخذ منه قهرا عندما يرى الحاكم أخذه من مثله » •

يقول الماوردى : « لا يجوز لمن أخذ فى الدنيا بالحزم وحكم فى أموره العقل أن يبيع دينه بدنياه وآخرته بأولاه اذ لا مقدار للدنيا فى الآخرة ولا خطر لها فى جنب الدين ولا يأخذ المال الا من حقه ولا يضعه الا فى موضعه فان الله جل وعز قد أغلظ الوعيد على مستحله وأكد النهى عن الظلم فيه فقال : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » (٣١) • فأساس المبادلات (٣٢) المالية وعمدتها فى الاسلام الارتباط بالالتزامات ، والوفاء بالحقوق ، وعدم أكل الناس بالباطل •

(٣٠) تفسير القرآن الكريم ص ١٩١ •

(٣١) نصيحة الملوك ، ورقة ٦٨ •

(٣٢) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت ص ٢٣٨ •

ومعنى ذلك ، عند الماوردى ، أنه يجب على مالك المال أن يسير حسب الدستور الذى وضعه الله سبحانه وتعالى منفذا بذلك ما أمرت به تعاليمه الخلقية : ودون انحراف باستخدام المال عن الطريق الحلال .

وتوضح لنا الفقرة التالية الفرق بين وضع المال فى المجتمع الاسلامى ووضعه فى غيره من المجتمعات : « الخلاصة أن ملكية الله للمال هى الملكية الأصلية ، وملكية البشر للمال هى الملكية المشتقة ولا تناقض بين النسبتين ، وإذا فالاسلام — فى نطاق هذا المعنى — يعترف بملكية المال لأفراد البشر ، يعترف بحق المالك فى الانتفاع بملكه ، وحق التصرف فيه طوال حياته وبعد مماته ، كما يحميه حماية ناجعة من كل اعتداء على ملكه من الغير أو من السلطة العامة ، حتى أن الدولة إذا أرادت لمصلحة الجماعة أن تنتزع ملكية ماله فعليها أن تؤدى عن ملكه تعويضا عادلا ، وفى هذا يختلف الاسلام عن المذهب الشيعى الذى لا يعترف بالملكية الخاصة فى مصادر الانتاج ، ويتعارض بهذا القدر مع غريزة الانسان الفطرية فى حب التملك ، ويتجاهل بهذا القدر حافظا أساسيا فى توجيه النشاط الاقتصادى .

كذلك يختلف نظام الملكية فى الاسلام عن نظيره . فى الاقتصاد الرأسمالى ، حيث يكون للمالك السلطان المطلق فيما يملك بغير أى قيد عليه ، أما الاسلام فيفرض طائفة من التكاليف والالتزامات على المالك لمصلحة المجتمع وهذه التكاليف والالتزامات قابلة للقبض والبسط فتضيق وتتسع على ضوء الضرورات المحيطة بالمجتمع الذى يحيا فيه المالك » (٣٣) .

(٣٣) الاقتصاد الاسلامى والاقتصاد المعاصر بحث القاه الدكتور محمد عبد الله انعربى فى المؤتمر الثالث لجمع البحث الاسلامية بالقاهرة اكتوبر ١٩٦٦ ص ٢١٧ .

(العمل)

ويرفض الماوردي ارتكاز الدخل الفردي الى غير العمل ، ويرفض رفضا قاطعا أن يكون الكسب عن غير هذا الطريق • ويعد العمل من أهم دعائم الفكر الاشتراكي ، وهو أهم معيار لتقييم الانسان في المجتمع ، وبالعالم يستطيع الانسان أن يتجنب شتى ألوان الاستغلال ويؤكد هذا قول البعض بأن « نجاح المجتمع الاشتراكي يتوقف على مدى اقبال مواطنيه على العمل وتفانيهم فيه » (٣٤) •

ويستشهد الماوردي بالأحاديث النبوية لتأكيد قيمة العمل وأنها السبيل الوحيد للحصول على الدخل فيقول في كتابه « نصيحة الملوك » (٣٥) « روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من لم يبالي من حيث كسب المال لم يبالي الله من حيث أدخله النار • وقال : لن ييرح قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع بشيابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين كسبه وفيما نفقه ، وعن علمه فيما عمل به » • وسوف يتضح لنا أكثر تأكيد الماوردي لقيمة العمل عند حديثنا عن الاقطاع واحياء الأرض الموات ، والاقطاع هو تملك الامام أو الحاكم أرضا لأمالك لها لانسان يقوم بتعميرها واستغلالها ، واحياء الموات بقصد الافادة منها ، إنما يكون ، أيضا ، عن طريق العمل والكدح •

ويلتزم الماوردي فيما ينادي به تعاليم الاسلام التي تحرم البطالة وتفرض العمل على كل فرد في المجتمع ، وأفضل وجوه الكسب في الاسلام عمل الرجل بيده • يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده » ، وأن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » ويقول : « أطيب الكسب عمل الرجل

(٣٤) راجع الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية لجوزيف شومبتر تعريب خيرى حماد ١/ ٢٨٠ •
(٣٥) ورقة ٦٨ •

بيده « رواه احمد والحاكم • ويقول : « ان اسرف الكسب كسب الرجل من يده » رواه الامام احمد • ويقول سبحانه وتعالى : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » (٣٦) • ويقول تعالى : « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » (٣٧) • ويقول تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٣٨) • ويقول تعالى : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » (٣٩) •

ومعنى هذا أن العمل الذي يأمر به الاسلام هو العمل الصالح الذي يهدف به صاحبه تحقيق مصلحة بشرط أن لا تتعارض مع المصلحة العامة للمجتمع ، ومن ثم قرن الله سبحانه وتعالى العمل الصالح ، بالايمان ، وقد ورد ذكر العمل في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمائة مرة مقرونا بالايمان ، فكلما ذكر الايمان ذكر معه العمل الصالح ، « والعمل الصالح ، تعبير شامل ، يشمل البر المباشر من جانب ، ويشمل من جانب آخر البر غير المباشر ، وهو الذي يتمثل في كل عمل يدخل في نطاق أوضاع النشاط الاقتصادي ، ويؤدي التنافس في اجادته الى خفض تكاليف الانتاج وتحسين وسائل الانتاج ، مما يمكن المستهلك من الحصول على مطالبه من السلع أو الخدمات بثمن أقل • فهذه حسنة يؤديها المسلم الى بيئته ، والتنافس فيها بين المسلمين محمود ومطلوب ، بعكس الاحتكار وما يفضي اليه من غلاء فمكروه ومنهى عنه (٤٠) » •

(٣٦) تبارك : ١٥ •

(٣٧) يس : ٣٤ •

(٣٨) النحل : ٩٧ •

(٣٩) الرعد : ٣٩

(٤٠) الملكية الخاصة وحدودها في الاسلام للدكتور محمد عبد الله العربي بحثا القى في المؤتمر الاول لمجمع البحوث الاسلامية بانقاهرة مارس ١٩٦٤ ص ١٥٢ •

(م ٢٨ — الموردي)

وييغض الاسلام الفقر ، ويحث المسلم على العمل الجاد الصالح لأنه الطريق الى مكافحة الفقر ، وكل مسلم مكلف بمباشرة عمل نافع صالح لنفسه وللمجتمع ، وقيمة كل امرئ في الاسلام ما يعمله ، فالعمل يعتبر بحق رأس مال كل انسان ومناط سعادته . ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد في موضوع علاج الاسلام لمشكلة الفقر (٤١) : « والاسلام لا يحل مشكلة الفقر بالصدقات المفروضة على الأغنياء لمعونة المحرومين والمعوزين ، ولكنه جعل هذه الصدقات منذ ألف وأربعمائة سنة لن جعلتها لهم دول العصر الحديث من العجزة والمرضى والشيوخ والمنقطعين وحل مشكلة الفقر « أولا » بخلق القداسة التي كانت تجلله في كثير من الأديان ، ثم حلها بايجاب العمل على القادرين وايجاب تدبيره على الامام المسئول لكل قادر عليه » .

وأخيرا نقول انه لا تفاضل بين الناس في المجتمع الاسلامي بغير الأعمال ، والكفاية وحدها والمقدرة وحدها هما معيار أهلية الفرد « وبذلك كفل الاسلام تحقيق مبدأ مساواة الفرص بين الكافة تحقيقا أساسه تحريم أى امتياز يستمد مدعيه من حكم القانون أو من سيطرة ذوى السلطان ، وهدفه ضمان حرية العمل وتحرير السعى المشروع من كل عقبة تعوق انطلاقه » (٤٢) . ويقول الأستاذ العقاد : « يقوم المجتمع الانساني على المساواة بين الناس بغير تفرقة بين الأنساب » والألوان والأجناس ، ولا تمنعه المساواة أن يعطى المزايا النافعة حقها من الانصاف لمصلحة المنتفعين بتلك المزايا في جميع الطبقات ولا تفاضل في الحقوق بالمال أو بالوراثة ، فانما يكون التفاضل بينهم بالعلم والعمل : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل

(٤١) الشيوعية والانسانية في شريعة الاسلام . دار الهلال بالقاهرة

١٩٦٣ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٤٢) الملكية الخاصة وحدودها في الاسلام للدكتور محمد عبد الله العربي

ص ١٥١ .

الله بأموالهم وأنفسهم • فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على
القاعدين درجة (٤٣) •

ونتكلم الآن عن منابع الاسلام المادية ، كما ذكرها الماوردي ، وهي
فى الأصل منابع لمكافحة الفقر والقضاء على البطالة وتحقيق التكافل
الاجتماعى وتوفير الرفاهية والسعادة للجميع • ومعلوم أن ايراد بيت
مال المسلمين ، أو خزانة الدولة الاسلامية ، يأتى عن طريق الزكاة
وغنائم الحرب والخراج والفىء والحزبة الى آخر ما جاء من الموارد •

الزكاة

عند الماوردي الصدقة زكاة ، والزكاة صدقة ، يفترق الاسم ويتفق
المسمى ، ولا يجب على المسلم فى ماله حق سواها • قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « ليس فى المال حق سوى الزكاة » (٤٤) •

واذا كانت الصلاة فى الاسلام تمثل رأس العبادات البدنية ، فان
الزكاة تمثل رأس العبادات المالية • والزكاة هى الركن الثالث من
الأركان الخمسة التى بنى عليها الاسلام ، كما يفهم من قوله صلى
الله عليه وسلم : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله
وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ،
وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا » •

وتعد الزكاة أداة هامة للحد من تضخم الأموال فى المجتمع ،
 وتحقيق التكافل الاجتماعى بين المواطنين جميعا • والزكاة فريضة
الزامية واجبة على الغنى فيما يفضل عن حاجته وحاجة من ينفق عليهم ،
وهى واجبة بالكتاب والسنة والاجماع • وليست الزكاة فى الاسلام
عطاء أو احسانا بل هى حق اجتماعى ، تقوم الدولة بالاشراف على

(٤٣) الشيوعية والانسانية فى شريعة الاسلام ص ٣٠٥ •

(٤٤) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٩٨ •

استثنائها وتوزيعها شأنها فى ذلك شأن الضرائب التى تتولى الدولة مهمة القيام بتحصيلها من المواطنين ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (٤٥) .

ولما كانت الزكاة بهذه المثابة ، فقد قاتل أبو بكر الصديق رضى الله عنه مانعى الزكاة « لأنهم يصيرون بالامتناع من طاعة ولاة الأمر اذا عدلوا بناة » . ومنع أبو حنيفة رضى الله عنه من قتالهم اذا أجابوا الى أخرجها بأنفسهم » (٤٦) . وقد قال أبو بكر فى قتال مانعى الزكاة قولته المشهورة : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه .. » وبهذا أعلن الخليفة الأول ، بموقفه هذا ، الحرب الشعواء على أصحاب رءوس الأموال المتعنتين ممن كانوا يؤدون حرمان الفقراء والمساكين مما فرض الله لهم فى أموالهم حقاً واجباً عليهم .

وقد روى الطبرانى عن على رضى الله عنه أنه قال : « قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : ان الله فرض على أغنياء المسلمين بقدر الذى يسع فقراءهم ولن يجهدوا اذا جاعوا وعروا الا بما صنع أغنيائهم ، الا وأن الله يحاسبهم حساباً شديداً ، ويعذبهم عذاباً أليماً » .

وقد أوصى الرسول صلوات الله وسلامه عليه معاذاً حينما بعثه والياً على اليمن فقال له : « انك تأتى قوماً من أهل الكتاب فادعهم الى شهادة الا اله الا الله ، فان هم أطاعوك الى ذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد الى فقرائهم ، فان هم أطاعوك الى ذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » .

(٤٥) الذاريات : ١٩ .

(٤٦) الاحكام السلطانية ص ٩٩ .

وكثيرا ما تفرن فريضة الزكاة بالصلاة يدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى : « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين » (٤٧) وقوله : « فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوان سبيلهم » (٤٨) ويقول تعالى عن اسماعيل عليه السلام : « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة » (٤٩) • ويقول على لسان عيسى عليه السلام : « وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » (٥٠) • ويقول عن أهل الكتاب جميعا : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (٥١) • ويقول تعالى عن ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » (٥٢) •

وفى الزكاة الاسلامية ربط بين العمل الروحى والتعبدى والعمل المادى الاقتصادى ، فهى أولا تتركى نفوس الأغنياء وتطهرها من الذنوب والبخل والشح • وهى ثانيا : « تساعد على توزيع الثروة فى ثنايا المجتمع ، وتحول دون تكديسها فى أيدي قليلة ، وما يلزم هذا التكديس من مساوئ خطيرة ، اقتصادية واجتماعية » (٥٣) • ويقول الماوردى (٥٤) : « ان معنى قوله سبحانه وتعالى : « تطهرهم وتزكّيهم بها » ، هو أن تطهر ذنوبهم وتزكّي أعمالهم •

(٤٧) التوبة : ١١ •

(٤٨) التوبة : ٥ •

(٤٩) مريم : ١٥٥ •

(٥٠) مريم : ٣١ •

(٥١) البينة : ٤ •

(٥٢) الانبياء : ٧٣ •

(٥٣) انظر : الملكية الخاصة وحدودها فى الاسلام للدكتور محمد عبد الله العربى ص ١٤٣ •

(٥٤) الاحكام السلطانية ص ١٠٦ •

وقد نظم الاسلام غريضة الزكاة وبين مقاديرها ولم تحصر بالاغنياء ذوى الثروات الكبيرة حتى يفسح بذلك أمام الافراد القادرين على أدائها مجال المساهمة فى مشروعات التكافل الاجتماعى ، ويشعر الجميع بأنهم أعضاء عاملون فى مجتمع متكافل متحاب وهو ما يحرص عليه الاسلام الذى يقيم وزنا للقيم الاخلاقية الانسانية • ويقول الماوردى فى كتابه « الاحكام السلطانية »^(٥٥) : « الزكاة تجب فى الأموال المرصدة للنماء اما بنفسها أو بالعمل فيها طهرة لأهلها ومعونة لاهل السهمين •

والأموال المزكاة ضربان : ظاهرة ، وباطنة • فالظاهرة ، ما لا يمكن اخفاؤه كالزروع والثمار والمواشى • والباطنة ، ما أمكن اخفاؤه من الذهب والفضة وعرض التجارة • • ليس لوالى الصدقات فى زكاة المال الباطن وأربابه أحق باخراج زكاته منه الا أن يبذلها أرباب الأموال طوعا فيقبلها منهم ويكون فى تفريقها عوناً لهم • ونظره مختص بزكاة الأموال الظاهرة يؤمر أرباب الأموال بدفعها اليه • • وله أن يقتلهم عليها اذا امتنعوا من دفعها كما قاتل أبو بكر الصديق رضى الله عنه ما نعى الزكاة لأنهم يصيرون بالامتناع من طاعة ولالة الأمر اذا عدلوا بغاة • • ومنع أبو حنيفة رضى الله عنه من قتالهم اذا أجابوا الى اخراجها بأنفسهم » •

ويقول الماوردى أيضا : ^(٥٦) « ان الأموال المزكاة أربعة : أحدها ، المواشى : وهى الابل والبقر ، وسميت ماشية لرعيها وهى ماشية • • ولا زكاة فى الخيل والبغال والحمير ، وأوجب أبو حنيفة فى اناث الخيل السائمة دينارا عن كل فرس • وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق » •

والمال الثانى من أموال الزكاة : ثمار النخل والشجر ، فأوجب

(٥٥) ص ٩٩ •

(٥٦) الاحكام السلطانية ص ٩٩ — ١٠٥ •

أبو حنيفة الزكاة في جميعها ، وأوجبها الشافعي في ثمار النخل والكرم خاصة ولم يوجب في غيرهما من جميع الفواكه والثمار والزكاة •

والمال الثالث : الزروع ، أوجب أبو حنيفة الزكاة في جميعها • وعند الشافعي لا تجب الا فيما زرعه الآدميون قوتا مدخرا ، ولا تجب عنده في البقول والخضر ، ولا تجب عند الشافعي فيهما ولا فيما يؤكل من القطن والكتان ، ولا فيما يزرعه الآدميون من نبات الأدوية والجمال •

وأما المال الرابع : فهو الفضة والذهب وهما من الأموال الباطنة ، وزكاهما ربع العشر لقوله عليه الصلاة والسلام الورق ربع العشر • وأما المعادن فهي من الأموال الظاهرة واختلف الفقهاء فيما تجب فيه الزكاة منها » •

وقد بين الرسول صلوات الله وسلامه عليه في التطبيق العملي أنواع الأموال التي تجب فيها الزكاة ، كما بين المقادير التي تخرج من هذه الأموال ، فآخذ الزكاة في ثلاثة أنواع من المال وهي : (الأولى) الأموال النقدية ، مثل الذهب والفضة ، وعروض التجارة بنسبة ٣٠٪ • و (الثانية) المواشي ، وهي الابل والبقر والغنم ، وهذه هي السوائم التي كانت موجودة في البلاد العربية كتلك النسبة تقريبا • و (الثالثة) الزروع والثمار بنسبة العشر في الأراضي المروية من غير كلفة كالتي تروى بمياه الأمطار والينابيع ، ونصف العشر في الأراضي التي تروى بآلة ونحوها • وهي تؤخذ من كل مال بلغ النصاب الشرعي لوجوبها ، على أن يكون ذلك قد حال عليه الحول ، وهو زائد عن حاجات الانسان الأصلية التي يحتاج اليها لمعيشته • ويقول الشيخ محمود شلتوت : (٥٧) « وبقي ما وراء ذلك من الأنواع والمقادير محل اجتهاد ونظر » •

ويجب على عامل الصدقة عند الماوردي : « أن يدعو لأهلها

عند الدفع ترغيبا لهم فى المسارعة وتمييزا لهم من أهل الذمة فى الجزية وامتنالا لقوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلواتك مسكن لهم » ويتولى الماوردى تفسير الآية فيقول : « ان معنى قوله سبحانه وتعالى (تطهرهم وتزكيهم بها) أى تطهر ذنوبهم وتركى أعمالهم • وفى قوله (وصل عليهم) وجهان : أحدهما ، استغفر لهم وهو قول ابن عباس رضى الله عنه • والثانى ، ادع لهم وهو قول الجمهور • وفى قوله تعالى (ان صلواتك مسكن لهم) أربع تأويلات : أحدها ، قربة لهم وهو قول ابن عباس رضى الله عنه • والثانى رحمة لهم وهو قول طلحة • والثالث ، تثبيت لهم وهو قول ابن قتيبة • والرابع ، أمن لهم وهو من الاستحباب ان لم يسأل ، وفى استحقاقه اذا وجهان : أحدهما مستحب ، والثانى مستحق » (٥٨) •

ويجب أن تصرف الزكاة لفئات معينة نص عليها القرآن وحددها تحديدا واضحا ، وقد نزلت فى مصارف الزكاة أو الجهات التى يجب أن — تصرف الزكاة لها وفيها آية كريمة هى قوله تعالى فى سورة التوبة التى كانت من أواخر القرآن نزولا : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » (٥٩) وجميع مصارف الزكاة تتعلق بالمصالح العامة للأمة ، وأهدافها كلها أهداف اشتراكية ، وهو ما سيتضح لنا بعد قليل •

يقول الماوردى : « وأما قسم الصدقات فى مستحقها فهى لمن ذكر الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) • بعد أن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها على رأيه واجتهاده حتى لزمه بعض

(٥٨) الاحكام السلطانية ص ١٠٦ .

(٥٨) الاحكام السلطانية ص ١٠٦ .

(٥٩) التوبة ٦ .

المنافقين وقال : اعدل يا رسول الله • فقال له ثكلتك أمك اذا لم اعدل فمن يعدل • ثم نزلت عليه آية الصدقات بعد فعندها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله تعالى ام يرض فى قسمة الأموال بملك مقرب ولا نبي مرسل حتى تولى قسمتها بنفسه • فواجب أن تتقسم صدقات المواشى واعشار الزروع والثمار وزكاة الأموال والمعادن وخمس الركاز لأن جميعها زكاة على ثمانية أسهم للأصناف الثمانية اذا وجدوا ولا يجوز أن يخل بصنف منهم • وقال أبو حنيفة يجوز أن يصرفها الى أحد الأصناف الثمانية مع وجودهم ، ولا يجب أن يدفعها الى جميعهم وفى تسوية الله تعالى بينهم فى آية الصدقات ما يمنع من الاقتصار على بعضهم • فواجب على عامل الصدقات بعد تكاملها ووجود جميع من سمي لها أن يقسمها على ثمانية أسهم بالتسوية » (٦٠) •

ويقول الشيخ محمود شلتوت : « انه بالنظر فى آية الصدقات ، يتضح أن دائرة الاستحقاق فى الصرف اليها من الزكاة ، تتألف من حلقتين : إحداهما ، أفراد ، يعطون الزكاة فينفقونها على الوجه الذى يرونه ، وهذه الحلقة هى اتقى أضيفت الصدقات اليها فى الآية بكلمة « اللام » الفقراء ، المساكين ، العاملون عليها ، المؤلفة قلوبهم ، الغارمون ، ابن السبيل ، والحلقة الأخرى مصالح عامة ، تنتفع بها الأمة كلها ، وهذه الحلقة هى التى أضيفت اليها المصدقات بكلمة « فى » الرقاب ، سبيل الله » (٦١) •

فالصنف الأول هو « الفقير » ، والفقير عند الماوردى (٦٢) هو : « الذى لا شئ له » وقد أجمع الفقهاء على أن الفقير هو كل من لا يملك نصاب الزكاة ، ومن هنا وجب العناية به •

(٦٠) الاحكام السلطانية ١٠٧ •

(٦١) الاسلام عقيدة وشريعة ص ٩٣ •

(٦٢) راجع مصارف الزكاة عند الماوردى فى كتاب الاحكام السلطانية

س ١٠٧ — ١٠٩ •

والصنف الثانى هو « المسكين » ، والمسكين عند الماوردى هو « الذى له ما لا يكفيه ، فكأن الفقير أسوأ حالا منه » وقال أبو حنيفة المسكين أسوأ حالا من الفقير ، وهو الذى قد أسكنه العدم فيدفع الى كل واحد منهما اذا اتسعت الزكاة ما يخرج به من اسم الفقر والمسكنة الى أدنى مراتب الغنى وذلك معتبر بحسب حالهم » •

وهناك رأى آخر فى التمييز بين الفقير والمسكين : « وهو أن الفقير فقراء المسلمين ، والمسكين فقراء أهل الكتاب ، ويزكى هذا رأى أن عمر رضى الله عنه رأى ذميا كفوفا مطروحا على باب المدينة فأجرى عليه رزقا مستمرا ، وقال لخازن بيت المال : ابحث عن هذا وضربائه وأجر عليهم ، هذا من الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « انما الصدقات للفقرا والمساكين » وهم زمنى أهل الكتاب أى ذوو الأمراض المزمنة والعاهات المانعة من الكسب » (٦٣) • وهذا دليل على سماحة شريعة الاسلام وعدم تفرقتها فى الرعاية والاهتمام بأفراد المجتمع بين المسلم وغير المسلم ، بل الكل من حيث حقوق الرعاية الاجتماعية سواء •

ويقول الشيخ محمود شلتوت : (٦٤) « انما عنى القرآن بالفقير والمسكين هذه العناية البالغة . نظرا الى أنهما الصنف الذى قلما يخلو منه مجتمع ، والذى يغلب أن تكون حاجته ليست آتية من قبل نفسه وسوء تصرفه ثم هو الصنف الذى يهدد بحاجته وثورة فاقتته ، وضيق صدره — المجتمع فى أمنه واستقراره ، وبالزكاة تسد حاجته ، ويظهر قلبه من الحقد والحسد ، وبذلك يمهد له طريق التعاون مع اخوانه الأغنياء الذين شعر منهم بالرحمة والعطف ، فتحفظ الأموال وتنمو ، ويصان المجتمع ويقوى » •

(٦٣) الاقتصاد الاسلامى والاقتصاد المعاصر للدكتور محمد عبد الله

العربى ص ٢١٩ •

(٦٤) الاسلام عقيدة وشريعة ص ٩٤ •

• والصنف الثالث هو « العاملون عليها » أى الموظفون الذين يجمعون الزكاة ويتولون القيام بكل ما يتصل بها من احصاء ، وتدوين ، وحفظ • وهم عند الماوردى صنفان : المقيمون بأخذها وجبايتها ، والثانى ، المقيمون بقسمتها وتفريقها من أمين ومباشر ومتبوع وتابع جعل الله تعالى أجورهم فى مال الزكاة لئلا يؤخذ من أرباب الأموال سواها فيدفع اليهم من سهمهم قدر أجور أمثالهم •

والصنف الرابع هو « المؤلفة قلوبهم » • وهم ضعفاء الايمان ممن يخشى عليهم الردة عن الاسلام اذا لم يعطوا ، ومن هنا كان لابد من اعطائهم نصيبهم تأليفا لقلوبهم وقلوب ذويهم وهذا من قبيل الدفاع عن الاسلام والدعوة اليه • والمؤلفة قلوبهم عند الماوردى أربعة أصناف : صنف يتألفهم لمعونة المسلمين ، وصنف يتألفهم للكف عن المسلمين ، وصنف يتألفهم لرغبتهم فى الاسلام ، وصنف لترعيب قومهم وعشائرهم فى الاسلام •

والسهم الخامس هو سهم « فك الرقاب أى تحرير الأرقاء » وهو عند الشافعى ، وأبى حنيفة مصروف فى المكاتبين ^(٦٥) يدفع اليهم قدر ما يعتقدون به ، ويجوز أن يصرف فى شراء عبيد يعتقدون •

والصنف السادس هو « الغارمون » ، وهم الذين لحقتهم الديون ولا وفاء عندهم • ويقسمهم الماوردى الى قسمين : (القسم الأول) من استدانوا فى مصالح أنفسهم فيدفع اليهم مع الفقر دون الغنى ما يقضون به ديونهم • و (القسم الثانى) من استدانوا فى مصالح المسلمين فيدفع اليهم مع الفقر والغنى قدر ديونهم من غير فضل •

• والمصرف السابع : « فى سبيل الله تعالى » وهم الغزاة أو المجاهدون ، يدفع اليهم قدر حاجتهم فى جهادهم • وقد فسروا كلمة

(٦٥) المكاتب : هو الذى يقبض بدل الكفاية للعبد ليحرره •

« سبيل الله » بما يعم كل مصالح المسلمين • ويقول الشيخ محمود شلتوت : « والكلمة سبيل الله على وجه عام كل ما يحفظ للأمة مكانتها المادية والروحية ويحقق شعائرها على الوجه الذى به تتميز عن غيرها ، وتقضى به حاجتها من نفسها » (٦٦) وفى تفسير الفخر الرازى نقل القفال فى تفسيره عن بعض الفقهاء ••• أنهم أجازوا صرف الصدقات الى جميع وجوه الخير ، من تكفين الموتى ••• وبناء الحصون •• وعمارة المساجد • لأن قوله « وفى سبيل الله » عام فى الكل • « ويجب أن يمتد الانفاق فى سبيل الله الى جميع وجوه الانفاق الأخرى التى تتطلبها المرافق المشتركة ، من تأمين سلامة الدولة فى الداخل والخارج ، ومن تنمية اقتصادية ، ومن منشآت تعميرية ، ورفع مستوى المعيشة للمواطنين كافة بصفة عامة فى المجالات الحضارية والثقافية والصحية وغيرها ، والعمل على تحقيق سائر الأهداف التى يتطلع اليها الشعب » (٦٧) •

والمصرف الثامن والأخير هو « ابن السبيل » ، وهو المسافر الذى بعد عن بلده ولا يستطيع الانتفاع بماله ، فيعطى من الزكاة ولو كان غنيا فى بلده • وأبناء السبيل عند الماوردى هم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم يدفع اليهم من سهمهم اذا لم يكن سفر معصية قدر كفايتهم فى سفرهم •

هذه هى مصارف الزكاة الثمانية ، وفيها يقول الشيخ محمد أبو زهرة : (٦٨) « اننا لو أردنا أن نقسم مصارف الزكاة الثمانية كما جاءت فى القرآن لقسمناها ثلاثة أقسام من حيث المقصد :

القسم الأول : سد حاجة المحتاجين ، وذلك القسم يشمل الفقراء

(٦٦) الاسلام عقيدة وشرعية ص ٩٨ •

(٦٧) الاقتصاد الإسلامى والاقتصاد المعاصر للدكتور محمد عبد الله العربى ص ٢٣٩ •

(٦٨) الزكاة للشيخ محمد أبى زهرة ، بحث التى فى المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة مايو ١٩٦٥ ص ٢٠٠ •

والمساكين والغارمين وفى سبيل الله وفك الرقاب وابن السبيل هو القسم الأكبر •

والقسم الثانى : الانفاق على الغزاة والجيش المجاهد بشكل عام •

والقسم الثالث : الجامعون لها والذين يتولون ادارتها وتوزيعها بالعدل والقسطاس المستقيم » •

وفى نظام الزكاة يقول المستشرق المعروف « ماسينيون » :

« ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التى يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض الديون الربوية ، والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجات الأولية الضرورية ، ويوقف فى نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجارى وبذا يخل الاسلام مرة أخرى مكانا وسطا بين نظريات الرأسمالية والبورجوازية ، ونظريات البلشفية الشيوعية ... وللإسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام من ماض ككل بالنجاح فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة فى الحقوق والواجبات » (٦٩) •

ويقول الشيخ محمود شلتوت : (٧٠) « وبهذه العبادة أى الزكاة ، وقف الاسلام بالمسلمين فى المشكلة المالية — شأنه فى كل شرائعه — عند الحد الوسط الذى يقيهم شر الطغيان المالى المفسد ، الذى تتكدس به الأموال عند بضعة أفراد من الأمة ، مع حرمان كثرتها الغالبة ، ويقيهم كذلك شر الفوضى الماكرة المخربة التى تضيع بها جهود الأفراد ، وتكدس الأموال فى اليد الحاكمة باسم « المجتمع » •

(٦٩) الاسلام والنظام الجديد لمولانا محمد على : ٤٥ •

(٧٠) الاسلام عقيدة وشريعة ص ٨٥ •

فهى تشريع يحفظ للفرد استقلاله وحرية فى العمل والكسب ،
ويحفظ للمجتمع حقه على الفرد فى المعونة والتضامن ، وبذلك يبرز
المبدأ الاسلامى العام وهو : تحميل الفرد من حقوق الجماعة ، وتحميل
الجماعة من حقوق الفرد • • «

ويقول العالم الدينى الألمانى « ماركس » فى نظام الزكاة : (٧١)
« وكانت هذه الضريبة فرضا دينيا يتحتم على الجمع أداؤه ، وفضلا عن
هذه الصفة الدينية فالزكاة نظام اجتماعى عام ، ومصدر تدخر به الدولة
المحمدية ما تمد به الفقراء وتعينهم ، وذلك على طريقة قطامية قديمة
لا استدلالية تحكمية ولا غرضية طارئة • وهذا النظام البديع كان
الاسلام أول من وضع أساسه فى تاريخ البشرية عامة ، فبضريبة الزكاة
التي كانت تجبر طبقات الملاك والتجار والأغنياء على دفعها لتصرفها
الدولة على المعوزين والعاجزين من أفرادها هدمت السياج الذى كان
يفصل بين جماعات الدولة الواحدة ، ووحدت الأمة فى دائرة اجتماعية
عادلة ، وبذلك برهن هذا النظام الاسلامى على أنه لا يقوم على أساس
الأثرة البغيضة » •

ويقول الدكتور « ابراهيم اللبان » : (٧٢) « الواقع أن اسلام قد
أدخل فى مجال الحياة الاقتصادية تطورا خطيرا لم يسبقه اليه دين من
الأديان وهذه حقيقة جليلة يجب أن يعرفها المسلمون حق معرفتها
فانها تدل دلالة واضحة على روح التشريع الإسلامى ومقاصده السليمة
ووسائله الحكيمة والواقع أبضا أن سجل الثقافة الاسلامية يحتوى على
ثورة اشتراكية كبرى وأن هذه الثورة قد أدت الى وضع حل اشتراكى
اسلامى يشبه فى صورته العامة أحدث ما وصل اليه التفكير الاشتراكى
فى أكثر بلاد الغرب ونعنى بهذا التطور الإسلامى • • الزكاة •

(٧١) الاسلام والحضارة العربية لكرد على ٧٥/١ •

(٧٢) حق الفقراء فى أموال الأغنياء للدكتور ابراهيم اللبان ، بحث أنقى
فى المؤتمر الاول لجمع البحوث الاسلامية بالقاهرة مارس ١٩٦٤ ص ٢٤١—٢٤٦

وقد أظهرت تجارب الانسانية فى اعتمادها على الاحسان كوسيلة لمكافحة الفقر أن هذه الوسيلة غير فعالة وأن هذا العجز يرجع الى نقص فى كيان هذا الأسلوب العلاجى وأنه لابد للنجاح فى هذه المهمة الاجتماعية الكبرى من تلافى كل ضروب النقص فيه •

لابد من ضريبة تفرضها الدولة وتجبها ولا يجوز الاكتفاء بتقرير واجب دينى يترك للفرد وحده أمر القيام به وأدائه فيصبح عرضة للترك والاهمال ولا بد من تحديد الأموال المطلوبة حتى تستطيع الدولة أن تقوم بالجبابة على أساس واضح ولا بد أن تكون الحصيلة كبيرة حتى يمكن الاعتماد عليها فى تخفيف ويلات الفقر وشروبه •

لابد لنا بالاجمال أن نتجاوز مرحلة الواجبات الفردية غير الدقيقة الى مرحلة النظم العامة التى تدخل فى اختصاص الدولة وحدود سلطتها وقد قام الاسلام لأول مرة فى تاريخ البشرية بهذا التطور الاجتماعى العظيم •

والحق أن فريضة الزكاة التى فرضها الاسلام قد حققت هذه الأهداف جميعا فضمنت للفقير من مال الغنى موردا كافيا مضمونا •

أما مدى ما تبلغه جبابة الزكاة فى مكافحة الفقر فلا يمكن أن يقاس بما يستطيعه نظام الاحسان ، ومع ذلك فليست الزكاة هى الأداة الاسلامية الوحيدة فى هذا الميدان •

ومهما يكن فقد كان لهذا التطور أثر بعيد فى اصلاح حال الفقراء فى كل بلاد العالم لا فى العالم الاسلامى وحده فلأول مرة فى تاريخ العالم أصبحت مكافحة الفقر من واجبات الدولة وفرضت ضريبة خاصة لهذه الغاية « •

وعن أثر الزكاة فى تطور التشريع الاشتراكى فى الغرب يقول

مبادئه : (٧٣) « كان للمبادئ التى نقوم عليها الزكاة أثر كبير فى تطور التشريع الاشتراكى فى الغرب فقد أحس الغربيون بالحقيقة الاجتماعية الظاهرة وهى أن الاحسان وحده لا يكفى للقضاء على الفقر فى المجتمع والقضاء على آثاره السيئة فى حياة البشر وهنا سطعت عليهم شمس الحقيقة من جانب التشريع الاسلامى فأدركوا فى وضوح تام أنه لا بد من ضريبة اجتماعية للقضاء على هذا المرض الاجتماعى الخطير ولا مفر لهذه الضريبة اذا شاعت أن تنجح فى أداء مهمتها من الأخذ بعدد من المبادئ الأساسية •

فلا بد من تقدير الجباية تقديرا دقيقا يحدد ما يحبى من كل مستوى من المستويات الاقتصادية تحديدا واضحا ولا بد أيضا من أن تتولى الدولة جباية هذه الضريبة وتوزيعها على مستحقيها ويجب أيضا أن تعين أصناف المستحقين لهذه المعونة الاجتماعية •

وقد كانت الملكة اليزابيث ملكة انجلترا أول من شعر بضرورة اصدار قانون بهذه الضريبة وقد سمي منذ اللحظة الأولى « قانون الفقراء » تنويعها بمهمته الاجتماعية •

صدر هذا القانون فى انجلترا سنة ١٦٠١ ويستطيع من ينظر الى المعالم الكبرى لهذا القانون أن يرى أثر التشريع الاسلامى فيه واضحا وضوح الشمس فى رابعة النهار فقد اقتبس المبادئ الأساسية لفريضة الزكاة الاسلامية •

يقوم هذا القانون على فكرة الاعتراف بحق الفقراء فى أموال الأغنياء وهذا فى الواقع هو الأساس النظرى لهذا القانون الاجتماعى الخطير •

ويبدو التشابه فى أتم صورة حينما يتصدى القانون لبيان الأصناف

التي تستحق المعونة فانه اذ ذاك يقسم المستحقين الى سبع طوائف :

١ — الاطفال الذين يعجز آباؤهم عن القيام بشئون حياتهم •

٢ — الرجال الذين ليس لهم مورد رزق من صناعة أو تجارة أو سواها •

٣ — العاجز • ٤ — الأعمى •

٥ — الأعرج • ٦ — الهرم •

٧ — السجين سجنًا مؤبدا • وقد نفذ هذا القانون منذ صدوره ولكنه خضع لتعديلات متعددة •

ولم يلبث النور الاسلامي المشرق أن سطع على الدنيا فقد اقتبست الولايات المتحدة من انجلترا قانون الفقراء المذكور فأصبح قانونا للبلاد تنفذه الولايات المختلفة ، ونستطيع أن ندرك أثر هذا القانون في حياة تلك البلاد اذا عرفنا أن ولاية واحدة من ولاياتها الكثيرة وهي ولاية بنسلفانيا حصلت باسم هذا القانون في سنة ١٩٢٥ أكثر من ١٠٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي وزعتها على الفقراء والمساكين من أهلها •

وهكذا نرى الزكاة الاسلامية وقد أصبحت نموذجا يحاكيه التشريع الغربي فيدخل التطور الاشتراكي في العالم الغربي تحت تأثير الشريعة الاسلامية وينتقل الناس هناك من مبدأ الاحسان الى مبدأ الضريبة اقتداء بما حدث لدينا • وبهذا خطا العالم خطوة جديدة عامة في الاعتراف بحقوق الفقراء ووضع الشرائع الضرورية لتحقيقها •

لم تكن الزكاة الاسلامية شريعة للمسلمين فحسب ، ولكنها كانت ايدانا بتطور عام ينتقل فيه الناس في فهم حقوق الفقراء نقله جديدة كبيرة فقد انهار بسببها الايمان القديم بقدره مبدأ الاحسان على مكافحة الفقر ، وبزغت شمس الفكرة الحديثة التي تقرر أنه لا بد من الاعتماد على الضريبة لتحقيق هذا الغرض فكان هذا كسبا كبيرا لقضية الفقراء وخطوة واسعة في سبيل العدل الاجتماعي •

(م ٢٩ — الماوردي)

والحق أن فكرة الضريبة كعلاج للفقر وهى الفكرة التى تضمنتها الزكاة قد استطاعت فيما بعد أن تأخذ ألوانا شتى وصورا جديدة تمكنها من أداء مهمتها على خير الوجوه وأفضلها فلم يلبث المفكرون الاجتماعيون والمشرعون الاشتراكيون فى الغرب أن طوروا هذه الضريبة ، فظهرت بسبب ذلك فكرة ضريبة "دخل بمعناها الواسع السخى وقدرتها الكبيرة التى لا تحد على القضاء على الشرور الاجتماعية المختلفة التى تنبثق من أصل واحد وهو جرثومة الفقر المخيفة •

لَمْ تكن الزكاة اذا مجرد شريعة خاصة لأمة خاصة ولكنها كانت تطورا للأوضاع الاجتماعية التى تتصل بالفقر والفقراء ولم يلبث هذا التطور أن تخطى حدود البيئة التى ظهر فيها فأصبح تطورا انسانيا عاما نحو اشتراكية حديثة » •

الفى والغنائم

من الموارد المالية التى تغذى بيت مال المسلمين أو خزانة الدولة الاسلامية أموال الفى والغنائم ، ولكل فرد فى الدولة حق فى هذه الأموال كل حسب مقامه • وأموال الفى والغنائم تصرف فى المصالح العامة للمسلمين ، (٧٤) وفى القضاء على الفوارق بين فئات المجتمع ، وإنجاح التوازن الاقتصادى •

يقول الماوردى : (٧٥)

« وأموال الفى والغنائم ما وصلت من المشركين أو كانوا سبب وصولها • ويختلف المالان فى حكمهما وهما مخالفان لأموال الصدقات من أربعة أوجه :

(٧٤) راجع فى ذلك : نصيحة الملوك للماوردى ورقة ٧٣ وورقة ٧٤ .

(٧٥) الاحكام السلطانية ص ١١١ •

أحدها : أن الصدقات مأخوذة من المسلمين تطهيراً لهم ، والفى والغنيمة مأخوذان من الكفار انتقاماً منهم •

والثاني : أن مصرف الصدقات منصوص عليه ليس للأئمة اجتهد فيه ، وفى أموال الفى والغنيمة ما يقف مصرفه على اجتهد الأمة •

والثالث : أن أموال الصدقات يجوز أن ينفرد أربابها بقسمتها فى أربابها ، ولا يجوز لأهل الفى والغنيمة أن ينفردوا بوضعه فى مستحقه حتى يتولاه أهل الاجتهاد من الولاة •

والرابع : اختلاف المصرفين ••

أما الفى والغنيمة فهما منتفقان من وجهين ومختلفان من وجهين : فأما وجهها اتفاقهما : فأحدهما أن كل واحد من المالين واصل بالكفر والثاني أن مصرف خمسهما واحد •

وأما وجهها افتراقهما : فأحدهما أن مال الفى مأخوذ عفواً ، ومال الغنيمة مأخوذ قهراً • والثاني ، أن مصرف أربعة أخماس الفى مخالف لمصرف أربعة أخماس الغنيمة •

(الفى) :

ومال الفى ، كما يقول الماوردى ^(٧٦) هو كل مال وصل من المشركين عفواً من غير قتال ولا بايجاف خيل ولا ركاب ، فهو كمال الهدنة والجزية وأغشار متاجرهم أو كان واصلاً بسبب من جهتهم كمال الخراج ففيه إذا أخذ منهم أداء الخمس لأهل الخمس مقسوماً على خمسة • وقال أبو حنيفة رضى الله عنه لا خمس فى الفى ، ونص الكتاب فى خمس الفى يمنع من مخالفته • قال تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل

القرى فله وللرسول ولذی القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل » (٧٧) •

وذهب الشافعى رحمه الله الى أنه يكون مصروفا فى مصالح المسلمين كأرزاق الجيش واعداد الكراع والسلاح وبناء الحصون والقناطر وأرزاق القضاة والأئمة وما جرى هذا المجرى من وجوه المصالح •

وأما أربعة أخماسه ففيه قولان : أحدهما ، أنه للجيش خاصة لا يشاركهم فيه غيرهم ليكون معدا لأرزاقهم • والقول الثانى ، أنه مصروف فى المصالح التى منها أرزاق الجيش وما لا غنى للمسلمين عنه • ولا يجوز أن يصرف الفىء فى أهل الصدقات ، ولا تصرف الصدقات فى أهل الفىء ، ويصرف كل واحد من المالين فى أهله • وأهل الصدقة من لا هجرة له وليس من المقاتلة عن المسلمين ، ولا من حماة البيضة • • وأهل الفىء هم ذو الهجرة الذابون عن البيضة والممانعون من الحريم والمجاهدون للعدو •

وهكذا يتضح لنا أن أموال الفىء يجب أن تخصص للصرف منها فيما يعتبر ضروريا لتقوية منشآت الدولة ، وتنمية الموارد الاقتصادية ، وتوفير الحياة الكريمة للمواطنين ، والحيلولة دون تكديس الأموال فى أيدي فئة خاصة من الأمة • وقد يكون فيما فعله رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فيما أفاء الله عليه من أموال بنى النضير دليل على ذلك ، فقد منح عليه السلام جميع الأموال التى تركها بنو النضير بعد اجلائهم واخراجهم من ديارهم للمهاجرين خاصة حتى يعوضهم الرسول عن بعض ما تركوه من أموال بمكة بعد هجرتهم ، ولم يجعل الرسول الأنصار من ذلك المال حظا عدا اثنين ظهر للرسول صلى الله عليه وسلم فقرهما ، وهدفه من ذلك هو التقريب بين ثروات المهاجرين والأنصار ، وتحقيق

التوازن فى ملكية المال بين هذين الفريقين الذين كان يتألف منهما المجتمع الاسلامى فى المدينة •

(الغنيمة) :

أموال الغنائم توجه للصرف على الحرب وقواد الحرب والجنود والفقراء واليتامى والمساكين . كما قال تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فان لله خمسـه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين . وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما نزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير » (٧٨) وقوله تعالى أيضا : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين » (٧٩) •

فأما الغنيمة (٨٠) فهى أكثر أقساما وأحكاما لأنها أصل تفرع عنه الفسء فكان حكمها أعم وتشتمل على أربعة أقسام : أسرى ، وسبى ، وأرضين وأموال •

فأما الأسرى ، فهم الرجال المقاتلون من الكفار اذا ظفر المسلمون بهم أحياء •

وأما السبى ، فهم النساء والأطفال فلا يجوز أن يقتلوا اذا كانوا أهل كتاب لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء والولدان •

وأما الأرضون ، اذا استولى عليها المسلمون فنقسم ثلاثة أقسام : أحدها ، ما ملكت عنوة وقهرا حتى فارقوها بقتل أو أسر أو جلاء ،

(٧٨) الانفال : ٤٤ •

(٧٩) الحشرة : ٧ •

(٨٠) راجع الاحكام السلطانية ص ١١٦ — ١٢٤ •

فقد اختلف الفقهاء فى حكمها بعد استيلاء المسلمين عليها ، فذهب الشافعى رضى الله عنه الى أنها تكون غنيمة كالأموال تقسم بين الغانمين الا أن يطيبوا نفسا بتركها فتوقف على مصالح المسلمين • وقال مالك نصير وقفنا على المسلمين حين غنمت ولا يجوز قسمها بين الغانمين • وقال أبو حنيفة الامام فيها بالخيار بين قسمتها بين الغانمين فتكون أرضا عشرية أو يعيدها الى أيدي المشركين بخراج يضربه عليها فتكون أرض خراج ويكون المشركون بها أهل ذمة أو يقفها على كافة المسلمين ••

والقسم الثانى منها ، ما ملك منهم عفوا لا بجلائهم عنها خوفا فتصير عليها وقفا ، وقيل بل لا تصير وقفا حتى يقفها الامام لفظا ويضرب عليها خراجا يكون أجره لرقابها تؤخذ ممن عومل عليها من مسلم أو معاهد ••

والقسم الثالث ، أن يستولى عليها صلحا على أن تقر فى أيديهم بخراج يؤدونه عنها فهذا على ضربين : أحدهما ، أن يصلحهم على أن ملك الأرض لنا فتصير بهذا الصلح وقفا من دار الاسلام ، ولا يجوز بيعها ولا رهنها ويكون الخراج أجره لا يسقط عنهم باسلامهم فيؤخذ خراجها اذا انتقلت الى غيرهم من المسلمين •• والضرب الثانى أن يصلحوا على أن الأرضين لهم ويضرب عليها خراج يؤدونه عنها ، وهذا الخراج فى حكم الجزية متى أسلموا سقط عنهم ولا تصير أرضهم دارا سلام وتكون دار عهد ولهم بيعها ورهنها •

أما الأموال المنقولة فهى الغنائم المألوقة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمها على رأيه ، ولما تنازع فيها المهاجرون والأنصار يوم بدر جعلها الله عز وجل ملكا لرسوله يضعها حيث شاء ••••• وقد أنزل الله عز وجل بعد بدر قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شئ فإن لله خمسة وللرسول ولدى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) • فتولى الله سبحانه قسمة الغنائم كما تولى قسمة الصدقات

فكان أول غنيمة خمسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بدر
غنيمة بنى قينقاع •

وأيا ما كان من تباين بعض الآراء والأحكام فإن الاسلام قد جعل
من أموال الغنائم نصيبا معلوما للتكافل الاجتماعى وتوفير الرفاهية
والسعادة للجميع ، وهذا لا نعلم له مثيلا عند الأمم الأخرى فى القديم
والحديث •

الجزية والخراج

أموال الجزية والخراج يصرف منها على مرافق العمران العامة ،
ويخصص جزء منها أيضا للاتفاق على الفقراء والمساكين وعلى وجه
الخصوص فقراء أهل الذمة ، فإن على الدولة أن تخصص لفقرائهم ما يسد
حاجتهم ويهيئ لهم حياة كريمة سعيدة •

يتخذ الماوردى عن الجزية والخراج فيقول (٨١)

« الجزية والخراج حقان أوصل الله سبحانه وتعالى المسلمين إليهما
من المشركين يجتمعان من ثلاثة أوجه ، ويفترقان من ثلاثة أوجه ، ثم
تتفرع أحكامهما •

فأما الأوجه التى يجتمعان فيها : فأحدها ، أن كل واحد منهما مأخوذ
من مشرك صغارا له وذلة • والثانى أنهما مالا فى يضر فان فى أهل
الفى • والثالث ، أنهما بحلول الحول ولا يستحقان قبله •

وأما الأوجه التى يفترقان فيها : أحدها ، أن الجزية نص ، وأن
الخراج اجتهاد • والثانى ، أن أقل الجزية مقدر بالشرع وأكثرها مقدر
بالاجتهاد ، والخراج أقله وأكثره مقدر بالاجتهاد • والثالث ، أن الجزية
تؤخذ مع بقاء الكفر وتسقط بحدوث الاسلام ، والخراج يؤخذ مع الكفر
والاسلام •

(٨١) الاحكام ص ١٢٦ — ١٢٧ •

(الجزية) :

مبلغ معين من المال : توضع على الرعوس لا على الأرض ، وتسقط بالاسلام • والأصل فيها قوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون) (٨٢) •

وإذا كانت الزكاة قد فرضت على المسلمين ، فإن الجزية فرضت على الذميين ، وفى هذا دليل قاطع على عدالة الدين الاسلامى وعدم تعصبه لفريق ضد فريق ، وبذلك تكافأ الفريقان اللذان يعيشان فى مجتمع الاسلام العادل •

يقول الماوردى عن الجزية (٨٣) :

« واسمها (اسم الجزية) مشتق من الجزاء اما جزاء على كفرهم لأخذها منهم صغارا واما جزاء على أماننا لهم لأخذها منهم رفقا • والأصل فيها قوله تعالى • (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) •

ويجب على ولى الأمر أن يضع الجزية على رقاب من دخل فى الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها فى دار الاسلام ويلتزم لهم ببذلها حقان : أحدهما الكف عنهم • والثانى : الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين » •

وقد أجمع العلماء على أخذ الجزية من أهل الكتاب العجم ، ومن المجوس : « فقد أخذها أبو حنيفة من عبدة الأوثان إذا كانوا عجماء

(٨٢) التوبة : ٣٩ •

(٨٣) الاحكام السلطانية ص ١٢٧ — ١٢٨ •

ولم يأخذها منهم اذا كانوا عربا • وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى ،
وكتائبهم التوراة والانجيل ويجرى المجوس مجراهم فى أخذ الجزية منهم •
وتؤخذ من الصابئين والسامرة اذا وافقوا اليهود والنصارى فى أصل
معتقدهم » (٨٤) •

وعن ابن شهاب قال : « أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل
نجران فيما بلغنا ، كانوا نصارى • وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم
الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوسا • ثم أدى أهل « أيلة » وأهل
« أذرج » الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية فى غزوة تبوك •
ثم بعث خالد بن الوليد الى أهل « دومة الجندل » فأسروا رئيسهم
« أكيدر » فبايعوه على الجزية » •

أما مقدار الجزية الواجب أخذه من الذميين فقد اختلف عليه الفقهاء ،
وعلى وجه العموم فقد روى فى المبالغ التى تؤخذ منهم قدر كل منهم :

- ١ — أغنياء ويؤخذ منهم ٤٨ درهما •
- ٢ — متوسطو الحال ، ويؤخذ منهم ٢٤ درهما •
- ٣ — فقراء يتكسبون • ويؤخذ منهم ١٢ درهما •

ولا تجب الجزية الا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على
أمرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد ولا فقير أو مسكين •

يقول الماوردى : « اختلف الفقهاء فى قدر الجزية فذهب أبو حنيفة
الى تصنيفهم ثلاثة أصناف : أغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهما ،
وأوساط يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهما ، وفقراء يؤخذ منهم اثنا عشر
درهما فجعلها مقدرة الأقل والأكثر ومنع من اجتهاد الولاة فيها • وقال
مالك لا يقدر أقلها ولا أكثرها وهى موكولة الى اجتهاد الولاة فى

الطرفين • وذهب الشافعى الى أنها مقدرة الأقل بدينار ، ولا يجوز الاقتصار على أقل منه وعنده غير مقدرة الأكثر يرجع فيه الى اجتهاد الولاية ويجتهد رأيه فى التسوية بين جميعهم أو التفضيل بحسب أحوالهم » (٨٥) •

وقد ورد النهى عن الارهاق فى تقدير الجزية أو القسوة فى تحصيلها ، وهى تسقط بالاسلام ، خلافا لما هو عليه الحال فى أمر الخراج على الأرض حيث لا يسقط بالاسلام • واتفق الفقهاء على أن الأموال التى تدخل بيت المال عن طريق الجزية مشتركة لمصالح المسلمين •

(الخراج) :

هو مقدار معين من المال يضرب على الأرض الزراعية أو محصولاتها، وهى الأرض التى صولح عليها المشركون ، ويؤخذ على الأرض التى فتحها المسلمون عنوة ، أو الأرض التى أفاء الله بها على المسلمين • وأموال الخراج هذه التى تجمع من غير المسلمين تصرف كلها على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات وما يحتاج اليه فى المصالح العامة ، وهذه الأموال هى ما نصح لنا أن نطلق عليه اسم ضرائب الأديان الخراجية تمييزا لها عن الأموال التى تجبى من الأرض العشرية ، وهى أرض لا يؤخذ عنها خراج حيث أسلم أهلها وهم عليها دون حرب ، ومن ثم كانت تترك لهم ، على أن يدفعوا عنها ضريبة العشر زكاة ، ولا يجوز بعد ذلك أن يوضع عليها خراج •• ومعنى هذا أن أرض الخراج تتميز عن أرض العشر فى الملك والحاكم •

والأرضون ، عند الماوردى ، تنقسم كلها أربعة أقسام : (٨٦) أحدها ، ما استأنف المسلمون احياءه ، فهو أرض عشر ، لا يجوز أن

(٨٥) الاحكام السلطانية ص ١٢٨ •

(٨٦) المصدر السابق ص ١٣١ •

يوضع عليها خراج • والقسم الثاني ، ما أسلم عليه أربابه فهم أحق • فتكون على مذهب الشافعي رحمه الله أرض عشر ، ولا يجوز أن يوضع عليها خراج • والقسم الثالث ، ما ملك من المشركين عنوة وقهرا فيكون على مذهب الشافعي رحمه الله غنيمة تقسم بين الفاتحين ، وتكون أرض عشر لا يجوز أن يوضع عليها خراج • وجعلها مالك وقفا على المسلمين بخراج يوضع عليها • والقسم الرابع ، ما صولح عليه المشركون من أرضهم فهي الأرض المختصة بوضع الخراج عليها • وأحد ضربيهما : ما خلا عنه أهله حتى خلاصت للمسلمين بغير قتال فتصير وقفا على مصالح المسلمين ويضرب عليها الخراج ويكون أجرة تقرر على الأبد وإن لم يقدر بمدة لما فيها من عموم المصلحة ولا يتغير بإسلام ولا ذمة ولا يجوز بيع رقابها اعتبارا لحكم الوقوف •

يفرق الماوردي بين الخرج والخراج فيقول :

« ان الخرج من الرقاب ، والخراج من الأرض • والخراج في لغة العرب اسم للكرء والغلة ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : الخراج بالضمآن » ^(٨٧) وأول من اجتهد في فرض الخراج الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه •

ويختلف مقدار الخراج باختلاف وظيفة الأرض فلا يؤخذ على أرض الحب أو البقول أو الرطاب ، مثل ما يؤخذ من أرض الزعفران أو الكرم • ويقول الماوردي : ^(٨٨) « فأما قدر الخراج المضروب فيعتبر بما تحتمله الأرض فإن عمر رضي الله عنه وضع الخراج على سواد العراق ضرب في بعض نواحيه على كل جريب قفيزا ودرهما وجرى في ذلك على ما استوقفه من رأى كسرى بن قباذ فأنشأ أول من مسح السواد ووضع الدواوين وراعى ما تحتمله الأرض من غير حيف بما لك و لا اجحاف بزراع وأخذ

(٨٧) الاحكام السلطانية ص ١٣١ .

(٨٨) الاحكام السلطانية ص ١٣٢ — ١٣٤ •

من كل جريب قفيزا ودرهما وكان القفيز وزنه ثمانية أرتال وثمانه ثلاثة دراهم بوزن المثلقال •

وضرب عمر رضى الله عنه على ناحية أخرى غيرها غير هذا القدر فاستعمل عثمان بن حنيف عليه وأمره بالمساحة ووضع ما تحتمله الأرض من خراجها فمسح ووضع على كل جريب ما تحتمله • • وكتب بذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأمضاه •

وعمل فى نواحى الشام على غير هذا فعلم أنه راعى فى كل أرض ما تحتمله ، وكذلك يجب أن يكون واضع الخراج بعده يراعى فى كل أرض ما تحتمله فانها تختلف من ثلاثة أوجه يؤثر كل واحد منها فى زيادة الخراج ونقصانه : أحدهما ، ما يختص بالأرض من جودة يذكوا بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها • والثانى ، ما يختص بالزرع من اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار فمنها ما يكثر ثمنه ومنها ما يقل ثمنه فيكون الخراج بحسبه • والثالث ، ما يختص بالسقى والشرب لأن ما الترم المؤنة فى سقيه بالنواضح والدوالى لا يحتل من الخراج ما يحتمله سقى السيوح والأمطار •

• • • وإذا استقر ما ذكرناه فلا بد لو اضع الخراج من اعتبار ما وصفناه من الأوجه الثلاثة من اختلاف الأرض واختلاف الزرع واختلاف السقى ليعلم قدر ما تحمله الأرض من خراجها فيقصد العدل فيها فيما بين أهلها وبين أهل الفىء من غير زيادة تجحف بأهل الخراج ولا نقصان يضر بأهل الفىء • • • ولا يستقصى فى وضع الخراج غاية ما يحتمله وليجعل فيه لأرباب الأرض بقية يجيرون بها النوائب والحوائج » •

احياء الموات والاقطاع

من طرق الكسب والتملك المشروع التى تحدث عنها الماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » احياء الأرض الموات والاقطاع ، والهدف

منها استغلال الثروات الموجودة فيما يعود على المجتمع بالخير والفائدة
فى شكل مضاعفة لدخل الأفراد وزيادة لثروة البلاد الاقتصادية •

(احياء الأرض الموات) :

الأرض الميتة هى الأرض التى لم تربط ملكيتها لأحد من الناس ،
فهى كما قال الرسول « لله وللرسول ثم لكم من بعد » ، أى أن ملكية
هذه الأرض هى من حق المجتمع كله • « والموات عند الشافعى : كما
لم يكن عامرا ولا حريما عامر فهو موات ، وان كان متصلا بعامر • وقال
أبو حنيفة : الموات ما بعد من العامر ولم يبلغه الماء • وقال أبو يوسف :
الموات كل أرض اذا وقف على أدناها من العامر مناد بأعلى صوته لم
يسمع أقرب الناس اليها نعى العامر » (٨٩) •

وفى بدائع الصنائع الكاسانى (٩٠) نجد أن « الأرض الموات هى
أرض خارج البلد لم تكن ملكا لأحد حقا له خاصا فلا يكون داخل البلد
موات أصلا وكذا ما كان خارج البلدة من مرافقها محتطبا لأهلها أو مرعى
لهم لا يكون مواتا حتى لا يملك الامام اقطاعها لأن ما كان من مرافق
أهل البلد فهو حق أهل البلد كفناء دارهم وفى الاقطاع ابطال حقهم •
وكذلك أرض القار والملح والنفط ونحوها مما لا يستغنى عنه المسلمون
لا تكون أرض موات حتى لا يجوز للامام أن يقطعها لأحد لأنها حق لعامة
المسلمين وفى الاقطاع ابطال حقهم • وهو يشترط أن يكون بعيدا عن
ال عمران شرطه الطحاوى غانه قال وما قرب من العامر فليس بموات » •
وعلى العموم فان الفقهاء يقسمون الأرض من حيث الملكية والانتفاع
بها الى أربعة أقسام رئيسية •

الأول : أرض مملوكة عامرة : ويعنون بالأرض العامرة هى التى
ينتفع بها من سكنى أو زراعة أو غيرها • وحكم هذا النوع من الأرض أنه

(٨٩) الاحكام السلطانية نلهاوردى ص ١٥٨ •

(٩٠) ج ٦ ، كتاب الاراضى ، ص ١٩٣ •

ملك لصاحبه لا يجوز لأحد أن ينتفع منه بشيء الا بأذنه ، ولا يؤخذ منه الا برضاه ، فيما عدا الحالات التى تقتضيها مصلحة الدولة والمجتمع (٩١) .

الثانى : أرض مملوكة غير عامرة : ويعنون بها الأرض الخراب التى انقطع مأواها أو لم تستغل بسكنى أو استثمار أو غير ذلك . وحكم هذه أنها تبقى على ملك صاحبها كالسابق ، وتورث وتباع كبقية الأراضى العامة .

الثالث : أرض من المرافق العامة للناس ، كالأرض التى تكون لأهل القرية مرعى لدوابهم ، ومحتطبا لهم أو مقبرة لموتاهم . وهذه لا يملكها أحد بل تكون منفعتها للجميع .

والرابع : أرض خراب لا يملكها أحد ولا ينتفع بها أحد ، وهذه هى التى تسمى الموات .

واحياء الأرض الموات يكون بجلب الماء لها ان كانت خالية منه ، وتجفيفها ان كانت مغمورة به ، وزراعتها أو البناء عليها بما يجعلها صالحا للاستثمار بعد أن كانت معطلة .

وصفة الاحياء — عند الماوردى — (٩٢) معتبرة بالعرف فيما يراد له الاحياء لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطلق ذكره اشارة على العرف المعهود فيه فان أراد الاحياء الموات للسكنى كان احياءه بالبناء والتسقيف ، لأنه أول كمال العمارة التى يمكن سكناها . وان أراد احياءها للزراع والغرس اعتبر فيه ثلاثة شروط : أحدها ، جمع التراب المحيط بها حتى يصير حاجزا بينها وبين غيرها . والثانى ، سوق الماء اليها ان كانت يئسا وجبسه عنها ان كانت بطائح (٩٣) لأن احياء اليبس بسوق الماء اليه

(٩١) انظر البدائع ٦ / ١٩٢ .

(٩٢) الاحكام ص ١٥٨ .

(٩٣) بطائح : جمع أبطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

واحياء البطائح بحبس الماء عنها حتى يمكن زرعها وغرسها في الحالين والثالث ، حرثها ، والحرث يجمع اثاره المعتدل وكسح المستعلى وطم المنخفض . فاذا استكملت هذه الشروط الثلاثة كمل الاحياء وملك المحيى » .

والأصل فى احياء الأرض الموات قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أحيا أرضا ميتة فهي له ، وما أكلت العافية ^(٩٤) منها فهي له صدقة » وقوله أيضا : « من عمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها » . وعن أسمر بن مضر قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقال : من سبق الهى ما لم يسبق اليه مسلم فهو له ، قال فخرج الناس يتعادون (أى يسرعون) ، يتخاطون (أى يضعون على الأرض علامات بالخطوط) » ^(٩٥) وقال عمر رضى الله عنه فى إحدى خطبه « من أحيا أرضا ميتة فهي له » ^(٩٦) .

معنى هذا أنه يشترط لتمك الأرض الموات مقدرة الفرد على احياء هذه الأرض واستثمارها اما بالبناء أو الزرع أو الحرث ، فهي فى الأصل لا ملكية لأحد ، وانما تصير ملكا خاصا لمن يعمل على احيائها . وفى شرح الماوردى لمعنى حديث الرسول السابق : « من أحيا أرضا مواتا فهي له » دليل على أن ملك الموات معتبر بالاحياء والعمل ^(٩٧) .

ولكن هل لابد من الحصول على اذن الامام ، أو الدولة ، لصحة التملك فى احياء الأرض الموات ؟

فى الأحكام السلطانية ^(٩٨) نجد أن : « من أحيا مواتا ملكه باذن الامام وبغير اذنه » وقال أبو حنيفة لا يجوز احيائها الا باذن الامام

(٩٤) المراد بالعافية من يمر بالأرض فيأكل منها لحاجته سواء كان انسانا أم حيوانا .

(٩٥) رواه أبو داود .

(٩٦) أخرجه أبو عبيد فى كتاب الاموال : ٢٩٠ .

(٩٧) انظر الاحكام السلطانية ص ١٥٨ .

(٩٨) الاحكام السلطانية ص ١٥٨ .

لقول النبي عليه الصلاة والسلام ليس لأحد إلا ما طابت به نفس امامه •
وفى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من أحيا أرضا مواتا فهي له »
دليل على أن ملك الموات معتبر بالاحياء دون اذن الامام • فلا يشترط
على هذا النحو ، عند الماوردي لتملك الأرض الموات ان يكون ذلك باذن
من الامام ، بل يكفي في ذلك الاحياء ومداومة العمل على استثمار
هذه الأرض •

ولولى الأمر ، أو الحاكم ، حق التدخل ليحمل مالك الأرض الموات
على العمل على حيائها ومداومة استثمارها ، لأن تعطيل العمل والاستثمار
يؤدي الى فقر صاحبها وبالتالي الى فقر المجتمع • وقد اتفق الفقهاء على
أنه يترك لمالك الأرض الموات ثلاث سنوات فاذا مضت ولم يقيم باحيائها
كان من حق الامام أو ولي الأمر انتزاعها منه واعطاؤها لغيره • لأن الهدف
من تملكه للأرض الموات أن تعود بالنفع على ذاته أولا وعلى المجتمع
ثانيا في شكل تكبير وتوسيع لرقعة الأرض الصالحة للزراعة والاستثمار •
وقد تقدم بنا أن عمر طبق هذا المبدأ عندما قال على المنبر :
« من أحيا أرضا ميتة فهي له » ، وليس لاحتجر حق بعد ثلاث سنين •
ويقول راوى هذا الخبر : وذلك أن رجلا كانوا يحتجرون من الأرض ما
يعملون • (٩٩) وقال عمر رضى الله عنه : « من عطل أرضا ثلاث سنين لم
يعمرها فجاء غيره فعمرها فهي له » (١٠٠) •

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعطى بلال بن الحارث
الزنى جميع أرض العقيق ، فلما كان زمن عمر قال لبلال : « ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقطعك لتحجر (١٠١) عن الناس ، انما
أقطعك لتعمل ، فخذ منها ما قدرت على عمارته ورد الباقي » • (١٠٢)

(٩٩) الاموال لابي عبيد : ٢٩٠ ، والخراج ليحيى بن آدم •

(١٠٠) الخراج ليحيى بن آدم : ٩١ •

(١٠١) الاحتجار هو وضع اليد على الارض الموات لمحاولة احيائها

وتعبيرها •

(١٠٢) الاموال لابي عبيد : ٢٩ •

وقريب من هذا قول الماوردي : « وإذا تحجر على موات كان أحق بأحيائه من غيره فان تغلب عليه من أحياء كان المحيي أحق به من المحتجر » (١٠٣) •

جاء في بدائع الصنائع : (١٠٠) « وأما بيان ما يملك الامام من التصرف في الموات فللامام اقطاع الموات لما يرجع ذلك الى عمارة البلاد ولو أقطع الموات انسانا فتركه ولم يعمره لم يتعرض له الى ثلاث سنين ، فاذا مضى ثلاث سنين فقد عاد مواتا كما كان ، وله أن يقطعه غيره لقوله صلى الله عليه وسلم ليس لمحتجر بعد ثلاث سنين حق » •

ونخلص من ذلك الى أن الشارع الاسلامي حرصا منه على المصلحة العامة أعطى لولى الأمر الحق في انتزاع الأرض الموات التي لم يقيم صاحبها بتعميرها ، واعطائها لغيره ممن يقدر على الاحياء والتعمير وفي هذا تطبيق للقاعدة الشرعية « تصرف الامام على الرعية منوط بالمصلحة » • يقول الغزالي (*) : « نعى من المصلحة المحافظة على مقصود الشرع ، ومقصود الشرع من الخلق خمسة : هو أن يحفظ عليهم دينهم ، ونفسهم ، وعقلهم ، ونسلهم ، ومالهم ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ، ودفعها مصلحة » • ويقول الامام الشاطبي (***) : « انا وجدنا الشارع قاصدا لمصالح العباد ، والأحكام العادية تدور معه حيثما دار ، فتري الشيء الواحد يمنع في حال لا تكون فيه مصلحة ، فاذا كان فيه مصلحة جاز » •

وبعد فهذه هي أهم أحكام احياء الموات ، ومنها يتبين لنا اتجاه

(١٠٣) الاحكام السلطانية ص ١٥٨ — ١٥٩ •

(١٠٤) ج ٦ ص ١٩٢ •

(*) المستصفى ١ / ٢٨٧ •

(**) الموافقات ٢ / ٣٠٦ •

(م ٣٠ — الماوردي)

الاسلام الاشتراكي كما عبر عنه الماوردي وهو اتجاه يهدف الى حسن استغلال الثروات الموجودة بما يحقق الخير والرفاهية والسعادة للجميع •

[الاقطاع] :

معناه في العرف الاسلامي تمليك الامام أو الحاكم أرضا لا مالك لها ، لانسان يقوم بتعميرها واستغلالها ، والغرض من ذلك هو التشجيع على العمل ، واستثمار خيرات الأرض لصالح الفرد والمجتمع • على أن يتم ذلك خلال مدة معينة ، فان انقضت ولم يفعل المالك شيئا استردها الإمام منه وأعطاه لغيره يقول الماوردي : (*)

« فإذا صار الموات على ما شرحناه اقطاعا فمن خصه الامام به وصار بالاقطاع أحق الناس به لم يستقر ملكه عليه قبل الاحياء ، فان شرع في احيائه صار بكمال الاحياء مالكا له وأن امساكه عن احيائه فان كان لعذر ظاهر لم يعترض عليه فيه وأقر في يده الى زوال عذره وان كان غير معذور قال أبو حنيفة لا يعارض فيه قبل مضي ثلاث سنين فان احياء فيها والا بطل حكم اقطاعه بعدها احتجاجا بأن عمر رضى الله عنه جعل أجل الاقطاع ثلاث سنين وعلى مذهب الشافعي أن تأجيله لا يلزم وانما المعتبر فيه القدرة على احيائه ، فإذا مضى عليه زمان يقدر على احيائه فيه قيل له اما أن تحببه فيقر في يدك واما أن ترفع يدك عنه ليعود الى حاله قبل اقطاعه وأما تأجيل عمر رضى الله عنه فهو قضية في عين يجوز أن يكون لسبب اقتضاه أو لاستحسان رآه • • • » •

واقطاع الأراضى لا يكون فى الأراضى التى : (١٠٥)

١ — ليست مملوكة لأحد ولو كانت خرابا •

(*) الاحكام السلطانية ص ١٦٩ •

(١٠٥) اشتراكية الاسلام للدكتور مصطفى السباعي ص ٩٠ •

٢ — ليست من المرافق العامة التى يحتاج اليها سكان المدن أو القرى
أو الصحراء •

٣ — ليس فيها معدن من المعادن التى يحتاج اليها الناس •

ويقول الماوردى : (١٠٦) « واقطاع السلطان مختص بما جاز فيه
تصرفه ، ونفذت فيه أوامره ، ولا يصح فيما تعين فيه مالكة وتميز
مستحقه » •

وقد خلط البعض (١٧) بين هذا النوع من الاقطاع الاسلامى
وبين الاقطاع الذى عرفه الغرب فى العصور الوسطى ، وهذا بعيد كل
البعد عن الحق والحقيقة • ذلك أن الاقطاع الغربى كان لونا من استعباد
الانسان لأخيه الانسان ، فقد كان الاقطاعى يملك الأرض الواسعة بمن
عليها من الفلاحين وما عليها من الحيوان ، وكان يباح له مطلق التصرف
فيها وفيهم دون قيد أو شرط ، وإذا باعها مالكا آخر انتقلت ملكيتها
وفلاحوها وحيواناتها الى المالك الجديد • وهذا مما يأباه الاسلام ولا يقره
بأى حال من الأحوال ، ولم يقع فى حضارته مثل ذلك النظام • ولا يخفى
على كل ذى عقل وبصيرة أن الاسلام هو دين العدل والحرية والمساواة
ومحاربة الرق والعبودية ، وأحد الأدلة على ذلك تخصيص القرآن ، فى
آية الصدقات ، لسهم خاص يصرف منه على تحرير الأرقاء وشراء عبيد
يعتقون •

وقائع الاقطاع فى عهد الرسول والخلفاء : (١٠٨)

كانت بلاد العرب حين جاءها الاسلام ما بين أرض مملوكة لأصحابها ،
وما بين أرض لا مالك لها ، ومنها ما كان مرعى للابل والأنعام •

(١٠٦) الاحكام السلطانية ص ١٦٨ ..

(١٠٧) الاقطاع فى الشرق الاوسط منذ القرن السابع حتى القرن
الثالث عشر ، للسيد الباز العرينى ، دراسة مقارنة • حوليات كلية الآداب
جامعة عين شمس ١٩٥٧ ص ١١٣ وما بعدها •

(١٠٨) اشتراكية الاسلام للدكتور مصطفى السباعى ص ٩٠ — ٩١ •

ولما بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مقامه في المدينة ينظم شئون الدولة الإسلامية كان مما اتجهت إليه عنايته إصلاح الأراضي الميتة التي لا مالك لها ، فأعلن أن من أحيا أرضا ميتة فهي له ، وتقدم إليه بعض الناس يطلبون منه أن يمنحهم من تلك الأراضي ما يقومون بعمارتها ، ففعل وسمى عمله هذا « اقطاعا » •

فقد أقطع الرسول صلى الله عليه وسلم : الزبير بن العوام ، وبلال ابن الحارث ، وعمر بن حريث ، ووائل بن حجر ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمر بن الخطاب وغيرهم •

ولما بدأت المعارك بين الدولة الإسلامية ومملكتي الفرس والروم — عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم — انتهت تلك المعارك باستيلاء الاسلام على أكثر أقطار تلك المملكتين ، ووجدت الدولة الإسلامية نفسها أمام أراضي واسعة ليس لها مالكون ، اما نتيجة لوفاة أصحابها المحاربين : أو لاستيلاء الدولة على أملاك كسرى وقيصر وأمراء البيت المالكي وقواد الدولتين في فارس والروم ، وأما لأنها في الأصل كانت أراضي خرابا •

وهنا قضت سياسة الدولة الانشائية باحياء تلك الأراضي واعمارها فأقطعها الخلفاء لمن يقوم عليها ويحسن استثمارها •

ذلك هو أصل اقطاع الأراضي في الدولة الإسلامية ، وهو كما ترى عمل عمراني أدى أجل الخدمات المالية للدولة وثروتها الاقتصادية •

وفي أكثر الحالات لم يخرج الاقطاع عن حدوده الشرعية ، وهو أن تكون الأرض المقطعة أرضا مواتا أو من أراضي الدولة ، ويكون ذلك لمن يحسن عمارتها واستغلالها •

والاقطاع عند الماوردي خريبان : اقطاع تمليك ، واقطاع — استغلال •

وفى اقطاع التملك تنقسم الأرض المقطعة ثلاثة أقسام : موات ،
وعامرة ومعادن *

أما اقطاع الاستغلال فعلى ضربين : عسر ، وخراج *

وهذا نص كلام الماوردي : (١٠٩)

« الاقطاع ضربان : اقطاع تملك * واطقطاع استغلال * فأما اقطاع
التملك فتتنقسم فيه الأرض ثلاثة أقسام : موات ، وعامر ، ومعادن *

فأما الموات فعلى ضربين : أحدهما ما لم يزل مواتا على قديم الدهر
فلم تجر فيه عمارة ولا يثبت عليه ملك فهذا الذى يجوز للسلطان أن يقطعه
من يحييه ومن يعمره * ويكون الاقطاع على مذهب أبى حنيفة شرطا فى
جواز الاحياء لأنه يمنع من احياء الموات الا باذن الامام * وعلى مذهب
الشافعى أن الاقطاع يجعله باحيائه من غيره وان لم يكن شرطا فى جوازه
لأنه يجوز احياء الموات بغير اذن الامام وعلى كلا المذهبين يكون المقطع
أحق باحيائه من غيره *

والضرب الثانى من الموات ما كان عامرا فخرّب فصار مواتا عاطلا
وذلك ضربان : أحدهما ، ما كان جاهليا كأرض عاد وثمود ، فهى كالموات
الذى لم يثبت فيه عمارة ويجوز اقطاعه * قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : عادى الأرض لله ورسوله ثم هى لكم منى يعنى أرض عاد *
والضرب الثانى ، ما كان أسلاميا جرى عليه ملك المسلمين ثم خرب حتى
صار مواتا عاطلا فقد اختلف الفقهاء فى حكم احيائه على ثلاثة أقوال :
فذهب الشافعى فيه الى أنه لا يملك بالاحياء سواء عرف أربابه أو لم
يعرفوا * وقال أبو حنيفة رحمه الله أن عرف أربابه لم يملك بالاحياء ،
وان لم يعرفوا ملك بالاحياء ، وان لم يجز اقطاعه وكانوا أحق ببيعه

واحياؤه وان لم يعرفوا جاز اقطاعه وكان الاقطاع شرطا فى جواز احياؤه •

وأما العامر فضريان . أحدهما ، ما تعين مالكة فلانظر للسلطان فيه الا ما يتعلق بتلك الأرض من حقوق بيت المال اذا كانت فى دار الاسلام سواء كانت لمسلم أو ذمى فان كانت فى دار الحرب القى لا يثبت للمسلمين عليها يد فأراد الامام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها جاز • وقد سأل تميم الدارى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقطع عيون البلد الذى كان منه بالشام قبل فتحه ففعل وسأله أبو ثعلبة الخشنى أن يقطع أرضا كانت بيد الروم فأعجبه ذلك وقال الا تسمعون ما يقول فقال : والذى بعثك بالحق ليفتحن عليك فكتب له بذلك كتابا وهكذا لو استوهب من الامام مال فى دار الحرب وهو على ملك أهلها أو استوهب أحد وسببها وذرائعها ليكون أحق به اذا فتحها جاز وصحت العطية فيه مع الجهالة بها لتعلقها بالأمر العامة •

والضرب الثانى من العامر ، ما لم يتعين مالكوه ولم يتميز مستحقوه ، وهو على ثلاثة أقسام : أحدها ، ما أصطفاه الامام لبيت المال من فتوح البلاد اما بحق الخمس فيأخذه باستحقاق أهله له ، واما بأن يصطفيه باستطابة نفوس الغانمين عنه فقد أصطفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أرض السواد أموال كسرى وأهل بيته وما هرب عنه أربابه أو هلكوا فكان مبلغ غلتها تسعة آلاف درهم كان يصرفها فى مصالح المسلمين ولم يقطع شيئا منها ثم ان عثمان رضى الله عنه أقطعها لأن اقطاعها أوفر لغلتها من تعطيلها وشرط على من أقطعها اياه أن يأخذ منه حق الفىء فكان ذلك اقطاع اجارة لا اقطاع تمليك فتوفرت غلتها حتى بلغت على ما قيل خمسين ألف درهم فكان منها صلاته وعطاياه ثم تناقلها الخلفاء بعده • فلما كان عام الجماجم سنة اثنتين وثمانين فى فتنة بن الأشعث أحرق الديوان وأخذ كل قوم ما يليهم • فهذا النوع من العامر لا يجوز اقطاع رقبته لأنه قد صار ، باصطفائه لبيت المال

ملكا لكافة المسلمين فجري على رقبته حكم الوقوف المؤبدة وصار استغلاله هو المال الموضوع في حقوقه والسلطان فيه بالخيار على وجه النظر في الأصلح بين أن يستغله لبيت المال كما فعل عمر رضى الله عنه ، وبين أن يتخذ له من ذوى المكنة والعمل من يقوم بعمارة رقبته بخراج يوضع عليه مقدر بوفور الاستغلال ونقصه كما فعل عثمان رضى الله عنه ويكون الخراج آجرة تصرف في وجوه المصالح •

والقسم الثالث ، ما مات عنه أربابه ولم يستحقه وارثه بفرض ولا تعصيب فينتقل الى بيت المال ميراثا لكافة المسلمين مصروفا في مصالحهم • وقال أبو حنيفة ميراث من لا وارث له مصروف في الفقراء خاصة صدقة عن الميت ومصرفه عند الشافعى في وجوه المصالح أعم ، لأنه قد كان من الأملاك الخاصة وصار بعد الانتقال الى بيت المال من الأموال العامة •

وأما اقطاع الاستغلال فعلى ضربين : عشر وخراج •

فأما العشر فأقطعه لا يجوز ، لأنه زكاة لأصناف يعتبر وصف استحقاقها عند دفعها اليهم وقد يجوز أن لا يكونوا من أهلها وقت استحقاقها لأنها تجب بشروط •

وأما الخراج ، فيختلف حكم اقطاعه باختلاف حال مقطعه وله ثلاثة أحوال : أحدها أن يكون من أهل الصدقات فلا يجوز أن يقطع مال الخراج لأن الخراج فىء لا يستحقه أهل الصدقة • • والحالة الثانية أن يكون من أهل المصالح ممن ليس له رزق مفروض فلا يصح أن يقطع على الإطلاق ، وإن جاز أن يعطاه من مال الخراج ، لأنه من نفل أهل الفىء لا من فرضه ، وما يعطى له إنما هو من صلات المصالح • • والحالة الثالثة أن يكون من مرتقة أهل الفىء وفرضية الديوان وهم أهل الجيش وهم أخص الناس بجواز الاقطاع لأن لهم أرزاقا مقدرة تصرف اليهم مصرف الاستحقاق لأنها تعويض عما أرسدوا نفوسهم له من حماية البيضة والذب عن الحريم •

ويرى البعض ^(١١٠) أن الاقطاع ثلاثة أنواع : اقطاع تمليك ، واطقطاع استغلال ، واطقطاع ادارى : « وينصرف اقطاع التمليك الى الأرض وغلقتها . وقد كان هذا النوع من الاقطاع من أهم وسائل امتلاك الأرض وحيازتها عندما تداعت الخلافة العباسية فى القرن التاسع (الثالث الهجرى) » .

أما اقطاع الاستغلال باعتباره قطيعة من الأرض تغل خراجا ثابتا فيرجع الى عصر البويهيين ^(١١١) (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) . ثم تحول اقطاع الاستغلال هذا ، فى عهد السلاجقة الى اقطاع حربى . وينال المقطع من حيث المدأ خراج الأرض لا الأرض ، ولم يكن له سيطرة على المشتغلين بها ، وكان يخضع لسلطة الحكومة ، وكان عليه الا يسيء استعمال اقطاعه . كما كان من الجائز نزع الاقطاع منه ، اذا لم يقم بالالتزامات المفروضة عليه ^(١١٢) .

وأما عن الاقطاع الادارى فقد كان حكومة اقليمية يمنحها السلطان لأحد المقربين له . ثم ما لبث أن أندمج فى الاقطاع الحربى السابق الذكر .

وتتفق آراء الفقهاء مع رأى الماوردى فى أن يكون اقطاع الأراضى لمن يحسن عمارتها واستغلالها .

يقول أبو يوسف فى كتاب « الخراج » ^(١١٣) .

« فأما المقطائع من أرض العراق فكل ما كان لكسرى ومرارزبته وأهل بيته مما لم يكن فى يد أحد . . . وقد وجد فى الديوان أن عمر رضى الله

(١١٠) الاقطاع فى الشرق الاوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر للسيد آتياز العرينى ص ١٢٦ .

(١١١) المرجع السابق ص ١٣٧ .

(١١٢) نفس المرجع ص ١٣٨ .

(١١٣) ص ٥٧ فما بعدها .

عنه صفى أموال كسرى وآل كسرى ، وكل من فر عن أرضه وقتل في المعركة ، وكل مغيض مال أو أجمة ، فكان عمر يقطع من هذه لمن أقطع . وذلك بمنزلة المال الذي لم يكن في يد أحد ولا في يد وارث ، فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء في الإسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابى به ، وكذلك هذه الأرض . فهذا سبيل القصاص عندى فى أرض العراق والذي فعل الحجاج ثم عمر بن عبد العزيز . فان عمر رضى الله عنه أخذ فى ذلك بالسنة . . وكل أرض من أرض العراق والحجاز واليمن والطائف وأرض العرب وغيرها غامرة وليست لأحد ولا فى يد أحد ولا ملك أحد ولا وراثة ولا عليها أثر عمارة فأقطعها الإمام رجلا فعمرها ان كانت فى أرض الخراج فعلى الذى أقطعها الخراج ، وان كانت فى أرض العشر فعليه العشر .

وبعد ذلك ينصح الرشيد بقوله : « ولا أرى أن يترك » الإمام « أرضا لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام ، فان ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج ، فهذا حد الاقطاع عندى على ما أخبرتك » .

ويقول أبو عبيد القاسم بن سلام : (١١٤) ولهذه الأحاديث (أى الأحاديث التى وردت عن اقطاع النبى صلوات الله وسلامه عليه للأراضى وكذلك آثار الخلفاء رضوان الله عليهم) التى جاءت فى الاقطاع وجوه مختلفة ، الا أن حديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى ذكرناه وهو : « عادى الأرض لله ورسوله ثم هى لكم أى : تقطعونها للناس » هو عندى مفسر لما يصلح فيه الاقطاع من الأرضين ولما لا يصلح . والمعادى كل أرض كان لها ساكن فى آباد الدهر . فانقرضوا فلم يبق منهم أنيس . فصار حكمها الى الإمام . وكذلك كل أرض موات لم يحيها أحد ولم يملكها مسلم ولا معاهد . وإياها أراد عمر بكتابه الى أبى موسى « ان لم تكن أرض جزية ولا أرضا يجرى اليه ماء جزية فأقطعها إياه

« فقد تبين أن الاقطاع ليس يكون الا فيما ليس له ملك • فاذا كانت الأرض كذلك فأمرها الى الامام » •

الحمى

من اجراءات الاسلام الاشتراكية التى تحدث عنها الماوردى نظام الحمى ، ومعناه اقتطاع جزء من الأرض لتكون مرعى عاما لا يملكه أحد ، بل ينفق به سواد الشعب ، وهذا أشبه ما يكون بنظام التأمين لمصادر الخدمات والمرافق العامة لمنفعة أفراد المجتمع • وبهذا سبق الاسلام كثيرا من الدول غير الاسلامية فى تأمينها لبعض ضروريات المجتمع بأكثر من ثلاثة عشر قرنا •

يقول الماوردى : (١١٥) « وحمى الموات هو المنع من احيائه أملاكه ليكون مستبقى الاباحة لنبت الكلا ورعى المواشى » •

وقد حمى الرسول أرض البقيع بالمدينة وجعلها لمنفعة عامة المسلمين ترعى فيها خيولهم وابلهم • وفى ذلك يقول الماوردى : (١١٦) « فقد حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وصعد جبلا بالبقيع قال أبو عبيد هو النقيع بالنون ، وقال : هذا حماى ، وأشار بيده الى القاع ، وهو قدر ميل فى سنة أميال حماه لخيول المسلمين من الأنصار والمهاجرين » • وروى الصعب بن جثامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين حمى البقيع • « لا حمى الا الله ولرسوله » •

معنى هذا أن الحمى انما يكون لمنفعة عامة لا تخص أحدا ، بل الحمى لله وللرسول ، ولأن ما لله هو للمسلمين • وفى هذا يقول الشافعى : (١١٧) « ان حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه صلاح

(١١٥) الاحكام السلطانية ص ١٦٤ •

(١١٦) الاحكام السلطانية ص ١٦٤ •

(١١٧) الام ٣ / ٢٧٠

لعامة المسلمين ، وأن تكون الخيل المعدة لسبيل الله * وما فضل من سهمان أهل الصدقات ، وما فضل من النعم التى تؤخذ من أهل الجزية ترعى فيه : فأما الخيل فقوة الى جميع المسلمين ، وأما نعم الجزية فقوة لأهل الفىء من المسلمين ومسلك سبيل الخير أنها لأهل الفىء المجاهدين ، وأما الابل التى تفضل عن سهمان أهل الصدقة فيعاد بها على أهل سهمان الصدقة ، فلا يبقى مسلم الا دخل عليه من هذا صلاح فى دينه وفى نفسه ومن يلزمه أمره من قريب أو عامة من مستحقى المسلمين * * » .

وقد حما أبو بكر رضى الله عنه بالربذة لأهل الصدقة واستعمل عليه مولاه أباه سلامة (١١٨) * وحمى عمر أيضا أرضا بالربذة بعد أن أخذها من أصحابها ، وجعلها مرعى لمواشى المسلمين ، فجاء أهلها يقولون : يا أمير المؤمنين : انها بلادنا قاتلنا عليها فى الجاهلية ، وأسلمنا عليها فى الاسلام ، علام تحميها ، فأطرق عمر ثم قال : « المال مال الله ، والعباد عباد الله ، والله لولا ما أحمل عليه فى سبيل الله ، ما حميت شبرا فى شبر » (١١٩) * .

ويوضح أن الحمى إنما يكون دائما لصلاح المسلمين قول عمر رضى الله عنه لهنى ، لما استعمله على حمى الربذة « ياهنى ضم (اضمم) جناحك عن الناس ، وائق دعوى المظلوم فان دعوة المظلوم مجابة ، وأدخل رب الصريمة ورب الغنيمة — أى مكن الفقراء أصحاب المواشى القليلة من الرعى فى تلك الأرض — وإياك ونعم ابن عفان وابن عوف — أى من الأغنياء أصحاب الأموال الكثيرة — فانهما ان يهلك ماشيتهما يرجعان الى نخل وزرع ، وان رب الصريمة ورب الغنيمة — أى الفقراء أى الابل والاغنام القليلة — يأتينى بعياله فيقول : يا أمير المؤمنين أفتاركهم أنا لا أبالك فالكلا أهون على من الدينار والدرهم والذى نفسى بيده

(١١٨) الاحكام السلطانية ص ١٦٥ .

(١١٩) الاموال : ٢٩٩ .

لولا المال الذى أحمل فى سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم
شبرا « (١٢٠) •

وبهذا نجد أن الشريعة الإسلامية قد أباحت للحاكم ضرورة
« تأميم » الأرض لصالح الدولة والمجتمع ، ويتصل بذلك ، أيضا ، أباحة
الشريعة للحاكم أن يأخذ من أملاك الأغنياء وأموالهم ما تدعو إلى أخذه
مصلحة عامة ، ويوضح الماوردى ذلك بقوله : (١٢١) « ولم نزل الملوك
الفضلاء والأئمة الحكماء ينتظفون عن ظلم الرعية والطمع فى أموالهم إلا
ما وظفت عليهم سنتهم ، وأباحتهم لهم ملتهم وشريعته من أخذ فصول
أموالهم ثم رده عليهم فى عوام مصالحهم من تحصين دمائهم وتثمين
أموالهم وإيمان سبلهم ودفع معرة أعدائهم وقمع ذعارهم » •

وتأكيدا لاتجاهه الاشتراكي (أى اتجاه الماوردى) يورد بعد ذلك
توجيه الفيلسوف أرسطاطاليس لتلميذه الاسكندر بأن عليه ألا يلح فى
أخذ أموال رعيته ، فيضعفهم وينبغض اليهم ، وعليه أن يصرف ما يناله
من أموالهم فى مصلحة عامتهم : « واشتهر بذلك تسعد به » (١٢٢) •

وقد عرف الحمى من الأرض فى العصر الجاهلى ، وقبل ظهور
الإسلام ، وكان يستند الى قوة وجبروت وسلطان الفرد أو القبيلة ،
وعندما جاء الإسلام حظر هذا النوع من الحمى الفردى أو الشخصى
وجعله حقا للامام ليحمى به أرضا للفقراء والمساكين ولمصالح كافة
المسلمين ولعل هذا هو ما يعنيه الماوردى بقوله فى كتاب الاحكام
السلطانية : (١٢٣)

(١٢٠) الاحكام السلطانية ص ١٦٥ •

(١٢١) نصيحة الملوك ورقة ٦٨ •

(١٢٢) نصيحة الملوك ورقة ٦٨ •

(١٢٣) ص ٦٥ •

« •• فأما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حمى الا لله
ولرسوله فمعناه لا حمى الا على مثل ما حماه الله ورسوله للفقراء
والمساكين ولصالح كافة المسلمين لا على مثل ما كانوا عليه فى الجاهلية
من تفرد العزيز منهم بالحمى لنفسه كالذى كان يفعل كليب بن وائل
فانه كان يوافى بكلب على نشاز من الأرض ثم يستعديه ويحمى ما انتها
اليه عواؤه من كل الجهات وتتسارك الناس فيما عداه حتى كان ذلك سبب
قتله وفيه يقول العباس بن مرداس :

كما كان يبغيها كليب بظلمه من العز حتى طاح وهو قتيلا
على وائل اذ يترك الكلب نابحا واذا يمنع الافناء منها حلولها •

الملكية العامة لأدوات الانتاج (المنافع العامة)

ونعنى بأدوات الانتاج هنا ، كل ما كان ضروريا لحياة الناس ،
وعلى سبيل المثال جميع أنواع الماء ، ويقسمه الماوردى ثلاثة أقسام :
مياه أنهار ، ومياه آبار ، ومياه عيون ، ومن أدوات الانتاج أيضا
مناجم المعادن كمعادن الذهب والفضة والحديد والصفير والكحل والملح
والقار والنفط • فكل ما كان مثل هذه الأدوات ضروريا لتأمين أعضاء
المجتمع على آدميتهم لا يصح أن يترك لفرد أو أفراد تملكه ، بل لابد
من سيطرة الدولة عليه لصالحها ولصالح المجتمع • ويعد هذا تطبيقا
للحديث النبوى الشريف : « المسلمون شركاء فى ثلاثة ، فى الماء
والكلأ والنار » (١٢٤) • وفى حديث آخر « الملح » • وليس النص على
هذه المواد للحصر ، بل يلحق بها كل ما كان مثلها فى حاجة الناس جميعا
اليها • وقد تمثلت أدوات الانتاج فى العصر الذى عاش فيه الماوردى
فى الماء والمعادن والكلأ والنار •

وروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : يا رسول الله ، ما الشئ

(١٢٤) رواه أحمد وأبو داود ورواه ابن ماجه من حديث بن عباس •

الذى لا يحل منعه ؟ قال : « الملح والماء والنار » (١٢٥) . وأضاف الشافعى الى ذلك ما يوجد فى الأرض مما ترى منفعته بادية ، وفى متناول من يطلبها دون جهد منه أو عمل . من كل معدن ظاهر كالأذهب والتبر وغيرهما ، والنبات والماء مما لا يملكه شخص معين ولا يحتاج فى ادراكه الى مؤونة . فان الناس جميعا يكونون فى ذلك سواء ، لا يختص به واحد من الناس بأحياء أو اقطاع من ولى الأمر . بل يكون شأنه شأن الماء والكأ والنار ، والقاصد اليه شريك فيه كشرκτη فى الماء والكأ الذى ليس فى ملك أحد . قال الشافعى : ومثل هذا كل عين ظاهرة كنفظ أو قار أو كبريت أو حجارة ظاهرة فى غير ملك لأحد . فليس لأحد أن يحتجزها دون غيره ولا لسلطان أن يمنعها لنفسه أو لخاص من الناس » (١٢٦) .

يذهب الماوردى الى أن جميع أنواع الماء يجب أن يكون ملكا عاما لجميع الأفراد ، دون ضرورة تدعو فيه الى تنازع أو مشاحنة ، والكل فى حق الانتفاع به سواء . يقول الماوردى فى كتابه « الاحكام السلطانية » (١٢٧) .

« وأما المياه المستخرجة فتتقسم ثلاثة أقسام : مياه أنهار ، ومياه آبار ، ومياه عيون » .

فأما الانهار فتتقسم ثلاثة أقسام : أحدها ، ما أجراه الله تعالى من كبار الأنهار التى لا يحتقرها الآدميون كدجلة والفرات ويسميان الرافدين ، فمأوها يتسع للزراع والشاربة ، وليس يتصور فيه قصور غن كفاية ولا ضرورة تدعو فيه الى تنازع أو مشاحنة فيجوز لمن شاء من الناس أن يأخذ منها لضييعته شربا ، ويجعل من ضييعته اليها مغيضا ولا يمنع من أخذ شرب ولا يعارض فى أحداث مغيض .

(١٢٥) رواه ابن ماجه .

(١٢٦) الام ٣ / ٢٦٥ وما بعدها .

(١٢٧) ص ١٦٠ وما بعدها .

والقسم الثانى : ما أجراه الله تعالى من صغار الأنهار ومنها ما يعلو
ماؤها وان لم يجبس ويكفى جميع أهله من غير تقصير فيجوز لكل ذى
أرض من أهله أن يأخذ منه شرب أرضه فى وقت حاجته . ولا يعارض
بعضهم بعضا .

والقسم الثالث من الأنهار : ما احتفره الآدميون لما أحيوه
من الأرضين فيكون النهر بينهم ملكا مشتركا كالزقاق المرفوع بين أهله
لا يختص أحدهم بملكه فان كان هذا النهر بالبصرة يدخله ماء المد
فهو يعم جميع أهله لا يتشاحون فيه لاتساع مائه . ولا يحتاجون
الى حبسه لعلوه بالمد الى الحد الذى ترتوى منه جميع الأرضين .

أما الآبار فلحافرها ثلاثة أحوال : أحدها ، أن يحفرها لسابلة
فيكون ماؤها مشتركا وحافرها فيه كأحدهم . قد وقف عثمان رضى الله
عنه عند بئر رومة فكان يضرب بدلوه مع الناس ويشترك فى مائها ان
اتسع شرب الحيوان وسقى الزرع ، فان ضاق ماؤها عنهما . كان شرب
الحيوان أولى به من الزرع . ويشترك فيها الآدميون والبهائم فان ضاق
عنهما كان الآدميون بمائها أحق من البهائم . الخ .

ومناجم المعادن ، وهى البقاع التى أودعها الله تعالى جواهر
الأرض ، حكمها عند الماوردى حكم المنافع العامة مثل منابع المياه لا يجوز
اقطاعها ، بل يجب أن تكون ماكا عاما للمسلمين جميعا دفعا للمظلم والضرر
عنهم ويقسم الماوردى المعادن الى قسمين : ظاهرة وباطنة (١٢٨) .

« فأما الظاهرة فهى ما كان جوهرها المستودع فيها بازرا كمعادن
الكحل والملح والقار والنفط وهو كالماء الذى لا يجوز اقطاعه والناس
فيه سواء يأخذه من ورد اليه . . روى ثابت بن سعيد عن أبيه عن جده
أن الأبيض بن جمال استقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملح مارب

فأقطعه فقال الأقرع ابن حابس التميمي : يا رسول الله انى وردت هذا الملح فى الجاهلية وهو بأرض ليس فيها غيره من ورده أخذه وهو مثل الماء العد بالأرض فاستقال الأبيض فى قطيعة الملح فقال قد أقلتلك على أن تجعله منى صدقة • فقال النبی علیه الصلاة والسلام : هو منك صدقة ، وهو مثل الماء العد من ورده أخذه • قال أبو عبيد : الماء العد هو الذى له مواد تمده مثل العيون والآبار • وقال غيره هو الماء المتجمع المعد • • فان أقطعت هذه المعادن الظاهرة لم يكن لأقطاعها حكم ، وكان المقطع وغيره فيها سواء ، وجميع من ورد اليها أسوة مشتركون فيها ، فان منعهم المقطع منها كان بالمنع متعددا وكان لما أخذه مالكا ، لأنه متعد بالمنع لا بالأخذ فكف عن المنع وصرف عن مداومة العمل لئلا يثبتته اقطاعا بالصحة أو يصير معه كالاملاك المستقرة • • •

وأما المعادن الباطنة ، فهى ما كان جوهرها مستكنا فيها ، لا يوصل اليه الا بالعمل كمعادن الذهب والفضة والصفرة والحديد فهذه وما أشبهها معادن باطنة سواء احتاج المأخوذ منها الى سبك وتخليص أو لم يحتج • • وهذه المعادن لا يجوز اقطاعها كالمعادن الظاهرة وكل الناس فيها شرع » (١٢٩) •

وشبيه بهذا قول المالكية : أن ليس شئ من المعادن فى محالها (مناجمها) ما لا مباحا حتى يملكها من يستولى عليها وان كان استيلاؤه عليها لم يحدث الا بعمل قام به أو بنفقة أنفقها فى سبيله ، وانما هى ملك للمسلمين جميعا نتيجة قيامهم على ما وجد فيها من الأرض قيام ولاية وحماية ، ولا تعد تابعة لأرضها ، مملوكة لصاحبها نتيجة لتملك أرضها اذ ليس لمثل هذا طالب الأرض أو ملكة ، وعلى ذلك يكون أمرها الى الامام يستغلها بعماله لصلحة المسلمين ان رأى المصلحة فى ذلك ، أو يقطعها من شاء اقطاع انتفاع مؤقت بمدة وحياة من أقطعها نظير مسال يصرف فى مصالح المسلمين •

(١٢٩) أى سواء يستوى فيه الواحد والاكثر والمذكر والمؤنث •

النهى عن اساءة استعمال المال

يسمح الاسلام بالتملك العادل المشروع عن طريق السعى
والاكتساب ، ويحرم أن يكون ذلك عن طريق الظلم والغش والخداع
والتحكم فى ضروريات الحياة • يقول الماوردى : (١٣٠)

« حرم الله جل وعز من صنوف المكاسب والمطالب الربا والرشا
والنصب والغلول والغش والخيانة والسرقة » •

ان جميع الحقوق التى أثبتتها الشارع مقيدة بمنع الضرر عن الغير
وجلب المصالح والموازنة بينها وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه
وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » (١٣١) • ويقول الشيخ محمود شلتوت
فى هذا الموضوع : (١٣٢) « والقرآن كما طلب السعى فى تحصيل
الأموال ، وطلب الاعتدال فى صرفها ، ونهى عن تحصيلها بالطرق التى
لا خير للناس فيها ، وفيها النسر والفساد • نهى عن تحصيلها بطريق الربا
الذى يؤخذ استغلالا لحاجة الضعيف المحتاج ، وبطريق السرقة والانتهاك
والتسول التى تزعزع الأمن والاستقرار ، وبطريق التجارة فيما يفسد
العقل والصحة كالخمر والخنزير ، وبطريق الميسر والرقص ، وبيع
الأعراض ، من كل ما يفسد الأخلاق ، ويعبث بالانسانية ، وبطريق
الرشوة التى تذهب بالحقوق والكفايات ، وفى هذا وأمثاله يقول
القرآن الكريم : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى
الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » (١٣٣) •

(١٣٠) نصيحة الملوك ورقة ٦٨ •

(١٣١) رواه أحمد وابن ماجه • •

(١٣٢) الاسلام عقيدة وشريعة ص ٢٢٤ •

(١٣٣) البقرة : ١٨٨ ، وراجع أيضا الورقة ٦٨ من كتاب : نصيحة
الملوك للماوردى •

(م ٣١ - الماوردى)

ويطلب الماوردى من مالك المال أو المتصرف فيه الامتناع عن الاسراف وعن التفتير على السواء لأن كلا من الطرفين يتعارض مع المجتمع الذى يجب أن ينتفع جميع أفرادہ بالأموال الموجودة فيه بما يُحقق لهم السعادة والتقدم * جاء فى نصيحة الملوك للماوردى : (١٣٤) « فأما جهة ترتيب المال وحسن التدبير فى جمعه وتفريقه فنقول ان من حسن التدبير فى المال لن سلك فيه المذهب القويم والطريق المستقيم أن لا يؤخذ أصل المال ولا يؤثّل ولا يثمر الا من حله وأن ينفق منه قدر ما يحتمله رأس المال فان النفقة اذا جاوزت وفاقت التمييز لم يلبث أن يضر بيت المال وينفذه » *

تتجلى عناية الماوردى بالأموال والمعاملات فيها بتحريمه الغش والاحتكار والربا ومحاربته للثّش والاسراف والتزرف عند أصحاب المال ، ووجوب توجيه الأموال الى المصارف التى لا تتعارض مع مصلحة الدولة والمجتمع (١٣٥) *

فالغش هو تعمد اخفاء العيب فى السلعة المباعة عن طريق تقديم الخبيث باسم الطيب ، والردىء باسم الجيد أو عن طريق التلاعب فى الميزان * ومن أشكال الغش أيضا ، الكذب فى رأس المال وغير ذلك من البيوع والعقود المحرمة ، ويقول الله تعالى : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستهفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، الا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم » * ويقول عليه السلام : « من غش أمتى فليس منى » ويقول : « لا يكسب عبد مالا حراما فيتصدق به فيقبل منه ، ولا ينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره الا كان زاده الى النار » * وقد أعطى الماوردى لوالى الحسبة الحق فى محاربة الغش وردع الغاشين (١٣٦) وحتى يضمن بذلك قيام العلاقات المجتمعية على أساس متين من الثقة المتبادلة *

(١٣٤) ورقة ٧١ .

(١٣٥) انظر : باب تدبير الاموال فى كتاب نصيحة الملوك للماوردى .

(١٣٦) راجع فى ذلك ما كتبناه تفصيلا عن عمل والى الحسبة .

ويشير الشيخ محمود شلقوت الى أثر الغش فى المجتمع بقوله (١٣٧) « ان انتقاص الحقوق أساس كبير لزعة الثقة فى المجتمع ، وسبيل الى قطع المصلات ، واثارة الأحقاد والبغضاء بين الناس ، ولذلك ينتشر الفساد فى الأرض ، وتضيع المصالح ، ولعل هذا كان مبعث العناية الالهية فى أن يبعث رسول من رسل الله — وهو شعيب عليه السلام — يدعو الناس أولا الى توحيد الله ، ويتبعه بالنهى والتحذير عن نقص الكيل والميزان ، معتبرا ذاك افسادا فى الأرض بعد اصلاحها » والى مدين أخاهم شعيبا قال : باقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين » (١٣٨) .

والربا آفة كبرى تؤدى الى تقطع الود والمحبة بين الناس واضطراب الأحوال الاقتصادية . وقد أذن الاسلام للحاكم أن يضرب على يد المحتكر ويهدر كل مال جمع من الربا وهو مدخل شرعى لتأميم الشركات الاحتكارية والمصارف المتعاملة بالربا . وقد وجد الربا فى المصدر الأول من الاسلام عنى نطاق ضيق ، ومن هنا أثار تحريمه دهشة العرب الذين قالوا ان البيع مثل الربا . والأصل فى تحريم الربا هو عدم اتاحة الفرصة لأصحاب الأموال لاستغلال حاجات المعسرين الذين ترغمهم ظروف الحياة القاسية الى الاقتراض وترهقهم الفائدة فيزدادون ضيقا وفقرا فى حين يزداد الأغنياء قوة ومالا دون محاولة منهم لبذل الجهد أو العمل فى الحصول عليهما . يقول الله سبحانه وتعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » (١٣٩) . ويقول أيضا : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا

(١٣٧) الاسلام عقيدة وشريعة ص ٢٤١ .

(١٣٨) الاعراف : ٨٥ .

(١٣٩) البقرة : ٢٧٥ .

إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تعملوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن
تبتغوا فلكم رعوس أموالكم لا تظلموا » (١٤٠) •

وقد اهتمت تحريم الإسلام إلى جميع أنواع الربا وأشكاله مثل
مبادلة سلعة بسلعة من نفس النوع كمبادلة كمية من الأرز بكمية أكبر
منها ، وهو الذى يطلق عليه اسم « ربا الفضل » وفى ذلك يقول عليه
السلام : « المذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير
والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد
أربى » •

وينهى الماوردى عن استعمال المرء ماله فى رشوة الغير ، لأن ذلك
يؤدى به إلى معصية الله وبذلك يستحق غضبه • ويقول الله تعالى :
« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا
من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » (١٤١) ويقول النبى صلى الله
عليه وسلم : « الراشى والمرتبى فى النار » •

والبخل أو التقثير هو وليد الشح • ويقول الماوردى : « إن الله
قد ذم الباخلين بأموالهم فقال : (١٤٢) « الذين ييخلون ويأمرزون الناس
بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا »
وقال : « ولا تحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا
لهم بل هو شر لهم سيطوقون بما بخلوا به يوم القيامة » • ويذهب إلى
أن البخل : « هو منع المال من مستحقه » (١٤٣) • ويقول الله سبحانه
وتعالى أيضا : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل
الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها

(١٤٠) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩ •

(١٤١) البقرة : ١٨٨ •

(١٤٢) النساء : ٣٧ •

(١٤٣) نصيحة الملوك ورقة ٦٩ •

جباهم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم قدوقوا ما كنتم
تكنزون » (١٤٤) •

من هنا أيضا فان الماوردي ينهى صراحة عن حبس الأموال عن
التداول ضنا بالنفع العام ، وتعطيلا لاستثمارها في مشروعات العمران
والخدمات ومرافق الدفاع لتأمين سلامة الدولة •

يقول الماوردي : (١٤٤) « ان من أدنى منازل البخل أن يمنع المال
عن سبل الحق التي شرعها الدين واتفقت عليه كلمة المؤمنين ممن بين
الله حقوقهم في كتابه وعلى لسان رسول الله عليه السلام من الفقراء
والمساكين وما في هذا الباب » • ويقول : « ثم انه ان جمعه من غير حله
وأخذه من غير حقه ومنعه من وجهه ثم خلفه لأحب قرابته وأقرب خاصته
لديه كان أشقا الأشقياء وأجهل الجهلاء وأخبث ذوى الحظوظ حيث باع
آخرته بدنيا غيره . . . » (١٤٦) يقول سبحانه وتعالى : « وأنفقوا في
سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، وأحسنوا ان الله يحب
المحسنين » (١٤٧) • ودليل آخر على أن هذا النوع من التقدير يعتبر من
أكبر الآفات التي تيزر بذور الكراهية في المجتمع ، وتقضى على حياة
الأمم وصلاح العمران قوله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الشح فان
الشح أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويبستلوا
محاربتهم » •

وقد حجب الله سبحانه وتعالى في الانفاق ، وهو يرفع سبحانه
وتعالى فريضة الانفاق في سبيله الى مرتبة أعلى الفرائض وألزمها في
تأمين سلامة المجتمع الاسلامي يقول تعالى : « وأنفقوا في سبيل الله ،

(١٤٤) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ •

(١٤٥) نصيحة الملوك ، ورقة ٦٩ •

(١٤٦) نصيحة الملوك ، ورقة ٦٩ •

(١٤٧) البقرة : ١٩٥ •

ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » (١٤٨) . وقد عرفنا أن الفقهاء يفسرون كلمة « سبيل الله » بما يعم كل مصالح المسلمين . ويستحب انفاق المال ، عند الماوردى ، على أهل العلم والحكمة والنسك والعبادة والشرف والفضل والعقل ، وهم من بين عابد جائع ، ومنضطر قانع ، ومستور متكفف ، ومحتاج متعفف ، وان فكر صاحب المال علم ان الأجر في هؤلاء أوجب والذكر فيهم أشرف ، والصنعة فيهم أبقي ، وهم بمال الله أحق وأولى (١٤٩) . ويوجه الماوردى نصيحته الى الملك قائلاً بأن عليه : « أن لا يبخل بمال الله على عباده فيما فيه صلاحهم ، ولا يدخل نفسه نار الأبد بما يستحق به عليه ذم الأمد » (١٥٠) .

ونورد هنا هذه الرواية كدليل على أن الخير كل الخير للناس هو في انفاقهم المال في سبيل الله وتجنب كنزه وحبسه عن المصالح العامة ، يقول أبو ذر : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً نحو أحد وأنا معه فقال : يا أبا ذر قلت : لبيك يا رسول الله . فقال : الاكثرون هم الأقلون يوم القيامة الا من قال كذا وكذا عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه وقليل ما هم ، ثم قال : يا أبا ذر ، قلت نعم يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، فقال : ما يسرنى أن لى مثل أحد ذهباً أنفقه في سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراطين . قلت : أو قنطارين يا رسول الله ، قال : بل قيراطين ، ثم قال : يا أبا ذر أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل » (١٥١) .

ومن الاحتكار الممنوع ، عند الماوردى ، كنز الذهب والفضة والقناطر المقنطرة ويقول مى ذلك : (١٥٢) « ان من أفحش البخل ، وأقبح

(١٤٨) البقرة : ١٩٥ .

(١٤٩) نصيحة الملوك ، ورقة ٧٠ .

(١٥٠) نصيحة الملوك ورقة ٦٩ .

(١٥١) رواه الشيخان .

(١٥٢) نصيحة الملوك ورقة ٧٠ .

التقدير والمنع كنز المال الذى يمنع به صاحبه ثمرة ماله ودرة نفسه وعبرة فى حياته وبعد وفاته واذلك أغلظ الله الوعيد لكانزى المال فقال : « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون » (١٥٣) • وقال : « جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخذه كلاً لينبذ فى الحطمة » (١٥٤) • وقال أمير المؤمنين على رضى الله عنه : « أربع من الشقاء : كنز العين ، وقساوة القلب ، وبعد الأمل ، وحب الدنيا » • قالوا : وكتب بعض الحكماء النبى أخ له : أما بعد ، فأنفق مما أتاك الله فيما أمرك الله ولا تكن فى مالك كالبخيل المتعجل للمفقر الذى منه يهرب والتارك للسعة التى اياها يطلب ، ولعله يموت بين طلبه وهربه فيكون عيشه فى الدنيا عيش الفقراء ، وحسابه فى الآخرة حساب الأغنياء » • وهذا التوعيد لكانزى المال بالعذاب الأليم هو دعوة لهم للانفاق من مالهم على الفقراء حتى تقل الفوارق بين الناس فى المجتمع •

ويقول الدكتور محمد عبد الله العربى : (١٥٥) « التقدير وما يقتدرن به من اكتناز الذهب والفضة أو غيرها من وسائل النقد يحول دون نشاط التداول النقدي ، وهو ضرورى لانتعاش الحياة الاقتصادية فى كل مجتمع فحبس المال تعطيل لوظيفته فى توسيع ميادين الانتاج وتهيئة وسائل العمل للعاملين • قال تعالى (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) (١٥٦) • كما أن التقدير يتعارض مع تعاليم الاسلام فى أن يأخذ المسلم نصيبه من الدنيا وأن

(١٥٣) التوبة : ٣٥ •

(١٥٤) الهمة : ٣ — ٤ •

(١٥٥) الملكية الخاصة وحدودها فى الاسلام ص ١٤٦ •

(١٥٦) التوبة : ٣٤ •

يتمتع بطيبات الحياة « فى غير سرف ولا مضيعة » • فكما أن الاسلام يعطى الفقير فضله من أموال الزكاة توسع بها على نفسه ويستمتع بما هو فوق ضروراته • فأولى أن ينفق الواحد ، وأن يتمتع بالحياة متاعا معقولا وأن لا يحرم نفسه من طيباتها والقرآن يقول : (وأما بنعمة ربك فحدث) (١٥٧) • والرسول الكريم يقول : « اذا آتاك الله مالا فليزأثر نعمة الله عليك وكرامته » فالشظف والمتربة مع القدرة انكار لنعمة الله ، يكرهه الله • » •

والتبذير منهى عنه أيضا عند الماوردى لأنه منبع الشرور فى المجتمع • وهو يفرق تفرقة طريفة بين الجود والتبذير ويورد فى ذلك قول أرسطاطاليس ، بأن الجود هو بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وايصاله الى من يستحقه بقدر الطاقة • فمن جاوز هذا الحد افراطا واسرافا ، فقد خرج عن حد السخاء والجود الى حد التبذير (١٥٨) • « وهو يرى أن التبذير يؤدي الى التقتير : « والتبذير يؤدي الى التقتير » وان بذل ما فوق الطاقة من المال ووضعه فى غير موضعه قطع مادة الجود ، وخروج من الحدود وتعجيز عن القيام بالحقوق » (١٥٩) •

ويعتبر التبذير مصدر شر للفرد وللمجتمع الذى يعيش فيه ، وهو فوق ذلك اضاءة للأموال فيما لا يعود بخير على الأمة ومشروعاتها المتعددة • ومن هنا يحرم الماوردى انفاق الأموال فى المحرمات وشرب الخمر ، وإيتاء الفواحش واعطائه للسفهاء • ومن التبذير المنهى عنه : « أن يشغل المال بفضول الدور التى لا يحتاج اليها • • • وأن يجعل المال فى الفرش الأثيرة (الوثيرة) والأواني الكثيرة الفضية والذهبية » (١٦٠) • وتشبيهه بهذا قوله أيضا : « أما من أنفق ماله فى

(١٥٧) الضحى : ١١ •

(١٥٨) نصيحة المذكور للماوردى — مخطوط ، ورقة ٦٩ •

(١٥٩) المصدر السابق ورقة ٦٦ وورقة ٦٩ •

(١٦٠) نصيحة الملوك ورقة ٧٠ •

منال لذة أو قضاء شهوة وإظهار جمال وزينة فلا يتم له ذلك ولا يحسن به إلا إذا كان أخذ المال من حيث يحسن في الدين ويجمل وتمتج به فيما يطيب ويجل وتجنب فيه المحارم والمذام ، فإنه ان لم يفعل ذلك كان كفرأش النار الذي يتهافت فيها أغترار بضوئها فيحرق نفسه » (١٦١) .

وفوق ذلك فان التبذير يؤدي الى افساد عوامل الفرقة والحسد والحقد والضغينة بين الأفراد ويقضى على حياة الطمأنينة والاستقرار ويغرس في النفوس الأثرة وفتنة الطبقات وكل ذلك كفيل بهلاك الأفراد وتدمير المجتمعات . ومن هنا أنذر الله المترفين والمبذرين بسوء العاقبة فقال في محكم تنزيله : « وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ، فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون ، ولا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومسكنكم لعلكم تسألون ، قالوا ياويلنا انا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناها حصيدا خامدين » (١٦٢) هذا في الدنيا ، أما عن سوء المصير في الآخرة فيقول تعالى : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في سموم وحميم ، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ، انهم كانوا قبل ذلك مترفين » (١٦٣) .

وفى كل ذلك أعطى الماوردي الامام أو الحاكم أو ولي الأمر الحق في اتخاذ أي اجراء يراه كفيلا بحفظ التوازن في المجتمع ، وجعله مسئولا عن تحقيق مستوى كريم للحياة لفقراء المجتمع ، وأن يعمل جهده بما يحقق للأمة الانتفاع بالأموال كلها . ويورد الماوردي في كتابه « نصيحة الملوك » (١٦٤) (ورقة ٧٤) هذه الرواية توضيحا لذلك : « روى عيسى بن رستم قال : قرىء علينا كتاب عمر بن عبد العزيز الى عبد الحميد

(١٦١) المصدر السابق ورقة ٧٣ .

(١٦٢) الانبياء : ١١ — ٥٥ .

(١٦٣) الواقعة : ٤١ — ٤٥ .

(١٦٤) نصيحة الملوك ورقة ٧٤ .

بن عبد الرحمن وكان عامله على الكوفة ، أيما رجل كان عليه دين لا يقدر
على قضائه فاعطوه من مال الله • أيما رجل تزوج امرأة ولم يقدر على
صداقتها فاعطوه من مال الله وأمر للمؤدبين والزمنى • الخ • ، أى أن
المال يجب أن تعم فائدته المجتمع كله •

ويقول الماوردى فى ختام باب « تدبير الأموال » فى كتاب « نصيحة
الملوك » (١٦٥)

« فهذه جمل السنن التى أوجبها الله عز وجل فى هذه الأموال •
فليعلم الملك المسلط ذلك ولينظر لنفسه فى هذه الأمور • وليعلم أن كل
فقر فى الاسلام ، وغارم بن سبيل ، وأسير ، وغاز فى سبيل الله ،
ومسكين خصماؤه عند من لا يظلم مثقال ذرة ، وما هو بظلام للعبيد » •

* * *

الخاتمة ونتائج الدراسة

خاتمة

من المستحسن فى نهاية هذه الدراسة أن نقدم عرضا سريعا موجزا لأهم ما اشتملت عليه •

تكلما فى الفصل الأول عن ، (الماوردى : حياته وروح عصره ، مؤلفاته ، أهميته فى الفكر السياسى) ، واتضح لنا اجماع كل كتب التراجم والسير التى اعتمدنا عليها على تمتع الماوردى بعقلية موسوعية شملت أغلب علوم العصر من فقه وأصول وتفسير وأدب وسياسة واجتماع ، وقد كان لتبخر الماوردى ، خاصة ، فى الفقه والعلوم الدينية الأخرى أثر هام فى تلقيب المعاصرين له « بأقضى القضاة » • وأظهرت الدراسة المكانة العظيمة التى كان يتمتع بها الماوردى لدى ملوك وأمراء بنى بويه ، ومن هنا كان من اللازم علينا أن نتحدث عن آل بويه الذين عاش الماوردى فى عصرهم ، وهو العصر الذى امتلأ بالفوضى والاضطراب والفتن المذهبية المتجددة وتحدثنا بعد ذلك عن مؤلفات الماوردى ، وهى مصنفة الى ثلاث مجموعات دينية ، ولغوية وأدبية ، وسياسية واجتماعية • ومن مؤلفات الماوردى بالغة القيمة والأهمية مؤلفه المبتكر حقا (الأحكام السلطانية) وهو يشبه الى حد كبير كتاب (الأحكام السلطانية) لأبى يعلى الفراء ، وتؤكد لنا سبق الماوردى الى موضوع التأليف لهذا الكتاب • واتضح لنا جانب هام فى فكر وشخصية الماوردى ، وهو أنه لم يكتب مؤلفاته السياسية الا بعد تجربة ودراية وبصر بأمور الحياة ، وكثيرا ما كان يقرن الفكر بالعمل • أما عن أهمية الماوردى فى الفكر السياسى فقد شغل فى هذا الميدان مكانة مرموقة ، وظهر لنا فضله على ميدان التأليف السياسى فى الإسلام وذلك بتخصيصه كتباً ومؤلفات محددة للتحدث عن نظم الحكم والأدارة ، خلافا لما جرى عليه بعض علماء المسلمين ممن وردت أفكارهم فى هذا الميدان ضمن مؤلفات شاملة لموضوعات متعددة من أدب وتاريخ ودين وغيرها •

أما الفصل الثانى فقد خصصناه لدراسة ، (الحاكم ، ضرورة وجوده ، والأساس فى اختياره) ، ومن هنا كان حديثنا عن نظام الخلافة من خلال أقوال الماوردى وأقوال بعض علماء المسلمين الآخر . وقد اتضح لنا تأكيد الماوردى على ضرورة وجود الحاكم (الخليفة) لتنظيم حياة المجتمع ، وتحقيق السعادة لأفراده . كما درسنا فى هذا الفصل نظرية ابن خلدون فى الملك والخلافة والعصبية ، وكشفت هذه النظرية عن تأثير ابن خلدون الكبير بأفكار الماوردى كما وردت فى كتابه (الاحكام السلطانية) . ثم تحدثنا بعد ذلك عن اختلاف الماوردى وبعض علماء المسلمين وتعدد آرائهم حول نصب الخليفة ، وهل يكون هذا النصب بالمعقل أم بالشرع . وتكلمنا فى هذا الفصل عن الدور الهام الذى يقوم به الشعب فى اختيار الحاكم ، ومسئوليته عن هذا الاختيار ، ويكشف عن كل هذا قول الماوردى : أن الأمة هى الأصل فى عقد الامامة .

وانتقلنا بعد ذلك الى الحديث عن رأى الشيعة ، وهم يوجبون الامامة ، ولا تعتبر الامامة عندهم ، كما يقول الشهر ستانى فى الملك والنحل ، قضية مصلحية تناط باختيار العامة ، وينتصب الامام بنصبهم ، بل هى قضية أصولية ، هى ركن الدين لا يجوز للرسول عليه السلام اغفاله واهماله ولا تفويضة الى العامة وارساله . ويجمع القوم بوجوب التعيين والتفويض ، وبوجوب عصمة الأئمة ، وجوبا عن الكبائر والصغائر . وقد انصب حديثنا على فرقتى الشيعة الباقيتين حتى اليوم وهما الامامية والزيدية . ولا يجوز عند الشيعة الامامية اختيار الأئمة ، بل لابد فى ذلك من النص ، وأما الشيعة الزيدية ، فنظروهم الى الامام نظر معتدل ، حيث لا يوجد عندهم امامة بالنص ، بل لابد من انتخاب الامام . وقد دفعنا ذلك الى الحديث عن أهل الحل والعقد ، وهى الجماعة المنوط بها حق اختيار الحاكم ، واتضح لنا ان إحدى طرق عقد الامامة عند الماوردى ان تتم باختيار أهل الحل والعقد ، وان كان هناك اختلاف فى عدد من تنعقد بهم الامامة . وأدى بنا ذلك الى

الحديث عن ولاية العهد أو الاستخلاف ، وظهر لنا أن العهد لواحد يعد بمثابة ترشيح ، لا يكون له أثر الا بالبيعة العامة ولصالح الكافة . كما تحدثنا فى هذا الفصل عن الشروط التى يشترط الماوردى ضرورة توفرها فى الحاكم ، وعقدنا مقارنة بين هذه الشروط وبين الشروط والصفات التى يرى مكيافللى ضرورة توافرها فى الحاكم (الأمير) عنده ، وهو طاغية مستبد لا يقيم وزنا لرأى الشعب أو ممثليه ، وانتضح لنا حرص الماوردى على ربط الجانب السياسى بالجانب الاخلاقى فى هذه الشروط ، وهو ما يؤكد ضرورة استناد السياسة الى دعائم أخلاقية . ومن ضمن ما درسناه فى هذا الفصل ، أيضا ، امامة المفضول ، والخلافة فى الاسلام بين منكر لها ومدافع عنها .

وتناولنا بالحديث ، فى الفصل الثالث ، (العلاقة بين الحاكم والمحكوم) ، وأوضحنا رأى الماوردى فى وجود مسئولية متبادلة بينهما أى بين الامام والرعية أو المسلمين ، ذلك أن الامامة عند الماوردى هى عقد مبايعة بين الامام أو الحاكم من ناحية والرعية من ناحية أخرى . ثم تكلمنا عن واجبات الحاكم ، وهذه الواجبات يقابلها من قبل الرعية واجب الطاعة والنصرة للامام ما لم يتغير حاله . معنى ذلك أنه يحق للرعية عزل الحاكم من منصبه اذا أخل بشرط هذا المنصب أو فقد شروط الامامة ، كأن يصاب مثلا بعلة لا يرجى صلاحها أو علاجها ، لا يمنعها عن ذلك الا اتقاء الفتنة وحذر العاقبة . وهذا هو جوهر نظرية العقد الاجتماعى التى أفاض فى شرحها فلاسفة العصر الحديث مثل هوبز ، ولوك ، وهيوم ، وروسو . وعندما يعطى الماوردى للشعب الحق فى اقالة الحاكم فى حالة اخلاله بشروط العقد ، فمعنى ذلك أنه يجرد الحاكم من أى سلطة للتأله أو التعالى على الشعب ، فالحاكم أولا وقبل كل شئ انسان عادى بطبيع قبل أن يطاع ، ويتولى الحكم من أيدي المحكومين وهم المرجع فى كل سلطان وسياسة . وبهذا كشفت الدراسة مخالفة الماوردى ، بموقفه هذا ، لموقف الشيعة التى تؤله الامام ، وتوجب العصمة له عن الكبائر والصغائر ، كما كشفت الدراسة ، أيضا ،

تعارض موقف الماوردى مع موقف هوبز الذى ينادى بأخضاع ارادات الأفراد لارادة الحاكم ، أى أن هوبز يؤيد الحكم المطلق ويسلب الشعب حقه فى مناقشة الحاكم ، وهو ما يعد أبعد ما يكون عن أفكار الماوردى الديمقراطية التى تعطى للشعب الحق فى اختيار الحكام ومناقشتهم فى أمور الحكم وعزلهم اذا قصروا فى أداء واجباتهم أو حادوا عن طريق الخير . ودرسنا فى هذا الفصل أيضا فكرة العقد الاجتماعى عند كل من توماس هوبز ، وجون لوك ، ودافيد هيوم ، وجان جاك روسو ، وبمقارنة أفكار هؤلاء الفلاسفة بما جاء عند الماوردى متعلقا بنظرية العقد الاجتماعى ظهر لنا سبق الماوردى ، بقرون عديدة ، لهؤلاء الفلاسفة فى تقريره لفكرة العقد الاجتماعى ، وكون العلاقة بين الحاكم والشعب ما هى الا عقد متبادل قائم على الرضا والاختيار ، كما ظهر من هذه الدراسة أن نظريات التعاقد الاجتماعى عند فقهاء السياسة من الغربيين لا تستند الى حقيقة تاريخية بل هى مجازية ضمنية تعتمد على أفكار خيالية ، على حين وضح لنا أن عقد الامامة عند الماوردى « عقد حقيقى » مبنى على الرضا ، والغاية منه أن يكون مصدرا يستمد منه الامام سلطته .

أما الفصل الرابع ، فقد خصصناه للحديث عن (الوزارة : أنواعها ، وشروط كل منها) ، وتبين لنا أن منصب الوزارة فى الاسلام جاء نظرا لصعوبة قيام الامام بجميع شئون الأمة الدينية منها والدنيوية ، ومن هنا كان لابد من استعانة الامام بوزراء له يعينونه فى ادارة شئون الدولة ادارة صحيحة ، وتأتى الوزارة فى الترتيب بعد منصب الامامة مباشرة . وظهر لنا أن هناك نوعان من الوزارة ، وزارة تفويض ، ووزارة تنفيذ . ووزارة التفويض أشمل وأعم من وزارة التنفيذ ، وهى ولاية عامة لا تمنح الا بعقد ، ولا يجوز فى هذه الوزارة التعدد كما هو الحال فى الامامة ، ويقابل هذه الوزارة فى عصرنا الحديث منصب الوزير الأول أو رئيس الوزراء . أما وزارة التنفيذ فهى أكثر خصوصية وتقييدا من وزارة التفويض ، وحكمها أضعف ، وشروطها أقل ، ويجوز فى هذه

الوزارة التعدد ، وسمة وزير التنفيذ تنفيذ أوامر الامام ، ويقول
الماوردي ان الاسلام ليس شرطا لمن يتولى هذه الوزارة ، بمعنى أن
هذا الوزير يصح أن يكون مسيحيا أو يهوديا خلافا لوزير التقويض ،
وهذا دليل قاطع على تسامح الاسلام . ثم بينا في هذا الفصل أوجه
الاختلاف والالتقاء بين الوزارتين ، وأتبعنا ذلك بذكر النصائح والوصايا
التي يقدمها الماوردي لوزيره ضمانا لحسن الأعمال في الدولة ومنفعة
الحكومين .

أما الفصل الخامس ، فقد جعلناه لدراسة ، (الامارة ، أقسامها ،
أنواعها) ، وقد ظهر لنا أنه لا بد من استعانة الخليفة — فضلا عن
الوزراء — بولاة لحكم الاقاليم ، نظرا لصعوبة مباشرة الامام بنفسه
جميع أعمال الحكم والادارة ، وواجب على الخليفة أن يدقق في اختيار
هؤلاء الأعوان حرصا على المنفعة العامة . وقد قسم الماوردي الامارة
على البلاد الى نوعين : امارة عامة ، وامارة خاصة . والامارة العامة ،
امارة شاملة ، أوسع نفوذا ، ويعود الماوردي فيقسم هذه الامارة
الى قسمين : امارة استكفاء بعقد عن اختيار ، وامارة استيلاء ، بعقد
عن اضطرار . أما الامارة الخاصة ، فهي أقل نفوذا من الامارة العامة ،
وأكثر خصوصية . ثم تناولنا بالحديث بعد ذلك أنواع الامارة على
البلاد ، وقصرنا حديثنا على ولاية الجهاد ، وولاية حروب المصالح ،
وولاية القضاء ، وولاية المظالم ، وولاية الحسبة .

أما ولاية الجهاد ، فهي خاصة بقتال المشركين لاقامة صرح الدين .
وقد تكلمنا في هذه الامارة عن واجبات أمير الجيش ، ولعل أوضح ما في
هذه الامارة آداب الحرب انني يذكرها الماوردي مثل النهي عن قتل
الشيوخ والرهبان والأطفال والعمال والتمثيل بجثثهم ، ومنع تخريب
بلاد الأعداء ، ووجوب معاملة الأسرى معاملة طيبة . أما الولاية على
حروب المصالح فقد قسمها الماوردي ثلاثة أقسام هي : قتال أهل
الردة ، وقتال أهل البغى ، وقتال المحاربين وقطاع الطرق . أما ولاية
(م ٣٢ — الماوردي)

القضاء ، فقد اهتم الماوردى فيها بتوضيح الشروط الواجب توافرها فيمن يلى القضاء • وينص الماوردى على مبدأ هام هو مبدأ استقلال القضاء ، ومن هنا حرم عزل القضاة ، اذا مات الحاكم الذى عينهم • وقد أباح الماوردى ، للقاضى ، حق الاجتهاد فى الأحكام التى لم يرد فيها نص ولا اجماع • أما عن الولايات المتصلة بالقضاء ، فقد تحدثنا فيها عن ولاية المظالم ، وولاية الحسبة • أما عن ولاية المظالم فهى نوع من القضاء العالى ، وسلطة الناظر فى المظالم أعلى من سلطة القاضى والمحاسب معا ، كما أتضح لنا أن ولاية الحسبة ما هى الا ولاية دينية سياسية خاصتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى أشبه ما تكون بخدمة اجتماعية واقتصادية لسكان المدن ، ويقوم بعمل المحاسب الآن ، من حيث الفكرة ، النائب العام ووكلاؤه •

ثم ختمنا هذه الدراسة بفصل سادس تحدثنا فيه عن بعض أفكار الاسلام واتجاهاته الاشتراكية كما عبر عنها الماوردى • وقد أظهر هذا الفصل مدى ما يتمتع به الماوردى من فكر اشتراكى أصيل يتميز بغلبة الطابع الانسانى عليه • وكشف هذا الفصل ، أيضا ، عن ايمان الماوردى المطلق بمبادئ العدالة الاجتماعية والاخاء والتعاون ، ودعوته الصريحة لتحقيق الرفاهية الاجتماعية لسائر أفراد المجتمع •

نتائج البحث :

وبعد ، فان هذا البحث قد تكشف لنا عن عدة نتائج هامة ، تؤكد ، بما لا يدع مجالا للشك ، علو منزلة الماوردى فى تاريخ الفكر السياسى

١ — سبق الماوردى ، بقرون عديدة ، لأعلام الفكر الديمقراطى الأوروبى وخاصة « لوك » و « روسو » ، فى تقريره أن العلاقة بين الحاكم (الخليفة) وبين الشعب ما هى الا عقد متبادل ، يقوم على التراضى والاختيار ، وأن من حق الشعب (الأمة) عزل الخليفة واقصائه عن

الحكم اذا أخل بشروط العقد أو تهاون فى أداء واجباته وخدمة الصالح العام .

٢ — وإذا قارنا بين ما يشترطه الماوردى من شروط وصفات يجب أن تتوافر فيمن يوكل اليه مهمة الحكم ، وبين ما يشترطه «مكيافلى» لوجدنا اختلافا بينا وفرقا واضحا . فبينما يحرص الماوردى على الربط فى هذه الشروط التى يشترطها فى الحاكم ما بين الجانب الاخلاقى والسياسى نجد « مكيافلى » يفصل الجانب الأخلاقى عن الجانب السياسى تماما ، ويؤكد دائما أن الغاية تبرر الوسيلة ، ولا يهمه فى شئ هذا الجانب الأخلاقى .

٣ — ونسجل هنا أيضا سبق الماوردى لمفكرى الغرب وفقائهم الدستوريين فى تفرقة الشهيرة بين وزارة التفويض ، ووزارة التنفيذ . ويقابل وزارة التفويض فى عصرنا الحديث منصب الوزير الأول أو رئيس الوزراء ، ويقابل وزراء التنفيذ الوزراء العاديون كوزراء المالية والحربية والعذبوالخزانة ، وهم المنفذون لتعاليم وسياسة مجلس الوزراء . ومن المعروف أن هذا المنصب الخطير ، منصب الوزارة ، نشأ أول ما نشأ فى الغرب فى القرن السابع عشر ثم أخذ يتطور بعد ذلك حيث لم يكن معروفا قبل ذلك فى الأنظمة والدساتير الحديثة بهذه الحدود والأوصاف وأوضاع واختصاصات الوزراء الآخرين التى حددها ووضحها الماوردى قبل ذلك بفترة كبيرة من الزمان .

٤ — وقد سبق الماوردى ، أيضا ، بما قرره من قواعد للحرب ، يطلق عليها فى الاسلام آداب الحرب ، وتتلخص فى المعاملة الطيبة للأسرى ، والنهى عن قتل النسيوخ والرهبان والنساء والأطفال والعمال ، ومنع التخريب ، نقول سبق الماوردى مفكرى القانون الدولى الأوروبى فى تقريره لهذه القواعد بما يقرب من ثلاثة قرون . اذا المعروف أن القواعد المنظمة للحرب لم تدون فى أوروبا فى صورة معاهدات الا منذ منتصف

المقرن التاسع عشر الميلادى ، وكانت قبل ذلك التدوين معروفة على شكل قواعد عرفية بحثة .

٥٠٠ — وقد تأثر ابن خلدون فيلسوف الاجتماع والتاريخ الى حد كبير بمؤلفات الماوردى السياسية وعلى وجه التحديد كتاب « الأحكام السلطانية » وقد وضع هذا التأثير فى المقدمة التى ألفها ابن خلدون لتاريخه الكبير ، وفى طريقة تقسيمه لكثير من أبوابها وفصولها ، وقد وضع هذا التأثير فى العديد من النصوص التى نقلناها عن ابن ابن خلدون فى هذه الرسالة . ويتحدث ابن خلدون نفسه عن هذا التأثير ^(١) ضمن عوامل التأثير الأخرى التى كان لها دور فى تشكيل عقليته . فاذا علمنا أن « مكيافللى » قد تأثر هو الآخر بابن خلدون ، ^(٢) فان هذا يؤكد لنا المكانة البارزة التى يشغلها الماوردى فى ميدان الفكر السياسى عامة ، والفكر السياسى الاسلامى على وجه الخصوص .

٦ — أظهرت هذه الدراسة ، فى الفصل الأخير منها ، مدى ما يتمتع به الماوردى من فكر اشنراكى أصيل ، تمثل فى دعوته الصريحة لتحقيق الخير والرفاهية الوطنية لجميع أفراد المجتمع . وقد تأكد لنا ، أيضا ، اتجاه الماوردى الاشتراكى من خلال ايمانه المطلق بمبادئ العدالة الاجتماعية والحرية والاخاء والتعاون والمساواة .

وبعد ، فاننى آمل أن أكون قد وفقت ، بهذه الدراسة المتواضعة ، ، فى تقديم فكر الماوردى السياسى ، بأسلوب واضح بعيد عن تعقيد المصطلحات وتلغيز المعانى .

(١) راجع كتاب : الدولة بين رأى ابن خلدون ورأى مكيافللى للدكتور حسين الاشمونى ص ١٧ .

(٢) انظر كتاب : النظريات والمذاهب السياسية للدكتور مصطفى الخشاب ص ١٣٤ .

المصادر والمراجع

(مرتبة ترتيبيا أبجديا بحسب أسماء المؤلفين)

- الأيدينى (على بن يحيى) :
— تحفة الملوك فى السلوك ، مخطوط بدار الكتب المصرية
رقم (٣٠ اجتماع تيمور) •
- ابراهيم اللبان :
— حق الفقراء فى أموال الأغنياء ، بحث ألقى فى المؤتمر
الأول لمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ، مارس ١٩٦٤
- ابن أبى الربيع (شهاب الدين أحمد بن محمد) :
— سلوك المالك فى تدبير الممالك ، طبع حجر ، ١٢٨٦ •
- ابن أبى شريف :
— المسامرة بشرح المسامرة ، مخطوط بدار الكتب المصرية
— ابن الأثير الجزرى (أبو الحسن على بن أبى الكرم بن عبد الواحد
الشييبانى) :
— الكامل فى التاريخ ، ادارة الطباعة المنيرية ، مصر
١٣٥٣ •
- ابن تيمية (أحمد) :
— الحسبة فى الاسلام أو وظيفة الحكومة الاسلامية ،
مطبعة المؤيد ، القاهرة ١٣١٨ •
— السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية ، تحقيق
على سامى النشار وأحمد زكى عطية ، الطبعة الثانية
١٩٥١

— ابن جماعة الكفنانى الحموى (بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد) :

— تحرير الأحكام فى تدبير أهل الاسلام ، مخطوط مصور
بدار الكتب المصرية رقم (١٩٧٢٨ ب) •

— ابن الجوزى (عبد الرحمن بن محمد) :

— المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دائرة المعارف
العثمانية بعاصمة حيدر آباد المدكن . • الطبعة الأولى
١٣٥٦

— ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على) :

— لسان الميزان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ،
حيدر آباد ، الهند ، الطبعة الأولى ١٣٣٠ •

— ابن الحداد (محمد بن منصور بن حبيش) :

— الجواهر النفيس فى سياسة الرئيس ، ميكروفيلم بمكتبة
جامعة الدول العربية رقم (١٨) •

— ابن حزم الأندلسى (أبو محمد على ابن أحمد بن سعيد) :

— الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، القاهرة ١٣٢١ •
— جمهرة أنساب العرب ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٢ •

— ابن خلدون (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم) :

— مقدمة ابن خلدون تحقيق وتعليق على عبد الواحد وافى ،
لجنة البيان العربى ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٦٦ •

— ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم) :

— وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد
محيى الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية •

— ابن خليل الأسدي (محمد بن محمد) :
— التيسير والاعتبار والتحذير والاختيار ، مخطوط بدار
الكتب المصرية رقم (٧٧. اجتماع تيمور) •

— ابن زيان (موسى بن يوسف) :
— واسطة السلوك فى سياسة الملوك ، المطبعة التونسية
• ١٢٧٩

— ابن سعد :
— الطبقات الكبرى ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٧ —
• ١٩٥٧.

— ابن شهبة (تقى الدين) •
— طبقات الشافعية ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم
(١٥٦٨. تاريخ) •

— ابن طباطبا (محمد بن على) :
— كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ،
مطبعة الموسوعات بمصر ١٣١٧ •

— ابن طلحة الوزير (أبو سالم محمد) :
— العقد الفريد للملك السعيد ، المطبعة الوهبية ، مصر ١٢٨٣

— ابن عابدين (محمد أمين) :
— رد المحتار على الدر المختار ، الطبعة الثالثة •

— ابن العربى (أبو بكر محمد بن عبد الله) :
— الغواصم من القواصم ، تصحيح الأستاذ عبد الحميد
ابن باديس ، المطبعة الجزائرية الاسلامية ، الطبعة
الأولى ١٣٤٦ — ١٩٢٧ •

- ابن عرنوس (محمود بن محمد) :
— تاريخ القضاء في الاسلام ، المطبعة المصرية الأهلية ،
القاهرة ١٩٣٤ •
- ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد) :
— شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، مكتبة القدسى ،
القاهرة ١٣٥١ •
- ابن الفراء (أبو على الحسين بن محمد) :
— رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ،
ميكروفيلم بمكتبة جامعة الدول العربية رقم (٣٣)
- ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم) :
— تبصرة الحكام فى أصول الأقضية ومناهج الأحكام ،
المطبعة البهية ، مصر ١٣٠٢ •
- ابن قتيبة الدينورى (أبو محمد عبد الله بن مسلم) :
— الامامة والسياسة ، تحقيق الرافعى ، القاهرة ١٣٢٥ •
- ابن القيم الجوزية (شمس الدين محمد) :
— الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، مطبعة الآداب ،
مصر ١٣١٧ •
- ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر) :
— البداية والنهاية فى التاريخ ، مطبعة السعادة ، القاهرة
١٩٣٢ •
- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى) :
— لسان العرب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء
والنشر ، القاهرة •

— ابن النابلسي :

— ليج القوانين ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ١٩٢٨

— ابن الوردي (عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس العدوي) :

— تنمة المختصر في أخبار البشر ، جمعية المعارف ،

القاهرة ١٢٨٥ •

— أبو اسحاق الصابي (ابراهيم بن هلال الصابي الحراني) :

— المنتزع من كتاب التاجي في أخبار الدولة الدليمية ،

نسخة فوتوغرافية بمكتبة مخطوطات الجامعة العربية

رقم (١٢٦٢ تاريخ) •

— أبو الفداء (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد

بن عمر) :

— تاريخ أبي الفداء ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ، الطبعة

الأولى •

— أبو يعلى (محمد بن الحسين الفراء) :

— الأحكام السلطانية ، تحقيق محمد حامد الفقى ، القاهرة

الطبعة الأولى ١٣٥٦ — ١٩٣٨ •

— أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم) :

— الخراج : المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة الطبعة

الأولى ١٣٠٢ •

— أحمد أمين :

— ضحى الاسلام •

— فجر الاسلام •

— أحمد بن حجر الهيتمي .

— الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقه ،
تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، مكتبة القاهرة ،
"طبعة الثانية ١٩٦٥" .

— أرسطوطاليس :

— السياسة ، ترجمة أحمد لطفي السيد ، الدار القومية
للطباعة والنشر بالقاهرة .

— رسالة أرسطوطاليس لاسكندر فى السياسة ، ترجمة
يوحنا البطريق ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم
(١٠٢ اجتماع تيمور) .

— الأسنوى :

— طبقات الشافعية ، مخطوط بدار الكتب المصريه رقم
(٢٠٦٣ تاريخ طلعت) .

— الأشعري (أبو الحسن على بن اسماعيل) :

— مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ، صححه ه . ريتز ،
مطبعة الدولة باسطنبول ١٩٢٩ .

— الأودنى :

— طبقات المفسرين ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم
(١٨٥٩ تاريخ طلعت) .

— الأيجى (عبد الرحمن بن أحمد) :

— المواقف شرح على بن محمد الجرجاني ، مطبعه
السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٢٥ — ١٩٠٧ .

— بارتولد :

— تاريخ الحضارة الإسلامية ، نقله إلى العربية حمزة
الطاهر ، القاهرة ١٩٤٣ •

— بدر الدين محمود العيني :

— عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب
المصرية

— بروكلمان (كارل) :

— تاريخ الأدب العربي ، نقله إلى العربية للدكتور
عبد الحليم النجار ، دار المعارف بمصر •

— دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الماوردي ، المجلد ٣-١ •

— بطرس بطرس غالى ومحمود خيرى عيسى :

— المدخل في علم السياسة ، مكتبة الأنجلو المصرية ،
القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٥٩ •

— البغدادي (الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب) :

— تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، مكتبة الخانجي ،
القاهرة ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ •

— الثعالبي (أبو منصور) :

— تحفة الوزراء ، مخطوط بدار الكتب المصرية في مجلد
باسم الخضائن رقم (٥ نحو ش ج ٢) •

— الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) :

— التاج في أخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكي ، المطبعة
الأميرية ، القاهرة ١٩١٤ •

— جاك ماريتان :

— الفرد والدولة ، ترجمة عبد الله أمين ، مراجعة الدكتور
صالح الشماخ والدكتور قرياقوس موسيس ، دار مكتبة
الحياة ، ببصوت ١٩٦٢ •

— جب : (نظرية أبى الحسن الماوردى) عن :

— نظرية أبى الحسن الماوردى عن الخلافة الاسلامية ، مقال
نشر بالانجليزية فى مجلة Islamic culture, July, 1937

— جمال الدين الشيال :

— تاريخ الدولة العباسية ، دار الكتب الجامعية بالاسكندرية
• ١٩٦٨

— الجهشيارى (أبو عبد الله محمد بن عبدوس) :

— كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا ، مكتبة
مصطفى البابى الحلبي ، الطبعة الأولى •

— جورجى زيدان :

— تاريخ آداب اللغة العربية ، مراجعة وتعليق الدكتور
شوقي ضيف دار الهلال ، مصر •

— الجوينى (أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله) :

— غياث الأمم فى التياث الظلم ، مخطوط بدار الكتب
المصرية رقم (٢٣٥٥١ ب) •

— حسن ابراهيم حسن

— النظم الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة
الطبعة الثالثة ١٩٦٢ •

— الحسن العباسى (الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر العباسى) :
— آثار الأول فى ترتيب الدول ، مطبعة بولاق ، القاهرة

• ١٢٩٥

— الحسين المغربى (أبو القاسم الحسين بن على) :
— كتاب فى السياسة ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٩٤٨

— خير الدين الزركلى :

— الاعلام (قاموس تراجم) الطبعة الثانية •

— الداودى (محمد بن على أحمد) :

— طبقات المفسرين ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم
(١٦٨ تاريخ) •

— الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان) :
— تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، مطبعة
السعادة ، مصر •

— سير أعلام النبلاء ، سلسلة ذخائر العرب ، نشر معهد
المخطوطات العربية ودار المعارف بمصر •

— رانسون • ج :

— فن القضاء ، ترجمة المستشار محمد رشدى • القاهرة

• ١٩١٢

— رشيد رضا (محمد) .

— الخلافة أو الإمامة العظمى ، مطبعة المنار ، مصر ١٣٤١

— رفعت الحجبوب :

— الاشتراكية ، دار النهضة العربية ، مصر ١٩٦٨

— ساطع الحصرى :—

— دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، مكتبة الخانجي ، مصر

• ١٩٦١

— السبكي (تاريخ الدين أبو النصر عبد الوهاب) :—

— طبقات الشافعية الكبرى ، طبعة الحسينية ، القاهرة •

— السرخسي (شمس الدين) :

— المبسوط •

— سعيد عبد الفتاح عاشور :

— تراث الانسانية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ،

القاهرة ، المجلد ٥ - ١

— السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) :—

— تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد مجيب الدين عبد الحميد ،

المكتبة التجارية ، مصر ، الطبعة الثالثة ١٩٦٤ •

— طبقات المفسرين ، نشر مرسنج ، ليدين بريل ١٨٣٩ •

— الشرقاوي (عبد الله بن حجازي) :

— التحفة البهية في طبقات الشافعية ، مخطوط بدار

الكتب المصرية ، رقم (٥٧٨ - تاريخ) •

— الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم) :

— الملل والنحل ، المطبعة الأدبية ، مصر الطبعة الأولى ١٣١٧

— الشيرازي (علي بن أحمد بن محمد بن أبي بكر) :

— تحفة الملوك والسلاطين في الخلافة والسلطنة والموزارة ،

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٧٢ - اجتماع تيمور) •

- الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) :
 - — تاريخ الأمم والملوك ، المكتبة التجارية بمصر .
- الطرابلسى (علاء الدين أبى الحسن على بن خليل) :
 - — معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام .
- الطرطوشى (أبو بكر محمد بن الوليد) :
 - — سراج الملوك ، طبعة عام ١٢٨٩ .
- طه حسين :

— فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، نقله الى العربية محمد عبد الله عنان ، مطبعة الاعتماد ، مصر ، الطبعة الأولى ١٣٤٣ . ١٩٢٥ •

- طه المدور :
 - — الاشتراكية فى الاسلام ، مطبعة دار الكتب ، بيروت •
- العاملى (محمد بن الحسن الحر) :
 - — الفصول المهمة فى أصول الأئمة عليهم السلام ، المطبعة الحيدرية فى النجف ، الطبعة الثانية ١٣٧٨ •

— عباس محمود العقاد :

- — الديمقراطية فى الاسلام ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة •

— الشيوعية والانسانية فى شريعة الاسلام ، دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٦٣ •

- غنيد الحميد جسودة المسحونان :
 - — أبو ذر الغفارى ، دار الهلال بالقاهرة ١٩٦٦ •

— عبد الحميد متولى :

— مبادئ نظام الحكم فى الاسلام ، دار المعارف
بالاسكندرية الطبعة الأولى ١٩٦٦ •

— عبد الكريم الخطيب :

— الخلافة والامامة ، ديانة وسياسة (دراسة مقارنة
للحكم والحكومة فى الاسلام) ، دار الفكر العربى
بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦٣ •

— عبد المنعم ماجد :

— تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ،
القاهرة ١٩٦٣ •

— التاريخ السياسى للدولة العربية ، مكتبة الانجلو ،
القاهرة ١٩٥٧ •

— عبد الوهاب خلاف :

— السياسة الشرعية أو نظام الدولة الاسلامية ، المطبعة
السلفية بالقاهرة سنة ١٣٥٠ •

— عطية مشرفة :

— القضاء فى الاسلام ، شركة الشرق الأوسط بالقاهرة :
الطبعة الثانية ١٩٦٦ •

— على حسن الخربوطلى :

— الغرب والحضارة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٦ •

— على عبد الرازق :

— الاسلام وأصول الحكم ، مطبعة مصر ، الطبعة الثالثة
١٣٤٤ — ٢٩٢٥ •

— عمر الدسوقي :

• — الاشتراكية والاسلام ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٣

— عمر رضا كحالة :

— معجم المؤلفين ، المكتبة العربية بدمشق ١٩٥٧

— الغزالي (أبو حامد) :

— التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، المطبعة الكاستلية ١٢٧٧

— الفارابي (أبو نصر) :

— آراء أهل المدينة الفاضلة ، مطبعة التقدم بمصر ، الطبعة

الثانية ١٣٢٥ — ١٩٠٧ •

— السياسة الملوكية والأخلاق الاختيارية من كلام أفلاطون

وتعرف بالأفلوطونيات •

— لاسكى (هارولد) :

— أصول السياسة ، ترجمة محمود فتحى عمر وابراهيم

لطفى عمر ، مراجعة الدكتور بطرس بطرس غالى ، دار

المعارف بالقاهرة •

— لوك ، هيوم ، روسو :

— العقد الاجتماعى ، ترجمة عبد الكريم أحمد ومراجعة

توفيق اسكندر — دار سعد للطباعة والنشر بالقاهرة ،

الألف كتاب العدد ٤١٩ •

— لوى بحبرى :

— مبادئ علم السياسة ، مطبعة أسعد ببغداد ١٩٦٦ •

(م ٣٣ — الموردي)

— ماكيافللى (نيقولا) :

- كتاب الأمير ، ترجمة وتعليق محمد مختار الزقزوقى ،
مكتبة الانحلو القاهرة ١٩٥٨ •
- كتاب الأمير ، تعريب محمد لطفى جمعة ، مطبعة
المعارف بمصر ١٩١٢ •

— الماوردى (على بن محمد بن حبيب) :

- الأحكام السلطانية ، تصحيح محمد بدر الدين النعسانى
الحلبى ، مكتبة الخانجى بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٢٧
— ١٩٠٩ •
- أدب الدنيا والدين ، تحقيق مصطفى السقا ، مكتبة البابى
الحلبى ، القاهرة ١٩٥٩ •
- قوانين الوزارة وسياسة الملك ، مخطوط بدار الكتب
المصرية فى مجلد باسم الخصائص رقم (٥ نحوش ج ٢) •
- نصيحة الملوك ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم (٢٦٤٢٥)

— ميتز (آدم) :

- الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر
النهضة فى الاسلام ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ،
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة
الثانية ١٩٤٧ •

— محمد أبو زهرة :

- المذاهب الاسلامية ، مجموعة الألف كتاب ، العدد ١٧٧ ،
القاهرة •

— محمد بخيت الطيعى :

- حقيقة الاسلام وأصول الحكم ، المطبعة السلفية ،
القاهرة ١٣٤٤ •

.. محمد جمال الدين سرور :

— تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ، دار الفكر
العربي ، القاهرة ١٩٦٥ •

— النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين
الرابع والخامس بعد الهجرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة
١٩٥٧ •

— محمد الخضر حسنين :

— نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ، المطبعة السلفية ،
القاهرة ١٣٤٤ •

— محمد الخضري :

— تاريخ الأمم الإسلامية — الدولة العباسية ، مطبعة
الجمالية بمصر ، الطبعة الأولى ١٩١٦ •

— محمد رضا المظفر :

— عقائد الإمامية ، مطبوعات النجاح بالقاهرة ، الطبعة
الثانية ١٣٨١ •

— محمد سلام مذكور :

— القضاء في الإسلام ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٤ •

— محمد ضياء الدين الرئيس :

— النظريات السياسية الإسلامية ، دار المعارف
بمصر ، الطبعة الرابعة ١٩٦٦ — ١٩٦٧ •

— محمد طه بدوي :

— الاشتراكية بين الفكر والتطبيق ، المكتب المصري للطباعة
والنشر ، الاسكندرية ١٩٦٨ •

— أصول علوم السياسة ، المكتب المصرى للطباعة والنشر ،

الاسكندرية الطبعة الثانية ١٩٦٥ •

— أمهات الأفكار السياسية الحديثة وصداها فى نظم

الحكم ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى ١٩٥٨ •

— حق مقاومة الحكومات الجائرة فى المسيحية والاسلام ،

دار الكتاب العربى بمصر •

— القانون والدولة ، دار المعارف بالاسكندرية ، الطبعة

الأولى ١٩٥٥ •

— محمد عبد الله العربى :

— الاقتصاد الاسلامى والاقتصاد المعاصر ، بحث ألقى

فى المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الاسلامية ، القاهرة ،

اكتوبر ١٩٦٦ •

— الملكية الخاصة وحدودها فى الاسلام ، بحث ألقى

فى المؤتمر الأول لمجمع البحوث الاسلامية ، القاهرة ،

مارس ١٩٦٤ •

— محمد عبد الله عنان :

— ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى ، مطبعة دار الكتب

المصرية ١٩٣٣ •

— محمد فتحى الشنيطى •

— النظرية السياسية عند هيوم ، دار المعارف بالقاهرة ،

الطبعة الأولى ١٩٦٢ •

— نماذج من الفلسفة السياسية ، مكتبة القاهرة الحديثة

• ١٩٦١

- محمد كامل ليلة :
— البنظم السياسية ، الدولة والحكومة ، دار الفكر العربى ،
القاهرة ، طبعة ١٩٦٧ •
- محمد يوسف موسى :
— نظام الحكم فى الاسلام ، مطبوعات جامعة الدول
العربية ، القاهرة ١٩٦٢ •
- محمود شلتوت :
— الاسلام عقيدة وشريعة ، مطبوعات الادارة العامة
للثقافة الاسلامية بالأزهر ١٩٥٩ •
- مسكويه (أبو على أحمد بن محمد) :
— تجارب الأمم ، مصر ١٣٣٤ •
- مصطفى الحفناوى :
— فكرة الدولة فى الاسلام ، المحاضرات العامة للموسم
الثقافى الأول بالأزهر ١٩٥٩ •
- مصطفى الخشاب :
— النظريات والمذاهب السياسية ، مطبعة لجنة البيان
العربى ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٧٨ — ١٩٥٨ •
- مصطفى السباعى :
— اشتراكية الاسلام ، الدار القومية للطباعة والنشر ،
القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٦٠ •
- المصنف (أبو بكر بن هداية الله الحسينى) :
— طبقات الشافعية ، المكتب العربية ، بغداد ١٣٥٦ •

— هلال بن الصابي (أبو الحسين هلال بن المحسن بن أبي اسحاق) :
— تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، تحقيق عبد الله مخلص ،
القاهرة ١٩٥٨ *

— وهبه الزحيلي :
— آثار الحرب في الفقه الاسلامي ، دراسة مقارنة ، دار
الفكر بدمشق *

— ياقوت الرومي (شهاب الدين) :
— ارشاد الأريب الى معرفة الأديب المعروف بمعجم الأدباء ،
مطبوعات دار المأمون *

— يوسف كرم :
— تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٢ *

المراجع الأجنبية

.. Arnold (Thomas,W.) The Caliphate, London 1967.

وقام بترجمته الى العربية جميل معلى ، دار اليقظة العربية للتأليف
والترجمة والنشر ، دمشق ١٩٤٦ *

— Barker, E. : Political Thought of plato & Aristotle, N. Y. 1906.

— Bosanquet,B : The Pilosophical Theory of the State, London
— 1896.

— Brown. I : English political The ory . London . 1929.

— Catline. G. : — A History of the political philonsophers, London
1960.

— Thomas Hobbes As Philosopher, Oxford 1922.

— Ohester, C. Maxey : Political Philosophies, New York, 1948.

— Coker, F.W. : Readings in political philosphy, N.Y. 1936.

— Doyle, ph. : A History of Political Thought, London , 1949.

— Foster, M.B. : Masters of Political Thought, Boston, 1941.

— Gongh, J.W. The Social Contract, A Critical Study of its
Development Oxford, 1936.

— Hobbeo . Thomas : Leviathan.

— Jenkin, Th. p. : The study of political The ory , N.Y.1955.

— J. Laird : Hobbes London 1902.

— Joad : Introduction to Modern political Theory, Oxford, 1947.

— Khadduri, M. : War and Peace in the Law of Islam.

— Mattern, J. : Concepts of State, Sovereignty and International
law.

- Muhammad Mahmoud Rabi : The Political Theory of Ibn khaldun Leiden, 1957.
- Murry. R.H. : The History of Political Science from pla to to the Present . N.Y. 1926.
- Russell, Bortland : A History of W estern Philosophy, London, 1948.
- Sabine , G.H. : A History of Political The ory, 1950.
- وقد قام بترجمته الى العربية حسن جلال العروسي تحت اسم « تطور الفكر السياسي » ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٣ •
- Smith, A.L. : Political Philosophy in England in the 17 th. and 18 th Centuries-in Cambridge Modern History. VolVI Ch. XXIII.
- Stephen. Leslie : Hobbes. English Men of Letters Series 1904.
- .. Wayper, C.L. : Political Thought . London, 1954.

* * *

فهرست..بمحتويات الرسالة

المقدمة

٥ - ٧

الفصل الاول

الصفحة

الماوردي

٩ - ٥٣

- ١ - حياة الماوردي وروح عصره ١١
- ٢ - مؤلفاته ٣٣
- ٣ - أهمية الماوردي في الفكر السياسي ٤٧

الفصل الثاني

الحاكم

ضرورة وجوده والاساس في اختياره ٥٥-١٧٧

- ١ - ضرورة وجود حاكم قوى ٥٧
- ٢ - نظرية ابن خلدون في الملك والخلافة والعصبية . . . ٦٢
- ٣ - تعاريف الامامة ٨٦
- ٤ - اختلاف الآراء وتعدددها حول نصب الخليفة . . . ٩٤
- ٥ - أهمية القاعدة الشعبية في اختيار الحاكم . . . ١٠٢
- ٦ - رأي الشيعة ١١٣
- ٧ - أهل الحل والعقد ١٢١
- ٨ - ولاية العهد أو الاستخلاف ١٢٥
- ٩ - الشروط الواجب توافرها في الائمة ١٣٤
- ١٠ - مقارنة بين مكيافلي والماوردي من حيث الشروط الواجب توافرها في الحكم ١٥٣
- ١١ - ما الحكم في حالة نوافر شروط الامامة في اثنين . . ١٦١
- ١٢ - امامة المفضول ١٦٢
- ١٣ - هل يجوز توليه أكثر من امام ١٦٦
- ١٤ - أهمية الخلافة في الاسلام ١٧٠

الصفحة

الفصل الثالث

بين الحاكم والمحكوم ١٧٩ — ٢٧٦

- ١ — الانسان عند الماوردى مدنى بطبعه ١٨١
- ٢ — العقد الاجتماعى عند الماوردى : ١٨٤
- الامة هى الاصل فى عقد الامة ١٨٦
- ٣ — البيعة عقد اجتماعى ١٨٩
- ٤ — واجبات الحاكم ١٩٢
- ٥ — الاشياء التى تستوجب عزل الامام عن الحكم ٢٠٢
- العقد الاجتماعى عند كل من هوبز ولوك وهيوم وروسو ٢٢٩
- ٦ — فكرة عن العقد الاجتماعى ٢٢٩
- ٧ — توماس هوبز ٢٣٧
- ٨ — جون لوك ٢٤٩
- ٩ — داغيد هيوم ٢٥٩
- ١٠ — جان جاك روسو ٢٦٦
- ١١ — نتجد هامة ٢٧٤

سبق الماوردى للوك وروسو فى تقريره ضرورة قيام السلطة
الحاكمة برضى المواطنين

الفصل الرابع

الوزارة

انواعها وشروط كل منها ٢٧٧ — ٣١٤

- ١ — منصب الوزارة فى الاسلام ٢٧٩
- انواع الوزاره : ٢٨٧
- وزارة التفويض ٢٩٣
- وزارة التنفيذ ٢٩٧
- أوجه الاختلاف بين وزارتى التفويض والتنفيذ ٣٠٢
- أوجه الالتقاء بين وزارتى التفويض والتنفيذ ٣٠٤
- وصايا ونصائح للوزير ٣٠٧

الصفحة

الفصل الخامس

الامارة

أقسامها ، وأنواعها ٣١٥ — ٤٣٢

- الامارة على البلاد (تمهيد) ٣١٧
١ — الامارة على البلاد : (عامة ، وخاصة) ٣٢٢
٢ — الامارة النعمية : نوعان : ٣٢٢
امارة الاستكفاء (شروطها — وواجبات أميرها) ٣٢٣
امارة الاستيلاء (شروطها وواجبات أميرها) ٣٢٥
الامارة الخاصة ٣٣٠

الفصل السادس

أنواع الامارة على البلاد ٣٣١ — ٣٣٥

- الامارة على الجهاد : ٣٣٣
— قسما الامارة على الجهاد ٣٣٣
— تعريف الجهاد للغة ٣٣٣
— واجبات أمير الجيش نحو جنده وجيشه ٣٣٥
— واجبات المحاربين تجاه الله عز وجل وتجاه قائدهم ٣٣٥
— آداب الحرب في الاسلام ٣٤١

الولاية على حروب المصالح : وأقسامها الثلاثة : ٣٤٧

- ١ — قتال أهل الردة ٣٤٧
٢ — قتال أهل البغى ٣٤٩
٣ — قتال قطاع الطريق ٣٥٣

الفصل السابع

ولاية القضاء ٣٥٦ — ٣٨٩

- التذريف بالقضاء ٣٥٩
— وظيفة القاضي ٣٦٣
— الشروط الواجب توافرها في القاضي ٣٦٥
— تعيين القضاة ٣٧١
— عزل القضاة ٣٧٣
— اجتهاد القاضي ٣٧٨

الصفحة

- قضاء المقد بغير مذهبه ٣٨١
— آداب القضاء ٣٨٦

٣٩١ ولاية المظالم :

- تعريف نظر المظالم ٣٩٣
— أصل النظر في المظالم تاريخيا ٣٩٤
— شروط الناظر في المظالم ٣٩٦
— اختصاصات قاضي المظالم ٣٩٨
— الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاة ٤٠٠

٤٠٣ ولاية الحسبة :

- تعريف الحسبة ٤٠٥
— شروط والى الحسبة ٤٠٧
— علاقة الحسبة بأحكام القضاء ٤٠٩
— علاوة الحسبة بأحكام المظالم ٤١٠
— أعمال المحتسب ٤١١

الفصل السادس

٤١٧ — ٥٠٦ اتجاهات وافكار اشتراكية

- ١ — تمهيد ٤١٩
٢ — المال والعمل ٤٢٧
— المال ٤٢٧
— العمل ٤٣٢
٣ — الزكاة ٤٣٥
٤ — الفئء والغنائم ٤٥٠
— الفئء ٤٥١
— الغنيمه ٤٥٣
٥ — الجزية والخراج ٤٥٥
— الجزية ٤٥٦
— الخراج ٤٥٨

الصفحة

٦	— احياء الموات والاقطاع	٤٦٠
٦١	— احياء الارض الموات	٤٦١
٦٦	— الاقطاع	٤٦٦
٧	— الحمى	٤٧٤
٨	— الملكية العامة لادوات الانتاج (المنافع العامة)	٤١٧
٩	— النهى عن اساءة استعمال المال	١٨٤

٤٩١ الخاتمة ونتائج الدراسة

٤٩٣	— خاتمة الدراسة
٤٩٨	— نتائج البحث (الدراسة)

٥٢٠ — ٥٠١ المصادر والمراجع

٥٢١ الفهرست

رقم الايداع بدار الكتب ٨٣/٢٧٣٢

دار التوثيق النموذجية
للطباعة والتجميع الآلي
الأزهر - ٣ حيضان الموصلى - بجوار جامع الدعاء
١٠٠ - ١٠٠